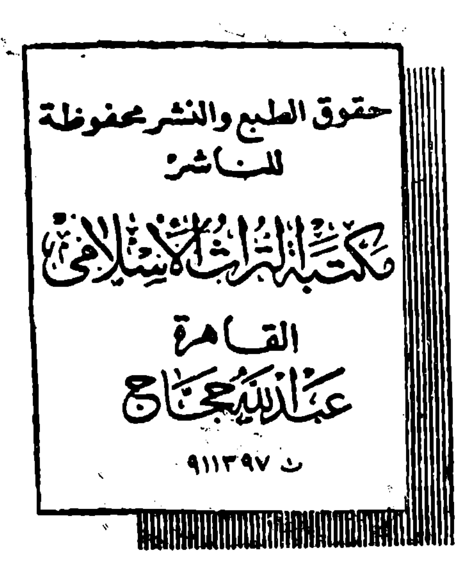


تأليف

أنور الجندي





مكتبة التراث الإسلامي
القاهرة
عبد الله حجاج
ت ٩١١٣٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤامرة على تاريخ الاسلام

كان تاريخ الاسلام هدفا من اخطر أهداف الاستشراق والتغريب والتبشير والغزو الثقافى فى العصر الحديث منذ بدأت الحملة الاستعمارية على عالم الاسلام والعرب من خلال الاحتلال البريطانى والفرنسى والايطالى والهولندى ، ذلك لأن الاستعمار كان يستهدف استدامة سيطرته على الأمة الاسلامية من خلال تخريب تاريخها وتدمير مقومات فكرها أساسا ولذلك فقد بدأت المؤامرة على تاريخ الاسلام منذ وقت باكر وامتدت لتسلك سبلا مختلفة وابعاداً واسعة ٠

ويمكن القول ان المؤامرة على تاريخ الاسلام تعمل فى حقول عديدة أهمها :

(اولا) : التركيز على المناهج الدراسية وافسادها ٠

(ثانيا) : اثارة الشبهات حول الخطط والمواقف والدول والحكام ٠

(ثالثا) : تحريف النصوص واعلاء الروايات الضعيفة ٠

(رابعا) : تجديد الاسرائيليات القديمة واعداد اسرائيليات جديدة ٠

(خامسا) : افساد مفهوم فريضة الجهاد وتاويله ٠

(سادسا) : الدعوة الى تحرير التاريخ من ارتباطه بالأمة ومقوماتها ٠

(سابعا) : اثارة التعارض والتضارب بين القيم المتلاقية كالعروبة والاسلام وبين الفرعونية والاشورية والفينيقية وبين العروبة ٠

(ثامنا) : انبعاث الاساطير واعادة صياغتها فى داخل التاريخ الاسلامى وسيرة الرسول ٠

(تاسعا) : محاولة تمزيق التاريخ الاسلامى الى تواريخ مستقلة لأقطار مختلفة ٠

(عاشرا) : اذكاء روح القومية بمفاهيمها الضيقة والعنصرية للقضاء على الروح الاسلامية ٠

(حادى عشر) : محاولة تصوير المؤامرات التى قامت بها الفرق الضالة كالقرامطة والزنج والباطنية على انها دعوات عدل أو حرية ٠

(ثانى عشر) : محاولة اعتبار التاريخ الحديث فى الأقطار العربية المختلفة تاريخا مصريا أو سوريا أو عراقيا او مغربيا منفصلا عن أصوله العربية والاسلامية ٠

(ثالث عشر) : افساد الرابطة العميقة بين « الحنيفية » دين ابراهيم وبين الاسلام سواء من الناحية التاريخية أو العقدية أو الارتباط بين الموجات العربية التى خرجت من الجزيرة العربية الى الشام والعراق ومصر والمغرب ٠

(رابع عشر) : محاولة احياء علاقة مقطوعة بين ما قبل الاسلام وما بعده عن طريق احياء الفكر الوثنى القديم سواء فى الفرعونية أو الفينيقية أو الفارسية ٠

(خامس عشر) : محاولة تفسير التاريخ الاسلامى والمعاصر وفق مفاهيم غربية وافدة كالتفسير الغربى المسيحى والتفسير الماركسى ٠

(سادس عشر) : محاولة تصوير القرن الهجرى الثانى على أنه عصر شك ومجون عن طريق اعتبار بعض الشعراء المجان ـ وهم قلة معزولة ـ ممثلين لامتهم ٠

(سابع عشر) : اعلاء شأن الشخصيات المنحرفة فى الفكر والسلوك من شعراء مجان أو مثيرى فتنة أو اضطرابات واضفاء البطولة عليهم أمثال أبو نواس وبشار والحلاج والسهروردى ٠

(ثامن عشر) : انكار وجود شخصية عبد الله بن سبأ هدما لأثره الواضح فى تمزيق وحدة المسلمين ٠

(تاسع عشر) : محاولة تفسير البطولة الاسلامية وفق المذاهب الغربية

اعتمــادا على موروثات البيئة والعــرق ، بينما يقاس أبطـال الاســلام على مفاهيم الاســلام نفسها التى شكلتهم من جـديد ٠

(عشرون) : اتهام الدولة العثمانية بأنهــا دولــة مستعمرة استعمرت بلاد العرب واتهام السلطان عبد الحميد بالاستبداد بينما وقف السـلطان عبد الحميد موقفــا مشرقا فى مواجهــة مؤامرات الصهيونية ومحــاولاتها الاستيلاء على فلسـطين ٠

(واحد وعشرون) : محــاولة القــول بأن نهضة العــرب لم تبــدأ الا بوصول الحملة الفرنسية الى مصر ، بينما بدأت النهضة العربية الاسلامية قبل ذلك بأكثر من خمسين عاما بدعــوة الامام محمد عبد الوهاب فى الجزيرة العربية وعلماء الأزهر الذين دعوا الى التوحيد ٠

(٢)

يتشكل عنصر المؤامرة من عدة عوامل أساسية :

(أولا) : تحامل الغرب وخصومته على الاسلام ، من حيث الخلاف بين المسيحية والاسلام ومن حيث سيطرة الغرب السياسية والعسكرية عن طريق الاستعمار على أرض الاســلام ومحــاولة استدامة هــذه الســيطرة بتشويه تاريخ الاســلام ٠

(ثانيا) : محاولة القــول بان تاريخ الاســلام لــم يستطع أن يحقق مفهوم الاسلام ومنهجه وهذا يعنى عجز الاســلام عن اقامــة مجتمعــه الأصــيل ٠

(ثالثا) : خـلق « عمليــة تمزيق » وحــدة الفكر الاسلامى والأمــة الاسلامية والتاريخ الاسلامى الى قوميــات واقليميات تختلف فيما بينهــا وتتضــارب ٠

(رابعا) : القضــاء على ذاتية الاسلام والأمــة المتميزة التى انشــاها والعمل على صهرها فى بوتقة العالمية واتون الاممية حتى لا يكون للأمــة الاسلامية ذلك الوجـود الواضح المستقل القائم بنفسه ٠

(خامسا) : الحيلولة دون انتفاع المسلمين والعرب بتاريخهم : ايجابياته وسلبياته من حيث هو عامل القوة وايجاد الثقة فى ايجابياته والتعرف على الاخطاء لتفاديها بالنسبة لسلبياته .

(سادسا) : محاولة تصوير المسلمين بصورة الأمة العاجزة عن ان تحمل لواء الحضارة وقيادة البشرية ، وايجاد الخلاف بينها وبين الأمم الغربية وافساد العلاقات باثارة شبهات ترمى الى تصوير المسلمين بصورة التعصب او دعاة العنف أو الحرب .

(٣)

كان التاريخ الاسلامى من خلال مناهج الارساليات الغربية والمعاهد الوطنية فى حالة حصار على نحو يستهدف افساد تصور الناشئين لأمتهم وتاريخها وعقيدتها من خلال محاولة تصويرها على هذا النحو المضطرب الغريب .

اما فى معاهد الارساليات فان الطريقة التى تجرى عليها هذه الجامعات هى تعليم طلبتها ان يفهموا التاريخ كانه علم من العلوم الطبيعية المبنية على الاستقراء ، بل لابد من تطبيقه على نواميس الاجتماع « م ٦١ (ديسمبر - يناير) المقتطف » والهدف من هذا هو فتح الطريق أمام اثارة عشرات الشبهات فى تاريخ العرب والاسلام التى من شانها ان تحمل عقل الشباب على الانتقاص والاحتقار لبنى أمته ، ذلك لأن التاريخ فى تقدير العلم المنهجى الصحيح ليس من العلوم الرياضية والطبيعية التى تحاكم الى منهج التجريب الذى يطبق على الماديات . ولا ريب أن الغربيين لا يطبقون هذا المنهج فى دراسة تاريخهم ولكنهم يدفعون به الى شباب المسلمين والعرب الذين يدرسون عندهم لأنهم يعملون لتشكيلهم على كراهية أمتهم واحتقار تاريخهم باثارة الشبهات حوله .

اما فى المدارس الوطنية فان تاريخ الاسلام يدرس وفق أسلوب مفتعل من التشويه والتمزق من شانه ان يسوده فى أعينهم ويصرف انفسهم عنه وذلك منهج صنعته ايد استعمارية وتغريبية منذ وقت بعيد

فى أبان الاحتلال ومع ذلك فقد استمر حتى الآن دون أن تكشف زيفه وتصادره القوى المتحررة .

ومن أبرز عوامل الفساد فى هذه المناهج :

(أولا) : تقديم التاريخ الاسلامى على صورة صراع بين القادة أو تضارب بين القوى المختلفة بابراز الخلاف والصراع والتشاحن دون غيرها .

وهذا الأسلوب يصطنع فى تاريخ الاسلام وحده ولا يستعمل فى تاريخ الفراعنة مثلا الذى يدرس على انه صورة عالية من الأمجاد ومن ذلك محاولة التوسع فى مسالة الخلاف بين معاوية وعلى وتصوير الأمويين على أنهم فئة تسلطت بمفاهيم الجاهلية وأعلنت الفرقة ، وأن العباسيين فرس تغلب عليهم روح البذخ والتبذير ، وان هناك تنافسا واضحا على السلطة بين الزعماء سواء فى العصر الأموى أو العباسى أو فى تاريخ الأندلس .

وهذه المنطلقات الخاطئة كلها لعرض تاريخنا فى المدارس الابتدائية والثانوية والجامعات موضوعة وفق منهج مسموم مأخوذ أساسا من جرجى زيدان وفيليب حتى وبروكلمان ودائرة المعارف الاسلامية وهو يستهدف فى جملته حجب بطولات التاريخ الاسلامى وصفحاته المضيئة عن شباب المسلمين والعرب ويرجع هذا الى أن هذه المناهج والكتب المقررة قد وضعت فى ظل الاحتلال وبقيت حتى الآن تحمل روح الكراهية والخصومة للاسلام وصفحاته المشرقة ، فهى تحجب هذه المعطيات وتبرز وجوه الصراع والخلاف والفرقة ، والاقتتال بين المسلمين ، وقد حاولت هذه المناهج الاهتمام بوقائع صغيرة عادية تحدث فى تواريخ كل الأمم ، وابرازها على أنها خلافات جسيمة وهى ليست كذلك فى الحقيقة لأن بعضها مكذوب وبعضها قليل الأثر بجوار الايجابيات الضخمة الأخرى المنكورة والمحجوبة . وهى تستهدف تفتيت وقائع التاريخ وتمزيقها حتى تحول دون إعطاء المنظور الكامل والفكرة الجامعة التى تكشف الحقيقة ،

وهي خادعة لأنها حاولت أن تظهر أشياء غير صحيحة ، مثال ذلك محاولتها اطلاق اسم الكشوف الجغرافية على رحلات المبشرين المسيحيين الذين سبقوا حملات الاستعمار الغربى فى افريقيا وآسيا بينما تؤكد الحقيقة التاريخية أن ما وصل اليه الأوربيون كان قد سبقهم اليه الرحالة العرب بمئات السنين ودونوه فى كتبهم .

كذلك فان من أخطر محاولات تشويه التاريخ الاسلامى : تجزئته ومحاولة تصويره على أنه تاريخ اقليمى مصرى أو سورى وهو هدف أصيل من أهداف الاستعمار .

وحين نعرض لنموذج من هذه النماذج وهو كتاب (التاريخ السياسى للدولة العربية) للدكتور عبد المنعم ماجد نجده محشواً بافتراءات متعددة على الاسلام وهو كتاب ظل يدرس فى كلية الآداب طيلة خمسة أعوام كاملة (ولعله مازال يدرس) ومن ابرز أخطائه ما يأتى :

(أولا) : قوله (وفجاة وفى سن الأربعين تملك محمد موهبة النبوة) .

(ثانيا) : يقرر أن الوحى كان يتم فى المنام فيقول أنه كان ينزل عليه وهو نائم .

(ثالثا) : أن النبى كان ينسخ بعض الآيات التى أملاها ويأتى بأخرى غيرها .

(رابعا) : النبى وان كان من سلالة العرب الا أنه اعتبر نفسه مرسلا الى كافة الناس .

(خامسا) : قوله ان رسالة المسيحية رسالة عامة وليست كاليهودية مخالفا نص القرآن (ورسولا الى بنى اسرائيل) وقوله فى نص انجيل متى (لم ارسل الا الى خراف بني اسرائيل الضالة) .

(سادسا) : كتب قصة البعث والحساب بعبارات توحى بالسخرية والشك .

(سابعا) الزكاة فى الاسلام ليست نوعا من التضامن الاجتماعى كما

فى فقهنا وانما يفسرها بانها حث على التفقة والرحمة واستغلال فى الجهاد ونشر الدين ٠

(ثامنا) : ينفى المؤلف ان الاسلام عالج نظم الحياة بنصوص صريحة (والواقع أن الاسلام لم يدع انه بنى مجتمعا غاية فى التنظيم) ٠

(تاسعا) : يذكر أن الاسلام حارب الربا لأن معظم القائمين به كانوا من اليهود وكان التشريع الاسلامى يقوم على الأغراض الشخصية ٠

وينكر المؤلف آثار التسامح الاسلامى فى تحرير الشعوب من عملها مخالفا آراء جميع المؤرخين العرب ويكتفى برأى يوحنا اليفئوس الذى انفرد بذكر مقاومة الأقباط فى مصر للفتح الاسلامى مدة اثنى عشر عاما دون مناقشة أو دليل ليخلص من هذا الى ان الفتوح الاسلامية كانت قائمة على السلب والنهب واتباع شهوة سفك الدماء ٠

(من تقرير الأستاذ على عبد العظيم الى مجمع البحوث فى الأزهر ١٩٧٢/١٢/٢٠) ٠

ونحن حين نراجع بروكلمان أو جرجى زيدان أو دائرة المعارف الاسلامية أو فيليب حتى وكل كتب هؤلاء تستعمل كمصادر لكتابات مؤلفى كتب التاريخ نجد عشرات من مثل هذه السموم تركز كلها على المثالب التى تستهدف سوء القصد وسوء الفهم وتحاول أن تصور الاسلام بانه دين عبادة وأنه دين صلاة وصوم وحج وهى تقدم حياة الرسول لأبنائنا منقطعة الصلة من حياتهم ودينهم ٠

وتمثل دائرة المعارف الاسلامية مجموعة افتراءات كاذبة واتهامات جاحدة على الاسلام : دينه وقرآنه وتقوم على تصوير الاسلام وكانه من صنع النبى محمد ٠ وكذلك نجد بروكلمان فى كتابه (تاريخ الشعوب الاسلامية) يدس السم فى الدسم ويتعرض بالطعن والقدح لخلفاء المسلمين وحكامهم وقد حاول جرجى زيدان تصوير الخلفاء بصورة الحكام المتنازعين على السلطة والخلافة ، وأن الامويين فئة تسلطت على الرقاب فاقصت الموالى

والأعاجم واعتمدت مبدأ الاستعلاء القومى والعرقى وأن بنى العباس فرس غارقون فى الأبهـة والبذخ .

أما جوانب القوة والبطولة والمجد فانها محجوبة تماما ليبدو تاريخ الاسلام وكأنه مجموعة من الدسائس والمؤامرات فضلا عن أنـه تاريخ دول ، وعلى الجملة فان محاولة كتابة تاريخ الاسـلام التى تمت فى العصر الاسـلامى :

١ ـ مليئـة بالدسائس والمؤامرات .

٢ ـ محشوة بالفساد والترف .

٣ ـ متسمة بالانشقاق والتمزق .

فضلا عن تحريكه فى اطـار صـورة ضخمة من الخـلاف المستعر بين الحكام والفرق والأسر ، (عبد الله سالم) .

وقد أشار الأستاذ يوسف العش الى هـذه الظاهرة فى كتابة تاريـخ الاسـلام فقال : لقد حاول الكثيرون أن يصموا تاريخنا بكثرة الفتن والحروب والمكايد والاضطرابات وليس هنا مجال للرد عليهم ، غير أن النظرة الصحيحة الى التاريخ من خـلال عوامله العديدة تعطى البيان الواضح عن أن هذه الوصمات لا أصل لها صحيح . وأن كل ما فى الأمـر أن هناك تفاعلات فى المجتمع الاسلامى العربى كانت تأخذ طريقها ولابد أن تأخذ طريقها فى ذلك المجتمع وأن هذه التفاعلات سنة من سنن الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وهى تفاعلات تحدث فى كل أمة بل أن الأمم الأخـرى كانت تتلقاها بعنف أكثر مما تلقاها به المسلمون والعرب . وتاريخ الأمم ممزوج بالحروب والفتن والاضطرابات أكثر من التاريخ العربى فهذا تاريخ فرنسـا والمانيا منـذ الثورة الفرنسية وأن تاريخهما ملىء بالحروب ، حروب الثورة الفرنسية ، حروب نابليون ، حروب ١٨٧٠ ، حرب ١٩١٤ ، حرب ١٩٣٩ ، كل ذلك فى مدى لا يتجاوز قرنا ونصف قرن والضحايا التى وقعت فى هذه الحـروب تتجـاوز أضعافا مضاعفة ضحايا الحروب فى تاريخنا بأجمعه .

ولا ريب أن مرجع هذا التشويه والفساد فى طريقة عرض تاريخ الاسلام هو تسليم الأمة تاريخها الى أعدائها وعدم قدرتها بعد أن تسلمت ارادتها على أن تصحح هذا الوضع وأن تكشف هذا الزيف وهى تعلم ان التاريخ الصحيح مصدر اساسى فى بناء الشباب واعدادهم ولا ريب أن تاريخ الاسلام ملىء بالبطولات حافل بالأمجاد ، وانه قوة فعالة تستطيع أن تمد المثقفين بارادة دافعة تحول بينهم وبين مركبات النقص فى النظرة للأمم الغربية لأن أمتهم قدمت الى البشرية خير ما قدمت أمة ، ولأن امتهم وان كانت تمر اليوم بمرحلة من مراحل التخلف فانها فى طريقها الى القوة والتمكين وان دورة الحضارة قد مكنتها من العمل والتاثير فى البشرية كلها خلال الف عام كاملة فان كانت قد مرت بها بعد ذلك مرحلة تخلف فتلك طبيعة الأمم ودورات المجتمعات ، وانها منذ وقت قد دخلت مرحلة اليقظة وقطعت أشواطا واسعة فى طريقها الى النهضة ومن حقها أن تعرف تاريخها معرفة صحيحة . وأن تعرف دورها الحقيقى فى عالم البشرية وعلاقاتها الطبيعية بين مختلف الاجناس والفرق والدعوات .

(٤)

حاول الاستشراق فى العصر الحديث أن يقدم تصوراً مضطربا للتاريخ الاسلامى على النحو الذى يستهدف تزييفه أو انتقاصه فى نظر أصحابه ، فلما استجاشت حركة اليقظة الاسلامية ظهرت عشرات المؤلفات عن الاسلام والرسول تصحح هذه الآراء وتفسد الخطة التى قام بها الاستشراق الذى احس بأن هدفه قد أصيب بالاتهام والشك ، فكان لابد من خطة جديدة لاعادة كتابة المسلمين لتاريخهم على النحو الذى يؤدى الى كشف زيف الاستشراق ودحض شبهات التغريب واعادة مكانه الخليق بأمة تسعى الى استعادة مكانتها فى العالمين وترد عنها خطرا يتهددها من خلال الاستعمار نفسه واثره فى الفكر وهو محاولته تصويرها بأنها أمة قد خضعت للاستعمار واصابها التأخر نتيجة دينها وعقيدتها ومحاولة اتخاذ تاريخها ـ بالتزييف والافساد ـ وسيلة لتبرير هذا التخلف والتأخر .

هنالك جاءت موجة الاتهام لكتاب التاريخ الاسلامى الحديث وتصويره بأنه يعمد الى استثارة حماسة القراء وبعث الغرور ٠

يقول الدكتور نبيه أمين فارس ـ أحد رجال الارساليات الغربية والجامعات الوافدة التى تدرس التاريخ للمسلمين على أنه من العلوم التجريبية ! « ان المؤلفات الحديثة فى التاريخ العربى بصورة عامة تبحث فى هذا التاريخ بحثا أقرب الى السطحية منه الى العملية ، وان هذه المؤلفات تستثير حماسة القراء وتبعث فى نفوسهم الغرور ٠ ويدعو نبيه أمين فارس (ومن ورائه حركة التغريب) الى معاملة الاسلام معاملة الظواهر الطبيعية والاجتماعية وأن يوضع الجانب الالهى موضع البحث الواقعى أى أن يبحث كما تبحث اية حقيقة اجتماعية أو فكرية أو وجدانية ومعنى هذا الذى يدعو اليه أصحاب المؤامرة على تاريخ الاسلام : أن يحاكم تاريخ الاسلام والاسلام نفسه الى المذهب المادى الذى لا يعترف بالألوهية أو الوحى أو النبوة والذى ينظر الى رسالات السماء على انها ظواهر اجتماعية قام بها أفراد مصلحون مستنيرون فى مجتمعاتهم ، حاولوا ايجاد منهج اصلاح وتغيير ولذلك فانهم يتصورون الانبياء والرسل أبطالا ودعاة للحرية والاصلاح الاجتماعى فحسب ، كانوا يعملون على النهوض بأممهم ، ولا ريب أن هناك فوارق بعيدة وعميقة بين رسالات السماء وحركات الاصلاح ٠

ويرمى نبيه أمين فارس وغيره الدراسات التاريخية فى الوطن العربى فى البحث والمعالجة بالقصور وأن عدم خضوعها للتفسير المادى سر عجزها عن أن تحقق الهدف الذى ترمى اليه ، فهو يريد اخضاعها للمناهج الغربية الوافدة التى صنعت فى غيبة هذا التاريخ ، والتى صيغت لأمم ولتاريخ وبيئة مختلفة ، دون أن يقدر بأن كل تاريخ له منهجه فى الصياغة والنقد مباينا لغيره من الأمم والعقائد وأن المنهج الغربى فى دراسة التاريخ لا يصلح للتطبيق على التاريخ الاسلامى لأنه يقوم على أصول مادية صرفة ، وعلى انكار الألوهية والنبوة والبعث والجزاء ، والمسلمون يؤمنون بالألوهية

والنبوة والبعث والجزاء ويجعلونها أساسا فى النظرة التاريخية الى الحياة وفى حركة التاريخ ، كذلك فان المنهج الغربى فى التاريخ يفسر حركة المجتمعات تفسيرا ماديا صرفا ، سواء أكان التفسير اقتصاديا أم مناخيا ، أم جنسيا ، وأنه يهمل ويحجب عوامل أخرى لحركة التاريخ يعترف بها التاريخ الاسلامى منها البطولة الفردية وعوامل العقائد والأديان وأثر الايمان بها ، فاذا أخضعنا تاريخ الإسلام للمنهج الغربى الذى يوصف بأنه منهج علمى وعصرى وحديث فاننا نكون قد انتقصنا الآثار الحقيقية لحركة التاريخ الاسلامى .

ولا ريب أن خطة كتابة التاريخ الاسلامى لا تعنى بالأسر الحاكمة والشخصيات المشهورة من خلفاء وقواد الا بالقدر الطبيعى مع الاهتمام بأصول التاريخ الحضارى والآثار الاجتماعية والاقتصادية .

ويركز نبيه أمين فارس على العصر الجاهلى وعلى علاقة الحضارة الاسلامية بالحضارات السابقة والمعاصرة وهدفه من هذا واضح وجلى ، ذلك أنه يريد أن يصور الاسلام بأنه امتداد للجاهلية أو ثمرة لها وهذا افتراض زائف وشبهه استشراقية مردودة ومدحوضة . كذلك فان محاولة الغرب تصوير الحضارة الاسلامية بأنها ذات صلة بالحضارات السابقة والمعاصرة : حضارة الغرب اليونانية الرومانية الغربية الحديثة وليس هذا القول صحيحا على اطلاقه ، وانما تتميز الحضارة الاسلامية بأنها جاءت بمنهج ربانى خالص يحمل تحرير الانسان من عبودية الانسان مجتمعا ومن تحرير عقله وروحه من الوثنية وعبادة غير الله . وأنها هى التى حطمت فى البشرية الوثنية والعبودية السائدة فى فارس والروم والفراعنة ولى غير هذا فان الحضارات التالية تأخذ من الحضارات السابقة فى مجال التمدن والانشاء والعلوم التجريبية وهذا يسرى على الحضارة الاسلامية فى جانبها المادى ، أما جانبها المعنوى والفكرى وهو ما يطلق عليه « أسلوب العيش » فالاسلام له منهجه الخاص ونظامه الاجتماعى ومفاهيمه الخالصة .

أما محاولة القول بوضع التاريخ الاسلامى فى مكانه من التاريخ البشرى العام ، فهى فى نظر التبشير والتغريب أن التاريخ البشرى هو تاريخ الغرب وحضارتهم القائمة الآن ، والتى توحى كل الدلائل بانها مسيطرة وان حضارة الاسلام وتاريخه تقف فى الظل لان قومها مستعبدون وواقعون تحت سيطرة الغرب والاستعمار ، ومن هنا تأتى دعوى وحدة التاريخ البشرى المسمومة التى تريد أن تضع التاريخ الاسلامى فى مكان محدود بالنسبة لذلك التاريخ القديم المتعدد الصور ، أو التاريخ الحديث الذى تتمثل فيه عظمة الأمم الغربية ، وهنا يبدو أن موقع التاريخ الاسلامى متضائل ، ولكن أسلوب القياس الصحيح والنظر المنصف فى التاريخ لا يقران تدارس الأمور على هذا النحو ، وانما يدرس تاريخ الاسلام بآثاره العجيبة التى أحدثها فى البشرية ، وبذلك التوسع الضخم الذى حققه فى أقل من قرن من الزمان فنقل العدل والسلام والرحمة الى عالم البشر من الصين الى حدود فرنسا وكشف عن الناس الظلم والعبودية والفساد ثم قدم للبشرية بعد ذلك المنهج التجريبى فى العلم الذى صنع الحضارة المادية الحديثة .

(٥)

وكذلك نجد أن هناك محاولة خطيرة من وراء كتابات التغريب والاستشراق ترمى الى قطع علاقة التاريخ بالأمة ومقوماتها والتحدث عن تاريخ بشرى أو عالمى ، ولا ريب أن محاولة تحرير التاريخ من ارتباطه بالأمة ومقوماتها من شانه ـ كما يقول الاستاذ شبلى العيسمى ـ أن يكون دعوة شعوبية ، ذلك اننا انما نتطلع الى شرف أمتنا فلابد ان يكون التاريخ سلاحا من أسلحتنا فى هذه المعركة ، ولذلك فان محاولة التغريب فى تقديم صورة قوامها الاستهانة والسخرية بأمجاد الأمة الاسلامية وتاريخها من شانها أن تدفع شباب هذه الأمة الى احتقار هذا التاريخ ومن ثم فهو لا يستطيع أن يحمل أمانة بناء الأمة .

وليس معنى هذا أن تقدم الجوانب الايجابية وحدها وتحجب

الجوانب السلبية ، ولكن المطلوب أن تقدم الجوانب السلبية بروح الانصاف وبعيدا عن أساليب السخرية أو الاحتقار أو الانتقاص ، ولا ريب أن وضع الأمور فى مواضعها الصحيحة من شأنه أن يوجه المثقفين الى معرفة الأخطار التى أحاطت بأمتهم من قبل حتى يتحرروا منها ، ولكن تقديم هذه الجوانب يجب أن يكون محكوما باعطاء الصورة الكاملة لهذه الأمة فى مجال تقدمها وبطولاتها وعطائها للبشرية واقرار الدور الكريم الذى قامت به فى المجال الانسانى لا أن تتخذ هذه السلبيات سبيلا الى الغض من قدرها ومكانتها .

وأن من أخطر ما تدعو اليه مناهج التغريب فى كتابة التاريخ الاسلامى هو : ايجاد التضارب بين حلقات التاريخ : الوطنية والقومية والاسلامية العامة وهى حلقات متداخلة ليست منفصلة عن بعضها البعض وليس بينها خلاف أو صراع ، ولكن بينها لقاء وتجاوب وتكامل لأنها تستمد أصولها من القرآن والاسلام ، والعرب هم جزء من تاريخ الاسلام فهم الذين حملوا لواء حركة الانتشار والتوسع وقد اصهروا فى الأمم والأجناس وتشكل من هذا اللقاء ما يسمى الآن (الأمة الاسلامية) وان القيم الاسلامية هى التى شكلت العقلية الاسلامية وهى التى صنعت الفكر الاسلامى والحضارة الاسلامية .

ولذلك فان وصف التاريخ بانه عربى أو الحضارة بذلك هو تجاوز أراد به الاستشراق والتغريب الفصل بين العروبة والاسلام ومن شأن هذا اللقاء بين الدوائر الثلاثة (الوطنية ـ العروبة ـ الاسلام) أن يحول دون وجود ذلك الصراع الذى عرفته أوربا بين أوطانها وقومياتها ، ولا ريب أن للقومية فى الفكر الاسلامى مفهوماً مختلفاً عن مفهوم الغرب وأن العروبة شىء آخر يختلف عن القوميات الغربية .

(٦)

هناك محاولة خطيرة أخرى فى طريق المؤامرة على الاسلام : هى اعلاء التنظير القومى للتاريخ الحديث فى اطار الأمة العربية على نحو

يفصل هذا التاريخ عن تاريخ الاسلام العام وعن الأمة ، يقود هذه المحاولة دعاة القوميات والاقليميات ، أمثال قسطنطين زريق وساطع الحصرى وميشيل عفلق .

يقول قسطنطين زريق : ان هذا التيار هو التيار الصاعد المتضخم يوما بعد يوم سواء أكان عربيا شاملا أم اقليميا محصورا ، ولكن الذى لم يذكره الكاتب أن هذا التيار دخيل وأنه ولقد قد تركز فى المجتمع الاسلامى نتيجة الآثار التى رتبها الاستعمار والتغريب والغزو الثقافى لتفتيت وحدة الأمة الاسلامية السياسية والاجتماعية وأنه لذلك تيار مصنوع وليس فيه من الأصالة ما يمكنه من الحياة والنمو ، ولقد امتد بحكم الضغوط والوسائل وجريا مع التيار الغربى المثيل له والمنقول منه ولكنه لم يستطع أن يحقق نجاحا ما ، ذلك لأنه لا يتفق مع طوابع الفكر الاسلامى والمجتمع الاسلامى وأن تجربته قد فشلت تماما فى ان تعلى شأن الدم والعرق والعنصر على وحدة الفكر والثقافة والعقيدة التى شكلت المجتمع الاسلامى .

لا ريب كانت فكرة القومية وفكرة الوطنية من الوسائل التى اتخذتها الأقطار الاسلامية والعربية فى مواجهة الاستعمار والاحتلال ولكنها لم تكن فى تقديرها مناهج أساسية أو ثابتة أو وجهة دائمة لأن هذه الدعوات هى فى حقيقتها حلقات فى عقد متكامل : الوطنية مرتبطة بالقوم والعنصر ، ولكنها كلها لا تنى تصب فى الدائرة الواسعة الأصيلة الجامعة : الوحدة الاسلامية فى الفكر والثقافة والعقيدة التى لا ترفض دعوات الوطنية والقومية فى نطاقها المحدود ، وعلى النحو الذى يحقق « التعارف » الذى دعا اليه الاسلام . وبحيث لا تخلق الصراع ولا الخصومة ولا العزلة ولا الانفصال بين الوحدات الوطنية والقومية : عربية أو اسلامية تحت لواء « لا اله الا الله » .

هذا هو مفهوم الفكر الاسلامى للدعوات القومية ، والتاريخ القومى الذى ليس الا قطاعا من التاريخ الاسلامى ، والذى لا يمكن أن ينفصل

أو يستقل أو يتجزأ بحيث يكون تاريخا قويا منفصلا عن التاريخ الاسلامى العام الجامع ، والمعروف أن العروبة جزء من الاسلام لا تنفصل عنه لأن الاسلام هو الذى أعطاها مفهومها وطابعها فهى لا تستطيع أن تستعلى بالانفصال أو الاستقلال ، ولا تستطيع أن تكون تاريخا منفصلا بالنسبة للعصر الحديث أو تحاول ان تفسر التاريخ العربى القديم على أساس القومية ، والمعروف أن النزعة القومية نزعة مستحدثة جاءت من خلال التحدى الذى قام به الاتحاديون فى تركيا حين أعلنوا دعوة الطورانية فى بلادهم وحاولوا تتريك العرب فحملوا العرب على اتخاذ مفهوم العروبة لحماية وجودهم وكيانهم ولغتهم ، ولكن العرب لم يعرفوا مفهوما للعروبة مماثلا للقومية الغربية القائمة على الصراع والخصومة بين القوميات المختلفة كذلك فالعرب لم يعرفوا تاريخا خاصا مستقلا بهم ولا وجودا منفصلا عن التاريخ الاسلامى أو الوجود الاسلامى فى تاريخهم كله الا بعد أن اشتعلت دعوة الطورانية فى الدولة العثمانية على أيدى الاتحاديين بهدف تمزيق الوحدة الاسلامية الجامعة بين العرب والترك والتى استهدفت اسقاط الدولة العثمانية والغاء الخلافة وتوزيع الأجزاء العربية بين الدول الاستعمارية وفتح الطريق للصهيونية الى فلسطين ٠

(٧)

وهناك التيار الاقليمى والوطنى وهو كتابة تاريخ قطر من الاقطار منفصلا عن التاريخ الاسلامى العام ، وقد حرص الاستعمار على خلق هذا اللون من كتابة التاريخ الذى يستهدف اعلاء شان الأقطار التى فصلها الاستعمار عن بعضها البعض بعد أن كانت وحدة تامة ٠ وقد جرى هذا الاتجاه فى البلاد العربية بعد انتزاع الاستعمار لأجزاء من الدولة العثمانية كمصر والسودان وتونس والجزائر ثم بانهاء الدولة العثمانية نفسها عام ١٩١٨ واحتلاله سوريا ولبنان وشرق الأردن والعراق فقد علا فى هذه الفترة التاريخ الاقليمى منفصلا عن دائرة الوطن العربى وعن دائرة العالم الاسلامى ثم تغير هذا الاتجاه بعد ظهور الدعوة الى العروبة ، وظلت كثير من البلاد العربية تعلى من شان تاريخها الاقليمى فى كلتا مرحلتيه

السابقة للاسلام والتى جاءت فى عصور الاحتلال كالفرعونية والمصرية فى مصر والفينيقية واللبنانية فى لبنان والسريانية والسورية فى الشام والبربرية والمغربية فى المغرب .

وقد جاءت هذه الدعوات من منطلق طبيعى هو مقاومة الاستعمار غير ان القوى التغريبية حاولت أن تجعل من هذه الدعوات محاولات لعزل الأقطار عن أصولها العربية والاسلامية وربطها بتاريخ سابق للاسلام وقد جرت محاولات للبحث عن أصول عامة يمكن أن تحقق بهذا المخطط غير أن المحاولات كلها عجزت عن أن تجد ما يمكنها من دعم الارتباط بين العصر وبين ما قبل الاسلام ولذلك فقد سقطت هذه الدعوات ، غير أن بعض خصوم الاسلام مازالوا يجددون هذه المحاولات دون جدوى .

وهكذا نجد أن مناهج الارساليات وكتابات الاستشراق قد حرصت على أن تخرج المسلمين والعرب من أصول تاريخهم ومن مفاهيمه وأن تزدرى تراثهم ومن ثم تشكلت مدرسة التغريب من هؤلاء الذين حملوا ولاء الاستشراق ومناهجه الى المدارس والكليات والصحافة والمطبوعات الثقافية باللغة العربية لتحمل الشبهات والشكوك والتى تطعن فى العقيدة الاسلامية والتاريخ الاسلامى ومقدمة هؤلاء : جرجى زيدان وفيليب حتى وطه حسين ونبيه أمين فارس وقسطنطين زريق وقادة هؤلاء هم : جولد سيهر ومرجليوث ولامنس .

ولقد كان للاستشراق وجهات مختلفة فى تسميم ابار التاريخ الاسلامى وفق الغايات التى تتصل بأهداف الاستعمار أو الشيوعية أو الصهيونية .

ولكل وجهة غرض معين يرمى اليه من افساد مناهج دراسة التاريخ والقضاء على الهدف الذى يستطيع أن تحققه أمجاد التاريخ الاسلامى فى بعث الأمة الاسلامية واحيائها ودفعها الى التمكين فى الأرض .

الباب الأول

تاريخ ما قبل الاسلام
من الحنيفية الابراهيمية الى الحنيفية المحمدية

(١) الحنيفية السمحاء .

(٢) الجاهلية .

(٣) اليهودية .

(٤) اليهود فى جزيرة العرب

(٥) اليهود فى المدينة .

(٦) ميراث النبوة .

(٧) الشك فى التوراة .

(٨) اسماعيل والتوراة .

(٩) العروبة وليست السامية

(١٠) مؤامرة السامية .

(١١) الغرب والمسيحية .

الفصل الأول
الحنيفية السمحاء

يمكن تقسيم رسالة السماء الى مرحلتين : المرحلة الأولى التى بدأها نبى الله نوح الذى دعا ربه الف سنة الا خمسين عاما ووقع الطوفان فى عصره ومن بعده توالت رسالات السماء على النحو الذى أشار اليه القرآن (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) وتبدأ المرحلة الثانية بنبى الله ابراهيم عليه السلام الذى وصف بانه أبو الأنبياء وخليل الله والنبى الذى جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب ، والرجل الذى كان أمة ، والنبى الذى ابتلاه ربه بكلمات فاتمهن فجعله للناس اماما ومن عقبه خرج جميع الأنبياء والرسل من بعد حتى تمت رسالة السماء بخاتم النبيين : محمد ﷺ .

وابراهيم عليه السلام هو الذى حمل زوجه وابنه اسماعيل الى بلاد العرب فاسكنهم فى مكة فلما شب اسماعيل رفعا معا القواعد من الكعبة البيت الحرام الذى جعله الله قياما للناس ، وما كان ابراهيم يهوديا ولا

نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما : وفى ابنيه : اسماعيل واسحق ، انحصرت رسالة السماء ، بدأت فى اسحق حتى انتهت بالمسيح عيسى بن مريم ، ومن فرع اسماعيل جاء محمد ﷺ .

« ولا ريب أن الاسلام هو الدين الأقدم الذى أوحاه الله للبشرية كلها فحرفه رؤساء الأديان وأخرجوه من مضمونه فكان الله تبارك وتعالى يرسل المرسلين لتخليصه مما ادخل اليه « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه . الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب . وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » .

ومن هنا فان دراسة الاسلام يجب ان تبدأ بابراهيم عليه السلام حيث تتشكل هذه المرحلة كلها فى اطار واحد (من ابراهيم الى محمد) مرورا باسرائيل وانبياء بنى اسرائيل وخاتمهم السيد المسيح عليه السلام الذى جاء بالانجيل متمما لرسالة موسى وتصديقا لما بين يديه من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعده اسمه أحمد .

ولا ريب أن الحنيفية السمحاء هى التى شكلت هذه الأمة الموحدة التى انتشرت منها رسالته ورسالة أبنائه والتى امتدت من العراق الى مصر الى المغرب ، من خلال مختلف الموجات التى قذفت بها الجزيرة العربية خلال أكثر من ثلاثة آلاف عام وآخرها الموجة العربية الاسلامية .

ويرى الدكتور اسماعيل راجى الفاروقى : أن رسالة ابراهيم وتوابعها قد شكلت تيارا ثقافيا ذا خصائص معينة نشأ من ذلك الماضى البعيد وجعل يفصح عن محتواه شيئا فشيئا وخطوة خطوة على أيدى الاشوريين والبابليين والفينيقيين والآراميين والكنعانيين والعبرانيين وغيرهم ، على ان هذا الافصاح قد بلغ ذروات ثلاثا تعاقبت ، كانت كل ذروة منها تزيد الرسالة جلاء حتى بلغ الأمر اكتماله وكماله عند الذروة الثالثة .

أما الذروات الثلاث فهى اليهودية والمسيحية والاسلام :

هـذا التيار الثقافى الواحـد المتصل الـذى كان من أخص خصائصه أنه يحمل رسالة الهية خلقية هو ما يطلق عليـه الدكتور الفاروقى اسـم العروبة ونطلق نحن عليه اسـم « العروبة الحنيفية » وقام ما يمـكن أن نسميه (تيار الحنيفية) التى تكاملت بالاسلام رسالة محمد وذلك فى مواجهة التيار المسموم الذى حمل لواءه المفكرون الذين يتحركون فى اطـار اليهودية والتلمودية والصهيونية فقد أطلقوا على هـذا التيـار الحنيفى الابراهيمى الأصـيل اسـم : « السامية » .

يقول الدكتور الفاروقى : خـلال قرون طويلة قبل الاسلام لم ينقطع أهل هذه الرقعة من الأرض عن الاتصال بالالوهية اتصـالا يبلغون فيـه الرسالة ولقد هيأتهم ظروف حياتهم للاضطلاع بهذه المهمة السماوية .

هـذه الظروف : جعلت من أرضـهم صـحراء وجعلت لهم موقعهم المتوسط بين العالمين فقد جعلت بلادهم ممرا للرائح والغادى من الغزاة .

واذا كانت تلك العوامل الخارجية التى تهددهم بالفناء شيئا مفروضا عليهم ولا قبل لهم بتغييره فانهم لم يجدوا مناصـا من تغيير انفسـهم من باطن بحيث يجعلونها كفنـا لهذا الخطر الداهم . ولبثـوا الوف السنين يحملون فقر بيئتهم فى كبرياء الزاهد الذى لا يلبث أن يناديه المنادى الى الحق حتى يهب للدعوة مستجيبا .

ويرى الدكتور الفاروقى أن المرحلة الأولى تبدأ بهجرة ابراهيم عليـه السلام ١٧٥٠ قبل الميلاد وهى التى جاءت بداية خط طويل من النبوات التى بلغت ذروتها فى العقيدة اليهودية والمرحلة اليهودية التى تمتـد الى مولد المسـيح .

والمرحلة الثانية هى مرحلة رسالة السيد المسيح .

المرحلة الثالثة هى رسالة محمد ﷺ : « الرسالة الخاتمة » .

وهكذا نجـد أن الحنيفية السمحة هى منطلق الفكر الربانى فى خلال هـذه المرحـلة كلهـا .

(١٧٥٠ قبل الميلاد + ٦٥٠ بعد الميلاد موعد رسالة محمد ﷺ (أى أنه خلال ٢٤٠٠ سنة تقريبا عند مبعث محمد والى الآن ما يصل الى ٣٨٠٠ سنة) من الحنيفية السمحاء : دين ابراهيم واسماعيل انطلقت الدعوتان التى جاء الاسلام وهما قائمتان : اليهودية والمسيحية ، والذى وجد المسلمون أنفسهم منذ اليوم الأول فى جدل وحوار معهما (النصرانية فى نجران واليهودية فى المدينة) من ثم فتح باب الحديث عن مفهوم الاسلام للوجود اليهودى والنصرانى ومدى صلته برسالة الله الحقة الأولى التى أنزلت على موسى وعيسى ، وما أصاب هذا المفهوم من انحراف فى التفسير ، وما يتصل بموقف المسلمين من الغرب الذى عبرت اليه المسيحية واقامت به دينا رسميا للامبراطورية الرومانية ولأوربا كلها من بعد والى اليوم .

ومن هنا نجد منطلق الخلاف فى التفسيرات والشبهات التى تثار حول الاسلام أو محاولة القول بأن بينه وبين اليهودية والمسيحية من صلات على النحو الذى تحدث عنه المستشرقون اليهود والنصارى .

وفى مقدمة ذلك ما يتصل بانكار الاستشراق الغربى (المسيحى واليهودى) هجرة ابراهيم واسماعيل الى الجزيرة العربية وكون ابراهيم واسماعيل رسولين مبلغين الى العرب وما يتصل بهذا من انكار التوراة الحاضرة لرحلة ابراهيم الى الجزيرة العربية . ولا ريب أن فى ذلك الانكار مساوقة مع هدف التوراة الذى حملت لواءه التلمودية والصهيونية من بعد وهو انكار حق العرب فى امامة ابراهيم وحصرها فى ابنه اسحق وحده أبى اليهود وذلك بمحاولة مضللة تحت اسم « شعب الله المختار » .

يقول الكاتبان الفرنسيان : (جاك لرومال ومارى لوروا) تعليقا على نص التوراة الذى يقول : « ان الرب أوحى الى ابراهيم بالذهاب الى فلسطين قائلا له : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير : نهر الفرات » .

يقول الكاتبان : ان هذه الآية لو صحت فان هذا الوعد ينصب على ابن ابراهيم : اسماعيل أبى العرب .

يقول الدكتور اسماعيل راجى الفاروقى : ان التوراة صهرت الحقائق التاريخية فى قالب يؤكد العنصرية ، أما القرآن الكريم فقد قدمها فى قالب يؤكد (الحنيفية) ولكن المسألة ليست مجرد اختلاف وجهة النظر بين الكتابين ولكن ٠

فالتوراة يوما ما قدمت الحقائق من وجهة نظر الحنيفية الا أنها غيرت نفسها على مرور الزمن ، هذا دليل على أن الحنيفية أو الخير التاريخي كما قاله القرآن : هو الحق ، فوجود الحنيفية فى التوراة بشكل محرف دليل خارجى على صدق خير القرآن الكريم ٠

« ان العنصرية تمثل حزبا أو قبيلة من المهاجرين أنفسهم كنوع أفضل من المخلوقات واتباع نظام أخلاقى يقضى بالحفاظ على سلامة عنصرهم وعدم الانصهار فى أى قبيلة أو شعب أو أى أمة أخرى ، أما الجنيفية فهى تمثل المهاجرين أنفسهم كذوى رسالة يحملونها الى البشر اجمع ويحققونها بالانصهار فى جسم البشرية التى كانوا وباهداء الذين ينصهرون معهم عن طريق المصاهرة والمؤاخاة لغتهم وثقافتهم ورسالتهم ، لذلك جاءت التوراة بعد بلورتها العنصرية تقول بأن ابراهيم هاجر لأن يهوه أمره بذلك ولكنها تتعمد السكوت على أمر يهوه فهى تقول أنه أمر تلقائى عرفى أى لا سبب له فالله فى نظرها فضله لأنه هو ، وقد فضل ذريته ، بل قطع عهدا (لا ميثاقا) والفرق بين العهد والميثاق أن الأول ذو اتجاه واحد (أى يلزم وجهة نظر واحدة) على نفسه بتفضيلها مهما حصل الى الأبد حتى تمثلته كأله هذا العنصر من دون الناس ٠ أما القرآن الكريم فجاء يعلن أن الله اله الجميع لا قدرة وقهرا بل حبا ورحمة وجاء يؤكد أن هجرة ابراهيم لسبب وجيه ، هو التوحيد وأن الله أعطى له ميثاقا بأنه تعالى سيجازيه أحسن الجزاء اذا قام وقومه بتحقيق أمانة السموات والأرض وأنه تعالى سيعاقبه أشد العقاب بل سيستبدله وقومه اذا لم يحققوا هذه الأمانة (مجلة كلية الآداب م ١٩٥٩/٢١) ٠

ويقول : كانت التوراة كتابا الهيا عزيزا الا أن اليهود حرفوها

وزاغوا بهـا عن أهدافها الالهية ومراميها الأخلاقية العالية فجعـلوا منهـا كتابا تعصبيا عنصريا حتى اسم الاله بدل فبـدل أن يدعى باسـم الحق وهو اله العالمين ورب البشر جعلته العنصرية اليهودية : (الـه ابراهيم ويعقوب واسرائيل) فحسب : وأدخل (عزرا) الحقد والتشفى والكراهية والانتقام فاخذ يتغنى بأعمال العنف والقتل والتخريب بل ويختلق القصص اختلاقا لتمجيد العنصرية اليهودية ، ليس الله بل عزرا هو القائل : (أنكم عابرون الأردن الى أرض كنعان فتطردون كل سـكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتخرجون جميع مرتفعاتهم ، تملكون الأرض وتسكنون فيهـا لأنى أعطيتـكم الأرض لكى تملكوها ، تهزمون مذابحهم وتقطعون سوراتهم لانك أنت شعب مقدس) .

ويقـول الدكتـور الفاروقى : ان عزرا بكل حـق هو مؤسس الدين اليهودى كما نعرفه الآن ولا عجب أن اعتبره اليهود ابنـا لله ، وهو الذى اكتملت التوراة بعمله مسحة الوثيقة لأنه بعمله هذا بعث الهوية اليهودية .

وقال : أن عدم اتقان عملية التحريف من قبل عزرا هو الذى جعـل العلماء يكتشفون عزرا ، فالحنيفية لا تزال باقية فى التوراة لهـا أثارها وبالرغم من التحريف العزراوى الذى جاء مضادا لها .

الفصـل الثـانى
الجاهليـــة

يقول عمر رضى الله عنه : (انما ينقض الاسلام عروة عروة اذا نشـا فى الاسلام من لم يعرف الجاهلية) فمعرفة التاريخ للاسلام ضرورة لفهم الاسلام نفسه والاسلام هو الذى اطلق على هـذا التاريخ تعبير (الجاهلية) وهى جاهلية قريبـة وجاهلية قديمـة أو أولى ، ولمـا كان الاسلام هـو خاتم رسـالات السماء فقـد كان من الضرورى أن يتعرف أهـله على رسالة السـماء منـذ بدأت لأنهم مكلفون بالايمـان بجميـع الرسل وجميع الكتب التى سبقت هى فى مجموعهـا رسـالة واحـدة هى (الاسلام) والدعوة الى توحيد الله وأن اختلفت باختـلاف البيئات والعصـور ، فقـد أرسل

الله تبارك وتعالى رسله وأنبياءه للبشرية منذ نوح الى محمد ﷺ وقد كانت هذه الرسالات الى كل أمة برسول منها الى أن وصلت البشرية الى مرحلة الرشد الفكرى الذى أهلها لأن تتلقى الرسالة العالمية الخاتمة للانسانية كلها وهى الرسالة التى حمل لواءها ممحد ﷺ بكتابه الخالد المعجزة (القرآن) ٠

وحين جاء القرآن كانت البشرية تعرف أديانا منزلة انحرفت عن طريقها فاصبحت أديانا بشرية ، ومن الأولى اليهودية والمسيحية ومن الآخرى: الديانات المجوسية وغيرها ٠ وكانت هناك الوثنية التى ليست دينا ولكنها انحرافا ، وكانت تتمثل فى صورة ضخمة فى بلاد اليونان ومن بلاد العرب وفى قلب جزيرتهم جاء ابراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل يحملون لواء الحنيفية السمحاء حيث أقاما القواعد من الكعبة البيت الحرام ونشأ فى قلب جزيرة العرب فى أم القرى ومن حولها وحول الكعبة دين الحنيفية السمحاء الذى امتد فى اسماعيل وأبنائه من بعد والذى ظل قائما فى نفوس الكثيرين حتى جاءت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة للأديان ومتصلة الأسباب بالدعوة الابراهيمية ٠

(ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا)

ومن ثم فان تراث النبوة التى عرفتها هذه المنطقة العربية كلها بدأ بابراهيم عليه السلام وختم بمحمد عليه الصلاة والسلام وفيما بينهما كانت النبوة والرسالة قد امتدت فى بيت ابراهيم وامتدت فى ولديه اسماعيل واسحق ، ثم امتدت فى فرع اسحق فى يعقوب والأسباط ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان ٠ وجاء عيسى عليه السلام خاتما لأنبياء بنى اسرائيل ثم جاء محمد صلى الله عليه وسلم من العرب ومن فرع اسماعيل خاتما للنبوة والرسالة جميعا ٠

ولا ريب أن بنى اسرائيل قد عجزوا عن حمل رسالة الله تبارك وتعالى على وجهها الصحيح وانهم قد حرفوا كتابة التوراة والانجيل فاستحقوا أن تنتزع منهم الرسالة وتسلم الى من هم أقدر على حملها ٠

(٢) الوثنيـة العربيـة

انحرف العرب بعد رسالة التوحيد الحنيفية التى قام عليها ابراهيم وأسماعيل الى الوثنية والشرك فالوثنية العربية ليست وثنية عميقة الجذور كالوثنية اليونانية ولكنها كانت أميل الى الشرك فقـد كان العرب يتخذون الأصـنام على أنها وسائط وشفاعات تقربهم الى الله · ويقول المؤرخون أن الذى سلخ بالعرب الى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مـكة ظاعن الا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة فأينما حـلوا وضعـوه وطافوا به طوافهم بالكعبة وبمرور الزمن نسى الناس العلة فى تقديس الحجارة على أنها أثر من آثار الكعبة وذكرى لهـا فانتقل التقديس الى الحجر نفسه وتطور الحجر الى صـنم ولكن بقيت فئـة تتطلع الى دين التوحيد : دين ابراهيم ، عرفت تلك الفئة بالأحناف ودينهم بالحنيفية وكانوا قد اعتزلوا الأوثان وعافوا الميتة والدم والذبائح التى تذبح على النصب لغير الله وعرف من الأحناف زيـد بن عمرو بن نفيل وقس ابن ساعدة وأميـة بن أبى الصلت وورقة بن نوفل ولم تكن الحنيفية امتدادا لليهودية أو النصرانية بل لم يكن لها بهمـا صـلة أو وشـيجة (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما ولم يك من المشركين) ·

وكانت الوثنية تشويها لدين ابراهيم وتحريفا له وخروجا عليه وليست الوثنية فى حقيقتها دينـا ولكنهـا انحراف عن الدين المنزل ·

كذلك فقـد عرفت الجزيرة العربية اليهودية والمسيحية ·

وكذلك عرف العرب عبادة الكواكب ·

وفى هـذه الفترة أصـاب فريضة الحج هذا الانحراف الوثنى فكانوا يذبحون الذبائح لا ليطعموها للفقراء ولكن ليلطخوا بهـا جدران الكعبـة وكانت صـلاتهم عند البيت « مكاء » كما وصفها القرآن ·

ولقد اتخذت قبائل العرب فى الجزيرة العربية عددا من الأوثان كاللات والعزى ومنـاة والشمس والقمـر والشـعرى والنجـم (الثريـا) وود

وسـواع ونسرا ، ولم يكونوا يؤمنون بهـا من دون الله بل كانوا يشركونها مع الله تبارك وتعـالى ويتخذونها وسـطاء وقـد سجل القرآن عليهم ذلك فى قـوله تعـالى :

(ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، ان الله يحـكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، ان الله لا يهـدى من هو كاذب كفـار) .

وقـد واجـه القرآن ودعوة الاسلام ظاهرة الشرك هذه مواجهة صريحة بالاضـافة الى مواجهة كل أسباب الوثنية وأنواعهـا من عبادة الكواكب والنجـوم والشمس والقمـر وعرض الاسلام لفسـاد كل الانحرافات التى عرفتها الأديان قبل الاسـلام وخاصـة ما يتصـل باليهودية والمسيحية ، وهاجم الاسلام الوثنية وتعدد الآلهـة ودعا الى عبادة الله الواحد الأحد .

وحين دخل الاسلام مكة فاتحا كانت الكعبـة التى بنيت لعبـادة الله الواحـد الأحد تعج بالأصنام اذ كانت تحتوى على ثلاثمائة وستين صـنما غير الأصـنام الأخرى التى كانت فى جهات متفرقة .

وكانت عقائد الوثنيين والمشركين من أهل مكة ممزقة منهارة فقـد عبدوا الكواكب وزعموا أن الملائكة بنات الله ، وقال صاعد فى طبقات الأمم أن حمير كانت تعبد الشمس وكنانة القمر وتميم الدبران ولخم وجـذام المشترى وطى سهيلا وقيس الشعرى العبور وأسد عطارد .

الفصـل الثـالث

اليهـــودية

(٣)

لم تدم المملكة اليهودية سوى ٧٨ سنة انقسمت بعـدها الى شطرين متنازعين تحطم الأول عام ٧٢٢ ق . م على يد الأشوريين وتحطم الثانى ٥٨٩ ق.م على يد البابليين وفى منفى اليهود فى بابل بين ٥٨٦ ، ٥٣٨ ق.م

تفجرت العنصرية عن الحقد والكراهية للعالم وانبثقت جـذور الصهيونية بمعنى التطلع السياسى والدينى الى العودة الى أرض الميعاد وعاد اليهود مرة أخرى الى فلسطين . ثم كانت ثورتهم على الامبراطورية الرومانية التى قضت على وجودهم وأبادت جموعهم عام ٧٠م ثم حرم عليهم الدخول الى القدس وتفرق أكثر الباقين من اليهود فى الأرض وجاء منهم الى بلاد العرب لاجئين ، وكثروا فى منطقة تمتد من يثرب الى خيبر الى تيمـاء ، وكلما وقع الصراع بين المذاهب المختلفة فى أرض فلسطين بعـد المسيحية كانت جزيرة العرب هى المـاوى لأولئك لأن شبه الجزيرة لم تكن خاضـعة للـروم .

ان التحريف الذى قام به اليهود للتوراة قـد نقلها من المفهوم الربانى الذى يصـل مراحل دعوة السماء من لدن نوح وفى اطـار الحنيفية السمحة التى جاء بها ابراهيم حتى تتم رسالتها ، الى مفهوم العنصرية الغالبة التى تفرض « سيادة عنصر اليهود » تحت اسم « شعب الله المختار » وهذا هو التحول الخطير الذى نقل دين الله المنزل بالحنيفية السمحاء الممتدة من ابراهيم الى اسماعيل الى اسحاق فى أبنائهما الى تلك العنصرية التى تجعل من الله تبارك وتعالى الهـا خاصا لليهود وتجعل من رسالة الرحمة الى الناس ، عمـلا مقصورا على قوم وحدهم دون البشر جميعا بل وتجعل لهم الحق فى السيطرة على الأمم المختلفة واستغلها وسلبها ما تملك تحت اسم الجوييم .

ويرى الباحثون ان هـذا التحول من الحنيفية الى العنصرية قد تم فى فترات سابقة للسبى البابلى ولكنهم يركزون على ان التحريف فى التوراة نفسـها وقع ابان السبى البابلى : ويؤكدون ـ كما أشـار اسماعيل راجى الفاروقى ـ أن التوراة التى بين أيدينا هى الكتاب الذى جمعه عزرا حوالى عام ٤٢٥ قبل الميلاد وقـد أحصى الباحثون مجموعة من الشكوك فى مقدمتها تغيير اسم الاله ومنهـا ما أدخله الكهنة الى التوراة ولا سيما عزرا ومنهـا الطقوس التبعيدية التى لم تكن من أصـل الديانة .

وأبرز الانحرافات هى مسالة ابراهيم عليه السلام ووعد الله له ولذريته فقد بنى اليهود نظرية تفوقهم على البشر وانفرادهم عن الناس وافضليتهم على جميع المخلوقات فى نظر الخالق على هذا التصور الباطل بأن الاختيار لم يكن للخليل فقط بل لأبنائه وسلالته وهم يعلنون أن هذا الاختيار لم يكن اخلاقيا وليس له علة ٠

وهذا ما كشف القرآن عن زيفه فى قوله تعالى :

« واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى ، قال لا ينال عهدى الظالمين » ٠

فالرسالة وجهت الى بنى اسرائيل على طريق الحنيفية السمحة فان أقاموا عليها كانوا من أهل الوعد الابراهيمى وان عجزوا عنها وتخلفوا فقد سقطوا ونقل الحق تبارك وتعالى الرسالة الى غيرهم ، الى الفرع الآخر : اسماعيل وفى هذا يقول القرآن : (أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا ٠ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد اتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ، فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا) النساء (٥٠ ـ ٥٤) ٠

وهكذا نجد أن الانحراف الذى وقع فيه بنى اسرائيل بعد أن أعطاهم الله الملك أكثر من ألف سنة ما بين (اسرائيل وعيسى) فقد اثبتوا عجزهم عن جمل الرسالة على النحو الذى رسمه الحق تبارك وتعالى وانحرفوا عن الحنيفية الى العنصرية ولذلك نقل الله الملك من فرع اسحق الى فرع اسماعيل ٠٠ ولقد كان اليهود يعرفون صفة النبى المنتظر ، وكانوا يقسمون به فى دعائهم فلما جاءت الرسالة الى محمد بن عبد الله عارضوه لأنه ليس من فرع اسحق وخاصموه خصومة شديدة ٠

ولا ريب أن هذه القضية هى أخطر قضايا العصر الذى نعيش فيه فان الصهيونية العالمية تحمل فى دعواها لواء هذا الوعد على النحو الذى زيفه اليهود فى التوراة وتابعوه فى التلمود وفى بروتوكولات صهيون حين جعلوه مقصورا على فرع اسحق وأولاد اسرائيل ٠ وحرموا

منه فرع اسماعيل واسماعيل هو الابن الأكبر لسيدنا ابراهيم ، وأنكروا رحلة ابراهيم واسماعيل الى مكة وبناء الكعبة من أجل تزييف هذا الوعد .

وتلك القضية تتمثل اليوم فى تحد خطير : حيث استطاع اليهود تزييف دوائر المعارف العالمية وكان من عملهم الخطير فرض العهد القديم على المسيحيين الغربيين وربطه بالانجيل « العهد الجديد » كما استطاعوا السيطرة على مناهج الدراسة فى أكثر بلاد العالم الغربى وفى الجامعات ومناهج الدين وفرض هذا الارتباط بين التوراة التى كتبها الأحبار وضمها الى الانجيل من أجل الاقناع بهذا الوعد وقد نتج عن هذا ان اتباع البروتستانتية يتابعون الصهيونية فى هذا المفهوم .

كذلك فنحن نجد هنا فى أفق الفكر الاسلامى تلك الدعوات التى انتشرت منذ الثلاثينات حين أطلق بعض اتباع التغريب صيحة التشكيك فى وجود ابراهيم واسماعيل بالرغم من وجودهما فى التوراة والقرآن . وكانت هذه علامة مبكرة على وجهة الدعوة الصهيونية نحو تزييف قضية ابراهيم واسماعيل .

(٤)
اليهود فى جزيرة العرب

كذلك فقد تواترت فى أفق الفكر الاسلامى شبهات كثيرة تحاول أن تجعل لليهود فى جزيرة العرب دورا فى الأدب أو الاجتماع .

فقد ظهرت فى الثلاثينات كتب ودراسات حول هذا الموضوع كتبها طه حسين واسرائيل ولفنسون وغيرهما فى محاولة لخلق فضل وهمى لليهود واليهودية على اللغة العربية وآدابها ابان اقامتهم فى الجزيرة العربية قبل الاسلام منذ هجرتهم اليها هاربين من وجه الرومان فى فلسطين سنة ٧٠ وما بعدها .

وكان هذا العمل يجرى فى اطار الدعاية الصهيونية التى كانت تريد أن تقنع الشرقيين بما أقدموا على تسجيله فى دوائر المعارف وكتب التاريخ الغربى بما يبرر دخولهم الى فلسطين . والواقع أن التاريخ فى أحداثه

المتصلة منذ بزغ فجر الضمير تؤكد أن اليهود كانوا عالة على حضارات مصر وبابل وأشور ولما عاد اليهود من السبى نقلوا معهم عن العرب البابليين الشىء الكثير مما نجده فى كتابهم المقدس وكل الذى أدوه من الآداب انما جمعوه من الأساطير التى كانت سائدة فى تلك العصور .

أما الحنيفة فباعتبارها اطار النبوات فقد حملت فكرا ونثرا وأدبا وفلسفة وحكما وأمثالا عرفتها البيئة العربية الممتدة من بين النهرين الى الشام فمصر .

يقول الدكتور محمد فؤاد حسنين « فالعرب لا اليونان أو اليهود هم الذين بعثوا العالم من حالة الجمود الى حياة أفضل مكنته من التحكم فى مصائر الكون فاطلق العربى الافكار من عقالها وحررها من جمود رجال المعبد اليهودى والكنيسة المسيحية فظهرت طائفة القرائين حيث أنكر أولئك التلمود وتعاليمه كما انكمش سلطان الكنيسة وقد مهد هذا التطور بدوره لظهور حركة الاصلاح الدينى وبعث النهضة العلمية .

ومما عاون العرب على الاضطلاع بهذه الرسالة تسامحهم ومبادئهم الانسانية التى أزالت الفوارق بين الشرق والغرب كما أنهم لم يمكنوا اللون من أن يكون عاملا من عوامل التفرقة والتميز العنصرى والحط من القيم الانسانية . أن العرب يؤمنون سواء فى الجاهلية أو الاسلام بالحقوق الانسانية كاملة غير منتقصة لكل فرد من أفراد المجتمع البشرى . فالدين الاسلامى الذى ثبت أسس هذه المبادىء يقر فى صراحة ووضوح أنه « ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى » ولذلك نجح العربى فى تحقيق ما عجز عنه اليونانى والفلسفة اليونانية ، أعنى مذهب الانسانية . ان هذا المذهب لم يقو ولم ينتصر الا بفضل العرب ولم تعرفه أوربا الا فى العصور الوسطى وعلى يد العرب وبعد أن تتلمذت أوربا على العرب فى العصر الاسلامى حيث بلغ العرب مكانة اجتماعية لم تدانهم فيها الشعوب الأخرى ، كما شرع الاسلام لمعتنقيه وغيرهم تشريعات أخرجتهم من الظلمات » .

ويقرر الدكتور محمد فؤاد حسنين ان نفرا كثيرا من الأوربيين المنصفين مسيحيين كانوا أو يهودا يؤمنون بان العرب هم أصحاب الفضل على اليونان واليهود ٠ والتاريخ اليهودى يحدثنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجه الطغاة من حكامهم فى فلسطين أو فزعا من اضطهاد اليونان والرومان فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية فوجدوا أهلا وسهلا فهذه القبائل اليهودية التى كانت تنزل يثرب وخيبر ووادى القرى وفد أفرادها على العرب بعد أن أفقدتهم القرون التى مرت بهم زوال دولتهم ولغتهم المقدسة ، تذوق اللغة العبرية وتجويدها حتى أصبح من المألوف لدى اليهودى أن يعبر عن أفكاره وشعوره فى لغة ركيكة هى خليط من العبرية والكلدانية واليونانية فحالت ظروفه هذه دون خلق أداب عبرية ، فما كان أولئك اليهود بمستطيعين قول الشعر أو اجادة النثر فغير نزولهم بين العرب هذه الاوضاع بخاصة فالعربى معجب بلغته معنى بها نثرا وشعرا حريصا على المحافظة عليها فصيحة نقية ٠ أخذ اليهود عن جيرانهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير فلما رحل بنو قينقاع والنضير وقريظة ويهود خيبر ووادى القرى وغيرهم الى العراق والشام كانوا يتكلمون لغة عربية ويتطبعون بطباع عربية كلها شجاعة ووفاء وكرم واباء يقولون الشعر فى مختلف فنونه ويعبرون عن خواطرهم فى لغة أهل الحجاز ، نزل أولئك اليهود فى أوطانهم الجديدة فاثروا فى أبناء ملتهم تاثيرا قويا ولم يمض نصف قرن من الزمن على تحرير العرب اليهود لفلسطين والعراق وغيرهما حتى أصبح فى استطاعتهم التحرير فى اللغة العربية ، ولم يقف أثر العرب والعربية فى اليهود عند اللغة وادابها بل تعدى العربية الأدبية الى عربية القرآن الكريم والحرص على المحافظة على كتاب الله ، وهذه ظاهرة جديدة لم يكن لليهود بها عهد فى عصورهم القديمة حتى فى فلسطين وابان قيام دولتهم وحياة لغتهم العبرية المقدسة وقد حببت هذه الظاهرة الى اليهود اقتفاء أثر العرب ومجاراتهم فى طريقة دراسة القرآن الكريم وحاول اليهود الحرص على نطق أسفار العهد القديم نطقا صحيحا ٠

فدفعهم هذا الى التفكير فى اعجام اسفارهم واعرابهــا مقلـدين العــرب أو (البيوتم) ولم يقف الأثر عند الشعر بل تعداه الى النثر حيث استشهد كتابهم بالشعر العربى واخذو ينسجون على منواله . كذلك الأمثال العربية وجدت طريقها مع البيان والبديع الى اليهود ولغتهم . فقد وضع يهوذا بن تبــون مثلا كتابه المشهور (حكم العرب) وترجمت أسرة تبون وغيرها كثيرا من أمهات الكتب العربية ســواء فى الفلســفة أو الطلب أو الرياضيات أو القصص الشعبية الى العبرية وليس هذا بمستبعد فالعرب ليســوا هم اصحاب فكرة المعزل (الجيتو) فقد فتحوا أمام اليهــود دور العــلم على مصراعيها ولم يقفوا بينهم وبين غيرهم لذلك استطاع اليهود القيـام بدور الرواة من الشعراء أو انسابوا فى بعض البــلاد المسيحية واخذو الى جانب بعض العلماء العرب يلقنون الاوربيين ما انتهت اليه معرفتهم .

وهكذا نجــد زيف تلك الدعاوى التى حــاول الاستشراق اليهــودي واتباعه أمثال طه حسين واسرائيل ولفنسون وغيرهما نشرها فى أفق التاريخ الاسلامى الحديث من خلق دور وهمى لليهــود فى جزيرة العرب ، وقد فصلنا هذا فى كتابنا (عن طه حسين فى ضوء الاســلام) :

الفصــل الرابــع
اليهــود فى المدينــة
(٥)

هدمت « القدس » التى يطلق عليها ايلياء ، أو أورشليم مرتين من اجل مؤمرات اليهــود : ٥٩٧ ق . م حيث سحقهم نبوخذنتصر وســاق من بقى منهم الى السبى البابلى الذى لم يستمر أكثر من خمسة واربعــين عاما سمح بعــده كورش لليهــود بالعودة الى فلسطين عام ٥٨٣ ثم كانت الضربة الثانية الماحقة عام ٧٠ ميلادية على يد تيطس الرومانى ومنها انتثر اليهود الى مختلف أطراف الارض والى الجزيرة العربيــة وهــذه هى الهجــرة الكبرى لليهــود ، كمــا تصــورها كتب التاريخ فى القرن الاول الميــلادى بعد تنكيل الرومان بهم جزاء مؤامراتهم وانتقاضهم ، وقد قصــد الى أرض

الجزيرة بنو النضير وبنو قريظة حيث ساروا الى الجنوب فى اتجاه بيروت فلما بلغوا موضعا هناك على ملتقى طرق القوافل أقاموا فيه .

وتؤكد أبحاث التاريخ ودراسات العالمين الكبيرين محمد عزة دروزه (تاريخ الجنس العربى) والدكتور جواد على (تاريخ العرب قبل الاسلام) فساد النظرية اليهودية المطروحة التى تقول أن يهود الحجاز من قبائل عربية تهودت وتؤكد الدلائل ان يهود الجزيرة العربية من بنى اسرائيل ، وخطاب القرآن الكريم لهم يدل على أنهم من نسل أولئك الأباء الذين آذوا أنبياء الله موسى وداود وعيسى وقتلوا يحى وغيره من الرسل . وعندما نزلت الرسالة الاسلامية على محمد ﷺ كان اليهود يعيشون فى أحياء وقرى خاصة بهم وكانت لهم لغتهم العبرية التى يتخاطبون بها فيما بينهم ولهم طقوسهم ومدارسهم ومعابدهم ولم يكن فى الحجاز فى ذلك الوقت قبائل عربية متهودة ، وان كان لا يبعد ان يكون هناك بعض أفراد من العرب دخلوا فى دين اليهودية .

وكانت معظم معاملات اليهود فى المناطق التى أقاموا فيها سواء بالعالية بوادى بطحان أو فى منطقة مهزور على بعد بضعة أميال من المدينة تقوم على المراهنات وتعاطى الربا ولهم سيطرة تامة على الجوانب الاقتصادية فى المدينة وضواحيها ولهم تحكمهم فى الأسواق التجارية وهذا ما حطمه الوجود الاسلامى فى المدينة بعد الهجرة وكان واحداً من عوامل تآمرهم على الاسلام .

وكان اليهود قبل بعثة النبى محمد - ﷺ - يتحدثون عن قرب ظهوره ويقسمون به ويدعون الله به فى كل أمرهم : (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) وكان خلافهم القوى أن محمداً ليس من بنى اسرائيل وقد ظنوا أن النبوة قد انحصرت فيهم .

ولا ريب أن اختيار محمد بن عبد الله للنبوة والرسالة الخاتمة كان علامة على الطريق الذى أعده الله للبشرية ارتباطا بالحنيفية الابراهيمية

وتحررا من الانحراف الذى أحدثه اليهود ثم النصارى برسالة التوحيد الحق . وكان يعنى هذا من الله بعد أن امتحن بنى اسرائيل الف سنة بالنبوة والملك وأنزل فيهم التوراة والزبور والانجيل ، قد نقل منهم الامانة الى فرع اسماعيل والى العرب وأورثهم ذلك الميراث الذى جاءت به النبوات وجعلهم المؤمنون بكل ما ارسل الله من نبى وما انزل من كتاب .

(قولوا آمنا بما أنزل الينا وما انزل الى ابراهيم)) الآية

وكان هذا التحول من بنى اسرائيل الى فرع اسماعيل تاكيدا للحقيقة الابراهيمية وأحياء لها ودعما ، وتكذيبا للتحريف اليهودى الذى ركزت عليه توراة عزرا بالعنصرية فى اصطفاء يهوه لابراهيم اصطفاء غير مشروط وجعل هذا الاصطفاء كميثاق أو عقد ذى اتجاه واحد لسمته الميعاد .

ولقد كشف القرآن من سيرة ابراهيم جوانب عديدة لم تعرفها الكتب القديمة ومنها توحيد ابراهيم وتحطيمه للأوثان التى كان يقدسها ابوه واهله ، حيث لم يذكر هذا فى اى أثر قبل القرآن الكريم فالقرآن هو مصدرها الأول والأخير ومن هنا فقد انتصرت بالاسلام الحنيفية على العنصرية .

ومع هذا الموقف العنيد الخصم الذى وقفه اليهود من النبى بعد الهجرة ومن الاسلام كان موقف الرسول ﷺ والاسلام منهم كريما غاية الكرم فقد عقد الرسول ﷺ معهم امانا وأحسن معاملتهم وقصد اليهم اكثر من مرة يدعوهم الى الاسلام .

فقال : ذلك اريد . ثم قالها للثانية . فقالوا : قد بلغت يا ابا القاسم .

وفى البخارى عن أبى هريرة ، بينما نحن فى المسجد اذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : انطلقوا الى يهود فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس فقام النبى ﷺ فناداهم : يا معشر يهود : أسلموا تسلموا . فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم .

ثم قال فى الثانية : اعلموا أن الأرض لله ورسوله ، وانى اريد ان اجليكم فمن وجد منكم بماله شيئا فليبعه والا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله ·

ولقد قامت مجادلات دينية عديدة بين اليهود والنبى قصدوا بها احراجه ، وقد أجاب الرسول ﷺ على اسئلتهم ومجادلاتهم بما يدحض حججهم ·

ثم انضم اليهود الى أعداء المسلمين وكانت لهم مواقف غاية فى التآمر بالمسلمين فأجلاهم الرسول عن المدينة وقد استمر الرسول ﷺ فى معاملته الحسنة لليهود ·

ثم اجلى عمر نصارى العرب عن نجران ويهود الحجاز من الجزيرة العربية تنفيذا لوصية رسول الله ﷺ : روى أبو عبيدة رضى الله عنه أن آخر كلام قاله رسول الله ﷺ هو وصيته باخراج يهود الحجاز ونصارى نجران اليمن من جزيرة العرب وقد أحسن عمر اخراجهم واختار لهم أرضا جديدة بين الشام والعراق ·

يقول الدكتور محمد فؤاد حسين : ان التاريخ اليهودى يتحدث عن احسان الاسلام لمعاملة اليهود وحتى أولئك الذين اضطر النبى والخلفاء الراشدون الى اجلائهم عن قلب الجزيرة العربية تامينا لرسالة الاسلام واتباعهم ، أقطعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والامام على كرم الله وجهه الأراضى الواسعة بالقرب من الكوفة وعلى ضفاف الفرات مما دفع للمؤرخ اليهودى الشهير (جريتز) الى الاشادة بعدالة العرب ولانسانيتهم فى كتابه (تاريخ اليهود) فقال :

ان تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى القرن السابع الميلادى وابان حياة الرسول صفحة ناصعة من التاريخ اليهودي وقال : لقد وزع عمر أراضى اليهود على المسلمين المحاربين وعوض اليهود المطرودين - وهذه هى العدالة - أرضا أخرى بالقرب من الكوفة على الفرات حوالى ٦٥٠ م حقا : رب ضارة نافعة ، ان سيادة الاسلام نهضت باليهودية من كبوتها ·

الفصل الخامس

(٦)

ميراث النبوة

استعاد الروم بيت المقدس عام ٦٢٩ من الفرس ودخل هرقل القدس وفى ابان ذلك حمل اليه « دحية الكلبى » كتاب النبى ﷺ يدعوه الى الاسلام :

« أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين »

وكان النبى ﷺ قد اورث ميراث النبوة كلها : تحقيقا لانطلاقة الاسلام بامة العرب التى خير امة اخرجت للناس واستكمالا لرسالات الانبياء جميعا . ففى ٢٧ رجب قبل الهجرة بسنة وبضعة اشهر اسرى بالنبى ﷺ الى بيت المقدس ، حيث صلى بالانبياء اماما وكان ذلك مقدمة معراجه عليه الصلاة والسلام الى السماء الى سدرة المنتهى حيث تلقى أمر الله تبارك وتعالى بفريضة الصلاة وكان النبى ﷺ قد صلى بعد هجرته الى المدينة الى بيت المقدس سبعة عشر شهرا ومازال بيت المقدس عند المسلمين هو القبلة الأولى ، ولما كان مفهوم الاسلام هو الترابط الكامل بين رسل الله وكتبه من نوح الى محمد ﷺ ولما كان الاسلام كما جاء به محمد ﷺ هو الاسلام الذى جاء به كل نبى وكان محمد هو دعوة ابراهيم وسيد ولد اسماعيل فهو صاحب الميراث الحقيقى لامامة ابراهيم عليه السلام .

« ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » وهكذا اعاد الاسلام الدين الحق الى صفائه الاول والى طريقه الحق الذى حرفته اليهودية والمسيحية فعزلت عن ميراث ابراهيم « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » ولم تمض الا سنوات قليلة من هجرة رسول الله الى المدينة حتى فتح المسلمون مدينة القدس عام ١٥ هجرية ٦٣٦ م وتسلمها عمر بن الخطاب من البطريرك صفرونيوس

وكتب العهدة العمرية لأهلها النصارى من اهل ايليــاء وكان اخطر نصوصها التى أخذ النصارى على ادراجها « النص القائل » .

« ولا يسـكن بايلياء أحـد من اليهـود »

وترى كثير من المصادر أن (القدس) هى هدف الرسول فى اسرائه : « سبحان الذى أسرى بعبده ليـلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من أياتنا انه هو السميع البصير » .

وما كانت غزوة حنين وغزوة خيبر وغزوة اسـامه بن زيد التى كان علمها مغروسا امام المسجد قبل التحاق رسول الله بالرفيق الاعلى الا علامات على الطريق الذى سلكه الفتح الاسلامى فانه لم يمض بعد ذلك الا القليـل حتى تدفقت جيوش المسلمين الى الفرات ومن ثم الى فلسـطين وهزمت جيوش القيصر عند (اجنادين) فى يوليو ٦٣٤ م ١٣ هجرية واضطر القـائد البيزنطى (ارطبون) الى الهرب الى القدس ، وجاءت معركة اليرموك (اغسطس ٥٣٦) م ١٥ هجرية فانتصر المسلمون انتصارا حاسما وسقطت كل المـدن الحصينه واحدة بعد أخـرى فى أيـدى المسلمين ثم سـلمت (بيت المقدس) الى المسلمين صلحا شريطة أن يحضر عمر بن الخطـــاب امير المؤمنين ليتسلمها . قال الطبرى فتحت ايليـاء وأرضها على يد عمـر فى ربيع الآخـر سنة ستة عشر .

ومنذ تسلم المسلمون بيت المقدس وهو لا يزال فى ايديهم الا فى فترات قليلة : المراة الأولى ابان الحروب الصليبية والمـرة الأخـرى بعد احتلال اسرائيل للقدس عام ١٩٦٧ .

الفصـل السـادس
الشـــك فى التـــوراة

ان المحاولة اليهودية التلمودية التى استهدفت تزييف التوراة وتزييف وعـد الله لابراهيم والتى اعتمدت عليها الصهيونية الحديثة فى دعواها بان لها فى ارض فلسطين حقا ، قد كشف البحث العلمى عن فسادها من ناحيتين

من ناحيـة تحليل النص التـوراتى نفسـه ، ومن ناحية نتائج الكشـوف الأثرية فقد اثبت التحليل العلمى أن التوراة المعاصرة قد كتبها الأخبـار وليست هى كتاب الله المنزل من السماء ، وايدت الكشوف الأثرية ما أورده القرآن وكذبت ما ذهبت اليه التوراة وخاصة فيما يتعلق بابراهيم واسماعيل ورحلتهما الى الجزيرة العربية ونبوة اسماعيل وعشرات من هذه القضايا التى زيفتها التوراة والتلمود :

يقول الدكتور اسماعيل راجى الفاروقى : ان هنـاك مجمـوعة من العلماء .

(فون جران ، كوهنن ، ويلهاوزن)

فى أواخر القرن الماضى دفعهم حبهم للاستطلاع لدراسة القـرآن الكريم بحثـا وراء ما يلقى الضـوء على (العهد القديم) الـذى كانوا يدرسـونه بقصـد تفهمه تفهمـا علميا نقديا تحليليا ، وفى دراسـتهم للقرآن الكريم تشبعوا بالمبدأ القرآنى القائل بأن بنى أسرائيل تلاعبوا فى كتابهم المقـدس وانهم حرفوه حاذفين منه ما حذفوا ومضيفين اليه ما أضافوا لطمع غـير خلقى فى نفوسهم ، فزعزع هذا المبدأ ما نشأوا عليـه من ايمان بأن التوراة هى نفسها فى كل حرف من حروفها من صنع الله واخذوا عندئذ بدلا من الحيرة فى تفسير النزعات المختلفة التى تنم عنها نصوص التـوراة يبينون مختلف الأيدى وراء هذه النصوص فراحوا يبحثون فى أصولها وعن الأحوال التاريخية التى أدخلت على هذه المواد فى التوراة تحت ظروفهـا فكانت علوم التوراة النقدية التى عرفها القرن الأخير .

هذه هى بداية نقـد الكتاب المقدس وعنهـا تفرعت العلوم النقـدية جميعا ونشـا علم الآثار القديمة ونشـا علم التاريخ القـديم ومنذ ويلهاوزن وعلماء العهـد القديم يقيمون النظرية تلو النظرية والتفسير التوراتى تلـو التفسير ويهدمون ما حققه أسلافهم من قبل تبعا لمكتشفات الآثار التى أخذت تتزايد بشكل عظيم سنة بعـد سنة وتماشيا مع ما كانت تجلو عنه هـذه

المكتشفات من حقائق تاريخية . ومع ان المبدأ القرآنى بقى واكد مبدأ هذه العلوم كلها فهى جميعها بكل ما حققته من تقدم للفكر الانسانى تعتبر حواشى علقها العبقرية للغربية والدأب العلمى الذى لا يعرف الكلل على القرآن الكريم ولم يتقدم احد من الدلوسين المسلمين لدراستهم حتى الآن .

ويصل الدكتور الفاروقى الى حقيقة أصبحت واضحة الآن فى بيئة الغرب وهي أن الايمان بأصل التوراة الالهى قد زعزع والغى ، وبهذا اكمل القرآن الثروة العقلية التى اشعلها الاسلام على اللاعقلية فى القرون الوسطى ، ولم يجز علماء العهد القديم اتخاذ نصوص التوراة كأنها محقة فيما تقوله من الانباء الا بالاثبات العلمى وهنا جاء علم الآثار يقدم دليله فآثار فلسطين وراس شمرا وتل الحريرى فى دار الشام ثم آثار العمارنة وغيرها فى مصر وآثار بابل واشور فى شمالى العراق وجنوبه كل هذه لها علاقة رئيسية بالتوراة والتاريخ اليهودى القديم .

(٢)
ابراهيم والتوراة

أخذ العلماء على التوراة التى نزلت على موسى انها تروى تاريخ اليهودية من بعده حتى قيام المسيح بدعوته ومعنى هذا أن التوراة الموجودة فى أيدى الناس ليست هى توراة السماء . وتبين ان من التوراة ما كتب على أيام المملكة الاسرائيلية ومنها ما كتب فى المنفى بين النهرين ومنها ما كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون ومن هنا جاء ما فيها من تعارض .

ومما يؤخذ على التوراة انها لم تات بذكر لذهاب ابراهيم الى الحجاز ، وسكتت المصادر اليهودية سكوتا متعمدا ـ كما يقول عبد الحميد السحار ـ عن علاقة ابراهيم بالجزيرة العربية ومكة وبناء الكعبة ثم هناك سكوت متعمد عن كل النهضات الدينية فى جزيرة العرب ، لم تذكر شيئا عن هود أو صالح لانهما من انبياء العرب كلاهما لم يكن عاد وثمود هناك على مقربة من فلسطين .

ولقد حدد بطليموس موقع عاد وثمود وكشفت الحفريات عن مدائن صالح واثبتت ذهاب ابراهيم الى مكة واقامة قواعد البيت ٠

يقول الاستاذ السحار :

لعل ذلك يرجع الى ان اليهود كانوا يحسون منافسة دينية مع العرب ، وكانوا ينعـون عليهم انه صار لهم (بيت محرم) منذ ابراهيم بينما لـم يصبح لهم هيكل فى بيت المقدس الا فى ايام سليمان بن داود ٠ كذلك فقـد تعمـد كهان اليهود أن يخرجوا أبناء اسماعيل من حقوق الوعـد الـذى تلقـاه ابراهيم من ربه فراحوا يخترعون أكذوبة أن بنى اسرائيل هم شعب الله المختـار ويؤكدون على ذلك فى كتابهم المقدس ٠ ولو أن ابراهيم لـم يقم ببناء بيت الله بمكة لمـا كانت له رسـالة فما ورد عنـه فى العهـد القـديم لا يجعله من أصحاب الرسالات ولا من أولى العزم من الرسل ، لنه رجل يتجول فى مصر وسورية ليست له دعـوة محددة كل همـه أن يحافظ على حياته وان ضحى بشرفه وفى العهد القـديم ينسب الى ابراهيم الهوان ويسكت عن بناء بيت الله المحرم ، لأن ذلك البنـاء سيرفع من شأن أبنـاء عمومتهم أبناء اسماعيل ، لم يكتفوا بأن يحرموا أبنـاء اسماعيل حقوق الوعد الذى تلقاه ابراهيم من ربه بل عمدوا لأن يسـلبوا اسماعيل كل فضل فزعموا أن الذبيح هو اسحاق ، مع أن التقاليد كانت تقضى بتقديم الابن الأكبر قربانا لله ٠

الفصـل السـابع

(٣)

اسـماعيل والتـوراة

سكت اليهود وهم يعيدون كتابة التوراة فى المنفى متعمدين الاعراض عن تاريخ اسماعيل وذريته ، وفى العصر الحديث أخذ مؤرخو الصهيونية فى اثارة الشبهات حول وجود اسماعيل وجرى طه حسين فى مجراهم فزعم ان وجود ابراهيم واسماعيل أسطورة من الاسـاطير ، يقـول الاستاذ عبد الحميد السحار أن سرجن تـون فى العصر الفيكتورى هو الـذى اكتشف الغاصمة

الأشورية الجديدة التى بناها سرجون الثانى فى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد فاصبحت اشور فجاة ملء الاسماع وزخرف المجلات المصورة فى كل من انجلترا وفرنسا بصور تمثل مناظر الحرب والفتح لشعب لم يكن يعرف عنه حتى ذاك الوقت الا بعض لمحات فى التوراة وبيانات غير واضحة . وقام هنرى لايرد بالتنقيب عن نمرود وتكشفت حضارة بابل واشور وقد لعبت دورا هاما فى تاريخ المنطقة اذ ذاك فقد سجل الأشوريون ما كان بينهم وبين هؤلاء العرب من بنى اسماعيل من مناوشات وحروب . اعلنت الواح الطين التى كتبت بالخط المسمارى والتى وجدت فى اطلال بابل واشور ونينوى وبلاد ما بين النهرين ، ان بنى اسماعيل كانوا حقيقة واقعة وان ابناءه الاثنى عشر صاروا قبائل قوية تناوىء بابل واشور ومصر والاغريق والرومان .

واثبتت الحفريات والنقوش ان اسماعيل عليه السلام كان يمشى فى الأسواق وكان صادق الوعد نبيا .

وهكذا كانت الكشوف الأثرية قد حررت التاريخ البشرى من الزيف الذى حاول دسه اليهود ومن المزاعم التى حملوها دوائر المعارف المختلفة وحاولوا غرسها فى عقول الشرق والغرب لتكون أداة الى فرض مؤامرتهم .

كذلك صححت الكشوف الأثرية ما رددته كتب التاريخ من أخطاء حول النبط وكشفت عن أن دولة النبط كانت قبيلة نابت بن اسماعيل وقد امتد سلطانها حتى احتلت دلتا النيل وطور سيناء ودمشق ووصلت الى حدود بلاد النهرين وقد عرفها المؤرخ اليهودى يوسيفوس فى القرن الأول الميلادى فقد عثر على نصوص نبطية فى البتراء وكانت تعرف من قبل بسلع - عاصمة ملكهم بوادى موسى والحجر والعلا وتيماء وخيبر وصيدا ودمشق وطور سيناء والجوف واليمن ومصر وايطاليا .

وكانت كتب التاريخ تذكر ان النبط جيل من العجم ينزلون البطائح بين العراقين اما النبط الذين ورد ذكرهم فى كتابات يوسيفوس فهم ابناء

نابت بن اسماعيل وقد اطلق اسم النبط على منطقة واسعة تمتد من نهـر الفرات حتى تتصل بحـدود الشـام الى البحر الأحمر وهمـا من مناطق اولاد اسـماعيل ٠

وقد عرفت مصر التوحيد قبل اخناتون : عرفته يوم جاء ابراهـيم الخليـل الى مصر ويوم جاء يوسف وجاء ابوه يعقوب واخـوته واستقروا فى الدلتا وكانوا يعبدون الله وحـده لا شريك لـه ، وذلك قبل أن يدعـو اخناتون الى عبادة الشمس ولم يكن اخناتون أول من عرف التوحيد كمـا قيل بل كانت دعـوته نكسة بعد دعوة ابراهيم واسماعيل ويعقوب بل ردة عن التوحيد وتكشف الوثائق والأحافير أن اسحق ويعقوب ويوسف وموسى لم يكونوا هودا بل كانوا مسلمين موحدين (أم يقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل : أأنتم أعلم أم الله) والواقع التاريخى ينفى كونهم يهودا فقد كانوا مسلمين على ملة ابراهـيم والأسباط هم اثنا عشر رجـلا من أبنـاء اسرائيـل ينتسبون الى يعقـوب (اسرائيل) حتى صـار ملك اسرائيـل لداود وسـليمان وكانا من نسـل يهودا فارادت قبيلتها ان تستأثر بالفضل وحدها فانقسمت اسرائيل بعـد مـوت اسرائيل ٩٣٧ ق ٠ م الى دولتى يهوذا واسرائيل ومنذ ذلك الوقت بدأت اليهودية ٠ وكان ابراهيم واسحق ويعقوب قبل يهوذا وكان يوسف سبطا من الأسباط مثل يهوذا وكان موسى من نسل (لاوى) ولم يكن من نسـل يهوذا وقد عرف بنو اسماعيل وبنو اسرائيـل ذلك الكنز الروحى الذى جاء به ابراهيم وكانوا يدعـون الله رب العالمين حتى عرفت قبيـلة (يهـوذا) هذا التعصب المقيت بعد ملك سليمان فادعوا أنهم وحـدهم الناس وأن من عداهم أمم وأن لن يبعث رسـولا الا منهم ولـن يبعث فى الاميين رسـولا ٠

وقد فرق القرآن بين بنى اسرائيل وبين اليهود فلم يات ذكر لليهود فى القرآن قبل ملك سليمان وقد ذكر الله بنى اسرائيل بنعمته التى أنعـم بهـا وبالهدى وبالكتاب ولم يذكر اليهود بخير ٠ ذلك بانهم ادعوا انهـم

ابناء الله واحباؤه وانهم شعبه المختار وقصروا الخير على انفسهم دون الاميين :

(وقالوا : لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى)

وما طرا على التوراة من تغيير بعد ايام المنفى وكيف بدلت صفات الله الى صفات (يهوه) اله اليهود القاسى المستبد (سبحان الله عما يصفون) وكيف كان اليهود من اوائل الشعوب التى نادت بالتفرقة العنصرية بعد إن كان ابراهيم يدعو الى العالمية والى الأخوة البشرية ٠ وجاءت كلمة (امى) فى القرآن نسبة الى الأمة والامم ردا على مزاعم اليهود فقد قالوا ان الله اصطفاهم على العالمين ولن يبعث فى الأميين رسولا فجاء القرآن يدحض هذا الزعم :

(هو الذى بعث فى الأميين رسولا) ٠

(ذلك بانهم قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل) ٠

(الذين يتبعون الرسول النبى الأمى) ٠

وهم الذين كتبوا التوراة بايديهم فى ارض السبى فحملوا انبياء الله كل نقائص البشر وجعلوا نوحا شارب خمر وابراهيم كذابا وابنتى لوطا اسكرتا اباهما ، ورموا داود بالزنا ، وملئوا كتاب الله بأساطير الشعوب ٠ وكان الطبرى من اكثر المؤرخين الذين نهلوا من التوراة التى كتبها احبار اليهود فى بابل دون تمحيص وقال الامام على : من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة ٠

وكان بنو اسرائيل عربا كما كانوا بنو اسماعيل ولكن اليهود بعد إن انقسمت مملكة بنى اسرائيل الى مملكتى اسرائيل ويهوذا عقب ملك سليمان حاولوا أن ينفصلوا عن اصلهم العربى بتأسيس (جنس) لا سند له من التاريخ فاطلقوا على انفسهم : اسم اسرائيل نسبة الى يعقوب بن اسحق ٠ وعاش بنو اسرائيل بين (الكنعانيين) واتخذوا العبرية عنهم وكانت بينهم

وبين الكنعانيين أصحاب فلسطين الأصليين حروب · وتعمد اليهود اقصاء الكنعانيين في توراتهم التي كتبوها في المنفى بعد عصر موسى بمئات السنين من جدول انساب (سام) لاسباب دينية وسياسية مع أنهم يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من الصلات العنصرية واللغوية واشتد التعصب بين قبائل بني اسرائيل بعد أن صار ملك اسرائيل الى داود وسليمان وكانا من نسل يهوذا وقد ظهر ذلك التعصب بوضوح في اصحاحات الأنبياء التي دونت في المنفى فلم يرد اسم موسى في (اشعيا) لأن موسى من اللاويين ، ولم يكن من نسل يهوذا يقول ول ديورانت : في كتابه (قصة الحضارة) وأكبر الظن أن المزامير ليست كلها من وضع داود وحده بل من وضع طائفة من الشعراء كتبوها بعد الأسر اليهودي بزمن طويل ويقول : اذا ما وضعنا الى جانب هذه المزامير (نشيد سليمان) لاح لنا ما في الحياة اليهودية من عنصر شهواني دنيوي ولعل كتاب العهد القديم قد أخفوه عنا ولسنا ندري كيف غفل أو تغافل رجال الدين عما في هذه الأغاني من عواطف شهوانية فاجازوا وصفها بين اقوال اشعياء والخطباء ·

كذلك ظلم اليهود سليمان وزعموا انه مات كافرا بالله وجاء القرآن لينصف داود وسليمان ويغسل عنهما وعن انبياء الله ادران من كتبوا الكتاب بأيديهم :

(فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم)

ولقد عمى على اليهود الأمر فقست قلوبهم ونسوا دعوة ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف وموسى يوم راحوا يكتبون التوراة بأيديهم في المنفى ونسوا الحياة الأخرى التي كانت دعوة جميع الأنبياء وحسبوا ان الانسان يثاب على أعماله في الدنيا واذا مات ذهب الى الهاوية (كما كان يعتقد أهل بابل قبل بعثة ابراهيم الرسول وبعده) ومن هنا كانت حيرتهم ومشكلتهم مع القدر ، ان مشكلة الانسان وقدرة وتصرف الاله معه على هذه الأرض لا يحل · الا اذا آمن الانسان بأن حياته على

الأرض تتبعها حياة أخرى ترفع عنها كل المظالم وتصحح كل الأخطاء ، واليهود كانوا يؤمنون بالدهرية وبان حياتهم الدنيا هى كل حياتهم ومن هنا جاءت الحيرة والقلق والشك والعذاب :

(أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا)

هذه هى الحقائق التى توصل اليها البحث العلمى بعد الحفريات والاثار التى كشفت فى السنوات المائة الاخيرة وكلها تدحض نظريات اليهود التلمودية ودعاواهم وتؤيد القرآن الكريم ، ولقد استطاع الاستاذ عبد الحميد جودة السحار رحمه الله أن يصل الى ما قدمناه من نصوص واوردها فى كتابه (محمد رسول الله والذين معه) وهى اضافات هامة للباحثين فى عصر ما قبل الاسلام وهى تكشف عن الزيوف والسموم والشبهات العديدة التي قدمها الاستشراق والتغريب والتى هى سائدة الآن فى افق البحث العلمى فى تاريخ الاسلام فى الجامعات والمعاهد ، يقول الاستاذ السحار : اندثرت الحضارة التى قامت فى جزيرة العرب بعد الخليل ابراهيم الى أن بعث محمد رسول الله . وقد بدأت بطن الأرض تلد أسرارها فى هذه المنطقة وستكشف الأيام القادمة عن حقائق مذهلة وتوضح أثر تلك النهضة الروحية التى بثها الخليل وذريته والتى ظلت مؤمنة بالله وحده حول الكعبة ولم تعرف الشرك بالله الا قبل بعث محمد بثلاثمائة سنة .

لقد أشرك بنو اسرائيل بالله وموسى بينهم ، وعبدوا الهة الشعوب فى كل العصور أما بنو اسماعيل فقد ظلوا حول الكعبة فقد عبدوا الله وحده وازدهر فيهم دين ابراهيم ولم تقع نكسة الشرك فيهم الا بعد أكثر من الف سنة من بعثة الخليل وظلت ملة ابراهيم فى الحنفاء منهم الى أن بعث محمد ﷺ ليعيد شريعة ابراهيم « ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

وهكذا نجد أن البحث العلمى الأصيل قد انكر التوراة الحالية وأن الكشوف الاثرية قد كشفت زيف الدعوى الصهيونية وان كليهما قد اثبتا سلامة الحقيقة الابراهيمية الحنيفية وفساد العنصرية التلمودية .

الفصـــل الثـــامن
العـروبة وليسـت السـامية

لا ريب أن فكرة « السامية » التى طرحها البحث الغربى الحديث فى اطار دراسـات العرب قبل الاسـلام من الدعوات الخطيرة التى لريـد بهـا انتقاص الدور الابراهيمى الذى قامت به الحنيفية ممثلة فى ابراهـيم واسماعيل فى الجزيرة العربية وامتدادها فى حواشى الشـام والعراق واعلاء هذا الدور بنسبته الي مجهـول هو (سـام) الذى لم تذكره غـير التوراة المكتوبة باقلام الأحبـار ٠

ولا ريب أن الصهيونية التلمودية ، حين أرادت أن تخطط لدعوتهـا فى أوائل العصر الحديث وفى ظل اعداد بروتوكولات صهيون أرادت ان توجـد أصلا تجعل نفسها منه فرعا مسـاويا للغرب وموازيا لهم بقصـد ادعـاء نـوع من القـرابة ٠ ولكى تصرف هـذا المجـد كله عن الابراهيمية والاسماعيلية والعرب وتنسبه الى سام بن نوح ، هذا هو المخطط الماكـر الذى لابد أن يكون قد عرفه العالم النمساوى (اوغست لودويك شلوتسر) عـام ١٨٧١ حين تـحـدث عن جنس مشترك لهذه الشعوب التى عاشت فى المنطقة العربية واطلق عليه الجنس السامى واخـذ هذه التسمية من التوراة (التكوين : الاصحاح العاشر ١ / ١٢) أخذها من اسـم سام بن نوح ٠

والواقع أن كل موجات الهجرة التى تدافعت من جزيرة العرب الى اطراف المنطقة الممتدة من العراق الى اقصى المغرب كالبابلين والكنعانين والعبرانيين والفنيقيين والاراميين هى موجات عربية وانها تدفقت بعد بناء الكعبة وقيام الأمة الاسماعيلية التى تشكلت من اسماعيل بن ابراهيم وقوم جرهم فى ظل البيت الحـرام فى مكة فربطت بين الجنـوب والشـمال وبين القطاعين : قطاع قحطان وقطاع عدنان فيما بعد ٠

ولا ريب كانت مختلف الحضارات التى ظهرت فى هذه المنطقـة هى حضارات عربية ٠ يقول عبد الحميد جودة السحار : كانت حضارة بابـل

عربيــة وحضارة العموريين عربية وحضارة الكنعانيين عربيــة وحضــارة سيناء عربية وحضــارة ثمــود عربيــة وقــد اكتشــفت هــذه الحضــارات وعرف انها حضارات عربية خالصة ولكن بعض العلماء راوا ان ينسبوها الى جد اعلى حتى لا يلقوا الاضواء على مجد اقوام نافسوا بنى اسرائيل منــذ ايام الخليل ابراهيم فاطلق العالم الالمانى سلوتيسر اسم السامية نسبة إلى الاقوام السامية والحضارات السامية وتبعهم الكتاب العرب » ٠

ومن هنــا نــرى ان هنــاك مؤامــرة صهيونية عن طريق الاستشراق تستهدف حجب هذا التاريخ الضخم ، وان هذه المؤامرة تجرى فى نطــاق التوراة الكتوبية التى سكتت عن ذكر ذهاب ابراهيم الى الحجاز وعن علاقة ابراهيم بالجزيرة العربية وبنائه ولبنــه اسماعيل الكعبة وذلك جريا مع الهدف التلمودى الذى يرمى الى اخراج ابناء اسماعيل من حقوق الوعــد الذى تلقاه ابراهيم من ربــه ٠

يقول السحار : حرم اليهود أبناء اسماعيل حقوق الوعد الذى تلقاه إبراهيم من ربه بل وأرادوا أن يسـلبوا اسماعيل كل فضــل فزعمــوا أن الذبيح هو اسحاق ٠

ثم مع انسياح القبائل تحت راية الاسلام الى بلاد الشــام والعــراق ووادى النيل شماله وجنوبه والأقطار المغربية فى شمال أفريقيــا ثم انسياح القبائل الذى استمر بعد الموجــة الاسلامية الأولى من الجزيرة الى جميــع الانحــاء والى سواحل أثيوبيا والصــومال دون انقطاع ٠ فكل ما تقــدم يبرز بوضــوح ان كل العناصر انما كانت من سكان جزيرة العرب الأصليين القدماء ومنهم من هاجر الى الأقطــار المجــاورة ٠ فالعرب قبل دور العروبة الصحيح وبعــده جنس واحــد ولاسيما التشــارك فى اللغــة والأفــكار والعقائد والتقاليد ظــل قائما بين الباقين فى الجــزيرة والنازحين منهــا فى مختلف الأدوار ٠

كذلك أشــار الاستاذ دروزة الى ان القــول بأن لغــة اهــل جنــوب

الجزيرة غير لغـة شمال الجزيرة ليس صحيحا بمعناه الاجمالى وكل ما فى الأمر تنوع فى اللهجات واختلاف فى المسميات ٠

(وهذه الشبهة مما اثاره طه حسين فى كتابه الشعر الجاهلى والأدب الجاهلى واسرائيل ولفنسون تلميذه فى كتابه « اللغات السامية ») ٠

يقول : اما الاشتراك الفعلى فقد كان قائما على ما تدل عليـه نقوش الجنوب والشمال ، وقال ان غالبية سكان الهلال الخصيب ووادى النيـل كانت وظلت تحث اليهـا وتطعم بالهجرات المتوالية من الجـزيرة العربية والتى لم يكن سعيها ينقطع الى دور العروبة الصريح ثم دور الاسلام والتى تتمثل فى وحدة العروبة الشاملة وطابعها الذى يطبع هذه البـلاد وسيظل يطبعها الى الأبـد مادام وراءها الجـزيرة وتظلها راية القرآن ٠

ويقول لقـد حـكم اليـونان والرومان مصر وبلاد الشـام الف سـنة (٣٢٠ ق ٠ م ـ ٦٤٠ م) وجـاء منهم اليهـا وبخاصـة اليونانيون الألوف المؤلفة واستقروا فيها ونشروا لغتهم وثقافتهم وقد جمع بينهم دين واحـد هو المسيحية قرابة اربعة قرون وترجمت اليونان الكتب المقدسة وصـارت لغـة عبادة وطقوس لفرق كثيرة من النصارى ومع ذلك فانهم لم يستطيعوا ان يفرضوا طابعهم وصيغتهم بل كان جمهرة اهلها يرونهم غربـاء وينقبضون عن معاشرتهم بل يعتبرونهم انجاسـا ٠ وكذلك شان الفرس الذين كانت لهم السيادة على العراق اكثر من الف ومائتى عام (٥٢٨ ق ٠ م ـ ٦٤٠ م) وكان لدينهم وثقافتهم انتشـار واسـع حتى لقـد مجسـوا كثيرا من اهـل البـلاد ومع ذلك لم يستطيعوا ان يفرضوا طابعهم وصبغتهم فى حين ان الموجات العربية الصريـحة التى جاءت الى الهلال الخصيب فى حكمهم ورضخ ملوكها لسيادتهم العليا اخذت تفرض طابعها على البلاد وتمتزج باهلهـا القدماء بسهولة ويسر ، ثم جاءت موجـة الفتح الكبرى تحت راية الاسلام الى بلاد الشام والعراق ووادى النيل فاخـذ التمـازج يشـتد بينهـا وبين السكان السابقين ولم تكد تمضى بضعة اجيـال أو قـرون حتى توطـدت

السيادة فى هذه البلاد للطابع العربى الصريح وغدا شاملا عاما وليس هناك من تعليل لهذه الظاهرة التى تكررت فى عهد الاسلام بما كان من سيادة الترك على هذه البلاد قرابة أحد عشر قرنا (٢٠٠ — ١٢٣٢) وبما كان من زحوف تركية كبيرة اليها واستقرارها فيها .

ولا ريب أن هذا كله يؤكد ذلك الترابط الذى أقامته الحنيفية السمحاء التى مدت أجنحتها هذه القرون المتوالية على هذه المنطقة الواسعة من العراق الى مصر الى أفريقيا وهذا مصداق وعد الله تبارك وتعالى لابراهيم عليه السلام والذين ساروا على طريقه حتى جاء الاسلام ليجد هذه الموجات كلها وقد شكلت ذلك المهاد الواسع الذى استقبل دعوة الحق وحقق قيام هذه الأمة الوسطى : التى كانت خير أمة أخرجت للناس .

ومعنى هذا أن « الحنيفية العربية » وليست « السامية » هو الاسم العلمى الصحيح ويصدق هذا اذا علمنا « أن جزيرة العرب أخذت تسمى باسم العروبة الصريحة فى كتب اليونان والرومان وأسفار العهد القديم منذ ألفين وخمسمائة سنة فاسم العرب الصريح أخذ يطلق على أهلها المستعربين فى داخلها وتخومها الشمالية جزئيا ثم كليا منذ الفين وخمسمائة سنة كذلك بل قبل ذلك مما تدل عليه النقوش والمدونات القديمة واللغة العربية التى تكلم بها سكان الجزيرة والنازحون منها منذ الفين وخمسمائة سنة كذلك هى اللغة العربية الصريحة بقطع النظر عن تعدد لهجاتها وبعدها قليلا أو كثيرا عن اللغة الفصحى على ما تدل عليه آثار وأسماء وأعلام ، ونقوش السبئين والحجريين والنبطيين والتدمريين واللحيانيين والثموديين والصفويين العائدة الى الحقبة الممتدة من القرن الخامس قبل الميلاد الى القرن الخامس بعده وقد ساعدت عوامل متنوعة على سرعة تطورها بعد ذلك حتى بلغت ذروتها باللغة الفصحى قبل البعثة المحمدية بأمد قليل .

كذلك فان (الحنيفية العربية) هذه ظلت متصلة لم تنقطع بين قدماء

الجزيرة وقدماء النارحين فيها وبين الواقع الراهن الممتد الى الفين وخمسمائة عام ويصل بين قديم العروبة وحديثها وقد قال بهذا جمهرة من علماء العرب وباحثيهم (انظر جواد على ج ٢ ص ٢٨٧) .

وهكذا تلتقى الدراسات الحديثة فيما أورده محمد عزه دروزه فى كتابه الجنس العربى ، وما اورده عبد الحميد جوده السحار فى كتابه (محمد رسول الله والذين معه) وما أشارت اليه الدكتورة بنت الشاطىء فى كتابها (الاسرائيليات والغزو الفكرى) .

وذلك فى مواجهة تلك الشبهة التى طرحها الاستشراق والتغريب لافساد تاريخ الحنيفية الابراهيمية العربية الممتدة من ابراهيم عليه السلام الى محمد ﷺ ونسبة فضلها وآثارها الى جذر قديم لم يرد فى القران وهو « سام » الذى التقطه التغريبيون التلموديون من التوراة المكتوبة بأيدى الأحبار .

ولا ريب أن محاولة السامية ترمى فضلا عن ذلك الى تعزيز الاقليمية المصرية والسورية واللبنانية والعراقية ، وأن تلقى فى أذهان سكان وادى النيل والهلال الخصيب ، وشمال أفريقيا ومن الصلة بين أصولهم القديمة وبين العروبة وتجعلهم يعتبرون العرب الذين جاءوا هذه المرة تحت راية الاسلام « غزاة » كسائر الغزاة الذين طرءوا عليهم ووطدوا حكمهم فى بلادهم بالقوة وحسب . وكون ما هنالك من فرق هو أنهم أعطوهم دينهم ولغتهم حتى بالرغم من السيل الذى أخذ يتدفق من جزيرة العرب على هذه الأقطار فى دور العروبة الصريحة . وقبل الاسلام وبعده بدون انقطاع ويغمر مدنها وقراها وصحاريها وبواديها استمرارا لما كان يجرى قبل دور العروبة الصريحة والذى قد تفوق أعداده أعداد سكانها أضعافا ، والذى يتمثل فى كل ناحية من أنحائها وفى كل مظهر من مظاهر حياتها وتقاليدها ولغتها تمثلا شاملا .

(٢)

اللغــــة

ولا ريب أن الابحاث التى أجراها علماء اللغات والآثار قد كشفت عن حقيقة أساسية لا سبيل الى انكارها وهى أن هذه المنطقـة من جـزيرة العرب ووادى النيل والهـلال الخصيب وأثيوبيا متشـابهة ومتشـاركة فى الفكر واللغة والعقائد والتقاليد منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد تقريبا . وأن ذلك يرجع أساسا الى أصل واحـد مشـترك غـير انهم أخطـأوا حين نسـبوا هذا الاصـل الى سام بن نوح وهو اصـل بعيد جـدا والحقيقة ان النسبة الحقيقية انما تتركز فى ابراهيم عليه السلام .

يقول الاستاذ محمد عزة دروزة : لقد اصبح امر انسياح الموجـات من جزيرة العرب الى الاقطار المجاورة لهـا منذ اقـدم الازمنة وكـون الكلد والاشـور والاكدين فى العراق والكنعان والعمور والآراميين والعبرانيين فى جزيرة الفرات وبلاد الشـام ومعظم سكان وادى النيل شماله وجنوبه ومعظم سكان أثيوبيا والصومال من هـؤلاء المنسـاحين فى القـرون التاريخية من الحقائق التى لم تحتمل جدلا ولا سيما أن جـزيرة العـرب ظلت ترسـل بموجاتها الى هذه الاقطار دون انقطـاع قبل دور العروبة الصريح ، أى قبل أن تغزو اللغة العربية الصريحة لغة العرب واسم العرب اسما لهم ، ثم فى دور العروبة الصريحة قبل الاسـلام ثم منذ الاسـلام الى اليـوم بما سجلت أحداثه القديمة نفوس المصريين والاشورين والكلدانيين وأسفار العهـد القديم وكتب اليـونان الرومان القـديم وما قـرره علمـاء الآثار والتـاريخ .

ويقول عبد الحميد جوده السحار أن الاحافير والآثار (التى قـام بهـا علمـاء أجانب قد كشفت عن تقارب اللغـات العربيـة القديمة عـدا الاكادية فى الأجرومية والمنطق بحيث تشترك كل لهجة وما جاورها ولا يلحظ الانتقـال من لهجة الى لهجة الا كما يلحظ مثل هذا الانتقـال اليوم بـين

اللهجات الفرنسية والجرمانية (أورد هذا البرايت فى كتابه عن أحافير فلسطين) وقد أكد غير واحد من الباحثين أن ابراهيم كان يتكلم العربية وان لم تكن العربية التى نزل بها القرآن أو التى نتكلمها اليوم وكانت اللغة فى اليمن والعراق والشام والحجاز لغة واحدة وان اختلفت لهجاتها كما تختلف لهجات الامم العربية هذه الايام ، ويستشهد على ذلك الاستاذ السحار بالآية الكريمة :

(كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس) .

الفصل التاسع
مؤامرة السامية

ان المؤامرة التى دبرتها الصهيونية التلمودية هى طرح « نظرية السامية » للقضاء على الصلة التى قامت بين الحنيفية الابراهيمية والرسالة المحمدية فاصبحت تشكل تاريخ ثلاثة آلاف عام على طريق التوحيد الخالص بداية ثم انحرف ثم عاد اليه مرة أخرى . كان الهدف متعددا ، يرمى أولا الى ألغض من العروبة الحنيفية التى تشكلت فى هذه المنطقة الواسعة بالهجرة والموجات البشرية المتوالية الخارجة من قلب الجزيرة الى أطرافها ، ومحاولة القول بان العرب واليهود من جنس واحد ، ومحاولة القول بان اليهود فى الجزيرة العربية هم عرب يهود وليسوا من الذين هربوا من مقتلة تيطس عام ٨٠ ميلادية وما بعدها ، ومحاولة القول بأن العرب وبنى اسرائيل أولاد عم تربطهم أواصر الرحم والقربى المشدودة الى عرقهم السامى الذى توغل جذوره فى أعماق بلاد العرب .

ولذلك فقد كان من مخطط الصهيونية التلمودية التى بدأت من خلال الفكر والثقافة فى أوائل هذا القرن خلق هذه الدعوى العريقة ودعمها وفرضها على مناهج الدراسة فى الجامعات حيث نشأت دراسات باسم

اللغات السامية والأديان السامية وما الى ذلك من دعوات قام بهـا يهود فى الجامعـات ثم ورثها من هم اتبـاع الاستشراق اليهـودى والتلمودية . اسرائيل ولفنسون ، يوسف شاخت تحت مظلة الدكتور طه حسين .

تقول الدكتورة بنت الشـاطىء ، ليس غريبـا وقـد سيطرت فكرة السامية على المؤرخين الاوربيين أن تابع العلماء هذه المقـولة الاسرائيلية لمـا بدا لهم من ظواهر التشـابه المدعى بين العرب وبنى إسرائيل وجهها الاستشراق الى تأصيل القرابة المدعاة مع التركيز بوجـه خاص فى أول أمـر على الحجاز عهد الاسلام قريش صفوة العرب العدنانية وفيهـا نسب نبى الاسـلام عليه الصلاة والسلام وعلى اليمن منزل العـرب القحطانية الصحيحة العاربة .

« وكذلك أخذت اللغة العبرية مكانها فى اللغـات السامية ، أختـا للعربية بما كشف علم اللغات فيما علمنا المستشرقون ـ من أن أمما ذات لغـة واحدة كانت تسكن البقـاع الواقعة بين القفقاس وجنوب بلاد العـرب ودل درس اللغات السامية أن لغـات تلك الامم وهى العبريـة والفينيقية والسريانية والاشورية والكلدانية والعربية ، وثيقة القرابة متحدة الاصـل . وفى مسمعى الآن صدى باق من صوت معلمنا اليهـودى الدكتور يوسـف شاخت وهو يكشف لنا فى كلية الآداب بجامعة القاهرة عن أسرار فقـه لغتنا العربية ويبهرنا بما فى جعبته من حيل لغوية اقنعتنا بأن العربيـة ليست الا مقلوب عبرية وأن العرب انما أخذوا أسمهم من عربه التى هى فى العبرية بمعنى الصحراء ووضعت بين أيدينا محاضرات لسلفه اليهودى (اسرائيل ولفنسون) أبى ذؤيب فيما كنى نفسـه ـ القـاها على الطـلاب الذين سبقونا مجموعة فى كتاب (تاريخ اللغات السامية) ليقرأها أفواج من الطلاب الذين لم يسعدهم الحظ بلقاء المعلم اسرائيل أبى ذؤيب والتلمذة عليه ، تقرأ هذه المحاضرات فترى اليهـودية اختلطت فيهـا بالعربية . ولطول ما الح فى تقرير وحدة أصلها السـامى فما نكاد نميز فيهـا الحـد

الفاصل فى تصور هذا المعلم الفقيه بين السامية واليهودية ولا بين اليهودية والعبرية .

(راجع كتاب الدكتورة بنت الشاطىء : الاسرائيليات فى الغزو الفكرى) .

وهكذا واليهود فى اسرائيل يعيدون الجامعة العبرية ويعيدون أحياء اللغة العبرية بعد اختفائها ألفى سنة كاملة ، نجدهم يقيمون هذه الدائرة الخطيرة من التآمر على العرب والعربية والاسلام فى محاولة للقول كذبا وتضليلا بأن العبرية أخت العربية أو أن اليهود أبناء عم العرب وتلك قضية لها أبعادها الدقيقة فى داخل دائرة الحنيفية الابراهيمية على مدى هذه القرون المتطاولة ولا يمكن أن تقدم بهذه الصورة التى يتضح فيها عنصر الخداع والتآمر .

وقد دخل الى هذا الميدان كثيرون من جنود الصهيونية التلمودية :

كتب دوزى : كتابه (صلات بين العرب وبنى اسرائيل) تحدث فيه عن ملامح متشابهة بين قريش واليهود وكتب مارجليوث كتابه عن بنى اسرائيل ومكة ، ذهب فيه الى أن الموطن الاصلى لبنى اسرائيل كان بلاد اليمن ومنها خرجت هجرات الى شمال بلاد العرب ودليله بعض ألفاظ التقطها من لغة سبأ البائدة تشبه ألفاظا عبرية وبعض عادات دينية والوجهة المبتغاة هى « تأصيل القرابة المدعاة بين العرب واليهود مع التركيز على الحجاز مهد الاسلام وقريش صفوة العرب العدنانية وعلى اليمن منزل العرب القحطانية » .

والتاريخ الصحيح والوقائع الجلى تثبت أن اليهود ما كان لهم وجود فى جزيرة العرب وانما جاءوها من الشمال هاربين من تيطس الذى قتل منهم أرجالا كبيرة فى القدس .

كذلك فقد جرت ادعاءات كثيرة مضللة كالقول بانهم وضعوا شريعة

حمورابى وان لهم اثرهم فى حضارة بابل مع ان الحقيقة الأكيدة هـو انهم انتهبوا من مختلف الامم والحضارات مظاهر ادعوها لانفسهم وانه لم تكن لهم حضارة حقيقية لأنه لم يكن لهم وجـود ثابت يمكن من قيام الحضارة ٠

ولقد اسرعت الصهيونية التلمودية فالقت بهذا الركام كله الذى صنعته فى اطار الدعوة الى الدولة اليهودية وبروتوكولات صهيون ١٨٩٧ فالصق باول الفرق التى عبرت الى أوربا فى عصر النهضة (طه حسين ومحمـود عزمى ومنصور فهمى وهيكل وسـلامه موسى وأمين الخـولى) فسرعان ما أعلن الدكتور طه حسين فى أولى محاضراته فى الجامعة أسقاط ابراهيم واسماعيل وانكار وجودهما وانكار رحلة ابراهيم الى الجزيرة العربية وبناء الكعبة وكان هذا أول السهام المسمومة التى وجهتها الصهيونية التلمـودية الى التاريخ الاسلامى ثم أسقط بعد ذلك عبد الله بن سبأ اليهودى وأنكر وجـوده ، ثم قدم اسرائيل ولفنسون الذى ادعى دعواه العريضة المضـللة بالروابط بين العرب واليهود وبين العربية والعبرية فى محاولة زائفة لتمهيد الطريق للصهيونية العالمية فى قلب عالم الاسـلام ٠

والمعروف أنه قبل ابراز فكرة الصهيونية جرت عمليات احتواء ضخمة لدوائر المعارف العالمية بطرح مسليات خطيرة عن وعد ابراهيم وحـق شعب الله المختار فيه وانكار ابراهيم واسماعيل وقد طرحت هذه المفاهيم فى دائرة المعارف الاسلامية التى كتبها المستشرقون اليهود والصهيونيون والتى ضمت عشرات من الشبهات حـول تاريخ الاسـلام وأصـوله وفى مقدمتها مؤامرة السامية ، وآثارها فى علم الاجناس وعلم اللغات وبدات المصطلحات التغريبية تفرض على التاريخ الاسلامى فبرزت عبارة تاريخ العرب ، حضارة العرب ، تـحريك هذه المصطلحات فى دائرة ما أسموه (بالسامية) ومضت الصهيونية التلمودية فى التآمر ضد التاريخ الاسـلامى فدعـت الى تجـديد الحـديث عن الثورات والمؤامرات التى وقعت ضد الاسلام ودولتـه وأطلق عليهـا اسم حركات العدل ووقف طه حسـين فى معهد التربيـة ١٩٤٧

ليتحدث عن الزنج والقرامطة على أنهم طلاب عدل وهم المتآمرون على الاسلام والمتصلون بالمجوسية والباطنية لهدم دولة الخلافة .

وليس هناك من شك فى فساد هذه الدعوة الى السامية والى تقسيم الجنس البشرى الى ساميين وحاميين وآريين ، واتخاذ مصدر ذلك التوراة التى كتبها الاحبار فى منفى بابل ولقد وضعت هذه الدعوة منذ وقت بعيد تحت أضواء العلم الصحيح فتبين بطلانها لان القرون البشرية أكثر من ثلاثة ولأن ثلاثة نفر من أبناء رجل واحد لا يمكن أن يخرج منهم أجناس ثلاثة متباينة بمثل هذه السرعة التى تخيلها أولئك المؤرخون . كذلك فان الرأى الصحيح هو أن الشعوب التي سكنت بلاد العراق والشام ومصر وافريقيا قد خرجت كلها من شبه جزيرة العرب فى أزمنة متعاقبة وفى موجات متلاحقة منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة وفى اطار الدعوة الابراهيمية الحنيفية ، وأن آخر هذه الموجات هى الموجة الاسلامية المحمدية ، وأن كل هذه الشعوب ذات الاسماء المختلفة هى عربية حنيفية وان كل هذه اللغات انما ترجع الى اللغة الام : اللغة التى نضجت قبل لغة النبى محمد والتى جاء القرآن فاستصفى أجود لهجاتها : لغة قريش فنزل بها .

كذلك فقد ثبت كذب الدعوى المبطلة التى ساقها الاستشراق اليهودى الصهيونى التلمودى وحمل لواءها الدكتور طه حسين بايقاع الخلاف بين عدنان وقحطان : لغة وجنسا . وقد ذهب الباحثون الى فساد هذه المحاولة الداخلة فى مؤامرة السامية فهى جزء منها وفى انكار ابراهيم واسماعيل والرأى على أنه لا توجد فوارق واسعة بين الحميرية والعدنانية أو أنهما لغتان متميزتان وأن الخلاف بينهما لا يزيد على اختلاف اللهجات بل ان العلماء يصلون فى تقدير الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ، الى ان هناك عوامل عديدة قربت بين لغة السبئيين والحميريين من لغة العدنانيين واستمر عمل هذه العوامل الى ما قبل ظهور الاسلام . ويقول متسائلا : والا فكيف كان يفهم ولاة رسول الله ﷺ على اليمن لغة أهل اليمن وكيف

فهم رسول الله ﷺ لغة وفد اليمن الذى قدم المدينة عام الوفود ليسلم بين يدى الرسول : والواقع أن القحطانية والعدنانية هما فى الاصل لغة واحدة والخلاف بينهما ليس الا خلافا فى اللهجات .

الفصل العاشر
الغرب والمسيحية

نزلت رسالة الاسلام بعد المسيحية بستة قرون ففى عام ٦٢٠ تقريبا من التاريخ المسيحى أنزل الله تبارك وتعالى رسالته ووحيه وقرآنه على سيدنا محمد ﷺ وكانت المسيحية اذ ذاك قد سيطرت على الدولة الرومانية فى الغرب بعد أن انتشرت فى مصر والشام وافريقيا .

وكانت أجيال معاصرة لمولد الرسول وموعد رسالته تعرف أنه قد أظل الناس وقت رسالة خاتم النبيين فقد كانت التوراة المنزلة والانجيل المنزل يبشران برسالة محمد ﷺ وكانت كتب القدماء تصف ذلك العصر حتى أن كثيرا ممن آمن برسول الله كان يعلم ومن هؤلاء بلال الحبشى الذى سعى الى الجزيرة العربية بحثا عن رسول الله الذى أوشك عصره ، وكان اليهود يستفتحون باسم الرسول محمد على أعدائهم وقد ظل الكثيرون ممن آمنوا برسالة عيسى عليه السلام معتصمون بالجبال مؤمنون بالله ربا وبه نبيا جيلا بعد جيل ينتظرون النبى الخاتم حتى جاءت البشرى بنبوة محمد ﷺ فآمنوا به حسبما جاءت الآيات فى الانجيل المنزل .

وقد كانت المفاهيم المسيحية الصحيحة التى حمل لواءها اريوس ومدرسته من بعده تؤمن بأن عيسى عليه السلام هو آخر أنبياء بنى اسرائيل وأنه جاء مكملا لهذه الرسالة التى جاء بها موسى عليه السلام ومبشرا برسول يأتى من بعده اسمه أحمد .

لقد فصل القرآن الكريم فى مختلف القضايا والخلافات والتفسيرات والتغييرات التى طرأت على طريق الله الحق وأعطى المسيحية حجمها

الحقيقى ودورها الطبيعى فليست المسيحية دينا عاما انما هى فرع من الدين الذى أنزل على موسى أرسل الله بها عيسى مصدقا لما بين يديه من التوراة وليحل لهم بعض الذى حرم عليهم ومصححا للانحرافات التى طرأت على دين موسى عليه السلام .

فدعوة المسيح : تركز على المعنويات حيث تركز اليهودية على المادة وتعترف المسيحية بالآخرة حيث تنكر اليهودية البعث والجزاء وتدعو الى الترفق بالانسانية ازاء ظلم اليهود وطعناتهم وتدعو الى التواضع والمحاسنة فى مواجهة استعلاء اليهودية وغطرستها وتدعو الى (إله) رب العالمين لارب الجنود فقط حيث يعبد اليهود الههم (يهوه) ويرون أنه الههم وحدهم وكذلك فدعوة عيسى تدعو الى العفو عند المقدرة واليهود لا يعرفون الا المقايضة والربا وتدعو الى احترام الحق العام بترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله واليهود لا يحرمون الا حقوق طائفتهم فقط .

هذه المعانى التى جاء القرآن بها نجد علماء الغرب لا يقبلون بها الا بعد أربعة عشر قرنا فيقول الدكتور جارذر الاستاذ بكلية جيرتن بكامبرج :

« ان يسوع ظهر لمعاونيه بصفة نبى تابع لكنيسة اليهود لا مضاد لها وأيده بعض القسوس وخالفه رئيس الشمامسة . وأن المسيحية ظهرت فى أحضان البيئات الاسرائيلية مخالفة لتعاليم اليهودية حيث تركز اليهودية على المادة بينما تركز المسيحية على المعنويات والاعراض عن الدنيا والاعتراف بالآخرة » .

ويرى كثيرون أن السيد المسيح قد عبر عن حجم رسالته حين قال : لا تظنوا أنى جئت لانقض الناموس أو الانبياء . ما جئت لانقض بل لاكمل (متى : ٦ : ١٧) .

ويقول الدكتور راشد شماس كارليل ان قراءته للكتاب المقدس اثبتت أن المسيح ليس الها ولم يدع الالوهية . وأن مسيح الاناجيل ومسيح بولس شخصان لا يتفقان . ويرى الكثيرون من الباحثين الغربيين : أن المسيحية

لا تعتبر ديانة مستقلة عن اليهودية الا من حيث أنهـا حررتها من الانحراف الذى طرأ على اليهودية وأن المسيح عيسى هو آخر أنبيـاء بنى اسرائيل ٠

وهكذا نجـد أنه بظهـور الاسـلام تجدد الحديث عن دين عيسى عليه السـلام ورسالته فى اطار الواقع الذى تحركت فيـه المسيحية الى الغـرب وسيطرت على عالم الغرب وفق المفاهيم والتفسيرات التى حولتها من وضعها الصحيح الى وضع آخر مغاير لذلك تماما ٠

ومن الحق أن يقال أن المسيحية لم تتمكن من أن تكون دينـا رسـميا للامبراطورية الرومانية الا عام ٣٥٣ تقريبا وأن روما لم تلبث أن سقطت فى براثن غزو القـوى المغيرة عليهـا عام ٤٥٠ تقريبا وعندما جـاء الاسـلام فى القرن السابع كانت الدولة البيرنطية هى التى تحمل لواء المسيحية ثـم لم تلبث كنيسة روما أن ميطرت على أوربا سياسيا ودينيا ٠

وعند نزول الاسلام كانت هناك فرقتان مختلفتان فى المسيحية : فرقة رايها قائم على التفريط فى حق المسيح عليه السلام فتذهب الى انكاره تماما وتقول انه شخص غير تاريخى وان صورة المسـيح التى تريـد الكنيسـة أن تنقشها فى عقول الناس وقلوبهم انما هى صورة مزورة ورثهـا النـاس عن الوثنيات القديمة وأن كل ما فى المسيحية له أصـل فى ديانات الوثنيين التى جاءت قبل المسيحية بالوف السنين ٠

والرأى الثانى قائم على الافراط فى حق المسيح عليه السـلام ورفعه الى منزلة الالوهية فجاء الاسـلام ليصحح الوضـع ويضع الامور فى نصابها فيعترف للسيد المسيح بالوجـود التاريـخى وينزهه وأمه عليهما السـلام من الصفات المريبة ويحفظ له المكانة التى وضعه فيها الله عز وجـل وينفى عنه تلك الشبهات والتفسيرات الباطلة ، فالمسـيح هـو نبى الله ورسـوله الى بنى اسرائيل وكلمته القاها الى مريـم ومبشرا برسـول ياتى من بعـده اسمه أحمد ، ويعارض الاسلام تلك الدعوات الثلاث التى جاءت فى تفسيرات الكهان : الصلب والتثليث والخطيئة ٠ فالمسيح فى نظر الاسلام رسول الله

الى بنى اسرائيل خلقه أولا كما خلق آدم عليه السلام ثم اصطفاه بعيدا عن التجسد والحلول .

« ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا ياكلان الطعام » .

« لقد كفر الذين قالوا : ان الله هو المسيح بن مريم » .

« لقد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة » .

ويرفض الاسلام نظرية الابوة رفضا تاما ويقيم بدلا منها مفهوم « العبودية » فكل أنبياء الله عبيد لله . ويقرر القرآن أن عيسى عليه السلام لم يصلب وانما شبه للذين حاولوا صلبه وأن الله رفعه اليه فالاسلام يقرر فى وضوح وتاكيد : أن المسيح لم يقتل ولم يصلب .

(وقولهم أنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه) .

كذلك فان الاسلام ينكر أن هناك خطيئة أصلية وقع فيها البشر كلهم نتيجة عصيان (آدم) عليه السلام أو أن السيد المسيح صلب فداءً للبشر وتخليصا لهم من الخطايا .

فمسالة آدم والخطيئة والفداء قال بها بولس نقلا من الاديان البشرية : حيث يقول : ان الله لم يغفر لآدم خطيئته بل ان غضبه لم يقف عند حد آدم بل تناول كل ذريته من بعده فقضى عليهم أن يعيشوا فى الخطيئة ابدا وأن يلاحقهم الموت بالتالى) .

ويقرر الاسلام أنه لا خطيئة اساسا وأن آدم أخطأ واستغفر وغفر الله له :

(فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم) .

كما يقرر أنه لا تزر وازرة وزر أخـرى ، وأن خطيئة أى فـرد من البشر لا تنسحب على الآخرين .

وان الله تبارك وتعالى قادر على أن يرفع عن البشر اصرهم والاغـلال التى فى أعناقهم بغير حاجة الى وساطة أحـد ودون أن يصير رسوله وعبده عيسى عليه السلام الى ما صورته التفسيرات المسيحية ابنـا لله يتجسـد وينزل الى الارض (تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا) .

وهكذا نجد ان الاسلام قد صحح دعوة عيسى عليه السلام ووضعها فى مكانها بين دعـوات الانبياء ورسالات السماء المتوالية من نوح الى محمـد ولقد حفظ الاسلام المسيحية وقدمهـا فى أنقى صورة وجعـل الاعتراف بها جزءا أصيلا من عقيدة المسلم كما اعترف بعيسى عليه السلام ومعجزة ولادته وكرمه وكرم أمـه العذراء مريم وكشف عن أن كلمة الله قد تمـت حقا وعدلا برسالة محمد ﷺ التى هى كلمة الاسلام الاولى التى القاها الحـق تبارك وتعالى الى كل نبى ورسـول ، واعلن ان الدين عند الله الاسلام ، وان من يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبـل منه . ونزل القرآن حافظا وكاشـفا ومقررا لكل ما جاءت به رسالات الله تبارك وتعالى ، ومهيمنا على جميع الكتب السابقة فقد وعد الله بحفظه (أنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) بينما استحفظ القائمون بالاديان السابقة على كتبهم .

وبهذا قرر الاسلام وحدة الانبياء من لدن نـوح الى محمـد ووحدة الرسالة : (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينـا) .

وان السيد المسيح رسـول الله وكلمته القـاها الى مريم وروح منـه (مصدقا لمـا بين يدى من التوراة ومبشرا برسـول يأتى من بعـدى اسمه احمـد) وأعلن أنه لا يتم اسـلام المسلم الا بالايمـان بكل أنبياء الله وملائكته واليوم الآخـر .

• وفى محيط هذه القضية كلها قرر الاسلام :

أولا : ان الملة هى ملة ابراهيم عليه السلام الذى أعطاه الله الوعد والامامة وجعلها فى عقبه من الصالحين وان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى •

ثانيا : إن المسيح عبد الله ونبيه أرسله الى بنى اسرائيل مكملاً للرسالة وليس الهـا ولا ابن الاله (تعالى الله عن أن يكون له ولد) وان المسيح لم يصلب ولكنه شبه لهم وان خطيئة آدم ليست خطيئة للبشرية ولكنها من عمل آدم الذى تاب الى الله فتاب الله عليه ولا ريب أن مفهوم الاسلام الاصيل الذى طرحه القرآن قد كانت له آثاره البعيدة المدى فى عصر النبى وبعده فان وفد نصارى نجران حين حضروا الى مسجد الرسول بالمدينة واقاموا لديه اياما يتحدثون اليه فى هذه الامور وغيرها فان الله تبارك وتعالى قد أوحى اليه أن يدعوهم الى المباهلة : بشأن اصرارهم على مفاهيمهم فى المسيح والمسيحية وعدم تقبل مفاهيم الاسلام ، « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم وأنفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الظالمين » فلما دعاهم الرسول الى المباهلة ترددوا وتراجعوا وانسحبوا •

ومع ذلك فقد ظلت المسيحية مطردة فى مفاهيمها وتفسيراتها مخاصمة للاسلام من اجل هذا الخلاف ، ولقد تدفق الاسلام وتملك شاطىء البحر الابيض المتوسط الشرقى والجنوبى ودخل الناس فى دين الله أفواجا فى هذه المنطقة التى سيطرت عليها الامبراطورية الرومانية بهلينيتها ووثنيتها ثم بمسيحيتها اكثر من الف عام ، وانطوت منها اللغتان السريانية فى سوريا والمسيحية فى مصر وغلبت العربية وبذا كان البحر الابيض المتوسط مجال صراع واسع ، حاولت فيه المسيحية اقتحام أرض الاسلام مرات وخاصة فى الحروب الصليبية ، ثم فى الحملة الاستعمارية الحديثة التى سيطرت على أغلب أراضى الاسلام والتى حملت لواء التغريب والاستشراق والتبشير فى محاولة لتزييف تاريخ الاسلام ومفاهيمه •

ولكن الاسلام لم يقف من المسيحية الا موقف السماحة والكرامة كما وقف من عيسى عليه السلام وأمه الصديقة ولا ادل على ذلك من العهود التى كتبها الرسول لأهل نجران والتى كتبها عمر لأهل ايلياء (بيت المقدس) وسماح المسلمين لأهل الكتاب (يهودا ومسيحيين) بالاحتفاظ بهياكلهم ومعابدهم فى مختلف انحاء العالم الاسلامى فى الوقت الذى قامت فيه المسيحية الغربية بقتل ٧٠ الف مسلم فى بيت المقدس ومئات الالوف فى الاندلس . كما أحل الاسلام للمسلمين طعام اهل الكتاب .

كذلك فقد حرصت كتابات الغرب على أن تحمل لواء التعصب والكراهية والحقد للاسلام فهي لم تعترف بدور المسلمين فى تحضير أوربا وانكار دور المنهج العلمى التجريبى الذى أنشاه المسلمون ، كذلك فقد حاولت أن تصور تاخر المسلمين فى هذه المرحلة بان مرجعه الى الاسلام :

يقول الكونت كاتبانى : « من المؤسف أن تذهب الكنيسة الى أن ظهور الاسلام كان ضربة قاضية على المسيحية بسبب اعتناق كثير من اتباعها هذه الديانة الجديدة على حين أن الامر بعكس ذلك فقد أدت الديانة الاسلامية عن طريق غير مباشر خدمات جلى الى المسيحية ، اذ لو لم تظهر الديانة الاسلامية وقدر للمسيحية الارثوذكسية الجامعة التى يعتنقها الاروام والروس والتى لم يقم أى دليل على نهضتها أن تبقى مهيمنة من ذلك التاريخ الى اليوم وحالت دون سطوع مدنية العرب والعجم فماذا يكون مصير غربى آسيا واوربا فى القرون الوسطى المظلمة . او لم تحل النهضة البروتستانية التى ظهرت على الاثر دون تدابير الارثوذكسية فى هوة الانحطاط . بيد أن هذه الخدمات التى قام بها الاسلام نحو المسيحية قد كادت أن تطمس معالمها من جراء النضال المستمر بين هاتين الديانتين فحجب وجه الحقيقية » .

ولا ريب أنه كان من عوامل الخلاف بين الفكر الغربى وبين الاسلام تلك الحواجز التى حالت دون النظر الصحيح :

(أولا) عقيدة المسيحية فى الالوهية والنبوة ·

(ثانيا) خصومة الكنيسة للاسلام وتحريضها على الحروب الصليبية

(ثالثا) الصلة التى قامت بين الغرب والدولة العثمانية خلال الخمسمائة سنة الاخيرة ·

يقول م · رح · كونت : ان الكثير من الغربيين شبوا على كراهية الدين الاسلامى وارتضعوا ذلك فى لبان أمهاتهم ، ويقول : بينما شب المسلمون جيلا بعد جيل على الايمان بموسى وعيسى وعلى حب المسيح ومريم والاديان والكتب السابقة جميعا ·

ولا ريب ان الخلاف الاساسى بين الاسلام والمسيحية ناشىء من اختلاف مفهومهما لله فان التوحيد الخالص هو أساس الاسلام والتثليث هو أساس المسيحية · وعن ذلك جرى الاختلاف فى تفسير الحياة والعقيدة والمجتمع ، كذلك فقد رفض الاسلام فكرة الابوة والرهبانية وفكرة عالمية المسيحية ·

ويقرر الدكتور اسماعيل راجى الفاروقى ان المسيحية الغربية هى التى افسحت للتفسيرات على النحو الذى خرج بها عن الاصل المنزل · ولا ريب ان المسيحية استطاعت أن تدمر الوثنية وأن تمهد للاسلام وان تعد البشرية لدين الانسانية حين دعت الى كسر عنصرية اليهودية ومادتها واعلاء مبدأ الرحمة والاخوة البشرية والاخلاق غير أنها حين قضت على المادية لم تستطع أن تتوسط ومالت الى الرهبانية وجاء الاسلام كما يقول الدكتور الفاروقى ليرد الامور الى طريقها الصحيح : الى الحنفية الابراهيمية القائمة على التوحيد والرحمة والاخاء البشرى ، ومن هنا ولاصالته ولفطرته انتشر بنفس السرعة الخاطفة فى مختلف المواقع العربية التى كانت المسيحية مسيطرة عليها وفى الاندلس استقر سبعمائة عام ·

وجاء الاسلام مذكرا ومؤكدا لرسالة الله الحق : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب » ·

« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله » جاء للقضاء على حد الافتراء وسوء الفهم . جاء بكتاب مملى املاء يكون نصه بمثابة الصخر الذى لا يتغير بتغير المفاهيم والثقافة . وهذا هو السبب التاريخى لقداسة لغة القرآن وحروفه ، حصر القرآن فى اللغة العربية ، حصر مبادىء التفهم بلا خوف مما حدث للكتب السابقة من تعريق أو ترويم أو تفريس ، معلنا أزلية ماهية الدين وجوهره . كذلك كشف الاسلام حقائق جديدة جاء الاسلام ارتقاء وتقدما على ما سبقه من رسالات الهية وان اتفق معها فى جوهر الرسالة بفتوحات جديدة فى الدين والاخلاق .

اهمها الميزان الاخلاقى وثبات القيم . لقد عجزت المسيحية عن العالمية التى حاولت أن تقوم بها لانها ليست دينا عالميا بل دينا مكملا لاديان بنى اسرائيل ، جاء الاسلام بعالمية مبنية على الاخلاق والارادة : « بناء الامة » .

« كنتم خير أمة أخرجت للناس » : تحقيق الخير والعدل ، تحقيق الارادة الالهية حيث عجزت المسيحية واليهودية عن تحقيق الارادة الالهية أو انشاء المجتمع الربانى ، جاء الاسلام يقول بالاخوة العالمية تحت القانون الاخلاقى .

« أخوة عالمية مبنية على القانون الاخلاقى » .

يقول تاريخ الاديان : « ان الاسلام جاء بمنهجية جديدة لم تكن مألوفة وان كانت أصولها راسخة فى الروح العربية وهى الدعوة الى الله عن طريق تربية الاخ لاخيه الاصغر » .

ولا ريب ان هذا العرض يفسر الاخطاء والشبهات التى حاول التغريب والتبشير والاستشراق اثارتها فى افق الفكر الاسلامى ويرسم الخلفية التاريخية لموقف الغرب من الاسلام : ودعوته وتاريخه .

الباب الحادى عشر
ما قبل الاسلام

هناك تلك المحاولة المسمومة لتزييف التاريخ الاسلامى بالقول بأن العرب قبل البعثة كانت أمة مهيأة للحضارة والملك وانه لما جاء النبى عليه السلام نهض بهم فنهضوا ووجههم الى الفتح والسيطرة فوصلوا بعد زمن قليل الى ما يريدون ، يردد هذه الشبهة اغلب المستشرقين وكتاب الغرب ومنهم ما سنيون ومرجليوث وغيرهما ، وهى تطفىء فى نفوسهم تلك الاحقاد التى تتلظى لان الاسلام استطاع فى اقل من قرن من الزمان أن يمتد من الصين الى حدود فرنسا ، ولا ريب أن هذه الدعوى باطلة بطلانا شديدا لان العرب قبل الاسلام لم يكونوا متحضرين على ذلك النحو الذى جعلهم مستعدين لإستقبال الاسلام فقد قاوموا مقاومة شديدة امتدت فى مكة ثلاثة عشر عاما ، واضطرت الرسول الى أن يتخذ بيئة أخرى لنشر دعوته . ولو كانوا على استعداد سابق للحضارة أو الملك لما وقفوا موقف العناد والخصومة الشديدة على هذا النحو الذى وقفوه من الدعوة الاسلامية وفجروا تلك الحرب العنيفة التى حاربوا بها الرسول .

يقول الاستاذ محمد فريد وجدى « ان قريشا وهى أرقى القبائل لغة وفهما ومكانة لم تقبل دعوة النبى الا رجالا ونساء لا يربو عددهم على بضع عشرات وأن أتباعه الاولين اضطهدوا اضطهادا شديدا حتى هاجروا الى بلاد الحبشة وأن النبى لبث على هذه الحالة من الاضطهاد ثلاث عشرة سنة فلما أحست قريش من النبى الهجرة اعتزمت قتله وترصدت له ، ولما علم أهل مكة بافلاته اقتفوا أثره ، كل هذا ينطق بلسان فصيح أن قريشا وهى مظنة النجابة والفهم من العرب فى ذلك العهد لم تكن قد استعدت للملك فان المجتمع الذى يقاتل الداعى للتجديد والنهوض بهذا النفوذ ويصر عليه ثلاث عشرة سنة لا يزداد بعد هذا الا عنادا وتشددا ، هذا المجتمع الذى يقاتل الداعى بهذا النفور العظيم وينتهى أمره معه الى الخضوع له كرها لا يعتبر أنه استعد لاقامة دولة ، فلو ترك وشأنه لبقى

على ما كان عليه ، ولو أن قريشا وهى أقرب العرب الى الحضارة قابلت دعوة (محمد) بصدر رحب وأحلتها المكان اللائق بها ونهضت تحت قيادته لجمع كلمة القبائل وابطال وثنيتهم لساغ أن نقول : ان محمدا لم يعمل اكثر ما يعمله البناء ، وجد أحجارا منحوتة ومواد جاهزة فاقام بها قصرا فخما ، اما وقد أراد أن يجعل محمد مركز دعوته يثرب ، التى يسكنها الاوس والخزرج ، وهما من مهاجرة اليمن ، وليس لهم اقل ميزة بين العرب ، ولم تكن لهجتهم بالفصيحة المنتخلة ، ولا جماعتهم بذات القوة والمنعة ، بل كانوا أسوأ ما يكون عليه قبيلتان من التناحر وتنازع البقاء ، أما وقد أراد الله أن يتخذ محمد رجال هاتين القبيلتين انصارا لدعوته ومدينتهم عاصمة لدولته بعد أن خذله أقوم العرب لهجة ، واقربهم للنهوض مطية ، فقد أمكن كل ناظر أن يقدر عظمة روحه العلوية ، اذ تولت أبعد القبائل عن فطنة التاهل للنهوض ، واقلها وسائل لتقويم دورها ، فصاغ منها نواة تصلح أن ينجذب اليها مواد البناء والاكتمال ، وان تحييها وتخرجها من مجدها القديم . وان تؤلف فيها مجتمعا فتيا مملوءا حياة وقوة يصلح القيام بنفسه ، ولاحداث اكبر حدث فى العالمين ، ان هذه الآية من آيات التاريخ البشرى لا تسمح لباحث باسم البحث العلمى أن يتجاهل أمرها » .

والواقع أن البحث العلمى الغربى لا يستطيع أن يستوعب ابعاد فهم التاريخ الاسلامى لانه يصدر عن مفهوم النظرية المادية أو المنهج التجريبى وكلاهما يعجز عن تقدير ما سوى المادة او الاقتصاد من العوامل العديدة التى تعمل عملها فى التاريخ وبذلك لا يستطيع التصور الغربى أن يرى أن الايمان الذى ملأ قلوب هذه الجماعة الصغيرة التى انشأها الرسول ورباها وكونها فى مكة والتى تدافعت تحمل لواء الجهاد والفتح

والتوسع الى اقامة الارض قد استطاعت فى هذه الفترة القليلة أن تسيطر من حدود الصين الى حدود فرنسا فى فترة لا تزيد عن ثمانين عاما بلغت أقل من ذلك الامبراطورية الرومانية فى ثمانمائة عام .

وان ما يوصف فى الجزيرة العربية بانه حضارة لم يكن الا ذلك اللون من الثراء المادى الذى حققته رحلتا الشتاء والصيف الى الشام والى اليمن ، ولكن هذا المجتمع لم يكن مؤهلا قبل الاسلام ليحمل حضارة لانه كان وثنيا غارقا فى الفساد الاجتماعى مضطربا أشد الاضطراب ، ولذلك فانه عارض دعوة الحق اذ جاءته . وخاصم كلمة الحق عندما نزلت على رسول الله من أهله ، لانه أحس بأن كلمة التوحيد سوف تغير نظامه الاجتماعى المتطاول بالربا والثراء الفاحش والترف والشرك والخمر ووأد الاولاد ولعب الميسر والزنا .

وان هذه الصورة لمجتمع الجاهلية لواضحة معروفة فى كتب التاريخ القديم ولكن كتاب التغريب يحاولون أن يغضوا من تلك المعجزة الخارقة التى حققت هذا الفتح الذى ركز كلمة الله فى الارض حقدا أو حسدا محاولين أن يبرروها على هذا النحو الزائف .

ان الرسول ﷺ قد أنفق ثلاثة عشر عاما قبل الهجرة الى المدينة يدعو القبائل فى مكة وما حولها ، وما ترك قبيلا الا عرض عليه كلمة التوحيد فلم يجد الا المعارضة والخصومة ولم يجد أنصاره الا الايذاء والقتل ، فكيف يمكن أن توصف الحياة فى بلاد العرب فى هذا الوقت بأنها حضارة مستعدة لان تجد قائدا يدفعها الى النهضة . الحقيقة أن الاسلام أنشأ الحضارة من الكلمة الاولى (لا اله الا الله) وانه بنى هذا المجتمع لبنة لبنة وفردا فردا . هذه الجماعة الصغيرة هى التى شكلت فى يثرب المجتمع الاسلامى .

واذا كان بعض الباحثين يحاول أن يقدم صورا رائعة للمجتمع فى الحياة

الجاهلية من القوة والبطولة ومن الشعر وألادب الانسانى ومن المثل العليا . وجوانب المعرفة وصور الخلق الرفيع وهذا أمر لا سبيل الى انكاره وليس غريبا أن يكون فى الجاهلية لانه ميراث النبوة وميراث الحنيفية السمحاء التى حمل لواءها ابراهيم واسماعيل ، وكل ما وجد فى التراث العربى قبل الاسلام من خير وايمان وخلق ونبل وكرم فانما هو بقية الحنيفية ، ولقد ظل أولئك المؤمنون بالحنيفية يتوارثون ايمانهم بالله حتى جاء رسول الله ﷺ وكان يطلق عليهم اسم « الحنفاء » .

الباب الثانى

تاريخ الاسـلام اليـوم

أولا : الاطار الذى تحرك فيه تاريخ الاسلام .

ثانيا : كتابة السيرة .

ثالثا : الجهـاد والفتح .

رابعا : الخلاف بين الصحابة .

خامسا : ثورة الزنج والقرامطة .

سادسا : مسالة الموالى والعرب .

سابعا : العروبة والاسلام .

الفصـل الاول
الاطار الذى تحـرك فيه تاريخ الاسـلام

عندما أنزل الله الاسلام فى شبه جزيرة العرب فى مكة على محمد بن عبد الله كان ذلك علامة على أن البشرية قد دخلت مرحلة الرشـد الفكرى الذى يؤهلها لتلقى رسالة عالمية شـاملة قوامها معجزة البيـان القـرآنى الخالدة الباقية على الزمان . بعد أن كانت رسالات الانبياء والرسـل لامم مختلفة وعصور متباينة . وبذلك فصـل الزمن بين رسالة الاسـلام وبين الامم السابقة له ، بحيث يمكن القول أن عصر ما قبـل الاسـلام كله كان بمثابة تمهيد لدخـول البشرية الى عصر الدين الخاتم : دين الانسانية كلهـا بعد أن مرت بمرحلة الاعداد للرسالة الخالدة بالدعوة الى الله الواحد الاحـد متمثلة فى أنبياء الامم وكتبها فكان الاسلام هو رسـالة الله تبارك وتعالى منذ وجـد الانسان القاها الى الرسل جيلا بعد جيل حتى أصبحت البشرية مؤهلة لتقبل منهج الحيـاة الثابت ممثلا فى شريعة الاسلام التى أصبح على كل صاحب دين منذ نزلت أن يدخل فى دين الاسـلام كما بشرت به كتـب السماء التى سبقت القرآن : التـوراة والانجيل وذلك ليظهره على الدين كله وليصبح كتابه (القرآن) مهيمنا على كل كتاب :

(وأنزلنا اليك الكتاب بالحـق مصـدقا لمـا بين يديـه من الكتـاب ومهيمنا عليه) ومن هنـا فقد قدم القرآن للمسلمين صورتين كاملتى الابعاد .

١ - صورة الكون كله « الميتافيزيقيا » منذ خلق الله الدنيا الى أن يرث الله الارض ومن عليها وعوالم الغيب كلهـا التى وراء المنظـور من سماوات وجنـة ونار .

٢ - صورة التاريخ البشرى كله منذ خلق آدم وأمره فى الجنة ونزوله الى الارض وامتداده فى ذريته ونزول الانبياء والرسل داعين اياه الى الله بصفة عامة ثم ايضـاح المرحلة التى بدأت بالحنيفية السمحاء بملة ابراهيم عليه السـلام الذى جعل الله النبوة والكتاب فيه وفى أبنائه الى يوم القيامة والذى جاء منه موسى وعيسى ومحمد خاتم الرسل والانبياء وبذلك تمـت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم .

قدم القرآن للمسلمين هذه الصورة الكاملة للتاريخ القديم ليدل المسلمين على الطريق الذى يسيرون فيه على هدى الله : طريق النبوة :

« يريد الله أن يهديكم سنن الذين من قبلكم » .

لقد كشف القرآن للمسلمين تاريخ البشرية وكيف قامت حضارتها وأممها وكيف سقطت .

وقدم لهم صورة الحدث الضخم : حادث الطوفان ثم ما أصاب قـوم عاد وثمود وقوم لوط ومدين وكيف تحطمت حضاراتهم عندما انحرفوا عن طريق الله الذى رسمه للبشرية « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقـد جاءتهم رسلهم بالبينات » .

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنـا عليهم بركات من السـماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » .

« ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون » .

كذلك دعا القرآن المسلمين الى النظر فى تاريخ من سلف من بنى آدم :

« قـد خلـت من قبلكم سنن فسـيروا فى الارض فانظـروا كيف كان كان عاقبة المكذبين » .

وحذرهم من التبعية ومن البطانة ومن السبل المتفرقة حتى يستطيعوا أن يستوعبوا عبر التاريخ فى العصور السابقة ويواجهوا الحياة وهم قادرون على النظرة الواسعة ذات الابعاد المختلفة .

يقول الاستاذ عـلال الفاسى :

للتاريخ فى نظر الاسلام مرحلتان : لابد من الوقوف عندهما :

أولا : مرحلة العمليات التاريخية التى سبقت بعثة الرسول وهذه لم تكن الا تمهيدا لابلاغ الانسان رشـده عن طريق اكمال الدين بوجـود محمد خاتم الرسـل . ولم يكن محمد بدعا من الرسل فقـد سبقته نبوات ورسـالات كمـا سبقته دعوات اصلاحية تشمل كل بقاع العالم ولكنها لـم توفق الى البقاء وأصابها الانحراف الذى يستوجب أن تجدد وتصلح لتفتح آفاق التقدم الانسانى فكان لابد أن يبعث الله الرسول الخاتم : وكانت مهمة النبى أن يضع الناس فى جو الرشـد المبنى على العقل والروح والقلب والجسـم ، ومن هنـا فان كل ما سبق من عمليات التاريخ كانه يهدف لغاية واحـدة هى وجود الرسول نفسـه ، وبذلك يصبح الماضى كله فيما قبـل التـاريخ . أما التاريخ الصحيح فيبدأ بالمجتمع الاسلامى والبشرية كلها فخاطبه ليسـير وفق ما ترشـد الى ناموس الكون وما بنى عليه هذا المجتمع » .

كذلك فقد دعا الاسلام البشرية الى الوعى بالتاريخ الماضى والقـائم جميعا وصولا الى الحتمية الوحيـدة وهى الحيـاة الآخـرة : التى تكون هذه الحياة الدنيا منطلقها ومجالها العملى ، وتكون هى المقـر الاخـير بالحسـاب والجـزاء .

هذه هى الغاية من فهم التاريخ وفهم الميتافيزيقيا معا : الاستعداد للمرحلة الاخـيرة بالعمل فى هذه الدنيـا فى ضـوء عبرة التاريخ والنهـاية الحتمية للكون والانسان » وكيف يمكن أن تكون الحياة الدنيا فى ضوء هذا الفهم آمنة مليئة بالسـكينة والخير والهدى لأن البشرية تسـير فى طريق الله وتعمل على اقامة المجتمع الربانى .

هذا الانسان الذى أعطاه ربه القدرة على الحركة والارادة والمسئولية الاخلاقية ليكون له من وراء ذلك حق الجزاء ، هذه الارادة مسئولة فى حدود قدرتها وحريتها وما قدمت من عمل ، ومن هنا فان للانسان دوره فى صناعة التاريخ وبناء المجتمعات وانشاء الحضارة وله أيضا مسئوليته عن الوجهة التى يتجه اليها فى هذا العمل .

•

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض » .

وهكذا نجد أن الاسلام حين جاء فتح صفحة جديدة للبشرية من حيث عالمية الرسالة وخلودها . وقد دعا الامم القائمة الى الدخول فى دين الله لانه هو الدين الحق الذى قامت عليه السموات والارض فقد خلق الله الانسان الاول آدم ومنه أرسل الله أول أنبيائه : نوح .

« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » .

أعلن الاسلام وحدة الدين ووحدة البشرية والتوحيد الخالص فحطم الوثنية والاصنام وعبادة غير الله . وقدم للبشرية منهج الاخاء الانسانى فحطم العبودية والاذلال ومظالم الفرعونية والقيصرية ودعا المسلمين الى النظر فى الكون فانشأ المنهج العلمى التجريبى الذى هو قاعدة الحضارة العالمية اليوم ، ولقد استطاع الاسلام لانه الفطرة والحق وضياء النفس البشرية الاصيل أن يزحف فى خلال قرن لا يزيد حتى سيطر على ثلاث قارات : آسيا وأفريقيا وأوربا من حدود الصين الى نهر اللوار فى قلب فرنسا وقدم للبشرية ذلك الضياء الحق وتغلب على اللغات والاديان ، ونقل العالم كله الى نور التوحيد ونفذ باشعته الى قلب أوربا فحررها من الوثنية والرهبانية ، وأدخلها الى عصر النهضة .

وكان الاسلام هو العامل الاكبر الذى أدخل العالم كله الى : العصر الحديث .

٢ - ولا ريب كان الاسلام هو الحد الفاصل بين القديم والجديد وأنه هو الحدث العظيم الذى غير مجرى التاريخ العالمى كله ومنذ أن نزلت آياته الى اليوم وهو بعيد الاثر فى كل أحداث البشرية وسيظل كذلك الى أن يرث الله الارض ومن عليها ، ولسنا نحن المسلمين الذين نقول هذا فيؤخذ على أنه تجاوز فى تقدير الامور ولكن كتاب الغرب هم الذين يعترفون به فيقول هنرى بيرين مؤلف كتاب (محمد وشارلمان) ان الاسلام هو القوة الهائلة التى حولت مجرى التاريخ الاوربى وأن العصر الوسيط والنهضة الحديثة ثمرتان من ثمار الاسلام وان ما يقال من أن سقوط الامبراطورية الرومانية هو العامل المؤدى الى هذا التحول فى التاريخ هو قول خاطىء ، فان هذه الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياة الى درجة تجعلها تنظر الى الرومان نظرة العبد الى السادة فما كان يخطر لها بل ما كانت ترغب أبداً فى أن تناوىء روما وتقضى عليها . ما المسلمون فكانوا يعتقدون انهم ارقى وأسمى من الرومان فى جميع أساليب الحياة ولا سيما من الناحية التى كانت مبعث قوتهم ومصدر تشريعهم فلم يحجموا عن منازلة الرومان ليقضوا على سطرتهم وسيادتهم .

ولقد ظلت الدولة الرومانية قائمة وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز (الوندال) حدودها واستقروا فى نواحيها وكل ما حدث أن انتقل مركزها الرئيسى من روما الى بيزنطة وأصاب حياتها العقلية والمادية شىء من الركود والفساد ، ولكن لم تكد تهب « ثورة الاسلام » وتسير ركائبه الى أراضى اليونان حتى تلاشى ما كان لهم من المعالم والآثار وقامت دول جديدة وظهرت حضارة جديدة حاصرت أوربا من الشرق والجنوب فاضطرت ملوكها أن يوجهوا أنظارهم الى الجزء الشمالى من اوربا حيث قامت المعارك التى كتبت تاريخ أوربا فى العصر الوسيط وابان العصر الحديث . أما الجزء الجنوبى من أوربا فلم تقع فيه فى تلك العهود الا موقعة (بواتيه) التى انتصر فيها شارل مارتل على جيش الاندلس . فلولا ظهور الاسلام لظلت الامبراطورية الرومانية قائمة وان انتقل مركزها من الغرب الى

الشرق ولظل البحر الابيض المتوسط بحرا رومانيا ولما قامت الثورات القومية التى خلقت أوربا الحديثة ولا الثورات الفكرية التى تمخضت عنها الحضارة الراهنة » .

وهكذا نجد ان الاسلام قد غير العالم كله .

غير الشاطىء الشرقى والجنوبى للبحر الابيض المتوسط فادخله فى السلم كافة ، وقامت فيه كلمة التوحيد وامتدت نحو آسيا حتى أخرجت القبائل التركية من وراء النهر ، وواصل زحفه الى الصين ، وفى الغرب اقتحم الاندلس حتى وصل الى نهر اللوار ، ثم لم يلبث أن اقتحم أوربا من البلقان حتى وصل الى أسوار فينا .

كذلك كان الاسلام عامل الانقطاع الحضارى بين حضارات للفراعنة والرومان والفرس والهنود فبعد ألف عام تقريبا عاشتها هذه المنطقة التى انداح فيها الاسلام : (المنطقة العربية) ، (الهلال الخصيب والشام ومصر وافريقيا) فى أيدى اليونان ، لم تلبث بعد سنوات قليلة لا تزيد على قرن من الزمان أن تحولت تماما الى رسالة التوحيد فنسيت لغاتها وأديانها ونحلها القديمة واقبلت على الاسلام اقبالا تاما ، مع أن الاسلام حين سيطر على هذه المناطق لم يفرض عليها دينه وانما أقام حكمه العادل وأفسح لاهل الكتاب الحرية الكاملة فى حياتهم الدينية وحمى معابدهم وفتح لهم آفاق العمل فى مختلف المجالات فى سماحه ورحمة ، غير ان هذه الطوائف العربية الجديدة سرعان ما انصهرت فى البيئات التى عاشت فيها ولم تستعل عليها استعلاء سلطان أو استعمار ، وانما تآخت معها واصهرت اليها ومن ثم فقد دخل الناس فى دين الله أفواجا منذ عرفوا أن ذلك الحكم السمح العادل الذى حررهم من مظالم الرومان هو من عند الله لذلك فقد دخلوا فى الاسلام الذى كان موجودا فى أعماقهم وضمائرهم منذ رسالة الحنيفية الابراهيمية التى جددها محمد ﷺ واتصل بها بعد أن انحرفت فى مرحلة ما بينهما ، ومن هنا فان الانقطاع ليس الا عن المرحلة

القليلة التى تعثرت فيها الطريق من الحنيفية الى العنصرية وكان هذا امرا طبيعيا فى التاريخ فمصر العربية قد انفصلت عن مصر الفرعونية انفصالا تاما لان مرحلة الفرعونية انحرفت عن الابراهيمية وكذلك فان سوريا العربية قد انفصلت عن سوريا الفينيقية وان العراق العربى قد انفصل عن العراق الاشورى والبابلى وبالاسلام عادت سيرتها الاولى الى الربط بين الحنيفية الابراهيمية والحنيفية المحمدية ٠

وحين جرت المحاولات فى العصر الحديث لاعادة البلاد العربية الى تاريخها قبل الاسلام باحياء الفرعونية والفينيقية أو الاشورية ، فشلت هذه المحاولات فشلا ذريعا لانها كانت تجرى ضد تيار التاريخ ٠

٤ ـ كذلك فان رسالة محمد قد غيرت كل أساليب الحياة وغيرت أسلوب الدعوة الى الله فقد توقف منذ رسالة محمد أسلوب « الآيات » التى عرفت فى رسالات الانبياء الاولين من المعجزات والخوارق كعصا موسى أو ناقة صالح أو احياء عيسى للموتى ٠ فقد آذن الله تبارك وتعالى أن تدخل البشرية عصر الرشد الفكرى فتخاطب بمعجزة البيان القرآنى المعجز الذى تحدى الله الجن والانس أن ياتوا بمثله وقد عجزت الجن والانس وما يزال التحدى قائما ! وأعلن القرآن موقفه من الآيات (وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون) ٠

كذلك جاء القرآن بمنهج سمح يحل للناس كل الطيبات ويحرم عليهم كل الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم فى العصور الماضية وكان ذلك ايذانا بأن البشرية أصبحت مؤهلة وراشدة ٠ فالغى الاسلام زواج الاخت وزواج زوجة الاب وقتل الابناء خشيه أملاق ، فكان أن رفع الاصر ووضع الاغلال مما كان من عدم مؤاكلة الحائض وقطع الثياب النجسة والقصاص حتى فى الخطأ وقد خفف الله عن هذه الامة كل ذلك وأباح مشروعية الدية (كتب عليكم القصاص فى القتلى) كذلك عفا الله عن حديث النفس مالم تعمله الجوارح ، واباح الصلاة للمسلمين

فى كل مكان وكانت تباح فى أماكن مخصوصة ، واباح لها العمل كل الايام ماعدا ساعة الصلاة من يوم الجمعة ، وأعطى الرحمة الخاصة للامة المحمدية ومنحها صفة الامة الوسط وأن قومها هم الشهداء على الناس ، وهكذا جاء الاسلام بشريعة سمحة رحيمة خالدة للعاملين بعد أن انتهى عهد الشرائع المؤقتة والخاصة بأمم بعينها والتشريعات الموقوتة بآجال طويلة أو قصيرة ، ودعا الامم كلها الى الدخول فى دين الله أفواجا وبذلك اكتمل فى الشريعة الاسلامية : الثبات والحركة فاشتملت على عناصر الثبات والاستمرار والحدود والضوابط اللازمة لحماية المجتمع الانسانى وعنصر الحركة والتجديد والتعبير المناسب للعصور والبيئات ٠

وهكذا ارتفع الاسلام بالشريعة الربانية درجة أخرى عما كان فى شريعة التوراة وشريعة الانجيل فجمع الله بين العدل والاحسان ، وبين الروح والمادة ، وبين الدنيا والآخرة ، وجعل جزاء الحسنة مضاعفا الى سبعمائة ضعف وجزاء السيئة مثلها ٠ وجعل العفو درجة أعلى من درجة العقوبة ٠

(وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم بـه ولئن صبرتم لهـو خير للصابرين) ٠

وأعطى الشريعة صفة الالتزام الاخلاقى وأعطى الانسان حرية الارادة مرتبطة بالجزاء الاخروى ٠

٥ ـ وقد اثبت الاسلام قدرته على البقاء والاستمرار والتمدد فما دخل فى أرض وخرج منها ، وما استطاعت الازمات أن تقضى عليه أو تجعله ينهار وظل محتفظا بذاتيته الخاصة الواضحة عن غيره من النحل والاديان ، ذلك لانه قام على أنه دين عبادة ومنهج حياة ، وأنه وضع تعاليمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية فى صيغ كلية وأصول عامة وأطلق للمجتمعات حرية رسم طريقة الحركة والتفاصيل فى ضوء متغيرات العصر والبيئة دون الاخلال بالاصول العامة والحدود الثابتة ٠

ولقد غير الاسلام المجتمعات التى دخلها ، حررها من الوثنية ورفعها الى مجال العزة والكرامة ، والنظافة والطهارة ، يقول أحد الباحثين الغربيين :

« متى دخلت قبيلة من القبائل الوثنية فى الاسلام إختفت عنها فى الحال عبادة الشيطان وعبادة البشر وأكل لحم الانسان وتقديم الضحايا البشرية وقتل الاولاد والسحر ، وصاروا يرتدون الثياب وحلت فيهم النظافة ، وشعروا بالعظمة واحترام النفس وصار كرم الضيوف عندهم من الواجبات الدينية وندر شرب المسكرات وحرم القمار والرقص المنافى للعفة ، وفوضى أختلاط الجنسين وصارت طهارة العرض من الفرائض ، وذهبت البطالة والكسل وحل العمل والكد محلها وتغلب النظام والرزانة على الشقاق وحرمت القسوة على الحيوان والعبيد وعظم الشعور بالانسانية واللطف والاخوة ودخل الرق وتعدد الزوجات تحت قانون يحدد شرهما ويخففه » .

والغى الاسلام التفرقة العنصرية والتعصب ودعا الى الاخوة البشرية والمساواة أمام الدولة وأمام الله وعرفت الامة الاسلامية بالامة الوسط ليس فقط فى تقريب الفرد من المجتمع ولا المجتمع من الفرد فحسب وانما فى السلوك الخلقى بين الافراط والتفريط .

تقوم المسئولية فى الاسلام على أساس أن الاصل فى الانسان الخير على خلاف ما تقول به أديان أخرى من أن الانسان خلق خاطئا وخلاف ما جاءت به التعاليم الهندوكية من أن الانسان كان فى أول أمره دنسا فهو من أجل هذا محمول على أن يتخبط فى سلسلة من التقمص بينما يقرر القرآن أن الانسان خلق طاهرا وخلق تاما .

ولقد كان الاسلام منذ اليوم الاول دعوة عالمية للبشرية كلها وآيات القرآن الاولى فى مكة تشمل هذا ، فهو دعوة خاصة الى أهل مكة ودعوة عامة للعالمين ، وصلة الاسلام بابراهيم صلة جذرية بدأت مع بدء الدعوة

فى مكة ولم تكن مما جاء بعد الهجرة الى المدنية ودليل ذلك أن السور التى تسجل هذا كله مكية نزلت بمكة ٠

وقد قام الاسلام على قاعدة « لا اكراه فى الدين » ولذلك فهو لم يقم دعوته على الاكراه أو الفتح ، وانما اقامها على الحجة والبرهان ولم يتعرض للنصارى واليهود بل حافظ على كيانهم ومقدساتهم وسمح لهم بممارسة الحياة العامة ، دون أى نوع من أنواع الضغط أو الارهاق ٠

ومن أجل هذا طبع الاسلام حياة معتنقيه وما يزال يطبعها وسيظل يطبعها الى الوف السنين وان أى حركة فكرية أو اجتماعية تتجاهل هذه الحقيقة البديهية فهى تتجاهل الاطار الطبيعى لحركة الفكر والمجتمع الاسلاميين ٠

٥ ـ ان أكبر ما أعطى الاسلام : الفكر والذكر والبيان والعلم فى سبيل معرفة الله تبارك وتعالى وآثاره فى الكون والانسان والمجتمع والحياة ٠ للتعرف على نواميس الله فى الكون وسنن الله فى المجتمعات ، تلك هى أعلى درجات الرشد الفكرى الذى دخلت ساحته البشرية بالاسلام ٠ الارتفاع فوق طفولة البشرية بالنظرة السامية ذات الابعاد التى تربط الازل بالابد والدنيا بالآخرة ، وتستمد أول حركتها من نقطة « التوحيد » الخالص لتعود اليه فى نهاية الجولة لا تنفك عنه ، ومن هنا كانت معجزة الاسلام هى معجزة بيان وفكر وأصالة ولذلك جاء القرآن معجزا فى بيانه ومضمونه فدعا الى الحوار والبرهان والتفكير والنظر فى الكون : (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم) ٠

٦ ـ وبالجملة فانه منذ ظهر الاسلام وكل حدث فى العالم والبشرية مرتبط به على نحو من الانحاء ، فلم يزل منذ ذلك التاريخ عاملا مؤثرا فى الاحداث لأنه قدم للبشرية الدين الاول من جديد وأقام عالما خالصا مستقلا متميزا بنظرته الربانية الى الحياة وأسلوبه الانسانى فى العيش وحضارته القائمة على العدل والاخاء وفكره القائم على التوحيد ٠ لقد

حمـل الاسـلام الى البشرية فى مرحلة استرشادها : للعدل والاخـاء والتقدم وأكـد المسـاواة وهدم التفرقة العنصرية وحث على طلب العلم وأكـد أن العلم فريضـة ثم قدم منهجا كاملا تلتقى فيـه غايات النفس ومطامحهـا العالية ويتم به بنـاء الفرد وبنـاء الجمـاعة متكاملين مترابطين دون أن ينقص من قدر أحـد منهما شيئا ٠ ولقد أعطى الاسلام القائم على التوحيد : أعطى الجماعة الاسلامية شحنة ضخمة من القـوة والايمان وحب الاستشهاد والتضحية دفعت المسلمين فى أقل من قرن الى السيطرة على القارتين آسيا وأفريقيا والى للامتداد من الصين شرقا الى جنوب فرنسا ثم كانت جـولة الاسلام فى توسعه وامتـداده حين دخـل أرضـا جـديدة فى جنـوب شرق آسيا وغرب افريقيا فاقتحم قلوبا جـديدة فاضاف الى معتنقيه الاول عددهم مضاعفا ولقد كان الاسـلام على مدى التاريخ : عامل القوة وعامل المواجهة لكل ما اصاب المسلمين من أخطاء وتحديات وازمات وفى العصر الحـديث كان مصدر كل حركات التحرر التى قامت بهـا الشعوب ، فقد انطلقـت النضالات الوطنية كلها من تحت راية لا اله الا الله والله أكبر وتحت اسـم الجهـاد فى سبيل الله ٠

ومن أبرز قوانين الاسلام وسننه التى لم تتخلف قدرة هذا النظـام الفائقه على تجديد نفسه واعادة صياغة فكره ، كلما انحـرف هذا الفكر او اصابته دخائل تحـول بينه وبين جوهره الاصيل ، وبذلك كان دائمـا كيانا حيـا قادرا على الحركة والنمو والامتداد متمكنا من التجـدد كلما أصيب أحـد أطرافه بعطب ، ومن هنا كانت قدرته الفائقة على التوسع والاستقرار فى مختلف البيئات والتكيف مع عـديد المجتمعات ومنذ ان بزغ نجمه الى اليوم لم يتغلب عليه متغلب من الدعـوات أو الامم وان امتحن أهله بالازمات والشدائد فكانوا لا يخرجون منها حتى يعودوا اليه ٠

ولقد كشف الاسلام عن قدرة كاملة على الحركة والتطور والنمـاء والتوليد والاخـذ والعطاء ٠٠ كل ذلك داخل اطاره الثابت الاصيل ومع

إحتفاظه بذاتيته فهو يواجه المؤثرات الاجنبية حين تفرض عليه فلايخضع لهـا ولكنه يستفيد منها ويتقبل الصالح لنموه دون أن يدعهـا تسيطر عليه أو تغير ملامحه أو تحـول طريقه أو تحتويه . لقد جاء الاسـلام حاكمـا على الامم والمدنيات ولم يجىء محكوما فهو ليس مطية ذلولا للحضـارة الحديثة وليس خادما للمجتمعات أو الدعوات والمذاهب بل هو نظام مستقل كامل جامع له مقوماته الاصيلة التى قد تتشابه فى بعض مظاهرها مع دعوات أو اديـان ، ولكنـه فى مجمـوعه لا يخضع ولا يستسلم ولا يحتـوى . والمسلمون يرون أن كل وسـائل الامم وأدواتهـا فى النهوض والتقدم بمثابة (مـواد خـام) يأخـذون منهـا ما يشـاءون دون أن يقهـرهم هـذا على معارضة أصل من أصـول نظامهم ، وهذه المواد من شانها ان تنصهر فى بوتقة الاسـلام فلا تصهره وتتحـول فى اطاره ولا تتحول به .

٧ - وفى هذا الضوء الكاشف لهذا الاطار تسـقط تلك الشبهات التى حـاول طرحها أهل الكتاب فى اطار الاسلام دون أن يتبينوا ذلك « البعد » الذى امتد به الاسـلام عن حدود ما وقفت البشرية قبل نزوله .

ومن هذا نعرف تلك الصلات بين الاسلام وبين اليهودية والمسيحية وبين كتاب القرآن وبين التـوراة والانجيل (الاصليين وليس الموجـودين الآن فى أيدى الناس) لا ريب أنها صلة المصـدر الواحـد : الحـق تبارك وتعالى الذى انزل الدين والوحى والنبوات ولـكن : هنـاك فى القـرآن شىء يجعـله مهيمنا على الكتب وفى الاسـلام أشـياء تجعـله ظاهرا على الدين كله .

وصدق رسول الله ﷺ اذ يقول :

مثلى ومثل الانبياء من قبلي كرجل بنى بيتا فجمله وحسنه الا موضع لبنة فى زاوية من زواياه فكان الناس يطوفون بالبيت ويعجبون ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فانا اللبنة وأنا خاتم المرسلين .

الفصـــل الثـانى

كتـــابة السـيرة

كانت سيرة الرسول ﷺ باعتبارها رأس التاريخ الاسلامى هدفا من أهـم الاهـداف التى ركز عليهـا الاستشراق والتغريب والتفسير المـادى للتـاريخ .

ولا ريب أن مولد محمد بن عبد الله وبعثه هـو من أبرز الاحـداث الفاصلة التى غيرت مجرى التاريخ الانسانى كله ، وكانت علامة على عصر جـديد هو عصر الاسـلام الذى أزال عصور الجاهلية وأقر الرسـالة الخاتمة فكان هـو خاتم المرسـلين وكتابه خاتـم الكتب ودينـه خاتـم الاديـان السـماوية .

ولا ريب أن جهاد النبى فى سبيل تثبيت دعائم هذا الدين واحتمـال عدوان الكافرين والمنافقين من اقوى المواقف التى لا يسـتطيع احتمـالها الا الانبيـاء المؤيدون بالوحى ولقد قاومت قريش رسول الله ثلاثة عشر عاما وادالت من المؤمنين وقاطعتهم واضطرتهم الى حيـاة قاسـية فى الشعاب وضيقت الخناق عليهم وآذتهم حتى نصرهم الله بالهجرة الى المدينة بعد أن آمن الانصار وبايعوا الرسول وايدوه فاستطاع بعد سبع سنوات أن يعـود ظافراً الى مكة ومنهـا دانت له القبائل فى الجزيرة كلها حين آمنت بدين الله الحـق وبايعت رسول الله وأتم الله نعمته ودخل الناس فى دين الله أفواجا وتحقق قانون النصر الذى رسمه الله لرسالات السماء ، (حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا أتاهم نصرنا) .

وبذلك حرر الاسلام العرب من جاهلية ضالة عميـاء وأخرج البشرية كلها من الظلمات الى النـور فأنشـأ الرسـول على هـذه المبـادىء ذلك الجيل العجيب من الصحابة الذين حملوا راية الاسـلام فنشروها فى آفاق الارض فى سنوات قليلة فامتد من حدود الصين الى قلب أوربا .

هذا الاثر الخطير الذي قسم البحر الابيض المتوسط الى حضارتين ، وأزال أثر الف عام من نفوذ اليونان والرومان من هذه الارض المستعربة الممتدة من العراق الى الشام الى مصر الى أفريقيا حتى وقف (عقبة ابن نافع) ودفع حافر فرسه فى المحيط وقال : رب لو اعلم أن وراء هذا البحر أرضا لذهبت مجاهدا فى سبيلك ، هذا الاثر الخطير هو الذى أثار حول الاسلام ورسوله تلك الحملات الضخمة التى حملها الاستشراق والتبشير سواء أكان مصدرها مقايسة خاطئة على أساس التفسير المادى للتاريخ ، أو حقدا وكراهية نتيجة خصومة الكنيسة أو خصومة الغرب الذي كان يعتبر هذه الارض ملكا له باحتلال الرومان لها .

ولقد ظل الاوربيون فى القرون الوسطى وحتى القرن ١٧ يتناقلون أسخف الاساطير عن الاسلام وظل أكثر المستشرقين يقصدون تشويه الحقيقة وطمسها عن الرسول ﷺ وتدور الشبهات حول عدد من القضايا أهمها القول بأن القرآن من تاليف محمد وأن الحديث النبوى من صنع الفقهاء وأن الشريعة مقتبسة من الديانات الاخرى وأن التشريع الاسلامى متاثر بالقانون الرومانى وأن الفتوح الاسلامية ليست الا مطامع فى الغنائم وأن فقر العرب هو الذى دفعهم الى الخروج لالتماس كنوز المدائن ودمشق وأن الخراج والجزية هما اللذان اضطرا الذميين الى اعتناق الاسلام وهذا كله زيف لا يثبت أمام الحقائق التاريخية الصحيحة .

وهم يزعمون أن الرسول عليه السلام التقى بالراهب بحيرا وتلقى عنه التعاليم الدينية مدة من الزمن مع أن لقاء الرسول مع بحيرا كان فى سن التاسعة أو الثانية عشرة ، ومن الطبيعى أن الطفل فى هذه المرحلة المبكرة لا يمكن له بحال أن يستوعب المسائل الدينية فضلا عن أن هذا اللقاء - ان كان صحيحا قد حدث - هناك شكوك كثيرة حول صحته اذ لم يستمر الا ساعة أو بعض ساعة ، وقد كان النبى فى صحبة عمه فكيف تسنى لبحيرا أن ينفرد بالطفل ليلقنه .

كذلك فهناك شبهة القول بانه تلقى من ورقة بن نوفل مفاهيم المسيحية وورقة بن نوفل لم يدع الى المسيحية ولكنـه هو الذى قال حين سمع بنزول الوحى على محمد ﷺ أنه هو النبى المنتظر الذى بشر به المسيح عيسى بن مريم . ولو أن محمدا ﷺ أخذ من ورقة لروج ذلك أعداؤه من المشركين ولسار خبره ، كذلك فان القرآن كذب ما تردد من انـه تلقى شيئا من ايفـين الرومى الذى كان يصنع السيوف وكان الرسول يتوقف عنـده أحيـانا ، ولقد دحض القرآن هذا حين قال جل شـأنه : « ولقـد نعلم انهم يقولون انمـا يعلمه بشر : لسـان الذى يلحـدون اليـه أعجمى وهـذا لسـان عـربى مبين » .

وهناك شبهة القول بان فكرة عموم الرسالة لم تكن فى أول أمر الرسالة وانما جاءت بعد ، وان هذه الفكرة برغم كثرة الآيـات والاحاديث التى يؤيدها لم يفكر فيها محمد بنفسه ، وعلى فرض انه فكر فيهـا فقـد كان تفكيره غامضا فان عالمه الذى كان يفكر فيه انمـا كان بلاد العـرب وان محمدا لم يوجه دعوته منذ بعث الى ان قبضه الا للعرب دون غيرهم هكذا هذه الشبهة التى أوردها (موير) فى كتابه عن الخلافة ورددها كثيرون يدحضها أن الآيات الملكية منذ أول الدعـوة حملت فكرة عالمية الاسـلام وعموم الرسالة وأن ما جاء فى القرآن المكى كله يثبت أن القرآن جـاء مهيمنا على الكتب السماوية وأن الاسلام انما جاء ظاهرا على الدين كله .

وهناك من المستشرقين من شكك فى عام ولادة النبى وقد ادعى هنرى لامنس أن ولادة النبى كانت عام ٥٨٠ م خلافا لجميع الآراء التى تتفق على انه كان عام ٥٧٠ م .

كما اتصل هذا التشويه ببيت النبى فحاول لامنس أن يرسـم صـورة مشوهة للسيدة فاطمة الزهراء دون أن يقـدم أى مستند تاريخى موثوق . وتعرض آخرون الى زواج الرسول كى ينفذوا الى الطعن فى التعدد وفى شخصية الرسول واثارة ظلال حول ميوله الجنسية ، وفاتهم ان الرسول لم يعدد زوجاته الا بعد الاربعين وانه انما فعل ذلك من أجل تثبيت قواعـد

الدعـوة ، وهناك من يحـاول أن يستغل حديثا ضعيفا وصف فيه النبى بأن قوته تعادل قوة أربعين رجلا ومنهم من يتحدث عن زواجه بعائشة ويصفها بأنها العروس البكر ومنهم من يتحدث عن زواجه بزينب بنت جحش ، وكل هذه محاولات تستهدف النيل من الرسول الكريم وتدور حول اعطـاء صورة خاطئة تماما عن شخصية النبى بايراد أحاديث غير ثابتة أو موضوعة . أو عرض شبهات كعبارة (الغرانيق العلا) التى يدعـون أن الرسول رددها واعتمدوا فى ذلك على أقوال باطلة أو ايراد مواضع مشكوك فيها أو الوصول بالنصوص الناقصة والمبتورة الى وصف الرسول بأنه كان قاسـيا أو كان ناقضا للعهود والمواثيق .

وهناك شبهة القول بأن القرآن وما جـاء به النبى ما هو الا مزيج منتخب من معارف وآراء دينية سابقة جاءت بهـا اليهـودية أو المسيحية وأنه تأثر بهـا ورأى انها جديرة بأن توقظ قومه وأن النبى محمدا ما هـو الا رجـل مصلح ذكى استوعب معلومات عصره ونسقها فى أسلوب جـديد ولقـد رد القرآن على هذه الشبهات فى قوله تبارك وتعالى (وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخـرون فقد جاءوا ظلمـا وزورا * وقالوا أساطير الاولين اكتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا : قل نزله روح القدس من ربك بالحق) .

وهناك فرية برنارد لويس المستشرق اليهودى فى كتابه « العرب فى التاريخ » التى يزعم فيها أن محمدا كان يستقبل فى صلاته بيت المقدس إسترضاء لليهود وعندما رفضـوا الايمان به والتعـاون معه تحـول بصلاته الى الكعبة فى مكة .

والمعروف أن الرسول ﷺ كان يصلى الى بيت المقدس بأمر ربه وأنه كان يقلب وجهه فى السماء متطلعا الى هداية الله تبارك وتعالى لوجهـة البيت الحرام وقد استجاب الله له ذلك وأثبت القرآن الحكمة من الامـر فقال تبارك وتعالى : (وما جعلنا القبـلة التى كنت عليهـا ـ أى قبـلة بيت المقدس ـ الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) .

اما القول ببشرية القرآن أى بانه ليس وحيا الهيا فهذه من التهم المبطلة التى لم يتوقف القول بها والتى يجتمع عليها المستشرقون النصارى واليهود ولكن اليهود هم الذين يركزون على هذه التفرقة ليقولوا بأن قرآن مكة كان مختلفا عن قرآن المدينة ، وينسبون اثر ذلك الاختلاف الى اتصال الرسول بيهود المدينة وهذه كلها شبهات رددوها وسايرهم فيها امثال الدكتور طه حسين وغيره ٠

ولا ريب أن المستشرقين اما يخضعون للتفسير المادى الذى ينكر الوحى كلية وأما انهم يصدرون عن مفهومهم المسيحى فى نسبة الكتب المنزلة الى الحواريين على النحو الذى كتبت به كتبهم ٠

ويشير العلامه اتيان دينيه فى كتابه عن سيرة الرسول الى هدف المستشرقين من التحريف فيقول ان هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة الرسول لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ويمحصون مزاعمهم حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة نبيهم ومع ذلك لم يتمكنوا من اثبات اقل شىء جديد ، بل أننا اذا أنعمنا النظر فى الآراء الجديدة التى جاء بها هؤلاء المستشرقون فرنسيين وانجليز والمانا وبلجيكيين فلا نجد الا خلطا وخبطا » ٠

وكذلك نجد أولئك الذين يرون أن محمداً ﷺ كان داعية الى الاصلاح الاجتماعى يهدف الى تغيير الاوضاع الاقتصادية أو ازالة الفوارق الصارخة بين الاغنياء الجشعين والفقراء المستضعفين لذلك نراه يفرض ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين ويستعمل فكرة الحساب فى اليوم الآخر كوسيلة للضغط المعنوى ٠

وهكذا نجد اختلاف وجهات النظر فى رسالة النبى ناتجا من تبعية أولئك المستشرقين لمذاهب مختلفة بين النظرية المادية والتفسير الاقتصادى

للتاريخ أو تفسير البطولة بالدعوة الى الاصلاح وتجديد المجتمعات وكل هذا يختلف اختلافا عميقا بين ما يقولون وبين ما كان عليه ﷺ :

ان الشيء الذى يجهلونه هو النبوة والوحى ورسالة السماء فالنبى ليس بطلا ولا مصلحا اجتماعيا ولا زعيما وانما هو رسول الله يختلف فى أسلوب دعوته وحياته عن كل هذه الصور التى يدور حولها فكر الباحثين الغربيين • ويعجزهم عن فهم النبوة وتأييد الله فهم يعجزون عن تفسير القدرة الفائقة التى انتشر بها الاسلام بعد وفاة النبى ولذلك فهم يحاولون أن يفسروا ذلك تفسيرا ماديا ولعله يصدر عن عجز بفهم المعجزة أو يصدر عن حقد فى ذلك التعبير الخطير الذى لا ينطبق على قوانينهم القاصرة ، فيقولون أن العرب كانوا متحضرين وكانوا مستعدين للنهضة ولديهم كل أدواتها فلما جاء محمد قام بهم فقاموا ، وهذا كذب وتضليل تؤكده الحياة الاجتماعية فى الجاهلية تماما ، وآية ذلك انهم صارعوا الداعى وضيقوا عليه وأساءوا اليه ولم يقبلوا دعوته خلال ثلاثة عشر عاما كاملة ، واضطروه الى أن يبحث عن أرض أخرى ينشر فيها دعوته •

وجملة دعاوى المستشرقين التى تبطلها الحقائق : قولهم أن القرآن ليس وحيا من الله • وانما ألفه الرسول وأن الرسول عاش فى فترة مزدهرة من الحضارة فى شبه الجزيرة وأن الرسول نقل فى قرآنه عن اهل الكتاب أو تعلمه من الآخرين وكلها شبهات مبطلة زائفة دحضتها الوقائع الثابتة والحقائق العلمية ولقد صدق كارليل حين نعى على قومه هذا وقال :

« لقد أصبح من العار على كل فرد متمدين فى هذا العصر أن يصغى الى ما يظن من أن دين الاسلام كذب وأن محمدا خداع مزور وقد آن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الاقوال السخيفة المخجلة • فان الرسالة التى أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذى خلقنا • أكان احدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها هذه الملايين الفائقة الحصر والاحصاء اكذوبة وخدعة أما أنا فلا أرى مثل هذا الرأى أبدا » •

ويقول محمد كامل عياد : استطيع ان اقول بان اكثرية المستشرقين لم يتوصلوا الى تكوين فكرة صحيحة عن محمد ﷺ بسبب تعصبهم الدينى ، اما القلائل الذين تحرروا من هذه النزعة فيرجع فشلهم فى فهم شخصية الرسول الى مبالغتهم فى النظرة التاريخية فقد انصرفت جهود الباحثين والكشف عن المنابع والاصول التى اقتبست منها الديانة الاسلامية » .

وهذا يعنى أن اصرار المستشرقين على محاولة رد الاسلام الى الاديان السابقة له قد حجبهم عن معرفة حقيقته . وكانوا فى ذلك ظالمين او متعصبين ، ذلك أن دين الله واحد ولكن الاسلام جاء ليصحح الانحرافات التى اندفعت فيها تفسيرات رؤساء الاديان لاديانهم فخرجوا بها عن الاصول الربانية لها ، هذه الاصول التى جاء الاسلام ليجددها ويكشف زيف المزيفين الذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هو من عند الله . وبالجملة فان الاستشراق قد عجز عن فهم كلا الامرين : النبوة والوحى .

٢ ـ وحين ننتقل الى كتابة السيرة فى الأدب العربى الحديث نجد أن الشبهات التى أثارها الاستشراق الغربى واليهودى والتفسير المادى للتاريخ قد القى ظلالا كثيفة على كتابة السيرة وخاصة فيما كتبه هيكل وطه حسين وعبد الرحمن الشرقاوى وفيما ترجم من كتب عن الرسول الى العربية .

أما الدكتور هيكل فقد بدأ يترجم كتاب محمد لأميل درمنجم ، ثم تحول عنه الى التاليف وقد وجهت الى الطريقة التى اتخذها كثير من الانتقادات منها انه انكر معجزات الرسول فيما عدا القرآن واول اسراء الرسول ومعراجه وحاول أن يدعى انه وقع فى منام الرسول وبذلك خالف الاصول الاصيلة لسيرة الرسول وجرى مع المستشرقين شوطا وخضع لكثير من مفاهيمهم التى تختلف مع مفاهيم الاسلام الاصيلة ومنها ما يراه درمنجم من تاثر محمد ﷺ بكتب اليهود والنصارى قبل البعثة .

ولقد حاول الدكتور هيكل أن يبرر اسلوبه هذا فى كتابة السيرة بانه انما أراد مخاطبة غير المسلمين أو مخاطبة الذين لم يتصلوا بالثقافة الاسلامية فى معاهدها من الدارسين فى المعاهد العلمانية وغيرها بدعوى تقريبهم الى الاسلام ولكن الاسلوب الذى اتخذه الدكتور هيكل لم يجد تقبلا صحيحا وغلب عليه أسلوب السيرة الاصيل الذى يرى فى الرسول محمد ﷺ نبيا يوحى اليه له شخصية النبوة الخالصة التى تختلف عن شخصيات المصلحين والابطال والقادة والزعماء والتى عرفت صفحاتها عشرات من المعجزات ولقد كشف كثير من الباحثين فساد المنهج الذى عرفته الثلاثينات عن انكار المعجزات وتغليب روح العلمانية على السيرة وعلى فهم الاسلام وهو أسلوب تورط فيه كثيرون من أمثال محمد فريد وجدى ومحمد مصطفى المراغى وتابعه هيكل وكشف عنه شيخ الاسلام مصطفى صبرى فى كتابة موقف العلم والعالم من الله عز وجل .

غير ان اسلوب الدكتور هيكل على الرغم من نقصه وقصوره فانه يختلف عن منهج طه حسين فى كتابه (على هامش السيرة) الذى أعاد فيه احياء الاسرائيليات والاساطير القديمة التى خلص منها علماء المسلمين سيرة الرسول فاعاد اضافتها مرة اخرى اليها ، قال هيكل : اخالف طه فى اتخاذ النبى وعصره مادة لادب الاسطورة ومن رايى ان لا تتخذ حياة النبى مادة لادب الاسطورة ، انما يتخذ من التاريخ واقاصيصه مادة لهذا الادب وما اندثر و ما هو فى حكم المندثر وما لا يترك صدقه او كذبه فى حياة النفوس والعقائد اثرا ما ، والنبى وسيرته وعصره يتصل بحياة ملايين المسلمين جميعا بل هى فلذة من هذه الحياة ومن اعز فلذاتها عليها واكبرها اثرا . اعلم ان هذه الاسرائيليات قد اريد بها اقامة (مثيولوجية اسلامية) لافساد العقول والقلوب من سواد الشعب ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة الى نفوسهم فى شأن الاسلام ونبيه وقد كانت هذه غاية الاساطير التى وضعت فى الاديان الاخرى ، من اجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين فى جميع العصور لتطهير العقائد من هذه الاوهام » .

ويرى كثير من الباحثين ان ما قاله طه حسين فى هامش السيرة لا يعدو ما قاله فى كتاب الشعر الجاهلى ولكن بطريقة أكثر مكرا .

ولا ريب ان اسلوب العلمانية الذى اختطه هيكل واسلوب السخرية الذى اختطه طه حسين واسلوب تفسير البطولات الاسلامية بالوراثة الذى اختطه العقاد بمثابة المقدمة للمحاولات التى قدمت من بعد لتفسير حياة الرسول تفسيرا ماديا خالصا على النحو الذى اصطنعه عبد الرحمن الشرقاوى .

فكتاب محمد رسول الحرية يحاول ان يكتب عن الرسول الكريم على انه زعيم من زعماء الحرية ولذلك فهو ينكر الوحى انكارا تاما خلال كتابه كله ، فضلا عن أنه يجرى مجرى طه حسين فى التفسير المادى ويحاول أن يصور الرسول على انه مصلح اجتماعى وإن هدف رسالته اقتصادى يرمى الى اخراج الفقراء من الفقر وبذلك يتخذ سيرة الرسول تبريرا للمفاهيم الماركسية فطه حسين وعبد الرحمن الشرقاوى لا يريان فى رسالة الاسلام الا جانبا واحدا هو انها ثورة فقراء ، وبذلك يخرجان عن مفهوم الرسالة الجامعة التى لا يمكن أن توصف بانها ثورة لانها رسالة خالدة وللثورة موقف متصل بعصر أو بيئة فى حالة من احوال التغيير ، وليس الذين آمنوا برسالة محمد هم الفقراء وحدهم وليس الهدف هو معالجة قضية الفقر وحدها .

وينظر عبد الرحمن الشرقاوى الى أمر الاسراء والمعراج على انه منام كما يرى ان لقاء النبى لجبريل أول مرة فى غارثور هو منام أيضا فهو يصور الرحلة الى السماء التى وقعت بانتقال الرسول من مكة الى بيت المقدس ومن بيت المقدس الى السموات العلا على انها رحلة فى المنام ، وعلى أن الوحى بالرسالة هو أيضا من الاحلام .

وهو حين ينكر كلمة الوحى ينكر كلمة القرآن فلا يذكرها وينسب

كل معانى القرآن الى النبى ويصف قصص القرآن على أنهـا تجـارب للنبى وهناك أيضا محاولات الادعاء بان النبى كان رحالة وان ما جـاء به كان نتيجة تجاربه لا بوحى من ربـه وهو يسترسل فى ادعـاء أن محمـدا كان رحـالة معنيا بما عند الرومان والفرس ولا ريب فى فساد هذا الادعـاء وكذب القول بأن النبى جـاب البلاد العربية شمالا وجنوبا وانه كان معنيا بما عند الرومان والفرس ، ولا يوجد ما يدل على ذلك فى المصادر الصحيحة أما ما ترجم من كتب عن الرسول الى العربية فاننا نأخـذ على المترجمين تركهم سوءات الكتاب الغربيين دون دحضها ، ومثال ذلك كتاب المستشرق (ر . ف . بودلي) الذى ترجمه السحار وفرح تحت اسـم (الرسـول) فقـد نسب بودلى الى النبى ﷺ عبـادة الاصنام ووصف النبى بانـه وارث الهاشميين حراس أصنام الكعبة وزل قدمه فى سـيرة النبى وازواجه الطاهرات وادعى استمداد الرسول من الرهبـان فى رحـلاته البعيدة المتعـددة ومن الوعاظ فى سـوق عكاظ .

وادعى أن النبى تأثر ببحيرا الراهب وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل وله ادعاءات كثيرة برحـلات النبى الى الشـام واليمن وفلسطين وآسـيا وآسـيا الصغرى وفارس وكلها غير صحيحة فان رحـلات النبى الى الشـام لم تزد على المرتين أو الثلاث وهو لم يجتمـع مع بحـيرا الا فى المـرة الاولى حيث كان فى صحبة عمـه أبى طالب وكان فى الثالثة عشرة من عمره ، أما بحيرا فقد اعترف بنبوة النبى ومات قبل البعثة ، أما ورقة فكان موحدا ولم يعرف عنه دعوة الى النصرانية وأما قس بن ساعدة فقد كان موحـدا مؤمنا بالبعث أما أمية ابن أبى الصلت فقـد كان مثل قس فى العقيـدة ويعلم أن نبيـا يبعث من العرب ولم يرده عن الاسـلام الا الحسـد بعـد بعثـة النبى .

وهكذا نجـد أن سيرة الرسول عليه الصلاة والسـلام لم تلق ما هى جـديرة به من دراسة تاريخية أصـيلة . فى مواجهة تحديات الاستشراق والتغريب والماركسية .

الفصـــل الثالـث

الجهـــاد والفتـــح

كان تركيز الاستشراق والقوى التغريبية يستهدف أساسا ضرب القـيم الأساسية للاسلام المتمثلة فى فريضة الجهاد التى كان لهـا طابعهـا المتميز الواضح المختلف عن أساليب الحرب والقتال التى عرفتها البشرية قبـل الاســلام : فقد كان (الجهـاد الاسلامى) عملا وقائيا أساسا ولم يكن عملا عدوانيا ولا حربيـا بالمعنى المعروف فالمسلمون لم يتحركوا الى الجهـاد الا عندما وقف العدو فى وجـه دعوتهم ومنعهم من تبليغهـا وحـال دون مسيرتهم لاذاعة كلمة الله الى العالمين ، هذا المعنى كان وما يزال غير مفهوم تماما وعلى وجهه الصحيح فى دائرة الغرب التى عرفت مفهـوم الحرب والقتال على غير هذا النحـو .

ولذلك كانت أكبر الشبهات التى وجهـت الى تاريخ الاسـلام : فرية انتشـار الاسلام بالسيف ، والدعوى بان الاسلام استولى على هذه البـلاد التى دخلهـا عن طريق الحرب والقتال وهى فرية يرددها بعض الغربيين من المؤرخين فى محاولة لاثارة الشبهة حول طبيعة الاسـلام وجوهر عملية الفتح التى قادها المسلمون ويستهدفون من ذلك الطعن فى الاسلام والتقليل من شأن اندفاعته واثارة الغبـار حول أسلوبها الذى يختلف اختـلافا كبيرا عما فعـل ملوك أوربا حين اقتحموا بلاد الغال وفرضوا المسيحية بالقـوة على أهلهـا وقتلوا وشنقوا وأسالوا الدماء .

لقد كانت حركة التوسع الاسلامى حركة واضحة الدلالة : انهـا تستهدف صـد القوى المعادية المتسلطة التى تآمرت على الاسلام فى الجزيرة العربيـة وحاولت أن تتجمع للفتك بـه ، وهى القـوى التى لم تكن الا متسـلطة مكروهة من أهل تلك الاقطار المسيطرة باساليب القهر والعنف والظلم ، ولذلك فان قوى الاسـلام الفاتحـة لم تكن تستهدف أكثر من تحـرير هذه الشعوب

من ذلك النفوذ الظالم دون ان تترض على هده الامم دين الاسلام بل تركت لها حرية العبادة وأعطتها الفرصة الكاملة وأقامت لها جوا من السلام والرحمة والعدل ، ثم كان أسلوب الحكم الاسلامى نفسه فى سماحته وعدله ورحمته هو الذى دفع هذه الشعوب التى استقبلته بالحماسة والفرحة لانه خلصها من الظالمين ـ دفعها الى اعتناقه والدخول فيه ، وموقف كتاب الغرب من هذه القضية وغيرها يختلف باختلاف التيارات فان الدول التي استعمرت العالم الاسلامى (الفرنسيين والانجليز والهولنديين) كانوا حريصين عن طريق الاستشراق أن يغضوا من قدر الاسلام وعظمته ليمهدوا لسيطرة نفوذهم ولاخضاع الاجيال الجديدة للاعجاب بحضارتهم والتنكر لتاريخهم وكان هناك تفسير مسيحى مصدره التبشير وهو مواز للتفسير الاستعمارى مرتبط به ، يستهدف الانتقاص من قدر الاسلام حتى لا يجد ذلك فى النفس الغربية اعجابا وتقبلا ثم جاء التفسير الماركسى للتاريخ وهو تفسير مادى لا يرى فى الفتح والجهاد الا صورة الدافع الاقتصادى الذى جرى عليه فى تفسير وقائع التاريخ كله ومن ثم فانه يرى أن المسلمين خرجوا منجزيرتهم من أجل الرزق وبحثا وراء الثروة وطمعا فى الغنائم ، وهذا التفسير لم يخدع أحدا فقد عرف المثقفون جميعا أن الاقتصاد عامل من العوامل المحركة للتاريخ ولكنه ليس العامل الوحيد وليس العامل الاكبر وأن هناك عوامل أخرى كثيرة حركت التاريخ وكان للايمان والعقيدة أثرها الكبير فى حركة التاريخ وفى حدوث كثير من التغييرات الضخمة والتحولات الخطيرة البعيدة المدى ، كذلك فان من يقرأ تاريخ الاسلام ويعرف القليل عن هذه العقيدة يعرف أن ذلك التحول الخطير الذى أحدثه الاسلام فى سبعين عاما لا يقاس بالمقاييس المادية وأن المسلمين الذين خرجوا من ديارهم وتركوا أهليهم وثرواتهم وماتوا فى سبيل كلمة الله لم يكونوا طلاب غنم أو مال وانما كانوا يؤمنون بفكرة عميقة امتلكت عليهم أنفسهم فباعوا أنفسهم وأموالهم وقدموا أرواحهم رخيصة من أجل تحقيقها وصارعوا الدولتين الكبيرتين فى اوج مجدهما وهم الاقل عدة وجندا وما كانوا ينظرون الى هذا الاسلوب المادى من حساب النفوذ

المادى فقد كانوا يؤمنون بان تاييد الله لهم سوف يجعلهم أكبر من عددهم أضعافا مضاعفة وأنه سيحقق لهم النصر لانهم خرجوا فى سبيل غاية عليا وفى سبيل احقاق كلمة الله وتحرير الامم والشعوب من ظلم الظالمين واخراج الناس من عبادة الفرد الى عبادة الواحد القهار ·

ولقد جاء التفسير اليهودى للتاريخ أيضا فكانت وجهة نظره مما لا يقنع العقل المتطلع الى الحقيقة لانها اقامت رايها على الهوى والمطمع والتزييف للحقائق لاقرار فكرة ليست لها فى الفطرة الانسانية تقبلا ولا فى العلم الصحيح مكانا ، هى فكرة السيطرة العرقية باستعلاء العنصر والدعوى باسم شعب الله المختار وبتزييف وعد الله لابراهيم وامته وقصره على اسرائيل وحده وانكار اسماعيل وفرعه كله ·

ومن هنا نرى ان التفسيرات الوافدة كلها للتاريخ تحمل اهواء وتسوقها اغراض ، وتقدم شبهات وزيوفا ونظريات لا تثبت كثيرا امام الحقيقة ·

وقلما نجد فى كتابات مؤرخى الغرب روح الانصاف الكاملة ، لان اختلاف العقائد ووجهة الثقافة والغايات من شانه أن يحول دون اعتناق مفهوم الاسلام وتفسيره الصحيح الا لقلة من الذين آمنوا بالاسلام نفسه أمثال : محمد أسد واتيان دينيه وعبد الكريم جرمانوس ومع ذلك فان هناك جزئية من الانصاف نجدها فى قول ارنولد توينبى الذى نفى الاكراه فى الدعوة الاسلامية وانكر اسطورة انتشار الاسلام بالسيف حين قال: من الميسور أن نسقط الدعوى التى شاعت بين جوانب العالم المسيحى غلوا فى تجسيم اثر الاكراه فى الدعوة الاسلامية ، اذ لم يكن التخيير ببلاد الروم والفرس بين الاسلام والسيف وانما كان تخييرا بين الاسلام والجزية وهى الخطة التى استحقت الثناء لاستنارتها » ·

ويعترف ارنولد توينبى بان الاسلام حرر ساحل البحر الابيض من نفوذ استمر الف عام قبل الاسلام فأصبح وكان لم يكن · يقول :

« حرر الاسلام ساحل البحر الابيض المتوسط من سلطان اغريقى رومانى مسيحى من سوريا الى اسبانيا عبر شمال أفريقيا وكانت تلك البلدان تحت الحكم الاغريقى والرومانى نحو الف من السنين منذ فتح الاسكندر الاكبر الامبراطورية الفارسية واسقاط الرومانيين لقرطاجنة وذلك بين القرن الحادى عشر والسادس عشر قبل الميلاد » .

وتلك هى القصة التى يلوكها المغتصبون فى الغرب من كتاب الاستشراق التابع للنفوذ الاستعمارى أو كتاب التبشير التابعين للكنيسة وهى دعوى باطلة وزائفة حين يقول أحدهم : « رد ما أخذه الاسلام من المسيحية » .

والحق أن المسيحية لم تكن فى هذه المناطق وانما كان هناك النفوذ اليونانى والرومانى المغتصب المسيطر بالظلم والاستبداد على هذه المنطقة التى لم تكن ملكا له يوما ، هذه المنطقة القائمة على ساحل البحر المتوسط من سوريا الى المغرب لم تكن ملكا للغرب ولا جزءا من وطنه ، وانما كانت عربية منذ آلاف السنين قبل الاسلام انداحت عليها موجات الهجرة المتلاحقة التى خرجت من الجزيرة العربية وتوالت والتى كانت بمثابة توسيد للموجة العربية الاسلامية الكبرى التى التقت مع جذورها الفينيقية والفرعونية والاشورية والبابلية والبربرية جميعا .

والحقيقة التاريخية تقرر أن « العرب منذ عهد جاهليتهم يرون أن حدود جزيرتهم من الشمال هى جبال طوروس ، ولكن مورخى اليونان والرومان حاولوا بعد السيطرة على سوريا أن يجعلوا حدها مشارف الشام فقلدهم من جاء بعدهم من العرب والفرنجة التى كتبوا تاريخا غير منصف ، والمعروف أن مساحة الجزيرة العربية وحدها الى مشارف الشام كمساحة انجلترا ثمانى مرات ، توالت موجاتها بالشام والعراق ومنهم السومريون الذين اقاموا حضارة باذخة وهم الذين انشاوا مخازن حبوب فلسطين بالزفت والتى تعود كما قدر العلماء لعشرين الف عام ، اما الذين حلوا

فى مصر هذه الموجة فقد حصروا اللغة الهيروغليفية فى المعابد والدوائر الرسمية ونشروا لغتهم بين الشعب قبل أن يعرف الناس أسم سام وحام ثم اتصلوا بالجزيرة الأم بقناة حفروها بين النيل والبحر الاحمر منذ أربعين قرنا ومنهم دولة حكمت القسم الشمالى من العراق قبل أربعين قرنا ، أما الموجة العربية الثانية فقد اتجهت الى الشام ومصر والعراق وشمال أفريقيا : كلدانيون وآشوريون وسوريون وسريان وآراميون ٠

وجاءت موجة أخرى بعد سد مارب نحو الشام ومصر والعراق وشمال أفريقيا ومنها مناذرة العراق وغساسنة الشام وغيرها من القبائل كربيعة ومضر وبكر وتغلب وحتى أواخر الفترة وهؤلاء هم الذين واجهوا الاحتلال الرومانى ثم الرومى والفارسى والحبشى قبل الاسلام ٠

ولما دخلت الموجة الاسلامية مصر والسودان وشمال افريقيا وجدت العربية سابقة لها ولكن حين دخلت فارس والهند والصين والتركستان لم تجد جذورها فعاشت لغة للدولة ثم انسحبت بانسحابها » ٠

ولا ريب أن هذا الواقع التاريخى يدحض تلك الشبهة التى ترددها كثير من كتب التاريخ عن هذه المنطقة التى وقعت تحت النفوذ اليونانى الرومانى لألف عام ثم حررها الاسلام ، بأن أعادها الى أهلها والى طبيعتها الاصيلة ٠ والواقع أن كتب التاريخ التى بين أيدى طلبتنا وشبابنا لا توضح هذه النقطة وتتغافل عن أن تكشف حقيقة الرومان وأنهم كانوا أجانب عن سكان المنطقة التى انتشر فيها الاسلام وأن وجودهم هذا كان استعمارا غاشما ، وأن الرومان تآمروا على الدعوة الاسلامية وهى فى قلب الجزيرة وحاولوا محاولات متعددة لقتل الرسول ﷺ وتجميع الجموع لسحق الدولة الصغيرة قبل أن تستكمل قوتها ومن هنا كان اعداد النبى لبعث أسامة قبل أن يختار الرفيق الاعلى وحشد كبار الصحابة فيه علامة على أهمية هذه الثغرة ٠

وكذلك فان رومية تركت فى أفريقيا آثارا لا تمحى وكان من تلك الآثار انهـا تكلمت اللاتينية ستة قرون وأنشأت للكنيسة آباء عظاما على حـد تعبير مجلة الشرق مثل القديس أوغطيوس ومع ذلك اضمحلت فيهـا كل تلك الآثار الرومانية والمسيحية وبسط الاسلام نفـوذه واكتسـح مـيراث الامبراطورية الرومانية الذى كونته خلال ألف عام فى سنوات قليلة وسيطر على الشام ومصر والمغرب كله وأصبح البحر الابيض المتوسط فاصلا حقيقيا بين حضارتين ودينين ٠

٢ ـ أن القول بأن المسلمين هاجروا الى المدينة أو خرجوا من الجزيرة لأن الصحراء مجدبة ، فهى دعـوى مبطله ورأى فاسـد ، ذلك أن خـروج المسلمين من مكة الى المدينة حين هاجروا انما كان عن ارادة حـرة ولـم يفرض على أحـد منهم أن يترك ماله وثرواته وآله وداره الى مصير مجهول فى يثرب وانما جـاء ذلك بدافع الايمـان العميق الذى ملأ هـذه النفوس ودفعها الى التضحية بكل ما تملك فى سبيل اعلاء كلمة الله ٠ هؤلاء المؤمنون أنفسهم أصحاب الهجرة هم الذين تدافعوا تحت رايات الجهـاد يطلبون احـدى الحسنيين : الموت أو النصر ٠ من أجل تركيز رايات الاسـلام فى الارض وابلاغ العالمين كلمة التوحيد ، فلم تكن الغنيمة فى تقديرهم فى الاولى ولا فى الآخـرة ، وانما كانت الفكرة المؤمنة والعقيدة الصامدة القوية التى هى عامل أساسى فى تفسير التاريخ عجز عنه الذين قالوا بالتفسـير المادى أو التفسير الاقتصادى أو التفسير الجغرافى والايمان عامل أشـد قـوة وأعظم أثـرا من كل هـذه العوامل لانــه هـو العامل الاصـيل فى تغيير أوضـاع المجتمعات والذى أعاد رسم خريطة العالم وقد عبر المسلمون عن هذا المعنى حين قال قائلهم : « احرص على الموت توهب لك الحيـاة » ومن هنـا قلب المسلمون موازين التقديرات فى الحروب وحققوا النصر بالقلة المؤمنة ذات العدة القليلة على الكثرة الكاثرة حيث أصبحت فئة قليلة تغلب فئة كبـيرة باذن الله لانهـا حيث تقاس قلتها وكثرتها الى العـدة والعـدد ، يجىء عامل الايمان فيضاعف جانب القلة العـددية فترجح كفتها وفى مختلف

المعارك التى خاضها المسلمون كانوا « القلة » العددية بالنسبة لأعدائهم ، فقد كانوا فى احدى المعارك ألفا أمام ثلاثة آلاف وفى اليرموك ثلاثة آلاف أمام مائة ألف وبهذه الاعداد القليلة انتصر المسلمون على قوى امبراطوريتى الفرس والروم وهى تملك الاعداد الضخمة والامكانيات الفائقة .

ولو كان المسلمون طلاب غنيمة لعجزوا عن أن يقتحموا آفاق الارض معركة بعد معركة ولتشبثوا بمتاع الدنيا وحرصوا عليها ولكنهم بشهادة التاريخ نفسه تدفقوا دون توقف حتى بلغ قائدهم المحيط الاطلسى وغرس أقدام فرسه فى الماء ونظر فلم يجد فى الافق علامة على أرض أخرى فقال :

يارب لو أعلم أن وراء هذا الماء ارضا لخضته مجاهدا فى سبيلك ، وصدق عبد الله بن رواحة الذى قال : ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا فانما هى احدى الحسنيين : أما ظهور وأما شهادة .

وصدق رسول الله ﷺ الذى رسم هذا الطريق واضحا : الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه :

« فمن يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

والحق أن ايمان المسلمين بفريضة الجهاد هى العامل الاول فى حركة انتشار الاسلام وحمايته والدفاع عنه ، ولا يمنع هذا من أن هناك عوامل كثيرة تاريخية واقتصادية واجتماعية ومادية كانت وراء أحداث تاريخ الاسلام فى مختلف مراحله غير أن العامل الاول والاكبر ظل هو الايمان بفريضة الجهاد لنشر الاسلام وحمايته والدفاع عنه .

ولقد كان الايمان بان الموت واهب الحياة هو عدة المسلمين فى مجال النصر وهو العامل الاول فى معاركهم ، وقد كان هو مصدر اليقين فى تحقيق

النصر ، حيث كانت الغنيمة أو غريزة حب السيطرة أو غلبة القبلية أو الدم هى مصدر التحرك عند عدوهم وخصمهم .

فقد كانت حروب خصوم الاسلام قبل الاسلام وفى مواجهته انما تقوم على الشهوات والاهواء والمطامع يحدوها حب المغنم والسلب والنهب ويذكى أوارها حب التشفى والانتقام ثم هى تقوم فى حركتها على التخريب والتدمير ونقض العهود والمواثيق .

ولكن الاسلام جاء ليعلم البشرية كيف يكون الجهاد عملا فى سبيل الله ، وكيف يكون ماذونا به حين يحال بين الدعوة وبين انطلاقها وحين يظلم أهلها ويخرجون من ديارهم ثم كان أسلوبه الكريم الرفيع الذى يعلو على الانتقام والتخريب ونقض العهود حيث لا مغانم ولا مجد شخصى للملوك والقواد .

ومن ثم لا تتقرر الحرب فى الاسلام الا فى حالتين اثنتين :

الوقوف بالقوة المادية فى وجه الدعوة السلمية أو الاعتداء على حرية العقيدة وفتنة المسلمين عن ربهم أفرادا وجماعات .

والهدف هو أن يكون الاسلام دين البشرية لا عن طريق الاكراه ولكن عن طريق الدعوة .

وفى أسلوب الجهاد الاسلامى ومفهومه للحرب يكمن سر الانتصار ويكمن سر ذلك التوسع الذى أذهل غير المسلمين من دارسى الحضارة والتاريخ نظرا للوقت القصير الذى تم فيه والنصر المؤزر الكاسح ، فقد كان الهدف ربانيا وحملة اللواء لا مطمع لهم فى الدنيا وكانت الحرب غير عدوانية بل دفاعية ، وقد اقتصرت على دفع الظلم ورد العدوان والدفاع على النفس والمال والعرض والأهل والدين .

ولما كانت الحرب من فطرة الناس فقد هذب الاسلام فكرتها وحصرها فى أضيق الحدود .

٣ ـ كذلك نجد أن الذين ركـزوا على الاسباب الاقتصـادية فى الفتح الاسلامى كانوا واهمين وكانوا يهدفون الى التقليل من شان تلك الانطلاقة القوية المؤمنة او تفسيرها تفسيرا ماديا منكرين أثر الاسـلام نفسه كعقيدة فى بنـاء هذه النفوس ودفعها الى الجهـاد فى سبيل الله وتقـديم أرواحهم رخيصة من أجل غاية معنوية عالية ٠

وقد ردد هذا الرأى فيليب حتى فى كتابه (تاريخ العرب) وذهب اليـه مستشرقون كثيرون منهم كيتانى وبيكر بل أن توماس أرنولد صاحب كتاب الدعوة الاسـلامية الذى عرف بالانصـاف لم يستطع أن يسـتوعب الحقيقة ٠ فقال : « ويعتبر توسع الجيش العربى على أصح تقـدير هجرة جماعية نشيطة قوية الباس دفعها الجوع والحرمان الى أن تهجر صحاريها المجدبة وتجتاح بلاداً أكثر خصبا كانت ملكا لجيران أسعد منهم حظا » ٠

ولم يكن هذا فى الواقع الا ترديدا لمـا قاله رستم لجيوش المسلمين حين قال : قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيـه الا ضيق المعـاش وشدة الجهد ، ولكن قادة الفتح المسلمين دحضوا مقالته وكشفوا له عن الوجـه الحقيقى لامرهم ، حين قال ربعى بن عامر) ان الله بعثنا لنخـرج من شـاء منعبادة العباد الى عبادة الله الواحـد القهـار ومن ضيق الدنيـا الى سعتها ومن جـور الاديان الى عـدل الاسـلام) ولم يصـدق أرنولد حين قال : ان البـلاد كانت ملكا لجيران أسعد حظا فان الرومان لميكونوا فى الحقيقة يملكون الارض ولكنهم كانوا مستعمرين بل ان التقـدم الاسلامى نحـو الشـام كان تقـدما فى المنطقة العربية الغسـانية ولـم يتجـه الى ماوراءها الا بعد أن حشدت الامبراطورية الرومانية حشـودها لقتال العرب فاضطر المسلمون الى مواجهة هذه الحشود فى اجنادين عام ١٣ هجرية ٠

وكما تآمرت الدولة الرومانية على الحـدود الشمالية للجـزيرة العربية على النحو الذى دفع النبى الى موالاة ارسال حملات مؤتة وتبوك وبعث أسامه فان عمال فارس كانوا يتحفزون لقتال العرب وسحق انطلاقة الاسلام

فلما انتصر العرب على الفرس اكتفوا بضم العراق العربى ومنع الخليفة عمر جيوشه من دخول اقليم فارس واعتبر الجبال الفاصلة بين العراق وايران حدا طبيعيا ولكن الفرس أخذوا يجمعون جموعهم لازالة المسلمين وأمام هذا التهديد تقدمت الجيوش ففتحت فارس كلها كما تقدمت فى الجبهة الرومية أمام التهديد الرومانى ففتحت الجزيرة وفتحت مصر وهذا كله يؤكد أن الفتوح الاسلامية كانت حركة سياسية وحركة اضطرارية اندفع اليها المسلمون بحق حماية النفس وهى حين انتصرت فى الحرب لم تستبد بالشعوب وانما أتاحت لها الحرية الدينية والحكم العادل الذى كانت تفتقده . ولذلك فان الشعوب استقبلت الفتح الاسلامى فى كل مكان بالفرحة الغامرة ، لتخليصهم من مظالم الحكم الرومانى الظالم والفارسى المستبد ، ويصور بتلر فى كتابه فتح العرب لمصر جانبا من هذه الحقيقة حين يقول : ان كثيرا من أهل الرأى والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان فيها من عصيان لصاحبها اذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء فى الله ، ونسيت ذلك فى ثورتها وحروبها التى كانت تنشب بين شعبها وأحزابها ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجأوا الى الاسلام فاعتصموا به واستظلوا بظله ، وأصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، ويساويهم بالفاتحين فى شرف محلهم ويجعلهم اخوانهم فى كل شىء ، يسهم لهم فى الفىء ولا يفرض عليهم الجزاء » .

والمعروف أن الفتح الاسلامى لم يكن فى مواجهة أهالى البلاد وانما كان فى مواجهة المحتلين والمستعمرين وهم الدولة الرومانية .

٣ - لقد كان الفتح الاسلامى نموذجا فريدا ، لم تكن غايته ضم البلاد المفتوحة الىأملاك الفاتحين وانما كانت غايته أعلاء كلمة الله فكلما وطئوا أرضا عرضوا على حكومتها وشعبها الاسلام فان قبلوا به واتبعوه انصرفوا عنهم وعدوهم اخوانا لهم فان لم يقبلوا أعطوهم الحرية فى أمور دينهم وتعهدوا لهم بالامن الداخلى والخارجى ولم يكرهوا أحدا على الاسلام .

ولم يعمد الفاتحون المسلمون الى افنـاء السكان الاصليين أو اجلائهم ولا يقيمون المستعمرات أو يضعون الحواجز بينهم وبين سكان المـدن التى انتقلوا اليهـا سكانها المقيمون من قبل والمهاجرون الوافدون اليهـا سواء فى الاعتبار الانسانى أو الحقوق القانونية .

كما اتسمت الفتوح الاسلامية بالسرعة الباهرة ، فقد سرت فى أقطـار آسـيا وأفريقيا وأوربا وهـرع الناس الى الفاتحـين من كل جانب يتقبلون نظـامهم .

ولعل أبلغ عبارة فى وصف الفتوح الاسلامية ما قاله الامـام ابن تيمية حين قال : ان المسلمين الاولين لم ينقلوا الاسـلام الى الامم ولكنهم نقـلوا الامم الى الاسـلام .

فهو بذلك نسيج وحده فى تاريخ البشر لا يشبهه فتح ولا يدانيه و لايقاس به . فقد خرج المسلمون يعلنون كلمة الله وينشرون دينه ويبذلون فى سبيل الله دماءهم وأرواحهم ويفارقون من أجـله ديارهم وأهليهم ، لا يبغـون علـوا فى الارض ولا فسـادا ، وهـم فى فتوحهـم لا يغـدرون ولا يمثلون ولا يجهزون على جريح ولا يحاربون امرأة ولا يتعرضون لعاجز ولا يمسون معبدا ولا يحرقون دارا .

والحق أن الامم لم تعرف فاتحا أرحم من العرب كما قال جوستاف لوبون حيث لا اكراه فى الدين وحيث من شاء فليؤمن ، ومن شـاء غير ذلك فله ذلك بملء حريته . ولقد كان الاسـلام فى فتوحه وحكمه قائمـا على حرية العقيدة بعيدا عن القهر والغلب ، ويصدق فى هذا ما أثبته الشـيخ محمـد عبده حين قال : لم يعهد فى تاريخ الفتوح الاسـلامية ان كان لـه دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على انفسهم العمل على نشره ويقفون مسعاهم على بث عقائده من غير المسلمين بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم فى المعاملة وشهد العالم بأسره أن الاسـلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضـلا واحسانا عندما كان يعدها الاوربيون ضعة وضعفا .

ولم يظهر فى تاريخ الاسلام أفراد متعطشون للدماء أمثال الاسكندر ونيرون وريتشارد ونابليون وانما كان أبطال الجهاد الاسلامى رجال رحماء تمتلىء صدورهم شوقا الى انقاذ البشرية من الظلم والعبودية والانحلال ·

وفى مجال البطولة والحرب كان أعلام المسلمين يتميزون بالبراعة والحنكة على نحو يرتفع ارتفاعا كبيرا عن تلك النماذج الغربية التى حاولت مناهج دراسات التاريخ فى بلادنا أن تبرزها ·

وفى هذا يقول العلامة رفيق العظم : ان ممن اشتهر فى التاريخ ذكره وعظم فى عهده أثره « هينبال » بطل قرطاجة الشهير الذى ناصب الرومان العداوة على ضخامة سلطانهم ومناعه بنيانهم فاجتاز اليهم جبال البرنية بجيوش جرارة وجند كثيف لينازلهم فى صميم بلادهم ويستنزل اقيالهم عن منصات مجدهم ، ومع هذا فاين هو من موسى بن نصير ومولاه طارق اللذين جاءا من أقصى العربية الى أقصى المغرب فدوخا ممالك هنبال القديمة فى افريقيا الشمالية وقطعا بجندهما القليل البالغ اثنى عشر الف مقاتل مضيق سبتة الى القارة الاوربية ففتحا مملكة الاندلس وقضيا على دولة القوط بالدمار ، بل أين هو من عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الذى اقتحم ما وراء البرنية على عهد الخليفة هشام الاموى وانساح بجيشه القليل فى أحشاء المملكة الفرنساوية حتى بلغ بواتو وبورغونيا على مسافة الف ميل من جبل طارق فذعر منه سكان الممالك الاوربية واستجاشت لقتله وصدته الجنود الفرنساوية والكركسون والقوط والجرمان حتى تمكنوا من ارجاع جيشه على ادراجه واوقفوا تياره الذى كاد يكتسح الممالك الاوربية بقوة عجاجه ·

« اين نابليون الذى طبقت شهرته التاريخية الافق وعده الاوربيون من أشهر القواد فى العالم لحروب طويلة أصلاهم نارها واذاقهم شدة أوراها ، لم تات لدولة بفتح جديد أو خير عتيد ، من قتيبة بن مسلم فاتح السند وتركستان ، أو عبد الملك بن مروان الذى تولى منصب الخلافة

وقد تنازعتها أطماع الطامعين واشرأبت الى التحزب والانقسام أعناق المسلمين فبادر الى تلافى الخطب مبادرة الحكيم واستظهر على الشدائد ببعد النظر والرأى فذلل صعاب الامور وأرغم من خالفه من الناس على الطاعة ثم بعد أن استصفى لنفسه الخلافة وأجرى أمور الملك مجرى السداد والطمانينة أطلق للجيوش الاسلامية عنان الفتح والغارة فجاست خلال الممالك وجابت شطوط المحيطين مرفوعة أعلام الظفر واثقة من نصر الله لها وحفوف عنايته بها » .

وهكذا نجد أن صفحات البطولة الاسلامية حافلة بما لم تحفل به بطولات الامم من مجد وفخار قائم على الخلق والسماحة والعفو والمرحمة وهو مالم تعرفه بطولات الحرب فى كل مكان وكانوا فى حربهم لا ينقضون العهد ولا يخفرون الذمة ، تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم . وقد أزالوا سلطان الجبارين عن الضعفاء والمساكين وآمنوا الناس على ما تعمله أيديهم وما يناله جدهم وسعيهم .

الفصل الرابع

الخلاف بين الصحابة

لم يستغل الاستشراق أمرا من أمور التاريخ الاسلامى كما استغل هذه المرحلة التى بدأت فى أواخر ولاية عثمان بن عفان وبين ولاية على ومعاوية فقد اتخذت مجالا لبسط عديد من الشبهات ولاثارة مشاعر المسلمين بتصوير الموقف على أنه نحو من انحاء الخلاف العنيف والصراع الشديد ناسين أو متجاهلين أن هؤلاء الصحابة أبطال هذه المرحلة هم صحابة رسول الله ﷺ والذين تشكلوا فى ظل الدعوة الاسلامية تشكيلا خاصا فكانوا نماذج من الايمان والبطولة والوفاء ومن ثم فلا يمكن أن يقايسهم المؤرخون بمقاييس الساسة ورجال الاحزاب او يصوروهم على أنهم يصارعون المطامع والاهواء . فضلا عن أن المسلمين نهوا عن الخوض

فى شان هذا الرعيل من الرواد الاول الذين حملوا راية الاسلام وفتحوا بها الآفاق داعين الى الله ناشرين كلمته فى الخافقين . ولذلك فان محاولة الاستشراق فى افساد هذه المرحلة واثارة الشبهات حولها والاعتماد على بعض النصوص الزائفة أو التى لم تصح انما كان يستهدف تدمير هذه الصورة الرائعة التى أقامت دولة الاسلام ودفعته الى حدود الصين شرقا والى حدود فرنسا غربا .

ومن عجب أن الكتب التى شاعت فى أيدى الطلاب والشباب قد حملت هذه الصورة القاتمة ومازالت تحملها لان الذين كتبوا هذه الصفحات كانوا من أولياء الاستشراق ودعاة التغريب وكان خليقا بالعرب بعد أن تحررت ارادتهم من النفوذ الاستعمارى والاحتلال الاجنبى أن يعيدوا صياغة تاريخ الاسلام من جديد فى ضوء الحقائق الصادقة والوقائع الصحيحة وأن تستبعد هذه الروايات الكاذبة والمشوهة والزائفة .

ونحن نعرف أن تاريخ الاسلام لم يبدأ تدوينه الا فى أوائل العصر العباسى ، وهو عصر كان لرجاله موقف من الدولة الاموية التى ترتبط بالاحداث منذ عهد عثمان رضى الله عنه كما كان لها موقفها من حكم على ابن ابى طالب وخلافه مع معاويه .

ولا شك أن صحابة رسول الله قد اختلفوا ووقعت بينهم المواقع ولكن الامر كان بفعل عوامل خارجية كثيرة أهمها هذه المؤامرة السبأية التى رسمها عبد الله بن سبأ والتى يجب ان تدرس بتوسع ويكشف عن ابعادها الخطيرة ، هذه الابعاد التى امتدت الى الامصار الاسلامية وتحركت بعنف فى أواخر عصر عثمان وخلال عصر على وتركت بصماتها بعد ذلك وعبد الله ابن سبأ يهودى من صنعاء أمه سوداء تظاهر بالاسلام على عهد عثمان وتنقل فى البلاد الاسلامية ، وهو رأس المؤامرة التى أدت الى مقتل عثمان وموقعة الجمل) .

بل ان ما يلقيه المؤرخون من تبعات على بعض الصحابة كعلى وطلحة

والزبير وعائشة هو بعد التمحيص من التبعات الثانوية ، أما أقوى الاسباب التى أرثت الشغب وأهاجت الاضطرابات فهى مؤامرة واسعة منظمة محكمة سهر عليها عبد الله بن سبأ ورجاله وتعهدوها فى جميع الاقطار حتى أتت ثمرها المر ومزقت وحدة الصف الاسلامى ٠

ولقد بدأ عبد الله بن سبأ مؤامرته من نقطة خطيرة هى ادخال فكرة الوصية والرجعة الى الفكر الاسلامى بالقول برجعة محمد ﷺ بعد موته والوصية لعلى بن أبى طالب وقد أراد بذلك تسميم العقيدة الاسلامية فكان يقول :

العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمدا يرجع ومحمد أحق بالرجوع من عيسى ٠ وقوله : اذا كان لكل نبى وصى فان عليا وصى محمد ومحمد خاتم الانبياء وعلى خاتم الاوصياء (تاريخ الطبرى ـ ٣) ٠

وقد رحل بهذه الافكار الى الحجاز والبصرة والكوفة ودمشق ومصر يبثها وينشرها ويجمع حوله الاتباع وقد بث دعاته فى كل مكان وأشار عليهم أن يظهروا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والطعن فى الامراء ٠

ومضى رجاله يثيرون الناس على ولاتهم تنفيذا لخطة زعيمهم ويضعون كتبا فى عيوب الامراء ويرسلونها الى غير مصر من الامصار وقد نتج عن ذلك قيام جماعات من المسلمين بتحريض السبأيين وقدومهم الى المدينة وحصارهم عثمان فى داره ٠

وكان ابن سبأ يقول : ان عثمان أخذها بغير حق وهذا وصى رسول الله فانهضوا فى هذا الامر فحركوه وأظهروا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم الى هذا الامر ٠

وأتت حركة عبد الله بن سبأ نتائجها فشغلت القوى الاسلامية بعضها ببعض وحالت بينها بين العمل لنشر الاسلام ٠

ولما سقط الخليفة عثمان وضج الناس من هول الفاجعة بدأ حلقة أخرى لينجو بها هو ومن معه من القصاص ثم يتحفز لاحكام مؤامرة أكبر وسوق هذه الجماهير نحو فاجعة أكبر وكارثة لا تذكر الى جانبها كارثة مقتل عثمان فانضم هو من تابعه الى على بن أبى طالب حين خرجت السيدة عائشة للمطالبة بدم عثمان ، ولما علموا بان المسلمين قد تصالحوا على حل الامور سلما واجراء الصلح . وان رؤساء الجيش اخذوا يتفاهمون وأنهم ان تم ذلك سيأخذون بدم عثمان ، أجمعوا أمرهم ليلا فورعوا أنفسهم واندسوا بين الجيش ونثروا الحرب بكرة دون علم غيرهم واستطاعوا أن ينفذوا هذا القرار قبل أن يبدأ الجيشان المتقابلان فناوش المندسون من السبائين فى جيش على من كان بازائهم من جيش البصرة ففزع الجيشان وفزع رؤساؤهما وظن كل بخصمه شرا ووقعت الحرب .

وقد سجل الطبرى هذه المؤامرة (جـ ٢) فنقل عن ابن السوداء قوله : « ان عزكم فى خلطة الناس فصانعوهم اذا التقى الناس غدا فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فاذا من أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع ويشغل الله عليا وطلحه والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون فابصروا الرأى وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون » .

ومن راجع أخبار موقعة الجمل فى تاريخ ابن الاثير يرى مبلغ تاثير افساد السبائين لذات البين والحيلوله دون وقوع الصلح .

وهكذا خرج مضريهم الى مضريهم وربيعهم الى ربيعهم ويمانيهم الى يمانيهم فوضعوا فيهم السلاح فثار اهل البصرة وثار كل قوم فى وجوه اصحابهم الذين بغتوهم وحيرتهم الصدمة وخرج طلحة والزبير فسألا : ما هذا ؟ قالوا طرقنا أهل الكوفة ليلا فقالا قد علمنا أن عليا غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة وأنه لن يطاوعنا واستطاع أهل البصرة أن يصدوا أولئك المعتدين حتى ردوهم الى عسكرهم وقال على : قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة ، والتحم الناس بعضهم ببعض وبدأت المعركة وانحسرت عن خمسة عشر الف من القتلى

وما لا يحصى من الجرحى ، وكان ممن قتل رءوس المهاجرين والانصار وزعماء الناس وعدد جم من القراء والعلماء والمجاهدين .

ولما قتل عثمان انضم ابن سبا ورجاله الى على فلما انكشف له أمرهم نفاهم الى المدائن .

وكان لابن سبأ مساجلات أثار فيها الشبهات مع أبى ذر وعمار بن ياسر ومحمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة ولكن كثيرا منهم كشفوا زيفه ومؤامراته .

ومع هذه الاثار الضخمة حاول الاستشراق ودعاة التغريب التقليل من شان عبد الله بن سبأ ، بل ذهب البعض الى انكاره تماما وقد ردد الدكتور طه حسين هذه المعانى بينما تكشف الوثائق التاريخية ان ابن سبأ وجماعته كانوا يعملون لحساب دولة أجنبية هى دولة الروم (سعيد الافغانى : الرسالة ١٩٤٥) .

وهكذا نجد أن تاريخ هذه المرحلة لم يكتب بعد كتابة علمية صحيحة ، بعيدا عن كل العوامل التى أثرت فى المؤرخين القدامى ، على النحو الذي صور الخلاف بين الصحابة على أنه أشبه بمؤامرات ومناورات رجال الحكم الحديث بينما لم يكن صحابة رسول الله الا مثلا عاليا للخلق والنبل والفضل . ويشير السيد محب الخطيب ومن قبله القاضى ابن العربى فى كتابه العواصم من القواصم الى أن الذين تصدوا لتدوين تاريخ الاسلام فى هذه المرحلة ثلاث طوائف :

(الاولى) تنشد العيش والجدة من التقريب الى مبغضى بنى امية .

(الثانية) : طائفة ظنت أن التدين لا يتم ولا يكون التقرب الى الله الا بتشويه سمعة أبى بكر وعمر وعثمان وبنى عبد شمس جميعا .

(الثالثة) : طائفة من أهل الانصاف والدين (كالطبرى وابن عساكر وابن الاثير وابن كثير) رات ان من الانصاف أن تجمع أخبار الاخباريين من كل المذاهب والمشارب .

وقد وصلت الينا هذه التركة لا على أنهـا تاريخ بل على أنهـا مـادة غزيرة للدرس والبحث نستخرج منها تاريخنا وهذا ممكن ميسـور .

ويقول السيد محب الدين الخطيب : ان أحداث المائة الاولى من عصور الاسلام كانت من معجزات التاريخ والعمل الذى عمله أهل المـائة الاولى لم تعمل مثله أمة الرومان ولا أمة اليـونان قبلها ولا أمة من أمم الارض بعدها . أما أبو بكر وعمـر وسـائر الخلفاء الاربعة الراشدين واخوانهم من العشرة المبشرين بالجنة وطبقتهم من أصحاب رسـول الله ﷺ وخصـوصا الذين لازموه وراقبوه وتمتعوا بجميل صحبته ـ من انفق منهم من قبـل الفتح وقاتل والذين انفقوا من بعد وقاتلوا ـ فانهم جميعا كانـوا شموسا طلعت فى سماء الانسانية مرة ولا تطمع الانسانية بأن تطلع فى سمائها شموس من طرازهم مرة أخرى الا اذا عزم المسلمون على أن يرجعوا الى فطرة الاسلام واذا بدأ المشتغلون بتاريخ الاسلام من أفاضـل المسـلمين فى تمييز الاصيل عن الدخيل من سير هؤلاء الافاضـل العظمـاء فانهـم ستأخذهم الدهشـة لمـا اخترعه اخوان ابى لؤلؤه وتلاميذ عبد الله بن سبأ والمجوس الذين عجزوا عن مقاومة الاسـلام وجها لوجه فى قتال شريف فادعوا الاسلام كذبا ودخلوا قلعته مع جنوده خلسة وقاتلوهم بسـلاح التقية ، بعـد أن حولوا مدلولها الى النفاق ، فادخلـوا فى الاسـلام ما ليس منـه والصقوا بسـيرة رجاله ما لم يكن فيهـا ولا من سجية أهلهـا .

ولقد كان الصحابة اسمى أخلاقا وأصـدق إخلاصـا لله وترفعـا عن خسـائس الدنيا من أن يختلفوا للدنيا ولكن كان فى عصرهم من الايـدى الخبيثة التى عملت على ايجـاد الخلاف وتوسيعه مثل الأيـدى الخبيثة التى جاءت فيما بعد فصورت الوقائع بغير صورتها . ولمـا كان أصحاب رسـول الله ﷺ هم قدوتنا فى ديننا وهـم حملة الكتـاب الالهى والسـنة المحمدية الى الذين حملوا عنهم أماناتها حتى وصلت الينـا فان من حـق هذه الامانات على أمثالنا أن يدرأ عن سـيرة حفظتها الاولين كل ما الصق بهم من أفك ظلما وعدوانا لتكون صورتهم التى تعرض على أنظـار الناس

هى النقية الصادقة التى كانوا عليهـا فتحسن القدوة بهم وتطمئن النفوس الى الخير الذى ساقه الله للبشر على أيديهم . وقد اعتبر فى التشريع الاسلامى أن الطعن فيهم طعن فى الدين الذى هم رواته وتشويه سيرتهم تشويه للامانة التى حملوها وتشكيك فى جميع الاسس التى قام عليهـا كيان التشريع فى هذه المـلة الحنيفية السمحة وأول نتائجه حرمان شباب الجيل وكل جيل بعـده من القدوة الصالحة التى من الله بهـا على المسلمين ليتاسوا بهـا ليواصلوا حمل أمانات الاسلام على آثارها ولا يكون ذلك الا اذا المـوا بحسناتهم وعرفوا كريم سجاياهم وأدركوا أن الذين شوهوا تلك الحسنات وصوروا تلك السبايا بغير صـورتها انمـا أرادوا أن يسيئوا الى الاسلام نفسه بالاساءة الى أهله الاولين .

ويدعو السيد محب الدين الخطيب الى اليقظة ازاء هذه الدسيسة التى دسها عليهم أعداء الصحابة ومبغضوهم ليتخـذوها نمـوذجا لامثالها من الدسائس . وعلى المؤرخين أن يتفرغوا لدراسة حقيقة التاريخ الاسـلامى واكتشاف الصفات النبيلة فى رجـاله فيعلموا أن الله عـز وجـل قد كافاهم عليهـا بالمعجزات التى تمت على أيديهم وأيدى أعوانهم من احداث أعظم انقـلاب عرفه تاريخ الانسانية ولو كان الصحابة والتابعون بالصورة التى صورهم بها أعداؤهم ومبغضوهم لكان من غير المعقـول أن تتم على أيديهم تلك الفتوح وأن تستجيب لدعوتهم الامم بالدخـول فى دين الله أفواجا .

ويقول الاستاذ صادق عرجون : أن العصر الـذى دونت فيه أقـدم مصادر التاريخ الاسلامى المتداولة بين يدى الناس لابد من الغرض المـائل عن جانب الحق فى طريق اثبات الوقائع ولاسيما فى هذه المرحـلة التى اعتبرتها السياسة مبدأ للسلطان الاموى ، وقد كان هـذا السلطان بغيضا أشـد البغض الى خلائفهـم على ملك الاسلام من العباسـيين وفى ظـل سلطانهم دون ما أدركنـا من مصادر التاريخ الاسلامى .

وهكذا نعرف اتجاه الريـح ، ونضع أيدينـا على مصـادر الخطر ؛

فالاستشراق عن طريق مدرسة من كتاب تاريخ الاسلام فى خلال عصر الاستعمار وما بعده كانت تهدف الى تزييف التاريخ الاسلامى فى أعظم صفحات قوته ، وهى تصوير الصحابة فى صورة قاسية من صور الخلاف بل والصراع بينما أن الامر لم يكن كذلك وأن الروايات التى اعتمد عليها المؤرخون واهية وناقصة ومبتورة فضلا عن أن العوامل الخارجية منكورة ومحجوبة ومطعون فيها بالشك .

وليس معنى هذا ادعاء العصمة للصحابة فالمسلمون لا يعتقدون بعصمة احد بعد رسول الله ﷺ وكل من ادعى العصمة لاحد بعد رسول الله فهو كاذب ولكن نحن نؤمن بأن هذه الجماعة من الصحابة هم أعظم اهل الاسلام امتيازا فقد تربوا فى مدرسة رسول الله ﷺ وما صدر بينهم من خلاف هو من طبيعة الامور ولكنه لا يصل الى هذه الصورة بينهم القاسية التى تصورها كتب التاريخ محاولة استغلال بعض الوقائع لتجسيم الاحداث وتضخيمها واعطائها صورة مزورة .

٣ - ولقد كان الدكتور طه حسين قد تزعم هذه المحاولة لينقلها من مجال التعليم الى مجال الثقافة فحاول الادعاء بأن القرن الثانى الهجرى قرن شك ومجون .

وقد كانت المادة التى اعتمد عليها الدكتور طه مجموعة من شعر شعراء منحلين منبوذين من المجتمع بينما ترك آفاقا واسعة من أعمال العلماء والفقهاء والادباء دون أن يدخلها فى حكمه المبتور .

وقد واجه العلامة رفيق العظام هذه المحاولة فى تشويه التاريخ الاسلامى اعتمادا على القصاص والرواة فقال فى معارضة اتجاه طه حسين :

أن المقدمات التى استخرج منها تلك النتيجة ربما ظهرت صحيحة لاول وهلة لانها تستند الى اشعار وأخبار مكتوبة ومنسوبة الى ناقليها وهم

معروفون مشهورون فى التاريخ ولكن هذا وحده لا يكفى لمثل هذا الاستنتاج ولا تبنى عليه أحكام سوداء فى تاريخ أبيض ناصع كتاريخ الرشيد والمأمون ومن عاصرهما من العلماء والفضلاء .

ويقول العلامة رفيق العظم : ان الاخبار الصحيحة للتاريخ الاسلامى هى أشبه بالدر الملقى بين أشواك يحتاج من يستطيع استخراجه من تلك الاشواك الى أناة وروية ونظر فى وجوه السلامة من أذى الشك وقد عانى رواة الحديث ونقلة الاخبار النبوية من تمحيص تلك الاخبار وتنظيفها من شوائب الوضع المكذوب ولاسيما فى أيام الفتنة الكبرى التى انقسم فيها المسلمون الى شيع سياسية كانت تعمل للسياسة باسم الدين وتضع من الاخبار ما يوافق مذاهبها السياسية وان كان فيه مساس بالدين وتشويه له ، هذا فيما له صلة بأصل الشريعة وانتسابها الى صاحب الشرع فما بالك بأخبار الخلفاء ووقائع الاخبار وأخبار الناس .

وتحدث عما ورد من أخبار التنازع بين الشيع الدينية والسياسية فى عصور المحنة التى مرت على المسلمين وما كتبه القصاصون فقال : نقرأ فى كتب التاريخ أخبارا نسبتها شيع العباسيين الى خلفاء بنى أمية وأخبار نسبتها شيع آل على الى خلفاء بنى العباس وهى أحط ما ينسب الى خلفاء او ملوك أو سمهم ما شئت كانوا فى مثل مرتبتهم من العزة والمنعة وبسطة الجاه والملك وكان من المحال أن يكونوا من انحطاط الاخلاق والسيرة فى المنزلة التى انزلهم اليها الوضاعون ويدوم لهم طويلا ذلك الملك العريض والشهرة الذائعة فى التاريخ ، وتقرأ ما هو اقبح من ذلك فى كتب القصاصين منسوبا الى الخلفاء وأهل العلم والادب ، فلو سلمنا بكل ما جاء فى تلك الكتب والاقاصيص واعتبرناها أخبارا صحيحة ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق لكان لنا اقبح مثال من أمثلة العصور الاسلامية الاولى التى نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد . ثم يصل العلامة رفيق العظم الى مقطع الامر فى ذلك الركام الذى يعتمد عليه

المستشرقون ودعاة التغريب فى رسم تاريخ زائف للمسلمين فى هذا العصر الاول فيقـول الحقيقة التى ينبغى أن تقـال : ان التنـازع السياسى بين الشيع الاسـلامية أدخـل من روايات بعض الاخباريين شوائب فى التاريخ الاسلامى ليست منه فى شىء وانما هى من وضع المتزلفين لبيـوت الامـارة أو الملك أو المتشيعين لبعض المذاهب السياسية والدينية .

ولمـا أنكر ابن خلدون أقوال الملفقين الذين لفقوا على الرشـيد تلك الحكايات الشائنة لم يكن فى انكاره الا على حق لمـا عرف عنه من بعـد النظر فى التاريخ وصحة بحثه فى طبائع الاجتماع وأخلاق الامم ومنازعها شأن كل مؤرخ بحاث لا يلقى الكلام على عواهنه ولا يأخـذ الحـوادث بظواهرها ولا شك عند كل منصف أن ابن خلدون أوثق وأصـدق كلامـا من أبى نواس وأمثاله من المجونيين . هذا اذا صحت أخبـار المجـون المنسـوبة الى هؤلاء .

ويفرق العلامة رفيق العظم بين كتب التاريخ وكتب القصاصين فيقول : أما القصص أو كتب القصاصين فلها شأن آخـر لأن واضعيها انما وضعوها لاغراض وبواعث تجـارية أو سياسية أو أدبية . أما الاغراض التجـارية فهى الكسب والانتفـاع ، أما البواعث السياسية والدينية فهى منع العامه من الخـوض فى سياسة الخلفـاء والحكام والخـوض فى أخبـار الصحابة وما شجر بينهم على ما يقال أو يظن أو من المعلوم أنه لم يكن فى القـرون الاولى للاسلام من وسائل التسلية وأماكن اللهو العامة ، ما يقضى فيـه العامة أوقات الفراغ وهم بالضرورة فى حاجة الى الاجتمـاع فكانت اكثر أحاديثهم فى مجتمعاتهم تدور على أخبار الصحابة وحوادث الصدر الاول لقرب العهد به ثم سياسة الخلفاء وحكامهم ، وقد كان ذلك يجـر فى كثـير من الاحيان الى الشجار ثم الفتنة كمـا تقـرأ فى أخبار أهل السـنة والشيعة فى بغـداد عاصمة الملك والخـلافة .

وكانت هذه المنازعات والفتن تقضى أحيـانا الى اهراق الدماء بين

العــامة الذين يتشيع كل فريق منهم لرأيه ومذهبه بلا علم ينفــع أو فهم يردع . فكان هــذا سببا على ما يظهر لتفكير العلماء فى وســيلة من الوسائل لشــغل العامة عن الخوض فى مثل تلك الافكار .

وقد أخذ المستشرقون كتب القصص واعتمدوها فى كتب لتاريخ الاسلام وأغمضوا العين عن كتب التاريخ وجاراهم الجماعة فأخذ بعض الاذكيــاء فى وضــع قصص تتلى فى المجتمعات فيلهو بها العامة عن الاخبــار المثيرة للعواطف أو الاحقــاد فكان منها المختصر المبعثر فى ثنايا الكتب ومنهــا المطــول المجموع فى كتب على حدة ، ومن ذلك أخبــار الفتوحــات كفتوح الشــام وفتوح مصر وفتوح اليمن المنســوبة الى الواقدى وهى ليست لــه وكتاب قصة عنترة العبسى وواضعها مجهول وكتاب ألف ليلة وليلة وكاتبها مجهول ايضا ، وقد قالوا أنها مترجمة عن الفارسية ولكن أخبارها لا تدل على ذلك ولمــا استطاب الناس أمثال هذه القصص والاخبــار - وأصبحت ضرورة من ضرورات الحيــاة لأن منها نوعا من التلهى وترويح النفس - تنافس الرواة والقصاصون فى تدوين للاخبــار ووضعها تارة مجموعة وتارة متفرقة فى كتب الادب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرام وغير ذلك فكان فيهــا الغث والسمين ومنها الملفق والقريب من الصحة وقــد غــالى بعض الاخباريين فى ايراد أخبار المجــون والتلفيق لمــا فيهــا من العبث بالاخلاق والتجرد عن معنى الادب الذى أخــذ عن الشعراء والادباء المنسوبة اليهم لسبب كبير ينافى ما ينسب اليهم من اطراح رداء الحشمة والمروءة .

ووصل العلامة رقيق العظم الى الغاية فقال :

ان ما نسب الى أبى نواس وأضرابه من شعراء ذلك العصر ، وما يفضى الى القول بانه عصر شــك ومجــون هــو تلفيق قصص يراد به أحــد أمــــرين :

اما تشويه سمعة بعض الخلفــاء العباسيين كالرشــيد والمامــون واما ســد نهمات العامة الى امثال تلك القصص المخزية والروايات الملفقة على

انه لو صح شىء منه لما كان لنا أن نتخذه دليلا على شيوع الفحش والفجور والشك بين أهل ذلك العصر لانه مجون لا يجوز أن يتعدى الماجن مهما تطاول الى النيل من سواه باسم المجون ٠

واذ قرأت هذه القصص فانما لان فيها فكاهة وترويجا للنفس لا لانها أمثلة من تاريخ أمة كان عصرها ذاك عصر جد لا هزل وعصر نهضة علمية بلغت أقصى ما يمكن أن تبلغه أمة فى عشرات السنين ٠

والواقع أنه لا يمكن الحكم على العصر الثانى للهجرة عن طريق المجان والشكاك فيه أو الادباء والشعراء وهم قلة معزولة لا تمثل المجتمع الاسلامى تمثيلا صحيحا وانما يحكم على المجتمع عن طريق العناصر الايجابية منه والنافعة والمصلحة ، وفى العصر الثانى للهجرة يوجد عدد ضخم من الفقهاء والمحدثين والزهاد على مرتبة عظيمة من الايمان واليقين منهم الحسن البصرى وعمرو بن عبيد ومحمد بن ادريس الشافعى ومالك بن أنس وأبو حنيفة النعمان ومالك بن دينار وعبد الله بن المبارك وربيعة الرأى وابن سيرين والشعبى فكيف يمكن تجاهل آثار هؤلاء فى هذا العصر فيحجبون حجبا تاما عن موازين التقدير ازاء طائفة من الشعراء المجان ولا يمكن أن يكون هؤلاء الشعراء من أهل المجون والفحش مرآة لهذا العصر بينما يحجب أهل العلم والفضل والرأى الذين أقاموا صرح الحضارة الاسلامية ٠

٤ ـ كذلك فان الاستشراق والتبشير وحركة الغزو الثقافى والتغريب قد حرصت على البحث عن وجوه الخلاف ونقاط الضعف والروايات الضعيفة حول الشبهات والعمل على اعلائها واذاعتها ، بل ذهبت هذه القوى التى سيطرت على كتابة تاريخ الاسلام ونقده فى العصر الحديث على ما يسميه الدكتور الشكعة : تمجيد الفئات التى تمردت على الشرعية أثناء مسيرة التاريخ الاسلامى وخلع صفات البطولة عليهم مثل الاهتمام بالتمرد الذى قام به بابك الخرمى أو الفوضى التى أثارها الزنج أو التخريب الذى انتهجه القرامطة ٠

ويقول : ان بعض الاوساط اصدرت كتبا تدخل من خلالها فى روع الناشئة أن جماعة القرامطة جماعة اسلامية مصلحة استهدفت اشاعة العدل الاجتماعى بين الناس وفى الوقت الذى تقول فيه وقائع التاريخ ان القرامطة هم العصابات التى أسالت دماء المسلمين أنهارا وقتلت النساء والشيوخ والاطفال واستباحت الاعراض والمحارم وهاجمت مكة فى موسم الحج وسرقت الحجر الاسود وطمست بئر زمزم بجثث حجاج بيت الله .

٥ - بل ان الدكتور احمد شلبى يذهب الى ابعد من ذلك فيرى أن الاستشراق هو الذى وضع ذلك الاسلوب المسموم الذى تسير عليه كتابة تاريخ الاسلام حتى اليوم :

يقول : ان المستشرقين وضعوا الاسس الحديثة لكتابة تاريخنا الاسلامى وتاريخنا الوطنى وكانوا ملتزمين بما ينفعهم وما ينفعهم كان فى الغالب يصيبنا بالضرر وقد لام هرشنو هذا الاتجاه عند الغربيين فى كتابه (علم التاريخ) حيث يقول : فلما كان التاريخ يدرس لذاته بمعنى أنه كان يدرس ويستغل لتاييد ما هو أجنبى عنه من الصوالح السياسية أو الدينية لا ابتغاء الوصول الى الحقيقة فى احداث الماضى الخطيرة من حيث عللها ووضعها ونتائجها . ويقول الدكتور شلبى : اتجه اكثر المستشرقين فى كتابة التاريخ الاسلامى اتجاها يثير الفتنة بين المسلمين ويضعف كيانهم ويصور لهم تراثهم تصويرا تشمئز منه النفوس فاسرفوا فى تصوير الصراع بين بنى أمية والشيعة لنغفل عن تاريخ الأمويين لأن به رجالا يمكن الافتخار بهم وهاجموا تاريخ الاتراك العثمانيين ولم يدعوا من وسيلة للحط منهم الا اقدموا عليها وقدموا أسوأ صورة لاسماعيل وعرابى وانخدعنا بهذا وسرنا فيه الى ابعد مدى .

٧ - ويذهب بعض المستشرقين فى النظر الى وقائع التاريخ الاسلامى مذاهب شتى كلها عداوة وخصومة فمنهم من يصور الدولة الاموية بصورة مظلمة قاتمة حتى يخفى دورها الذى قامت به فى نشر رسالة الاسلام وتركيز

دعائمه ومنهم من يمدح الدولة الاموية لأن بنى أمية كانوا خصوما للرسول ومن هؤلاء لامنس الذى اهتم ببنى أميـة فى سوريا ، جامعا بين رفـع شأنهم وبين عدائهم للرسـول والاسلام « فالأمويون عنده أحفاد أبى سفيان الذى حمـل لواء المعارضة فى وجـه الاسلام وقاد الجيوش لحربه ، وهـو يرى أن خلافة معاوية نصر معنوى للامة السورية على الاسـلام كقوة قهرت سوريا وان معاوية الذى اعتمد على القبائل السورية فى حكمه كان يعيد صرح السيادة السورية السابقة لان هذه القبائل هى بقـايا الغساسنة النصـارى وحلفـائهم » .

وهكذا نجد أن خطة الاستشراق فى دراسة تاريخ الاسـلام تقـوم على التآمر والدس والكيد وقلب الحقائق وتزييف الصحائح والتركيز على الجوانب السلبية واهمال الجوانب الايجابية ، وهم يهدفون من ذلك الى الانتقاص من شأن الاسلام وأن يضعوه فى الظل ولا يبرزوه الى النـور حتى لا يكثر معتنقوه وكذلك نجـد محـاولة الاثريين فى البحث عن الآثار فى العصور السابقة للاسلام فهم انما يقصدون من ذلك اثارة الشبهة بأن الحضـارات السابقة للاسلام كالرومانية والحيثية والاشـورية كانت أعظم من حضـارة الاسـلام .

ويركزون على انتشار الاسـلام وتوسـعه ويزيفون الظروف والاوضـاع التى حققت للاسلام هذا الانتشار السريع الواسع ، ويثيرون الشبهات حول فقر الجزيرة العربية ويدعون أن المسلمين خرجوا منها بحثا وراء الرزق ودخلوا الحروب طلبا للغنـائم .

وهناك محاولة للتقليل من قدر الصحابة والجـرأة فى الحديث عنهـم وانتقاص قدرهم وفتح طريق الهجوم على شخصياتهم على نحـو يضعهم فى صفوف رجال السياسة فى العصر الحديث . وقد حمل الدكتور طه لواء هذه المحـاولة فى كتابه الفتنة الكبرى فى محـاولة لتعميق الخـلافات التى وقعت على نحـو يقلل من أقدارهم فى نظر القارىء المسلم وكان طه حسين هو أول من فتح هذا البـاب أمام الكتـاب الذين جاءوا من بعده ، فى نفس

الوقت الذى لم يكن فيه طـه حسـين من المؤرخين أو حائزا على صـفة رجـال التاريخ ٠

وفى الوقت الذى يقدس فيه طه حسين تاريخ اليونان والرومان ويقدمه فى أسلوب من الاعجـاب والتقـدير نجـده ينكر ذلك بالنسـبة للتـاريخ الاسلامى ويدعـو الى الغـاء صفة التقدير عن الصحابة ويدعـو الى النظر اليهم نظرته الى اى اناس ٠ ونحـن لا نقدس الصحابة ولكن نضعهم فى مكانهم الصحيح من الرسول ومن السابقة ومن تاريخ الاسلام ومن بطـولات الفتح وبناء الدولة وبذلك لا يمكن ان نجعلهم فى صف ساسة الدول فى العصر الحديث ولا يعقل ان يكون مصدر خلافهـم صراعا على سـلطة أو مطمعا او ملكا أو هوى ٠ وفرق بين التقـدير مع النقد وبين المطمح الذى يحمـل لواءه قلم الدكتور طه حسين وهـو الاحتقـار ونسبة الصغائر الى هـذا الرعيل الكريم تحت اسم النقـد العلمى بينما هو يصـدر عن هوى الاستشراق والاستشراق اليهودى أساسا الذى يطمح الى تدمـير تلك الشخصيات التى افسحت للاسلام طريقا الى القوة والتوسع وهـو ما يملأ قلوبهم بالحقـد والكراهيـة ٠

وهناك من المستشرقين من يعلى من شان كتب معينة ويتخذها مراجع كالاغانى وهو كتاب لهو أو كتب المحاضرات أو ما جمعه الرواة ، كـذلك فقد اتكأ الكثيرون على كتاب الامامة والسياسة المنسـوب الى ابن قتيبة وقد كشفت المراجعـات على أن نسبته الى ابن قتيبة المتوفى ٢٧٦ هـ لم تصح وتبين أن كتاب الامامة والسياسة مشحون بالجهـل والغباوة كمـا يقـول السـيد محب الدين الخطيب ٠ والكذب والتزوير ٠

كذلك فان هذا الاسـلوب الاستشراقى والتغريبى فى تصـيد الهفوات الصغيرة والاحداث المعدودة ، ذات الروايات المشكوك فيها والتى لم توثق او يجمع عليها المؤرخـون فى تاريخ طويل عريض كتاريخ الاسـلام اتسعت آفاقه أربعة عشر قرنا وأقام ١٧٨ دولة وشـمل أمما متعددة منهـا العرب

والفرس والترك والهند والديلم ، لا يمكن ان تكون ذات حساب او اهمية وليس هناك كمال بشرى مطلق ولابد أن توجد هنات ، ولكن العبرة بان هذه الهنات قليلة ويسيرة وان الامم المختلفة قد عرفت هذه الاهواء البشرية التى تجد طريقها فى مجال الحكم والسلطان غير ان العبرة بان تكون النظرة بريئة وخالصة وبعيدة عن الحقد أو التعصب او التماس العيب للبرءاء ، ولا ريب أن النظرة العامة المنصفة الصادقة تكشف عن ان تاريخ الاسلام تاريخ كله بطولة وسماحة وكرامة وجهاد فى سبيل المثل الاعلى وانه بمثابة نموذج طيب كريم لم تعرفه الامم الاخرى .

كذلك فان كتاب المسلمين المنصفين قد تعاهدوا اجتناب الخوض فى الفتن التى ثار ثائرها بين المسلمين فى عهد الخلفاء عثمان وعلى ومعاوية رضى الله عنهم أجمعين ، هذا الاتجاه الذى تعاهد عليه مؤرخو الاسلام بان لا يعرضوا بما يسىء الى بعض الصحابة او يصفوهم بما لا يناسب قدرهم تقديرا لكلمة الرسول عليه الصلاة والسلام عنه حين قال : أصحابى كالنجوم بايهم اقديتم اهتديتم وما اثر عنه عليه الصلاة والسلام من كراهية انتقاصهم ، وهو الخط الذى سار عليه اكثر المؤرخين المسلمين . وقد اشار الدكتور أحمد شلبى الى هذا المعنى حين قال أن على المؤرخ المسلم ان يرعى الدين والوطن فى فلسفة التاريخ فاذا تحدث عن حروب الصحابة عبرها بدون ادانة ذاكراً وجهات النظر التى لا تجرح احداً ولا تقوض تراثا وان يتحاشى الغمزات التى تضر الوطن والدين وقال : انى وان كنت عزمت على اجتناب الخوض فى الفتن التى ثار ثائرها بين المسلمين فى عهد الخلفاء عثمان وعلى ومعاوية رضى الله عنهم جميعا لم ار بدا من ايراد ذكرهم مع الخليفتين السابقتين ابى بكر وعمر رضى الله عنهما لانهم جميعا من دعائم الاسلام التى قامت على صروحه منارات الدين عالية شامخة ، فقد اكتفيت من سيرة هؤلاء الثلاثة بما لا يغلن بذكره من هذه الفتن اثر فى النفس الا ما كان فيه حجة بالغة يجرى بها العلم او حكمة زاخرة يحتاج اليها العاقل ويتعظ بها الجاهل .

ولا ريب أن طه حسين وجرجى زيدان قد اساءا الفهم وزلا وتورطا فى الخطا حين وصفا القرن الثانى بانه عصر الحاد ومجون معتمدين على كتاب زائف لا يصلح مرجعا تاريخيا أو علميا وهو الاغانى للاصفهانى الذى لم يرسم الا لوحة خلق مادتها من الكذب والتمويه وصاغ مبادئها من الضلال والبهتان .

وهكذا نجد من هذا العرض ما يلى :

(أولا) : أن تاريخ الاسلام كتب فى العصر العباسى حيث كان الخلاف بين أصحاب الدولة الجديدة وبين الامويين ولهم صلتهم بالخليفة عثمان وموقفه من الخلاف بين على ومعاوية وكان بعض المؤرخين يسترضون الدول .

(ثانيا) : ان بعض المستشرقين اعجب بتاريخ بنى امية وكتب عنها على نحو من ابراز المحاسن بحجة ان هؤلاء احفاد ابى سفيان الذى عرف بالخصومة مع النبى كما فعل لامنس وغيره وهؤلاء كانوا يرون أن تاريخ الشام هو تاريخ السريان القديم وتاريخ الدولة الرومانية وتاريخ النصارى حتى أن مؤرخا مثل أرنولد توينبى لا يعترف بحضارة اسلامية فى الشام ولكن يرى أن المجتمع السريانى نفسه الذى كان قائما من قبل مازال قائما وان تغيرت مظاهره ، وان تاريخ الاسلام بكل معطياته وما أحدثه من تغييرات ليس الا بمثابة امتداد للعصر السريانى .

(ثالثا) : ان بعض المؤرخين أمثال جرجى زيدان عجز عن أن يهاجم الاسلام فى عصر النبى والعصر العباسى فجعل حملته على الاسلام مركزة على عصر بنى أمية .

(رابعا) اعطيت مسالة الموالى فى عهد الدولة الاموية حجما أكبر من حجمها الطبيعى وقد جرى هذا المجرى بعد فهلوزن ، وكثيرون أمثال أحمد أمين وغيره .

(خامسا) : عمد كثير من المؤرخين الاجانب الى التقليل من الدور الخطير الذى قام به عبد الله بن سبأ ورجـاله فى تغيير مجرى الاحـداث وفى مقتل عثمان وما بعد ذلك من أحـداث فى عهد على بن أبى طالب وقد أدخل عبد الله بن سبأ مفاهيم جـديدة مستمدة من اليهودية والفلسفة الهلينية كالرجعة والوصية وغيرها •

(سادسا) : محاولة وضـع الصحابة الاول فى مقام مشـابه للسياسيين المحترفين فى العصر الحديث والتقليل من كرامتهم ومكانتهم بنقـدهم والاساءة اليهم واحتقارهم على النحو الذى فعله الدكتور طه حسين فى كتاب الفتنـة الكبرى •

(سابعا) : اتفق مؤرخـو الاسـلام على اجتنـاب الخوض فى الفتن وعرض تاريخ عثمـان وعلى ومعاوية عرضـا منصفا مع تجـاوز عـوامل الخـــلاف •

(ثامنا) : فساد القول بان العصر الثانى كان عصر شك ومجون •

الفصـــل الخامس
مؤامـرة الزنـج والقرامطـة

حاولت مؤامـرة افسـاد التاريخ الاسـلامى التركيز على ثورة الزنج والقرامطة وتصويرها على أنها حركة تقدمية وأنها تمثل العـدل الاجتماعى فى الإسلام ، ولقد ركزت كثير من الكتابات على هذه الحركات الباطنية التى استهدفت تدمير القيم الاسلامية فى المجتمع الاسـلامى وصـولا الى اسقاط الدولة الاسلامية حامية النظام الاجتماعى ، ولقد كانت هذه المحاولة واحـدة من مخطط التبشـير والاستشراق ولكن الصهيونية ارادت فى السنوات الاخيرة أن توسـع دائرة تزييف التاريخ الاسلامى لحساب أهدافهـا فعقدت مؤتمر بلتيمور الصهيونى فى أمريكا عام ١٩٤٣ خلال الحرب العالمية الثانية الذى وصف بانه نقطة تحـول فى اتجـاه الصهيونية الى تزييف التاريخ

الاسلامى والعربى وقد حضر بن جوريون هذا المؤتمر وقاد اعماله بمهارة الى هدفها الاساسى من تنظيم ومضاعفة عمليات التزييف لتاريخ العرب وملء العالم بالمطبوعات والوسائل الدعائية عنه تمهيدا للغزو الصهيونى المندفع لارضهم ولقد استغلت الصهيونية مفاهيم الماركسية فى تفسير التاريخ لايجـاد تصور كاذب عن الزنج والقرامطة على النحـو الذى اعلنـه جارودى فى محاضرته المشهورة التى القاها فى القاهرة وما كتبه امثال محمد اسماعيل عبد الرازق فى كتابه الحركات السرية فى الاسلام . وهو مستمد مما كتبـه بندلى جوزى فى كتابه عن الحركات الفكرية فى الاسـلام الذى صـدر ١٩٢٨ من القدس ويتبع الدكتور طه حسين هذا فى محاضرته عن العدل الاجتماعى التى نشرها فى مجلة « الكاتب المصرى » .

وقد كشـفت الابحـاث العلمية الصحيحة فى شـان مؤامـرة الزنـج والقرامطة الحقائق الاتية :

(أولا) : لم تكن هذه الحركة تهدف الى تحقيق كرامـة الانسـان بل كانت حركة انفصالية ولم تكن تستهدف العدل الاجتماعى بل كانت نوعا من الاخـذ بالثأر فقد حرص هؤلاء العبيد الذى حرروا انفسـهم من اذلال العـرب عن طـريق استرقاقهم والتنكيل بهـم وكان اقسى اعمـال القرامطـة انهـم اقامـوا سـوقا للرقيـق يعرضـون فيـه الحـرائر من العــرب .

(ثانيا) : كانت هذه الحركة التى وصفت بانهـا ثـورة اجتماعية بمثابة مؤامرة سياسية اذ كانت على صلة بالحركة الاسماعيلية فى دور الستر فان الفاطميين رأوا بعد ظهور دولتهم فى المغرب ان يستقلوا بتوجيه السياسية فى ذلك العصر باسقاط الدولة العباسية بعد نجاح الدولة الفاطمية فى المغرب العــربى .

(ثالثا) : كان الحلاج المتصوف المشهور من اكبر الدعـاة لتحطيم الدولة العباسية اذ كان على صلة بالقرامطة وقد روى عنه انه اقسـم فى احد

أحاديثه القدسية التى كان يزعمها لنفســه أن سنة ٢٩٢ ستكون حاسمة وهى السـنة التى شهدت الثورة الكبرى للقرامطة .

(رابعا) : ظهر التناقض بين ادعاء الحركة بالتشيع والميل الى البيت العلوى بينما قامت بالاعتداء على الأماكن المقدسة وتجريح أصحاب الرسول فقد هاجم القرامطة موسم الحج وقتلوا نحـوا من ثلاثين ألفـا من هؤلاء الحجاج وانتزعوا الحجر الاسود من الكعبة صرفا للناس عن الحج .

(خامسا) : انكشفت صلات عميقة بين الباطنية وبين الصليبيين .

(سادسا) : قال القرامطة بالشيوعية فى المـال والنسـاء وكانوا دعـاة تخريب وسفك دمـاء .

(سابعا) : لم تصدر هذه الحركات عن منهج أساسى يبيح لهـا صفة البقـاء واتخذت أساليب غاية فى العنف والتدمير اذ قام الداعـون اليهـا بفظائع لا حـد لهـا فقد حمل لـواء الدعوتين متآمرون ادعو الانتسـاب الى أهل البيت واستهدفوا القضاء على الدولة .

(ثامنا) : صاغ القرامطة مفاهيمهم من المجوسية والثنوية والوثنية فادعوا أن الجنة هى الدنيا ونعيمها وأحلوا للناس المحـرمات ورفعـوا عنهم الحـدود ووجهوا خصومتهم للاسلام كدين وحاولوا احـلال مفهـوم الفلسفة بديلا منـه .

(تاسعا) : اتفقت جميع الدعوات المتآمرة تحت لـواء الباطنيـة على مخطط متشابه . سـواء الزنج أو القرامطة او البابكية أو الأفشين والخرمية واتخـذت الباطنية من الحشيشة وسـيلة الى اغـراء الشـباب المنضم اليهـا باعتناق مذهبها .

(عاشرا) : عجزت هذه الدعوات أن تحقق لمجتمعاتها أى قدر من العـدل أو الخير وكانت نهايتها نهـاية كل فرقة وظـل الاسـلام باصوله

الكبرى وعقيدته الواضحة ومنهجه الحضارى هو الاسلام وبقيت روحـه هى روحـه فى أركانه وملامحه ومجتمعه واتجـاهاته العامة ولـم تفعـل هذه الفرق أكثر من وضع العراقيل فى طريق الركب السائر الجاد تحـاول أن تصـده وتريد أن تنحرف به وتحـاول لو تحلل الناس منـه عن عصبية وجنسية أو حقد قديم موروث أو شذوذ واضح (شكرى فيصل) .

وقد سجل التاريخ لهذه الفرق ما سفكت من دمـاء وما هدمـت من أرض وما استباحت من حـرمات ومـع ذلك فقـد جـاء من يصف هـذه الجمـاعات بانهـا ثورات اصلاحية أو دعـوات الى العـدل الاجتمـاعى وكذبـوا .

الفصـل السـادس
دور اليهـود فى الفتنـة الكبرى

خاض الدكتور طه حسين فى كتابه (الفتنة الكبرى - على وبنـوه) فى تاريخ عثمان وعلى ومعاوية على نحـو أراد به - جريا على منهجـه - اثارة الشكوك والشبهات فى محاولة خطيرة لتصوير الصحابة على إنهـم رجـال سياسة موحيـا أن صراعهم انما كان من أجـل المطـامع والاهواء واعتمد فى كتابته على مصـادر غامضـة وروايات مبتـورة تاركا المصـادر الاساسية مثل شرح النهج لابن أبى الحـديد ، وتاريخ ابن واضح اليعقوبى ونقـل روايات الفتنة كما رواها رواتها دون أن يحقق هـذه الروايات وكان له هـوى واضح لم يكشف عنه الا بعـد أن قطع شـوطا طويلا هو تفسـير التاريخ الاسلامى تفسيرا ماديا واقتصـاديا وفق مفهوم الماركسـية والمذاهب المـادية وانكار شخصية عبد الله بن سبأ اليهودى أو التهوين من شانها ولم يرجع فى تحقيق ذلك الى أعلام السنة أو علماء الحديث الذين يجب أن يرجع اليهم المؤرخ فى دراسة تاريخ الصـدر الاول .

وصور الفتنة على أنها كانت عربية نشات من تزاحم الاغنياء على الفىء والسلطان ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الاغنيـاء ، وكرر صفة

« عربيــة » فى أكثر من موضــع على نحو يوحى بانــه لا يريد أن يشرك احــدا غير العرب فى دم عثمــان ومهد بذلك لانكار شخصية ابن ســبأ فانه لم يلبث أن قال : وهناك قصة أكثر الرواة المتأخرون من شأنها وأسرفوا فيهــا حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصــدرا لمــا كان من الاختلاف على عثمان ولمــا أورث هذا الاختلاف من فرقة بين المسلمين لم تمح آثارها بعــد وهى قصــة عبد الله بن سبأ الذى يعرف بابن السوداء .

ثم يقول : لست أدرى أكان لابن سبأ خطر أيام عثمان أم لم يكن ونكنى اقطع بان خطره ان كان له خطر ليس ذا شــأن وما كان المســلمون فى عصر عثمان ليعبث بعقولهم وآرائهم وسلطانهم طارىء من أهــل الكتاب أسلم أيام عثمان . ثم قال : ان قصة الكتاب الذى يقال ان الرواة المصريين قد أخذوه أثناء عودتهم الى مصر فكروا راجعين ، فهذه القصــة فيما أرى ملفقــة من أصلهــا .

وقد كشف الاستاذ محمد محمود شاكر هذا الموقف :

(أولا) : قول الدكتور (الرواة المتأخرون) فيه ايهــام شــديد متعمد فان الطبرى الذى روى قصــة ابن ســبأ ليس من الرواة المتأخــرين فقد ولــد ٢٢٥ هـ ومات ٣١٠ فهــو معاصر للبــلاذرى ومن طبقة تلاميــذ ابن سعد صاحب الطبقات وأن سيف بن عمر الذى روى عنه الطبرى هذا الخبر هو من كبار المؤرخين القدماء فهو شيخ شــيوخ الطبرى والبلاذرى وهو من مرتبة شــيوخ ابن سعد فلا يقال عنه ولا عن الطبرى أنهم من الرواة المتأخرين كما أراد الدكتور طه أن يوهم به .

(ثانيا) : ان ذكر الدكتور طه « المصادر المهمة » فيــه ايهــام شديد واجحاف جارف فاذا لم يكن كتــاب الطبرى من المصادر المهمــة فليت شعرى ما هى المصــادر المهمة التى بين أيدينا .

(ثالثا) : ان الدكتــور طه اعتمد على كتاب ابن سعدالذى فى الايدى وهو كتــاب ناقص وملفق من نسخ مختلفة بعضها تام وبعضها ناقص وبعضها

مختصر ، والدليل على ذلك فيما نحن بسبيله أنه ترجم لعمر فى ٨٤ صفحة ولابى بكر فى ٣٣ صفحة فلما جاء الى عثمان والاحداث فى خلافته هى ما يعلم الدكتور ويعلم الناس لم يكتب سوى ٢٤ فلما ذكر على بن ابى طالب والامر فى زمنه أفدح لم يكتب سوى ١٦ صفحة .

(رابعا) : إعتمد الدكتور طه حسين فى نفى خبر عبد الله بن سبأ اليهودى اللعين على أن البلاذرى لم يذكره وهو فيما يرى أهم المصادر لهذه القصة وأكثرها تفصيلا ثم عاد فنفى أيضا خبر الكتاب الذى فيه الامر بقتل وفد مصر ، مع ان البلاذرى ذكره وأطال فيه وأتى فيه بما لم يات فى كتاب غيره ولا ندرى كيف يستقيم أن يجعل عدم ذكره خبرا ما حجة على نفيه ثم ينفى ايضا خبرا آخر قد ذكره ولج فيه .

(خامسا) : النسخة التى اعتمد عليها الدكتور طه من كتاب أنساب الاشراف طبعت فى أورشليم وطبعها رجل من طغاة الصهيونية ، وهى ليست كل الكتاب وانما جزء منه .

من أين عرف أنه لم يذكره ، مادام ليس قد طبع الا هذا الجزء ، إفلا يكون البلاذري قد ذكره فى ترجمة عمار بن ياسر أو فى ترجمة محمد إبن ابى بكر أو فى ترجمة محمد بن حذيفة . أو اى رجل آخر ممن إشترك فى الفتنة ، كل هذا جائز ولكن الدكتور طه حين ينفى شيئا لا يبالى أن يجتاز كل هذا ويغض عنه ليقول فيه بالرأي الذي يشتهيه ويؤثره غير متلجلج ولا متوقف .

ثم كيف نسى الدكتور أن من لم يرو خبرا ما ليس حجة على من روى هذا الخبر ، وبخاصة اذا كان الرجلان من طبقة واحدة كالبلاذري والطبرى بل لعل الطبرى أقوى الرجلين وأعلمهما وأكثرهما دراية بالتاريخ وتحصيله له .

(سادسا) : الهدف الذى هدف اليه الدكتور طه حسين هو ان ينفى

عن اليهود الشركة فى دم عثمان والتحريض على قتل الامـام فركب مركبا وعرا خالف فيـه أسلوب العلماء فى تخريج الاخبـار وكذب الرواة فى شىء بغـير برهان وصدقهم فى شىء آخـر بغير برهان فقد بدأ حديثه فى اسقاط قصـة اليهودى ابن السوداء عبد الله بن سبأ فذكر أن الرواة المتأخـرين اكبروا من شانها وأسرفوا فيهـا وانها لم ترد فى المصـادر المهمة وأن الذى ذكرها الطبرى وعنه أخذها المؤرخون الذين جاءوا بعده ٠

) ثامنا (: تاليه ابن السوداء لعلى حقيقة لا يدفعهـا شـك وقـد رواها رجـال اثبات من السنيين والشيعة وغيرهم منهم الشهر ستانى (الملل جـ ٢) وابن حـزم فى الفصـل جـ ٤ وعبد القادر البغـدادى فى الفرق بين الفرق والرسغى فى مختصر الفرق والاسفزاينى فى التبصر فى الدين وابن قتيبة فى تاويل مختلف الحديث وابن قيم الجوزية فى الفرق الحكمية ٠

وجاء هذا ردا على ما تشكك فيه طه حسـين من أن ابن السـوداء واتباعه الهوا عليا وان عليا حرقهم بالنـار يقـول : ولكنك تبحـث عن هذا فى كتب التاريخ فلا تجد له ذكرا ـ وفضـلا عما ذكرنا فان اليعقوبى وهو مؤرخ متشيع يحـدثنا عن أن عليـا حـرق اناسـا بالنار ٠ ويقـول ابن عبد ربه فى العقـد الفريد : أما الرافضـة ففيهـا غلو شـديد فى على ، ذهب بعضهم مذهب النصـارى فى المسيح وهـم السبئية اصحاب عبد الله وقد حرقهم على رضى الله عنـه بالنـار (العقـد الفريد جـ ٢) واوردها ابن ابى الحـديد فى شرح النهج ٠

(تاسعا) : خلاصـة المحـاولة التى قام بها طه حسين ترمى الى القـول بانه ليس لهذا اليهودى الخبيث عبد الله بن سبا يد فى هذه الفتنة وان ليس لليهود عمل فى تاديث نارها وهـو تخريج جـد خطر ٠ ويقـول الدكتور ويخيل الى أن الذين يكبرون من أمـر ابن سـبا الى هذا الحـد يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ اسرافا شـديدا ولنقف من هـذا كله موقف التحفظ والتحرج والاحتياط ولنكبر المسلمين فى صدر الاسـلام عن ان

يعبث بدينهم وسياستهم وعقولهم ودولهم رجل أقبل من صنعاء وكان أبوه يهوديا وكانت أمه سوداء ، وكان هو يهوديا ثم أسلم لا رغبا ولا رهبا ولكن مكرا وخدعة وكيدا وخداعا ثم أتيح له من النجح ما كان يبغى فحرض المسلمين على خليفتهم حتى قتلوه • ثم يقول : والى ابن السوداء يضيف كثير من الناس ما ظهر من الفساد والاختلال فى البلاد الاسلامية أيام عثمان ويذهب بعضهم الى أنه أحكم كيده احكاما فنظم فى الامصار جماعات خفية تتستر بالكيد وتتداعى فيما بينها الى الفتنة حتى اذا تهيأت الامور وثبت على الخليفة فكان ما كان من الخروج والحصار وقتل الامام » •

فانت ترى من هذا لماذا أصر الدكتور منذ قليل على أن يصف الفتنة بانها عربية وأن العامة الذين كانوا شرار هذا الفتنة كانوا عامة عربية ، وهكذا يبين الهدف من تبرئة اليهود من الاشتراك فى الفتنة وهكذا تواترت كتابات المستشرقين على انكار عبد الله بن سبأ والصمت والتجاهل ازاء دور المنافقين واليهود فى هذا الامر ، يقول محمد محمود شاكر « يجوز فى العقول أن تظل يهود وأشياعها من المنافقين وقد ظلوا يكيدون للاسلام ولرسول الله وللمؤمنين عشر سنوات كاملة يوما بعد يوم فاذا لحق رسول الله بالرفيق الاعلى فى عام ١١ للهجرة نزعوا أيديهم من كل كيد وبرئوا من كل حدث كان بعد ذلك فى تاريخ الاسلام ، برئوا من الردة عام ١١ من الهجرة وبرءوا من مقتل عمر عام ٢٢ هـ وبرئوا من الفتك بعثمان عام ٣٥ هـ فكيف غاب عن أصحاب رسول الله معنى قوله ﷺ : أخرجوا اليهود من الحجاز ، أخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب •

يحدثنا أمين الامة أبو عبيده بن الجراح رضى الله عنه فيقول : كان آخر ما تكلم به ﷺ أن قال : أخرجوا اليهود من الحجاز ، أخرجوا أهل

نجـران من جزيرة العرب ، كان آخـر كلامه وهـو معرض عن الدنيـا ومقبـل على الآخرة : لئن بقيت لا أدع بجـزيرة العرب دينين » ٠

وهكذا نجـد كاتبا مسلما يكتب بالعربية هو الذى يبرىء اليهود ، وفى اكثر من موقف حـاول اليهود أن يكلفوا كتـاب العرب والمسـلمين ان يعتنقوا رأيا يوافق هواهم ويدافع عنـه ، وقبل مسالة عبد لله بن سـبأ كانت مسالة ابراهيم واسماعيل ومسألة تبرئة اليهود من المؤامرة التى أعدها اليهود على صلب المسيح وان لم تتم ٠

وكان للدكتور طه موقفه من دعوة أبى ذر : فقـد أشـار الى أن عثمان أخرج أبا ذر الى الربذة والصواب فى رأى أبى ذر ما رواه ابن خلدون : أن أبا ذر هو الذى استأذن عثمان فى الخروج من المدينة الى الربذة وقال أن رسـول الله أمرنى أن أخرج منهـا اذا بلـغ البنـاء سلعا فاذن لـه ونزل الربذة وبنى بهـا مسجدا واقطعه عثمـان صرمة من الابل واعطـاه مملوكين واجرى عليه رزقا وكان يتعاهد المدينة ، وبين المدينة والربذة ثلاثة اميـال ٠ قال ياقوت : وكانت من أحسن منزل فى طريق مكة ٠

وقد أثيرت شبهات كثيرة حول أبى ذر فى العصر الاخـير وحاولـت كتـابات أن تضعه على رأس الشيوعيين أو الاشتراكيين وجرت محـاولات كثيرة لتزييف موقفه ٠ وحقيقة موقف أبى ذر هو كما حلله الامام عبد الحميد ابن باديس كالآتى على هذا النحـو ٠

انكر أبو ذر على معاوية أن يقول مال الله وانما يريده أن يقـول مال المسلمين ويتهمه بانه يريد أن يمحـو اسم المسلمين لحجبه دونهم وينـدد بالاغنيـاء أن يقتنوا الامـوال ، قال له عثمـان يا أبا ذر : على أن أقضى ما على واخـذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد وأن أدعوهم الى الاجتهـاد والاقتصـاد وكان أبو ذر يرى أنـه لا يجوز ادخـال الذهـب والفضة بعد أداء زكاتهما ، والمعـلوم المتواتر عن النبى أنـه كان يأخـذ جزءا من المـال ويترك الباقى لصاحبه وقـد صح عنـه ﷺ قوله ٠ ليس

فيما دون خمس اواق صدقة (اى زكاة) وقد أصاب أبو ذر فيما اختاره لنفسه من الزهد وعدم الادخار ولكنه أخطأ فيما أراد من حمل الناس على حالة فضل لم يوجبها الله عليهم ولن يستطيعوها • وقد خالف ابو ذر اجماع الصحابة بنظرته السابقة مع قيام الدليل المنطقى من النقل المتواتر والنصوص القرآنية الكثيرة المتضافرة على خلاف رأيه ، وكان خلافه هذا فى مسألة من كبريات المسائل ومع ذلك تركوا له حرية النظر ولم يلق منهم من أجلها أى ضغط ولا أقل تحقير فكانوا بذلك منفذين لما جاء به الاسلام من احترام الآراء وحرية النظر والتفكير ولم يتعرضوا له فى نظره واجتهاده الا عندما خشوا من بثه الفتنة بين الناس • والمعروف أنه استأذن عثمان فى الخروج أو قال له عثمان : « لو اعتزلت » وعرض عليه ما رآه أصلح له فاختار الربذة وعلى كلتا الروايتين لم يأمره عثمان بالخروج حتى يقال أنه قد نفاه كما يقول المتجنون على عثمان ، واقطعه عثمان صرمة من الابل وأرسل اليه أن تعاهد المدينة حتى لا ترتد اعرابيا وليس صحيحا ما نسب اليه من نفى ابى ذر والناظر فى تاريخ عثمان عليه أن يتثبت وأن يتحرى حتى لا يقع فى ظلم وباطل •

(ثانيا) : عمرو بن العاص :

وتحدث طه حسين جاريا مجرى المستشرقين فيما أسماه انحياز عمرو بن العاص الى معاوية اعتمادا على رواية الطبرى الذى قال أنه انحاز من عند دعوة معاوية له ولكن هناك رواية اليعقوبى الذى يقول أن معاوية هو الذى أرسل الى عمرو يستنجد به ويضمه اليه •

وقد تناول السيد محب الدين الخطيب موقف « عمرو » الذى شوه المغرضون موقفه من التحكيم فقال : ان من أعظم مناقب عمرو (التى كذب فيها الكاذبون فشوهوا حقيقتها) موقفه من التحكيم بين على ومعاوية لحقن دماء المسلمين فقد كان الكذابون أوهموا الناس أن الصحابى الجليل أبا موسى الاشعرى كان أبله وأن الفاتح العظيم عمرو بن العاص كان خداعا

ماكرا وما كان الاشعرى أبله : كان ثقفا فقيها عالما وما كان عمرو خداعا بل كان كما قال رسول الله من صالح قريش وصدق رسول الله فان اختيار المسلمين هذين الرجلين العظيمين ليكونا حكما فى دماء المسلمين وفى دولتهم كان شهادة لهما بانهما أهل لذلك وكانا عند حسن ظن الفريقين فرأيا حقنا لدماء المسلمين أن يعزلا الرئيسيين وأن يختار المسلمون رئيسا لهم من جديد أو لعلهما كانا يريدان لهما عبد الله بن عمر بن الخطاب • وكذب وافتراء على الله والتاريخ زعم الكذابين أن عمرا خلع عليا وولى معاوية بل خلعهما معا كما فعل أبو موسى وقد عتب معاوية على عمرو وأرسل اليه أبا الاعواز الذكوانى يعاتبه وتبادل عمرو ومعاوية الاحاديث فى ذلك والواقعة على وجهها السليم رويت عن اثنين من كبار رجال الحديث احدهما الحافظ الدارقطنى والثانى الحافظ أبو عمر خليفة بن خياط البصرى أحد أوعية العلم ومن الذين روى عنهم البخارى فالحكمان خلعا الاميرين ولم يوليا غيرهما ولو وليا أحدا لكان هواهما فى ولاء عبد الله بن عمر بن الخطاب وما يريده الكذابون بعد ذلك فانما تقربوا به الى عناصر معلومة ممن يكره أكثر الصحابة ويعمل على تشويه سمعتهم ، وقد يكون المخترع الاول لهذه الزيادة من صميم تلك العناصر ومن أهل الغلو فيها وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال فى أصحابه : (والذى نفسى بيده لو انفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحد منهم ولا نصيفه) والتحقيق فى مسالة الحكم قد قام به خير قيام القاضى أبو بكر بن العربى فى كتابه العواصم من القواصم الجزء الثانى ص ١٣٥ وما بعدها •

وقد روى الترمذى وابن حبان فى صحيحه عن النبى ﷺ أنه قال : الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم عرضا فمن أحبهم فبحبى أحبهم ومن أبغضهم فبمعصيتى أبغضهم ومن آذاهم فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله فيوشك ان يأخذه •

وكتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص بعد حروب الردة وكان

قد رجع الى سواحل الخليج الفارسى يقول له : انى قد رددتك الى العمل الذى كان رسول الله قد ولاكه وسماه لك فبعثك الى عمان انجازا لمواعيد رسول الله فقد وليته ثم وليته وقد احببت ابا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك منه الا أن يكون الذى أنت فيه أحب اليك ٠

فقال عمرو بن العاص : اما بعد فانى سهم من سهام الاسلام وانت بعد الله الرامى بها والجامع لها فانظر أشدها واخشاها وافضلها فارم بها شيئا ان جاءك من ناحية من النواحى ٠

فولاه قيادة جيش من الجيوش الاربعة وهو الجيش الذى فتح فلسطين ومازال يخرج من جهاد خلافة أبى بكر وصدرا من خلافة عمر بعده الى أن أزال ظلم الوثنية والشرك والعبودية والاحتلال عن مصر وادخلها فى أمة محمد ٠

الفصل السابع
الحكومة الاسلامية الاولى

هناك دعوى عريضة يوجهها الاستشراق الى حكومة الصديق ابى بكر ويصفها بالتآمر والاتهام ويوهم أن أبا بكر وعمر وابا عبيدة أقاموا حكومة ثلاثية حين اجتمعت كلمتهم فى أواخر حياة النبى على أن يحتكروا الحكم بعد وفاته ويتداولوه واحدا بعد واحد وان اثنتين من ازواج النبى هما عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر مهدتا السبيل الى ذلك وأن هذه المؤامرة نجحت الى حد بعيد اذ أيد عمر وأبو عبيدة أبا بكر يوم السقيفة وفاز أبو بكر بالخلافة وقد عاونه صاحباه فى الحكم فكان عمر على القضاء وأبو عبيدة على الفىء هذا هو الاتهام الذى وجهه أشد المستشرقين تعصبا الأب لامنس الى الحكومة الاسلامية الاولى ٠

وتجمع المصادر القديمة الموثوق بها على أن شيئا من ذلك لم يحدث كما يقول عبد الحميد العبادى : فالطبرى والبلاذرى اللذان استوعيا كل

ما أمكنهما استيعابه من الاخبار المتعلقة بقيام الخلافة الاسلامية لا يأتيان بخبر واحد يؤيد من قريب أو بعيد نظرية الأب لامنس ، وأن الاحاديث التى استشهد بها الاب لامنس أغلبها من الاحاديث المروية فى مناقب الصحابة وخصائصهم وهذا ينبغى أن يؤخذ بتحفظ وربما كان من واجب الباحث الا يستشهد بها فى مقام البحث العلمى الصريح . أن الاب لامنس يهمل كل الاهمال الرواية التى تشير الى الذهول الذى أصاب عمر ابن الخطاب عقب وفاة النبى وقد لحظ الدكتور السنهورى فى كتابه (الخلافة) قيمة هذه الرواية وقد أوردها ابن اسحق عن الزهرى وهى من الاهمية بمكان . اذن كيف نوفق بين عمر المؤتمر على رأى لامنس وعمر الذاهل لموت الرسول كل هذا الذهول .

وبعد فان القول بائتمار أبى بكر وعمر قديم غير حديث فقد قال به روافض الشيعة منذ ظهرت الاحزاب السياسية بشكلها التاريخى فى صدر الاسلام فزعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان لا أبا عبيدة كما يرى لامنس قد ائتمروا ببنى هاشم وغصبوهم حقهم فى الخلافة فالأب لامنس لم يزد على أن أخذ وجهة نظر روافض الشيعة وغلاتهم عن قيام الخلافة وبنى عليها بحثه الخاص بشكل الحكومة الاسلامية الاولى وهى بعد وجهة نظر ليست لها قيمة على الاطلاق .

والحق ان نظرية الاب لامنس لا تقوم على أساس تاريخى متين :

(أولا) : لأن المصادر القديمة الموثوق بها لا تذكر شيئا من هذا القبيل فالطبرى والبلاذرى اللذان استوعبا كل ما أمكنهما استيعابه من الاخبار المتعلقة بقيام الخلافة العربية لا يأتيان بخبر واحد يؤيد من قريب أو بعيد نظرية الاب لامنس .

(ثانيا) : أن الاحاديث التى يستشهد بها الاب لامنس اغلبها من الاحاديث المروية فى مناقب الصحابة وخصائصهم وهذه ينبغى أن تؤخذ بتحفظ وربما كان من واجب الباحث الا يستشهد بها فى مقام البحث العلمى

الصريح لأن معظمها بلا شك موضوع وأن السبب فى وضعه يرجع الى حالة الاحزاب السياسية ابان العصر الاموى وصدر العصر العباسى .

(ثالثا) : أن الاب لامنس يهمل كل الاهمال الرواية التى تشير الى الذهول الذى أصاب عمر بن الخطاب عقب وفاة النبى وقد لحظ الدكتور السنهورى فى كتابه (الخلافة) قيمة هذه الرواية ولكنه لا يعلق عليها الاهمية التى نعلقها نحن ولبيان هذه الاهمية نثبت نص الرواية كما ساقها ابن اسحق .

قال ابن اسحق : قال الزهرى وحدثنى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال لما توفى رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال : « أن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفى . وأن رسول الله ﷺ والله ما مات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه اربعين ليلة ثم رجع اليهم بعد أن قيل مات . والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى وليقطعن ايدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات .

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس فلم يلتفت الى شىء حتى دخل على رسول الله ﷺ فى بيت عائشة ورسول الله ﷺ مسجى فى ناحية البيت عليه برد حبرة فاقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ ثم اقبل عليه فقبله ثم قال : بابى أنت وأمى . أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لم يصبك بعدها موتة أبدا ، قال ثم رد البرد على وجه رسول الله ﷺ ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال : على رسلك يا عمر : انصت ، فابى الا أن يتكلم فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله واثنى عليه ثم قال : أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت قال ثم تلا هذه الآية (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افئن

مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم : ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) .

قال فوالله لكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ . قال وأخذها النـاس عن أبى بكر فانمـا هى فى أفواههم . قال فقال : أبو هريرة قال عمر « فوالله ما هو الا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى وقعت الى الارض ما تحملنى رجـلاى . وعرفت أن رسـول الله ﷺ قـد مات » .

والقارىء يرى أن هذه الرواية العالية الاسناد من الاهمية بمكان فهى تتعلق باثبات نص من نصـوص القرآن وهى من أجـل ذلك بعيـدة عن أن تكون مختلقة ، والمناسبة التى وردت فى صددها لا شـك صحيحة ! اذا كيف نوفق بين عمر المؤتمر على رأى لامانس وعمر الذاهل لموت الرسول كل هذا الذهول كما تدل الرواية المذكورة . وبعد فان القول بائتمار أبى بكر وعمر قول قديم غير حديث فقد قال به روافض الشيعة منذ ظهرت الاحزاب السياسية بشكلها التاريخى فى صدر الاسلام ، فزعموا أن أبا بكر وعمـر وعثمـان (لا أبا عبيدة كمـا يرى لامانس) قـد ائتمروا ببنى هاشـم وغصبوهم حقهم فى الخلافة .

ولا أدل على حدوث هذا الزعم من شعر السيد الحميرى الذى يفيض مدحـا لبنى هاشم وذما للخلفاء الثلاثة الاوائل .

روى صاحب الاغانى (جـ ٧ ص ٩) قال : جلس المهـدى يومـا يعطى قريشا صلات لهم وهو ولى عهد فبدأ ببنى هاشـم ثم بسـائر قريش فجـاء السيد فرفع الى الربيع رقعة مختومة وقال أن فيهـا نصيحة للامام فاوصلها اليه فاوصلها فاذا بها .

قال لابن عباس سـمى محمـد — لا تعطين بنى عـدى درهمـا

وأحرم بنى تيم بن مـرة أنهـم — شر البريـة آخـرا ومقـدما

ان تعطهم لا يشكروا لك نعمة ويكافئوك بان تذم وتشتما
منعوا تراث محمد أعمامه وبنيه وابنته عديلة مريما

قال وهى قصيدة طويلة قال فرمى بها الى أبى عبيد الله ثم قال اقطع العطاء فقطعه وانصرف الناس ودخل السيد اليه فلما رآه ضحك وقال قد قبلنا نصيحتك يا اسماعيل ولم نعطهم شيئا .

قال الشهر ستانى فى الملل والنحل فى كلامه على المغيرية احدى فرق غلاة الشيعة : ان زعيمها المغيرة بن سعيد العجلى كان يزعم أن أول ما خلق الله هو ظل محمد وعلى قبل ظلال الكل ثم عرض على السموات والارض أن تحملن الامانة وهى أن يمنعن على بن أبى طالب من الامامة فاين ذلك ثم عرضها على الناس فامر عمر بن الخطاب أبا بكر ان يتحمل منعه من ذلك ، وضمن أن يعينه على الغدر به على شرط أن يجعل الخلافة له من بعده ، الخ هامش بن حزم جـ ٢ ص ١٤ فالاب لامنس لم يزد على أن أخذ وجهة نظر روافض الشيعة وغلاتهم الى قيام الخلافة وبنى عليها بحثه الخاص بشكل الحكومة الاسلامية الاولى وهى بعد وجهة نظر ليست لها قيمة علمية على الاطلاق .

الفصل الثامن
الموالى والعرب

لم تكن قضية الموالى والعرب قضية مثارة الا فى محاولة المتعرضين من كتاب الغرب والاستشراق لتاريخ الاسلام والنظر فيه فى اطار فكرة العنصرية التى عرفتها أوربا فى القرن التاسع عشر بعد أن أعلن جوبنيو نظريته المعروفة ، وقد جرى تطبيق هذه المحاولة فيما يسمى بالنظرة العنصرية الى التاريخ العربى الاسلامى ، فحاول بعض الباحثين تصوير أحداثه فى صورة نزاع حاد بين العرب الحاكمين والشعوب المحكومة من فرس وترك وبربر وغيرهم فى محاولة لاثارة الصراع بين هذه الاجناس وبعث خيوط يمكن أن تفسد النفوس تحت اسم العنصريات أو القوميات

الضيقة وكانما لم تكن العلاقة بين هذه الامم وبين العرب الا تطاحنا على السلطة وصراعا على السيادة وذلك فى محاولة تشويه دور العرب الحضارى ٠

وقد ترجم الى اللغة العربية كتابان يحملان هذه السموم هما :

١ ـ السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات : بقلم فان فلوتهن ترجم ١٩٣٤ ٠

٢ ـ الدولة العربية وسقوطها : بقلم ولهاوزن ترجم ١٩٥٦ ٠

وقد حاول الكاتبان اظهار تاريخ القرن الاول الهجرى وكانه صراع دموى بين العرب كسادة وحكام وبين أهل البلاد المفتوحة ٠ وقد تأثر بهذا التفسير كثير من المؤرخين العرب فراحوا يطبقونه على مظاهر كثيرة فى التاريخ العربى الاسلامى كما يقول الدكتور فاروق عمر فوزى فى نقده لما كتب عن الحركة البابكية التى صورها المغرضون فى صورة انتفاضة قومية ايرانية حيث قام أصحاب الدراسة بتجريد الحركة من سياقها التاريخى الشامل وحصرها فى جانب العنصرية ٠

وقد واجه المؤرخون العرب المعاصرون هذه القضية المثارة فكشفوا وجه الحق فيها على هذا النحو :

ان محاولة القول باضطهاد الحكم العربى للموالى واحتوائهم أمر يحتاج الى تمحيص ونقد وأن مراجعة وقائع التاريخ تثبت العكس فان التسوية موضع تنفيذ الدول الحاكمة ، وهذه الدعوة نفسها هى التى استغلها الاسلام هو الذى دعا الى التسوية بين العناصر الاسلامية جميعا ، بل بين البشرية جميعا ٠ وأن دعوة الاسلام للمساواة بين المسلمين استغلها خصوم الاسلام فى محاولة احتواء هذه العناصر ضد الدولة الاسلامية ٠

والمعروف كما يقول الدكتور عبد العزيز للدورى فى كتابه (جذور الشعوبية) : أن الأمويين استخدموا الموالى بكثرة فى الدواوين وهى عماد الادارة المحلية واستخدموهم فى الجبايه والامور المالية ولكنهم لم

يسلموهم الرئاسة حيث اقتصرت الامارة وقيـادة الجيوش على العرب ومع ذلك فقد وصـل الى مكان القيـادة طارق بن زياد ومقاتل بن حيـان النبطى وبعض الامراء مثل يزيد بن أبى مسلم أمير أفريقيا .

أما فى مجال القضاء فقد فتح امام الموالى حتى أن قاضى الكوفة فى زمن الحجاج كان سعيد بن جبير وهو مولى .

وفى مجال الضرائب المعروفة والموروثة فان الامـر لم يتجاوز حده .

أما العطاء فقد شمل بعض الموالى فى صدر الاسـلام وذلك عنـدما كان عددهم قليلا وكانت حاجة العرب اليهم فى الفتوح كبيرة ولكن اتساع الهجرة العربية من الجزيرة الى البلاد الجـديدة وانتظـام الجميع فى الجيش لم يدع مجـالا أو ضرورة للموالى ضمن صفوفه فاقتصر العطـاء على العـرب .

وأما مسألة الزواج فقد كانت مسألة العناية بالانسان لا تزال قائمـة بين القبائل وواضحة فى تزويج البنـات وهى قضـية لا توجـب السخط أو الثورة وقد ولد اثنان من الخلفاء الامويين أحدهما مروان الثانى من أبنـاء الاعجميات .

يقول الدكتور عبد العزيز الدورى : أن ما يقال عن احتقار العـرب للموالى أمر فيه نظر فالموالى لم يكونوا صنفا واحـدا فى الاساس فهنـاك أناس من السبى أو من أسرى الحرب الذى استرقوا ثم اعتقوا وهـؤلاء قلة بين المـوالى وهـم عند تحـررهم تبقى الفروق قائمـة بينهم وبين أسيادهم وهم لا يرتقون الى منزلتهم اجتماعيا ، ولكن جل الموالى اناس دخلوا الاسلام ووجدوا أن المجتمع لا يـزال يتألف من قبـائل وأن دور القبائل كبير فى الحياة الاجتماعية اذ لا كيـان ولا منزلة اجتماعية خـارج نطاقها فانتسب الموالى الى هذه القبـائل أفرادا وجماعات وهو انتسـاب ينطـوى على الحلف يضمن للمولى مكانا فى المخطط الاجتماعى فالولاء فى هذه الحـالة ولاء حلف لا ولاء عتق ، وهـم بهذا الحلف يحصلون على

الحماية اللازمة كما انهم بدورهم يعززون مكان أحلافهم أو يساعدونهم ماديا ، وفى هذا الحلف شىء من عدم التكافؤ الا انه لا ينطوى على مهانة واحتقار ، ففى أول الامر رافق اعتزاز القبائل بانسابهم ربط المنزلة الاجتماعية بالنسب وهذه وجهة قبلية لا تنسجم والروح العربية السمحاء التى تجلت فى الاسلام · ولما تطور المجتمع باستقرار العرب وتعودهم على الحياة الحضرية ، ضعفت الاسس القبلية واتجهت الادارة الى المركزية وازدادت سلطتها ولم تبق ضرورة لهذا الولاء لان السلطة لم تعد تعتمد على القبائل بل على الخليفة وأمرائه فأخذ هذا الولاء يتقلص بوضوح ·

وحين ننظر الى فئات الموالى نجد كتاب الدواوين والتجار كانوا فى مكانة طيبة ولديهم من النفوذ والتأثير الشىء الكثير · ومنهم الفلاحون وأصحاب الحرف وكانوا فى منزلة اجتماعية متواضعة ، فقد كانت القبائل تنظر الى الفلاحة والحرف نظرة لا تخلو من استهانة ، وما نقله المستشرقون من اشارات وعبارات التقطوها من هنا وهناك لم تكن فى الحقيقة شواهد صحيحة تشير الى احتقار الموالى وهذه القصص التى رددوها انما هى تسجيل لحالات شاذة وفردية ·

ولقد كانت الموالى منتشرة فى عالم الاسلام كله آسيا وافريقيا واوربا ولم يكن لها مشكلة أو أزمة وأما مواقف الانتفاض فكانت فى منطقة فارس فقد استطاعت الشعوبية أن تحتوى الموالى تحت اسم المساواة والعدالة فجندتهم لمؤامرتها وكان بعض الموالى لازالوا على ديانتهم القديمة من المجوسية والمزدكية وان غطوها بشعار من الاسلام ومن ثم استغلت فى مخطط المؤامرة الباطنية ووضعت فى التعاليم السرية دون أن تعرف أبعاد المخطط ·

الفصــــل التاســع

الشبهات والزيوف المثــارة

ان مراجعة كتابات التاريخ خلال هذه الفترة التى تمثل العصر الاسلامى الاول تكشف عن كثير من الاخطاء والزيوف والشبهات بهدف انتقاص الدور الذى قام به الاســلام و الغض من قدر النتائج الخطيرة التى حققها ·

(أولا) : تهويل بعض الكتاب فى معارضة قريش للاسلام : متاثرين فى ذلك بدعايات طوائف مغرضة ذات نزعات خاصة نحــو الصحابة جميعا لأن قريشــا والعرب هم الصحابة الذين أهتدوا بالتدريج فمنهم الســابقون ومنهم اللاحقون وكلا وعد الله الحسنى ولا ريــب أن صحابة رســول الله كانوا من أكمل الاعوان فى أنضج شعوب الارض أحــلاما وأسلمها فطــرة وأسرعها انصافا وأصدقها فى نصرة الحــق بعد الاستجابة له ، نصرته وحفظ أمانته والنصيحة بكل ما يملكون ·

(ثانيا) : أن ما وقــع فى عصر الخلفــاء الراشــدين من تعــاون أو ســوء فهم قد حققه أعلام الســنة وزيفوا فيه المعترضين لتشــويه هــذا العصر وتسوىء سمعة الصحابة والايهام بانهم فى مستوى وضع من مستواهم الرفيع الذى رفعهم الله اليه ·

(ثالثا) : ليس صحيحا ما نسب فى مسالة التحكيم الى أبى موسى من بلاهة أو عمرو من خدعة وقد كان كلاهمــا اعلى منزلة واتقى وابصر بدينهمــا من أن يكونا كما صورهما اعداء الصحابة باقلام مؤرخين كانوا يلبسون الحق بالباطل بحسب الاهــواء ·

(ثالثا) : تقدير المعجزة الاجتماعية التى تمت فى مصر على يــد عمرو بن العاص واخوانه بتحويل هذا الوطن الى دين الاســلام ودخــونه فى أسرة العروبة واختياره لسانها وبيانها حتى صارت له الامامة كما هــو

فى الواقع الآن وهو حادث لا تعرف مصر فى تاريخها أعظم ولا أعجب منه فى ألوف السنين وقد عجز الاستعمار الغربى أن يحدث مثل هذه المعجزة فى الجزائر أو غيرها ٠

(رابعا) : وجوب العدول عن اعتبار التاريخ الاسلامى تاريخ حروب وفتن وأحداث وأشخاص وأن ينظر اليه على أنه تاريخ الدعوة الاسلامية وكيفية انتشارها وأسباب نجاحها ومن الذى أعان على ذلك وكان له أثر فيه بأخلاقه وتضحيته ، ومن الذى أساء الى هذه الدعوة وسار فى غير طريقها وافسد على الامة دينها ودنياها وكيف طرأ على المجتمع الاسلامى الانحطاط وظهرت فيه النزعات المذهبية والشعوبية وضرورة تطهير تاريخ الاسلام من الدسائس المكذوبة على أصحاب رسول الله اعتمادا على تحقيقات أعلام المسلمين وأئمتهم ٠ ويقوم المنهاج على أن تاريخ الاسلام نفسه وتطور العمل بالمبادىء التى جاء بها ومن هم الذين نشروا دعوة الاسلام وعرفوا الامم بها ومن الذين تنكروا لها ٠

(خامسا) : التنبه الى محاولة الصهيونية التى تعمل على اخافة الغرب من قيام الدولة الاسلامية القوية فهى تحاول أن تثير الشبهات القديمة لترسم أمام الغرب صورة غير صحيحة للعرب والمسلمين ، هذه الحملة بدأت بالاسرائيليات التى رسمها خصوم الاسلام فى روايات الاحاديث النبوية الشريفة (وصناعة اليهود المفضلة هى تحريف الكلم عن مواضعه) وهم يجرون منذ وقت طويل على تزييف تاريخ العالم وطمس ذاكرته وقد عمدت الصهيونية الى مضاعفة عمليات تزييف العرب والاسلام وقد استطاعت أن تسيطر على بعض كراسى دراسة التاريخ فى الجامعات الاوربية والامريكية ٠

والهدف هو دعم النشاط السياسى ضد العرب فى العالم والتوصل الى خلق ثقافة محرمة تساعد على تفتيت العرب وهزيمتهم أمام العالم ومن أمثال ذلك دعوتهم الى تعبئة الرأى العام الاوربى ضد العرب

باثارة شبهات قديمة ماتت وانطوت تشبه انتشار الاسلام بالسيف والقول بأن أوربا ترجع بكل مقومات حضارتها الى جذور يونانية ورومانية وحجب الاثر العربى الاسلامى ، بالرغم مما شهد به روجر بيكون وفرنسيس بيكون ، كذلك باعادة بعث أحاديث الحركات الباطنية مثل الاسماعيلية والقرامطة والحلاج والادعاء بأنها نماذج للديمقراطية والاشتراكية فى الاسلام .

(سادسا) : ليس الاسلام تاريخ حروب وليس تاريخ مناورات سياسية وليست حروب الاسلام بمعنى الغلب ولكنها تصدر عن مفهوم الجهاد فى سبيل الله وغايته السامية هى فتح الطريق أمام الدعوة الاسلامية وازاحة الذين يحولون دون انطلاقتها . لقد اندفع المسلمون لتحرير هذه الشعوب من أغلال الكسروية والفرعونية والقيصرية فزالت وهلك كسرى فلا كسرى بعده وهلك قيصر فلا قيصر بعده وهلك فرعون فلا فرعون بعده ، وتدفق السيل لاحد عشر سنة للهجرة النبوية (٦٣٢) فى مروج الشام وفلسطين وسهول العراق وفارس وربوع مصر والمغرب الاقصى وأودية همالايا .

(سابعا) : أكاذيب المستشرقين تتمثل فى سوء الفهم أو سوء القصد فهم يدرسون الاسلام وفى عقولهم فكرة مسبقة وفى نفوسهم احساس بالتعصب والحقد لذلك الدين الذى اقتحم عليهم أوربا وصمد فيها خمسمائة عام فهم قد اقتحموا بلاده حاملين لواء التجارة والتبشير والاستعمار لمحاربته وصده والحيلولة دون امتداده مرة أخرى وصدق الامير شكيب أرسلان فى تصوير عمل المستشرقين : هؤلاء المستشرقون اذا عثروا على حكاية شاردة أو نكتة فاردة فى زاوية كتاب يكاد يكون محرفا سقطوا عليها تهافت الذباب على الحلوى وجعلوها معيارا ومقياسا ، لا بل صيروها محكا يعرضون عليها سائر الحوادث ويغفلون ويتغافلون عن الاحوال الخاصة والاسباب المستثناة .

(ثامنا) : امتد الاثر التغريبى والاستشراقى الى مجال اليونسكو فى كتاب تاريخ البشرية الذى صدر عنه مجافيا للحقائق التاريخية عن

الاسلام ففى القسم الثانى من المجلد الثالث من كتاب تاريخ البشرية حاولت اليونسكو اذاعة الشبهات والاكاذيب الآتية :

(أولا) : أن الاسلام احتفظ فى ركن الكعبة بالوثن المهم لاهل مكة وهو الحجر الاسود ·

(ثانيا) : ان الاسلام كان توفيقا من نظريات مسيحية ويهودية ووثنية ·

(ثالثا) : ان القرآن مؤلف تاليفا بشريا وانه ذو مراتب مختلفة فى نسقه وفى طريقة تعبيره ·

ولا ريب أن هذه الشبهات الكاذبة ليست الا ما ردده الاستشراق اليهودى والاستشراق الغربى فى تلك المحاولة الخطيرة لتزييف تاريخ الاسلام التى يقوم بها التغريب والاستشراق والاستعمار والشيوعية ·

يقول الكتور ابراهيم العدوى : أن منهج الغرب فى كتابة التاريخ والذى سار فى البداية على آثار هيردوت وديودور وخاصة بالنسبة لاخبار الشعوب الاخرى يعتمد على الاساطير وخدمة الملوك والقواد والكهان وأفراد الطبقات المسيطرة والقوى الاقتصادية الفعالة الى اليوم · وبالنسبة للتاريخ العربى الاسلامى وبخاصة بعد الحروب الصليبية ونشوء مدرسة الاستشراق بأهداف استعمارية وتغلغل النفوذ اليهودى الصهيونى فى كل فروع الفكر والثقافة فى أوربا فقد برزت فيه النزعة الى اقتناص الشوارد الصغيرة المثيرة وتكبيرها مع ثبوت كذبها بالاستحالة أو ضعف الرواية ، وذلك لتكون أساسا لنشر وترويج بعض النظريات الهدامة عن العرب والمسلمين والاسلام مما يكون تاثيره فعالا بصفة عامة فى أضعاف امكانية أى بعث عربى على أساس العقيدة · ومهما يكون مفعوله مخزيا عندما يقتضى الامر مواجهة جادة ، وحاشدة لعدو شرس مثل اسرائيل بما يمثله من تحالف الاستعمار مع الصهيونية ومن أمثال هذه شبهة قيام الاسلام بالسيف ، وما يلقيه التعليم الاستعمارى لطلاب المغرب من أن

خروجه من الاندلس بعد قرون زاهرة هى حـركة طرد للمستعمرين العرب وما بدأ يشيع فى شباب العرب من شبهات مثارة عن عروبة فلسـطين من كثرة ما قرأوا فى الكتب الغربية وسمعوا ورأوا من الاقلام الاستعمارية عن أرض المعـاد وعن ملك سليمان من التهـاويل ٠

ولقد كان تاريخ الاسلام هو تاريخ الشعب والناس والجماهير وتاريخ المؤمنين من ولاة وقضـاة وفقهـاء وعلمـاء ونحـاة وشـعراء وأدباء وان الخطط الاسلامية كانت حافلة بالاخبار نابضة بالحيـاة وذلك قبـل قـرون طويلة من محاولة أميل لودفيج أن يجعل من البحـار والانهـار أبطـالا للتاريخ كذلك حرصت مصادر التاريخ الاسلامى على ربط المؤمنين باستمرار بالجهـاد للدفاع عن الدولة والشريعة والحضارة ٠

وكشف الدكتور العدوى عن أن الهدف من كتابة التاريخ الاستعمارى : هو تنشئة أجيالنا على مفاهيم تاريخية خاطئة يصعب اقتـلاعها وتقـوم الصهيونية فى بناء امبراطوريتها الوهمية على أسـاس أن معركتها مـع العرب تاريخية اى انهـا تقوم خلالها بتزييف التاريخ العربى لصـالحها ولذلك فان جزءا أساسيا من جهـادنا هو اعتبارنا المعركة معه تاريخيـة لأن هذه الصفة الاساسية لهذا الصراع الضـارى تقتضى المبـادرة بتصحيح التكوين التاريخى لجماهيرنا وشبابنا على أساس عقائدى ٠

(تاسعا) : يعجب المستشرقون ببنى أمية لان أحـدهم أبا سفيان كان عدو الرسـول ويتمثل ذلك فيما كتبه هنرى لامنس عن معـاوية ويزيد وعبد الملك وبقية بنى أمية ويقف آخـرون من الدولة الاموية موقفا معارضا فيصورون الدولة الاموية بأنهـا تعصب لمفهوم الجاهلية فى الاستعلاء بالعنصر ويصورون الدولة العباسية بانها فارسية خرجت من يد العرب ٠

وهم لا يتحدثون عن القـادة المصلحين الذين وطـدوا الدول بـل يتحـدثون عن المتآمرين والمعارضين ويسهبون فى تفصيل حركات التمـرد والمعارضة ويتحدثون عن الرشيد على أنه صاحب متاع وترف ويفسـدون

سيرته لانــه قضى على البرامكة الذين كانــوا يعدون الدولة للخــروج من الاســلام ، وحين يتحدثون عن المعتصم يتحــدثون عن الاتــراك وينقلون ما كتبه الجاحظ عن فضلهم ويضربون العناصر بعضها ببعض ، ضرب العرب بالترك وضرب العرب بالفرس وما كان تاريخ الاسـلام قبـل الاستشراق يفصل بين العرب أو الترك أو الفرس بل كان يراهم أمــة واحــدة ٠ وهم يدعــون أن القرامطة طلاب عدل واصــلاح ويأخذون من النصوص ما يوافق هواهم ، ففتنة الزنج فى جنــوب العراق يروونها برواية النويرى لانهــا توافق هواهم أما الحديث عن القرامطــة فيروونه برواية الطبرى ويأتون بخطاب أحمد القرمطى الى الخليفة المقتدر وهو خطاب يصورهم فى صورة طلاب عدل واصلاح ويتلذذ أحدهم بايراد فقرة للمسعودى تصـف سرقة القرامطة للحجر الاســود ويطيلون الاهتمــام والتوسع بالدول المنشـقة عن الدولة العباسـية (الصفارين والسليمانيين والطاهريين والبويهيين) ويطيلون الوقوف عندهم لانهم يرونهم دولا فارسية ويبدون اعجــابا زائدا بالفاطميين لان مذهبهم لم يلق قبــولا عنــد جماعة المسلمين ٠ ويشككون فيما كان فى عهــد الرســول وما كان من بعــده فيتحــدثون عن أن هنــاك فارقــا بين الفىء والغنيمة بين عصر النبى وما بعــد ذلك وهم يسـمون بلاد المغرب ببــلاد البربر ، وهى محــاولة لانتقاصهم ، بينمــا كانــت عبــارة (بربر) فى أساسها ذات معنى مختلف عما يستعمله المستشرقون ٠ وفى تاريخ المغرب يفصلون فى الحديث بين البربر والعرب وفى تاريخ المشرق يفصلون بين العرب والفرس حتى يقول توينبى أن هنــاك بعد الاســلام مجتمعا فارسيا ومجتمعا عربيا وهم يسـمون دعوة التوحيد التى قام بهــا الامــام محمد بن عبد الوهاب باسم (الوهابية) حتى يصوروها أمــام الناس على أنها فرقــة خارجة على الاســلام ويتحــدثون طويلا عن المترجمين وترجمــة الفلسفة ويركزون على مدرســة حران ويقفون طويلا عند ما كتبه المسعودى عن المعتزلة دون غيره ٠ ويبررون وجــوه العسف الصليبى فى اعتــداد عجيب وينقلون عبــارة وليم الصورى التى تقــول أن الصليبيين عندما دخلوا بيت المقدس قتلوا من أهله ٦٥ الفا وأن خيولهم كانت تخوض

فى الدماء حتى صدورها كذلك صوروا العلاقة بين العرب والموالى على انهـا خـلاف وصراع ومؤامرة ٠

(عاشرا) : حاول كثير من المستشرقين نسبة نكبة البرامكة الى زواج جعفر البرمكى بالعباسة أخت الرشيد بادعاء أن الرشيد قد عقد لهما الزواج دون الخلوة فتجاوزا أمره واتخذوا من هذه القصة طريقا الى تعليل موقف حاسم هو تصفية الرشيد للبرامكة وتدمير وجودهم السياسى والاجتماعى فى الدولة العباسية وقد أنكر ابن خلدون هذا الرأى وبين فساده فقال : انما نكب البرامكة لما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على أمره وشركوه فى سلطانه ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه فعظمت آثارهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واجتازوها لمن سواهم ٠

وقد أشار المؤرخون الى مؤامرة البرامكة التى كانوا يدبرونها لاخراج الملك من العرب والمسلمين وقد صرح بالتهمة ابن الاثير والمسعودى والطبرى وابن بدرون والاربلى وقد وصفوا البرامكة بالزندقة بمعنى اضمار الكفر أو المخالفة لما أمرت به الشريعة الاسلامية وذهب قوم الى أنهم كانوا يضمرون المجوسية ٠

ثانيـا :

كتابات المستشرقين ودعاة التغريب عن تاريخ الاسلام

ان كتابات المستشرقين عن تاريخ الاسلام قد ثبت اضطراب كثير منها وفساده وأحصيت أخطاء كثيرة لاعمال الاستشراق فى مجال التاريخ :

١ ـ أخطاء : دائرة المعارف الاسلامية ٠

٢ ـ أخطاء : المنجد ٠

٣ ـ أخطاء : تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ٠

٤ ـ أخطاء : كتابات تاريخ العرب : لفيليب حتى ٠

٥ ـ أخطاء : كتابات جولد سيهر ولامنس ومونتجمرى وات ٠

وعقدت موسوعة تاريخ الجنس البشرى التى تصدرها مؤسسة لليونسكو فصلا عن العرب والمسلمين ملىء بالشبهات والسموم والتشويهات ٠

وعن هذه المصادر أخذ كثير من كتاب العرب :

١ ـ جرجى زيدان فى كتابه تاريخ التمدن الاسلامى ٠

٢ ـ طه حسين فى كتابه الفتنة الكبرى ٠

٣ ـ زكى مبارك فى كتابه النثر الفنى ٠

٤ ـ أحمد أمين فى كتابه فجر الاسلام ٠

٥ ـ الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه حياة محمد ٠

٦ ـ عباس محمود العقاد فى كتب العبقريات ٠

٧ ـ اسماعيل أدهم أحمد فى كتابه « عن مصادر التاريخ الاسلامى » ٠

٨ ـ عبد الرحمن الشرقاوى فىكتابه « رسول الحرية » ٠

أخذ طه حسين مفاهيم الاستشراق اليهودى فى انكار عبد الله بن سبأ وتبنى شبهات مرجليوس وجولدزيهر فى القرآن المكى والقرآن المدنى وانكار ابراهيم واسماعيل وأخذ هيكل شبهات وليم موير واعتمد جرجى زيدان فى كتابه التمدن الاسلامى على مصنفات سيديو وكريمر وجولد زيهر ونقل نقلا من دائرة المعارف الاسلامية ٠

وقد استهدفت هذه المحاولة التى بدأها الاستشراق وأتمها التغريب :

(أولا) : تصوير التاريخ الاسلامى وكأنه ملىء بالدسائس والمؤامرات محشوا بالدعارة والترف متسما بالانشقاق والتمزق كما يصور الخلفاء بصورة المتنازعين على السلطة والخلافة ٠

والوجهة فى كتابات هؤلاء جميعا تحمل طابع الاتهام ولا تقر مرحلة

من المراحل أو موقفا من المواقف فالعباسيون غارقون فى الترف والامويون متسلطون على الرقاب ، وحيثما تصور كل مراحل التاريخ الاسلامى بالضعف والتمزق تصف حركات القرامطة والزنج بأنها حركات تقدمية ، ودعاة عدل ، وان هؤلاء المتآمرين على الاسلام هم حركات من صميم الاسلام .

(ثانيا) : فرض التقسيم الغربى لعصور التاريخ الاوربى على تاريخ العالم كله وتصوير العصور الوسطى التى كانت عصور الظلام فى أوربا على أنها عصور ظلام فى العالم كله مع أن هذه المرحلة كانت عصر نور فى مختلف أجزاء آسيا وافريقيا بفضل الاسلام .

كذلك فرض المفاهيم العنصرية على الاجناس والامم ووصف الغربيين وحدهم بأنه الجنس الابيض صانع الحضارة وأن مختلف الاجناس شعوب متأخرة وهذه نظرية ثبت بطلانها .

وهكذا فرض الاستشراق والتغريب مقاييس التاريخ الاوربى على تاريخنا وحاكموا تاريخنا الاسلامى أساس القيم المسيحية الغربية كما اقحموا نظريات غربية كانت وليدة ظروف وتواريخ شعوب أخرى وتمخضت عنها أحوال وظروف مغايرة فهى لا يمكن اعتمادها أساسا لتفسير تاريخ الاسلام ، كذلك عمدوا الى تجاهل الاسلام كمخرج حقيقى لهذا التاريخ وصوروه تصويرا مجردا من هذه القيم ومن تأثيراتها وروحها .

وهذا هو تصور (فيليب حتى)

(ثالثا) : يعمد الاستشراق والتغريب الى محاولة تصوير التاريخ الاسلامى على انه تاريخ العرب فيضم فيليب حتى تاريخ الاسلام كله تحت اسم تاريخ العرب ويصور جوستاف لوبون حضارة الاسلام تحت اسم حضارة العرب ، والواقع أن هذا التاريخ ليس تاريخ العرب وحدهم وأن هذه الحضارة ليست حضارة العرب وحدهم ولكنه تاريخ الفرس

والسلاجقة والمماليك والاتراك والمغول والبربر وأنه صنع فى اطار الاسلام وأن الحضارة قامت على مفهوم الاسلام .

(رابعا) : التوسع فى مسالة الفتوحات العربية والحروب بقصد تصوير الاسلام بانه دين سيف بينما لا تمثل الفتوحات والحروب فى تاريخ الاسلام الا مرحلة صغيرة اذا قيست بالنسبة لفتوحات وحروب الامم والدول الاخرى .

(خامسا) : يتابع فيليب حتى وغيره التفسير المادى للتاريخ فيرى ويرون أن الجفاف والفقر والغنيمة هى دوافع الفتح والهجرة .

(سادسا) : ردد مع الغربيين أن العرب الفاتحين لم تكن لهم أى ثقافة أو تراث فكرى وانهم تعلقوا بحضارة الامم التى غلبوها فنقلوا منها وكانوا مهرة فى النقل .

(سابعا) : يذهب فيليب حتى الى ان لكتابة التاريخ عند العرب اصولا شيدت على أساس الطريقة الفارسية ، وقد تبين للباحثين المنصفين كذب هذا الادعاء وأن دراسة نشأة علم التاريخ عند العرب تؤكد أن هذا العلم عربى النشأة ، وأن أصوله الاساسية قد تمت قبل الترجمة عن الفارسية ، وأن علم التاريخ عند العرب بدأ من أصول تتصل بدراسة الحديث والمغازى من جهة وبمتابعة الاهتمام الموروث من الجاهلية بالايام كما ظهر لدى الاخباريين (عبد العزيز الدورى) .

(ثامنا) : تفسيره للشعوبية بعيد كل البعد عن تحليل دوافعها واتجاهاتها فهو يراها مجرد دعوة للتسوية بين المسلمين فى حين أن الحركة لها جذور عميقة فى الوعى القومى والدينى للشعوب الاخرى وخاصة الايرانيين وأنها وان بدأت بنبرة التسوية فى العصر الاموى فانها سرعان ما انتقلت الى تفضيل العجم على العرب والى مهاجمة التراث والكيان العربى الاسلامى وكانت وثيقة الصلة بالزندقة وان كانت قد برزت فى صورة أدبية فكرية .

كما أنه ردد كثيرا من الشبهات كأسطورة العباسة فى تفسير نكبة البرامكة .

عن تصور (بروكلمان)

(تاسعا) : فساد مفهوم بروكلمان للنبوة والقرآن فيدعى أن النبى اعترف فى السنوات الاولى بآلهة الكعبة ويردد قصة الغرانيق ويدعى انه ﷺ كان يعرف مادة الكتاب المقدس والاساطير اليهودية وأن القرآن من تاليفه .

(عاشرا) : حاول الاستشراق تشويه موقف الاسلام من أهل الذمة ، ونجد هذا واضحا فى كتابات كثير من المستشرقين ومنهم الدكتور ا . س . ترتون فى كتابه (أهل الذمة فى الاسلام) الذى يحاول الادعاء باضطهاد المسلمين لاهل الذمة اضطهادا ذاتيا قائما على مجرد التعصب الدينى ويدعى (ترتون) أن هذا الاضطهاد بدأ من عهد عمر بن الخطاب وحاول أن يقول أن العهد المنسوب الى عمر ليس موثقا تاريخيا وأنه منسوب الى عمر افتراء وأن عمر استعمل النصارى فى الدواوين مضطرا ويحاول المستشرق التقاط أحداث جزئية ليبنى بها هيكلا تاريخيا يوحى بأن أهل الذمة فى الاسلام عوملوا بتعصب دينى ، والواقع أن أهل الذمة بشهادة الغربيين أنفسهم قد عوملوا أشرف معاملة وأكرمها فى العهود الاسلامية المختلفة .

(حادى عشر) : حاول (ستانلى لين بول) أن يصور حركة الدفاع التى قام بها المسلمون فى مواجهة اساطيل أسبانيا والبرتغال على أنها قرصنة ، وألف كتاب سماه « قرصان البربر » صور فيه الغارات البحرية التى كان يقوم بها عرب شمال افريقيا دفاعا عن أنفسهم وردا على غزوات الغرب المسيحى بأنها قرصنة بربرية والمعروف أن معظم قادة هذه الحملات هم من المسلمين الاندلسيين الذين نفوا من وطنهم فى الاندلس .

(ثانى عشر) : حاول مونتجمرى وات فى كتابه عن تاريخ اسبانيا

الاســلامية اثارة عدد من الشبهات فى مقدمتها الجهــاد وموضــوع الاقليات غــير الاســلامية ٠

(ثالث عشر) : حاول (لامنس) تصوير ســوريا بانها بلاد لــم تــكن عربية قبل الاسلام وانها كانت رومانية وأن العرب تسلطوا عليهــا للخــلاص من الحرب والفقر وأن أهل ســوريا كانوا رعــايا الامبراطورية الشرقية وأنهم كانوا يعتبرون بيزنطيين لا عربا ٠

كما حاول توينبى أن يصور الحضارة الاسلامية على انها ثمرة العصر السريانى وتجاهل لامنس وتوينبى أن منــاطق الشــام كلهــا كانت قــد غمرتها منذ ألوف السنين هجرات متعددة وضخمة من عرب الجزيرة العربية الذين أقاموا بهــا وعربوا هذه المناطق وخاصــة الجــزيرة وبين النهــرين ومناطق الشــام وقسما بين الفرات ووادى النيــل والاردن ٠ وأن هــذه المناطق فى مفهــوم الجغرافيا القديم هى امتداد لجــزيرة العرب وهى تمتد حتى جبــال طوروس ٠

(رابع عشر) : من أخطاء مونتجمرى وات قوله عن تحنث الرسول فى غار حراء بان أغنياء مكة كانوا يتخلصــون من حــرها بالذهاب الى الطائف أما محمد فانه كان يذهب الى غار حــراء ليصطاف فيه هاربا من حــر مكة وهذا رأى ليس له رد الا السخرية بفهم وات للامور ٠

٢ ـ (الرد على مونتجمرى وات فى كتابه تاريخ أسبانيا الاسلامية) ٠

يقول دكتور عبد الرحمن على الحجى : كانت دهشتى تزداد كلمــا تقدمت فى قراءة كتاب تاريخ أسبانيا الاسلامية ، تزداد غرابة لشــدة بعده عن الحقيقة الامر الذى لا يظهر فى عمومه أنه ناتج عن الجهــل بــل عن التجاهل والتعصب الذميم مع تحاشى وصف الاستاذ وات بالغبــاء ٠

وفى الكتاب أمور غريبة وشطط كبير عن الحقائق وتفسيرات للاحداث لا تحمل طابعا علميا ٠ واصطياد للادلة التى يبغى بها تاييد التحريفات

فهو يتحدث عن (الجهاد) وله فى الجهاد راى غريب وانه ليكاد يلقى الشك على نوايا الخلفاء والقادة فى التاريخ الاسلامى فنراه يهمل أمورا تاريخية يلزم ذكرها فى اى حديث عن التاريخ الاندلسى لانها قد اتفقت ضده بينما يفصل فى موضوعات جزئية أو قضايا جانبية لانها تؤيد رايه الذى ليس فيه انصاف .

وهو حين يتحدث عن الاقليات غير الاسلامية فى الاندلس يكاد يهمل الحديث عن التسامح الرائع الذى تمتعت به هذه الاقليات ولكنه يفصل فى الحديث عن انتشار الاسلام مؤكدا خلال ذلك دوافع المسلمين التى يقر أنها ليست دوافع عقائدية ولا تبتغى اعلاء كلمة الله ولغرابة هذا الامر يعود بالقارىء الى انتشار الاسلام فى الجزيرة العربية وانه كان بالسيف وبدوافع غير دينية تماما .

وهو يعتبر ان دافع ذلك هو الرغبة فى الحرب وان لبست ثوب الدين فهى أحيانا لا تختلف عن دوافعها فى الجاهلية وغمطه للحقائق باهماله لذكرها أو تشويهها ظاهر فى هذا الكتاب .

ويدافع (وات) عن احدى الفكرتين القديمتين اللتين تبناهما عدد من المستشرقين ومازالتا تترددان من قبل الامعات فى بلادنا الا وهى أن الاسلام انتشر بالسيف ، ويدافع عن الفكرة الثانية وهى أن الاسلام قام وانتشر تحت تاثير العوامل الاقتصادية وليست الفتوحات الاسلامية الا مدفوعة ولو فى حدود بهذه العوامل .

وهنا يرد سؤال : هل للعامل الاقتصادى اى مكان أو تاثير أو اعتبار فى ظهور الاسلام فى مكة على يد رسول الله ، وهل كان هذا العامل هو الدافع لانتشاره فى الجزيرة وخارجها وهل هذا العامل هو الذى دفع المسلمين الى أن يضحوا بأموالهم وانفسهم .

ان القول بأن ظهور الاسلام وانتشاره كان بسبب وبدافع العامل

الاقتصادى يهدف الى قطع صلة الانسان بالسماء ويلغى وحى الانبياء ، كما نشر الفكرة الاخرى : فكرة انتشار الاسلام بالسيف الى أنه ليس فى الاسلام من المثل والتشريعات ما يجذب الناس ولم يكن انتشاره قائما على الاختيار بل كان للقوة والقهر الى تغيير اقتصادى اثر مشارك فأدى الى مجىء الاسلام والى حدوث الانقلاب الاسلامى الذى يعتبر أكبر تغيير وأعظم انتقال تقدمى شهده تاريخ الانسان قاطبة . وهل اندفاع هؤلاء الحفنة من العرب من الاعاصير يبشرون بالاسلام جاعلين جهادهم لاعلاء كلمة الله فى الارض وتحطيم الطواغيت هدفا ترخص فى سبيله النفوس اندفعوا بتأثير عوامل اقتصادية ، ان العقيدة الاسلامية لهى الحدث الذى غير وسائل الانتاج والمنافع الاقتصادية بل وصاغها حسب مفاهيمه كيما تكون خادمة للحياة الاسلامية متمشية ضمن منهاجها دائرة فى فلكها وللاسلام نظامه الاقتصادى المستقل بل أنه فى سبيل الاهداف الاسلامية تنازلت تلك الجماعات التى حملت الاسلام الى العالم عن كافة منافعها الاقتصادية وكل الدوافع المادية وضحت بجميع امكاناتها المالية .

الباب الثالث

التاريخ : وطنى وقومى واسلامى جامع

(أولا) : روافد التاريخ الاسلامى

(ثانيا) : التاريخ وطنى وقومى واسلامى

(ثالثا) : العروبة والاســلام

(رابعا) : مصر العربية الاسلامية

الفصل الاول

روافد التاريخ الاسلامى

من أخطر المحاولات التى جرت فى العصر الحديث وفى ظل المناهج الوافدة فى كتابة التاريخ (الانشطارية) التى انشات ثلاثة روافد فى الحقيقة نابعة من المجرى الاكبر ولكن الاستشراق والتغريب كان حريصا على أن تستقل هذه الروافد وتنفصل عن المجرى الاصلى وأن يقوم لها وجود خاص : تلك هى الدعوة الى كتابة التاريخ القومى والى كتابة التاريخ الاسلامى • ومن ثم نشأت دراسات تاريخية قائمة على الوطن والارض وظهر ما يسمى تاريخ مصر ، تاريخ سوريا ، تاريخ العراق ، وتاريخ لبنان الخ وقد ظهرت هذه الدراسات فى ابان سيطرة النفوذ الاجنبى وسطوة الاحتلال البريطانى والفرنسى وكان الاستعمار حريصا على أن تقوم هذه الاقليميات فى كل مجال : فى مجال اللغة والتاريخ حتى تنفصل الاقطار وتنشأ أجيالها لا تعرف الا تاريخا محدودا هو تاريخ قطعة الارض التى يعيشون عليها وكانها قد انفصلت عما يجاورها واستقلت منذ فجر التاريخ الى الآن ولذلك فان التاريخ الوطنى كان فى منطلقه زائفا فى غايته وكانت المحاولة مضللة فان هذه التقسيمات التى سميت أقطارا انما جاءت بعد الحرب العالمية الاولى وبعد أن انفصلت عن دولة الخلافة الاسلامية التى كانت تجمع أغلب البلاد العربية تحت لوائها • والتى كان وجودها متصلا منذ ظهور الاسلام •

ولقد اهتم التاريخ الوطنى بدراسة الآثار القديمة حيث انبعثت الحفريات ما سمى بالفرعونية فى مصر وبالاشورية فى العراق وبالفينيقية فى لبنان وقد استهدفت كتابات التاريخ الوطنى رد العرب والمسلمين الى تاريخ سابق لتاريخ الاسلام من ناحية واعلاء هذه العناصر التى لم تكن فى حقيقتها الا موجات انطلقت من الجزيرة العربية والتى تجمع بينها وحدة الاصل •

كذلك حاول الاستعمار السيطرة على هذا التاريخ الوطنى وقد أطلق عليه التاريخ القومى على أساس أن المصريين قوم والسوريين قـوم والعراقيين قـوم وهو اطلاق زائف ٠

وقد فرض الاستعمار فى دراسة تاريخ هذه الاوطـان فكرة أنها بـلاد لم تتحرر طوال تاريخها وذلك تبريرا لوجـودها تحت الاحتلال الغربى ، وبالنسبة لمصر فقد كانت دراسات التاريخ ابان الاحتـلال تعلم الشباب أن هناك تاريخا يونانيا وفارسيا وعربيا وبريطانيـا وفى المغرب كانوا يعلمونهم ان تاريخ المغرب هو تاريخ رومانى خـلال الف سنة ٠ فلما بدأت هـذه الاقطار تدخل مرحـلة الاستقلال وكان النفـوذ الاجنبى لايزال قائما فان هذه الاقطـار ربطت نفسها بالتاريخ القـديم السابق للاسـلام فى محـاولة للاستعلاء بالفرعونية فى مصر وبالاشورية فى العراق وبالفينيقية فى لبنان ٠

وفى سوريا عندما دخلت مرحلة الاستقلال : كانت الدعـوة الى العروبة القديمة الجاهلية وقد أعلى شان هذه العروبة القديمة حتى صـورت بانهـا عقيدة ، وجرت محـاولات كثيرة لاعلائها ونسبت اليهـا بطولات وحضارات وذلك حتى تصبح منافسة لعصر الاسـلام بل لقـد حاولت أن تنسـب كل أمجـاد الاسـلام وحضارته الى هذه المرحـلة الجاهلية وهذا ما أخـذت به بعض الدعـوات السياسية ٠

ويتقسم التاريخ الحديث اليوم الى تاريخ وطنى والى تاريخ قومى ٠ فالتاريخ الوطنى يتصـل بالارض والتاريخ القومى يرتبط بالجنس العربى وكلاهما جزء من التاريخ الاسلامى العـام الـذى يضـم الحلقات الثـلاث ولا يعتبر واحـداً منهما تاريخا مستقلا بذاته ٠

ولا ريب أن المحاولات كلها كانت تستهدف قطع تاريخ الاقطـار العربية عن أصـولها الاسلامية وخلق مقدمات زائفة لوضعها القائم ، ولكن كيف يمكن نقلها عن امتدادها القومى الى الوطن العربى ثم الى الوطن الاسلامى

الكبير والحق ان محاولات كتابة التاريخ على انه « تاريخ وطنى » أو تاريخ قومى ما تزال قائمة فى كثير من الاقطار وهى وان تحررت من التبعية الاستعمارية فانها لم تتمكن حتى الآن من التماس الاصالة فى اعادة التاريخ الوطنى أو التاريخ القومى الى مكانهما الصحيح باعتبارهما رافدين من روافد المجرى الأكبر الذى هو تاريخ الاسلام الذى يربط هذه الاقطار من ناحيتين : من ناحية البدء ومن ناحية المراحل ، من ناحية الامتداد التاريخى وناحية الامتداد الجغرافى .

ومن حق الاصالة الاسلامية علينا أن نفهم وضع تاريخ الاقطار والاوطان العربية الاسلامية من التاريخ الاسلامى العام فنعرف أن التاريخ المصرى أو التاريخ السورى أو التاريخ العراقى أو التاريخ المغربى ليس الا حلقة من حلقات التاريخ الاسلامى نرتبط به ولا تنفك عنه ولا سبيل الى انفصال الوطن عن الامة ولا انفصال الامة عن وحدة الفكر الجامعة التى شكل بها الاسلام هذه الامة الجامعة عربا وفرسا وتركا وغيرها من عناصر .

الحق أنه لا سبيل الى انفصال الحلقات الثلاث سواء فى مجال التاريخ أو الفكر أو الأدب كذلك فليس ذلك الماضى منذ ظهور الاسلام الى الآن مما يمكن أن يوصف بانه منقطع أو أنه ميت بأى حال من الاحوال بل انه مازال يحيا فى الحاضر ويمتد فيه .

وعلينا أن نتيقظ الى هذا التحدى الخطير الذى يحاول الاستشراق والتغريب تحقيقه وهو قطع العصر الحديث عن الحلقات المتتابعة من رسالة الاسلام وتاريخه واللغة العربية والادب العربى فتلك محاولة متصلة فى كل هذه المجالات وهى مضادة للفطرة وللعلم ولطبيعة الاشياء .

ولن يستطيع أى قطر من هذه الاقطار أن يعيش فى تلك الحدود الجغرافية التى تحدها أرضه أو فى الحدود التاريخية التى يحدها تاريخه الاقليمى فان المنطقة كلها منذ جاء الاسلام قد ارتبطت ارتباطا فكريا

وتاريخيا وجغرافيا لا فواصل له من ناحية امتداد العصور ولا فى امتداد الارض ، فان هذا العالم الذى شكله القرآن فى اطار (لا اله الا الله) قد ترابط بالعقيدة والفكر والثقافة والمفاهيم والقيم ولذلك فان كل محاولة لرده الى حدود ما فاصلا بين العرب والفرس والهنود والترك ، هى محاولة باطلة .

فليس الوطن الا بمثابة حلقه صغيرة داخل دائرة اكبر هى دائرة العروبة ثم ان العروبة نفسها ليست الا حلقة فى دائرة الامم التى جمعها الاسلام على فكر موحد وعلى عقيدة واحدة ، فهى متلاقية جميعا بغير صراع ولا انفصال على غير النحو الذى تعرفه أوربا والذى حاول دعاة الاقليميات الضيقة نقله الى أفق الاسلام .

ونحن نرى أن الامتداد التاريخى هو فى حد ذاته ليس امتدادا يقوم على العنصر ولكنه يقوم على الفكر منذ رسالة الحنيفية الابراهمية التى شكلت اهل التوحيد والتى واجهت كثيرا من التحديات حتى حاولت أن تخرجها عن جوهر الاخاء الانسانى الى العنصرية التى فرضتها بعض تفسيرات اليهودية وغيرها ، حتى جاء الاسلام ليربط نفسه من جديد بالحنيفية الابراهيمية ليقيم هذا المفهوم الجامع المتكامل .

٢ - ان النفوذ الغربى ممثلا فى التغريب والاستشراق يعرف مدى خطر دراسة التاريخ فى بناء الامم وخاصة اذا كان للامة تاريخ قوى ملىء بمفاخر البطولات والمواقف الحاسمة ، على مقاومة الغاصب من ناحية ورحمة وسماحة وأخاء على النحو الذى تحفل به فصول تاريخ الاسلام ولذلك فقد كان (الاستعمار والصهيونية والماركسية) فى جماعها كنفوذ يحاول التاثير على الوجود الاسلامى بأن يعمل على تشويه هذا التاريخ فى وقائعه ، وأن يعمل على تمزيقه تحت دعوات قومية التاريخ وعالمية التاريخ وكلتا الدعوتين تعملان على مقاومة وحدة التاريخ الاسلامى الذى يعتبر التاريخ الحديث الآن فى البلاد العربية وفى مختلف اجزاء الوطن

الاسلامى جزءا منه لا ينفصل ، سواء من ناحية الفعل أو رد الفعل فان ما يمر به التاريخ الاسلامى الآن فى العالم الاسلامى ليس الا ثمرة المرحلة السابقة له وان تاريخ أى وطن عربى أو اسلامى لا يمكن أن يدرس أو يفهم الا فى هذا الاطار الجامع ، بل ان ظاهرة الاستعمار الغربى نفسه لا يمكن أن تدرس فى الاقطار التى احتلها النفوذ الاجنبى منفصلة عن تاريخ الاسلام نفسه منذ فجره وفى خلال مراحله المتوالية . كذلك فان ظاهرة الغزوة الصهيونية لا يمكن أن تدرس منفصلة عن أبعادها التاريخية والجغرافية فى العالم الاسلامى .

وكذلك لم يكن فى الامكان دراسة الحروب الصليبية وغيرها من المواقف الحاسمة فى تاريخ الاسلام منفصلة عن التاريخ الاسلامى العام .

بل ان التاريخ الوطنى لاى قطر من هذه الاقطار لا يفهم ولا تفسر أحداثه الا اذا نظر اليها فى الاطار الجامع .

ولقد كان هدف الاستشراق من الدعوة الى قومية التاريخ أن يعزل المسلمين والعرب عن تاريخهم المديد المتصل وأن يغريهم بأن يدعوهم الى أن يكون لهم وجود حديث منفصل يقوم على الاقليمية منفصلا عن العروبة والاسلام جميعا .

كذلك فان الدعوة الى (قومية التاريخ) التى تحمل لواءها مخططات النفوذ الاجنبى ، ليست هى الدعوة الوحيدة المطروحة فى أفق مخططات اليهودية العالمية ، وكلتا الدعوتين تستهدف تحطيم وحدة التاريخ الاسلامى التى اقامها الاسلام وتمزيق كيان الامة حول أكثر من تيار واذا كانت دعوة قومية التاريخ تعلى من شأن « الاقليمية » وترفع شأن « العنصرية » فان الدعوة الى عالمية التاريخ تستهدف القضاء على ذاتية الامة الاسلامية وافساد طابعها المستقل وصبها فى آتون العالمية والامية التى تقضى على خصائصها الخاصة ووجودها القائم بذاته ولقد كان المسلمون حريصين دائما على الاخوة الاسلامية الجامعة من ناحية فهم ينكرون الاقليميات والقوميات الضيقة ومن ناحية أخرى فهم حريصون على الاحتفاظ

بذاتيتهم وشخصياتهم وكيانهم الخاص ان يذوب او يتاثر باى مؤثرات الاحتواء .

٣ - وبالجملة فان محاولة تقسيم التاريخ الاسلامى الى تاريخ وطنى وتاريخ عربى وتاريخ اقليمى وتاريخ قومى مصرى أو سورى أو مغربى الخ هو هدف ضخم من أهداف الاستعمار وقد تخصص اكثر من مستشرق فى هذا المجال منهم من يخدم الاستعمار أو يخدم الماركسية أو يخدم الصهيونية وقد طرح التغريب والغزو الثقافى فى الثلاثينات « مؤامرة » الفرعونية والفينيقية والاشورية من أجل رد مصر والشام والعراق عن ارتباطها الاسلامى الممتد خلال اربعة عشر قرنا الى صلات قديمة تتعلق بما كشفت عنه حفريات الآثار وقد جرى الاستشراق شوطا طويلا فى محاولة احياء هذه الدعوات ثم تبين له العجز المخزى عن وجود أى خيط من الخيوط التى تربط هذا الماضى البائد بالحاضر سواء من ناحية اللغة أو الاخلاق او التقاليد ثم تبين أن هناك انقطاعا حضاريا عميق المدى بين هذه العصور البائدة وبين الاسلام .

ثم تبين بدلائل قومية أن ما يسمونه الفرعونية والاشورية والكنعانية والفينيقية ما هى الا موجات عربية متتابعة تدافعت من داخل الجزيرة العربية حيث استطاعت أن تستقر فى اجزاء مختلفة من امتداد الجزيرة العربية الى ما بين النهرين فى وديان العراق وسهول سوريا وأرض النيل كما تبين أن هذه المنطقة التى يطلق عليها الوطن العربى هى جزء من العالم الاسلامى مرتبطة به تاريخيا وجغرافيا وثقافيا وأن هناك تكاملا اقتصاديا واجتماعيا بين مختلف اجزاء العالم الإسلامى وانه من العسير أن تمثل هذه التقسيمات السياسية الاستعمارية أى معنى من معانى الاكتفاء الذاتى .

الفصل الثانى

التاريخ وطنى وقومى واسلامى

أولا : التاريخ الوطنى

جرت المحاولة فى ظل الاستعمار والنفوذ الغربى الى ما أطلق عليه تمصير التاريخ ، ويعنى هذا خلق تاريخ مصرى مستقل عن التاريخ الاسلامي ويقوم على أساس أن مصر كيان قائم بذاته منذ فجر التاريخ كانت لها حضارتها القديمة ومدنيتها قبل خمسة آلاف سنة • وهى حضارة سابقة للاسلام وغير متصلة بالعرب قوامها الاهرام والمعابد والنيل وأن هذا الكيان قد واجه موجات الغزو الخارجي المختلفة ، ثم يذهب دعاة هذا المفهوم الى تصور أن دخول مصر فى العروبة والاسلام انما كان غزوا عربيا وقد قال بهذا سلامة موسى وطه حسين ثم يجرى العرض التاريخى على أساس أن مصر ظلت بعد تعريبها واسلامها كيانا مستقلاً الى اليوم •

ولا ريب أن هذا العرض خاطىء من الوجهة العلمية التاريخية ولكن مبرر هذه الدعوى فى نظر البعض أنها دفاع عن الكيان الوطنى فى وجه حملات الاستعمار الذى صور مصر على أنها ليست وجودا وطنيا فاستخدم التاريخ الفرعونى وامتداده القديم ليكون رداً على هذه الاتهامات غير أن النفوذ الاجنبى استغل هذا ليكون دعوة اقليمية وانفصالية عن الدائرة العربية والدائرة الاسلامية وقد تكشفت فى دحض هذه المحاولة حقيقتان :

(الاولى) أن الموجة الفرعونية الى مصر كانت موجة عربية من قلب الجزيرة وأن اللغة الهيروغليفية ذات صلة وطيدة باللغة العربية فى غالب مصطلحاتها وتركيبها •

(الثانى) ان هناك (انقطاعا حضاريا) ثابتا وأكيدا وعميقا بين عصر الاسلام وكل ما قبل الاسلام •

ولقد جرت محاولة أخرى لكتابة تاريخ مصر الحديث على أنه تاريخ وطنى وأطلق عليه عبد الرحمن الرافعى (تاريخ القومية المصرية) استمدادا من محاولات قام بها الجبرتى ٠ ومضى فى هذا الطريق محمد صبرى وشفيق غربال وغيرهم فى محاولة لحصر تاريخ مصر فى حدوده التاريخية والجغرافية فى العصر الحديث منفصلا عن الكيان العربى المتصل بها من حولها والعالم الاسلامى كله ٠

وقد حاولت هذه الابحاث تصوير الحركة الوطنية فى مواجهة الاحتلال البريطانى الذى بدأ عام ١٨٨٢ وما قبل ذلك من ارهاصات فى عصر اسماعيل على أنها حركة وطنية مجردة ، ولكن المؤرخين والباحثين الغربيين وغيرهم كشفوا فساد هذا المفهوم وبينوا أن الحركة الوطنية فى مصر والحركات الوطنية فى مختلف أجزاء البلاد العربية والاسلامية كانت اسلامية المصدر وأن حركات المقاومة كما استمدت قوتها من مفهوم الجهاد الاسلامى وأن الازهر فى مصر كان هو المصدر الحقيقى لحركة المقاومة وللحركة الوطنية نفسها وأن الحركة الوطنية أيام عرابى كانت اسلامية الوجهة وكانت تؤمن بالجامعة الاسلامية وكذلك كانت الحركة الوطنية التى حمل لواءها الحزب الوطنى اسلامية تؤمن بالتحرك الوطنى داخل اطار المفهوم الاسلامى والجامعة الاسلامية التى كانت تمثلها الدولة العثمانية وقد كان الامر كذلك فى كل مكان وصل اليه الاستعمار غير أن النفوذ الاستعمارى عمد الى القضاء على هذا الرعيل من المجاهدين (محمد فريد وعبد العزيز جاويش وغيرهم) ليفتح الطريق أمام اعداد جيل جديد يؤمن بالنفوذ الاجنبى ويتعامل معه ولا يرفضه ويقبل سياسة المراحل وهو ما حقق كرومر ايجاده بانشاء المدرسة المتفرنجة الموالية للاجنبى والمعجبة باوربا والحضارة الغربية وعلى راسها لطفى السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمى وغيرهم (اقرأ تفصيل ذلك فى كتابنا : حركة اليقظة) ٠

وقد كشف هذا كثير من الباحثين فابانوا بان زعماء السياسة فى البلاد العربية كانوا يقاومون النفوذ الاجنبى فرنسيا كان أو انجليزيا فى

نفس الوقت الذى كانوا يعتنقون فيه الفكر الغربى ويعجبون بالحضارة الغربية ويتحركون فى اطار النظام السياسى الديمقراطى الغربى ومع ذلك فان الحركة الوطنية ، والدعوة الى مقاومة الاستعمار كانت اسلامية المصدر وبالرغم من ازاحة الاستعمار للرعيل الاول فان روح الحركة الوطنية ظلت اسلامية وان انحرفت عن مفهومها الجامع وقصرت نفسها فى اطار العمل السياسى والحزبى الذى كان لابد أن يتكامل بظهور الجماعات والهيئات الاسلامية التى حملت لواء تصحيح مفهوم الحرية السياسية ودفع المفهوم الوطنى الى التكامل فى اطار الاسلام الجامع .

ويصور هذا محرر جريدة سيكتيتور البريطانية عام ١٩٣٥ فيقول :

ما هى حركة القومية المصرية وما قيمتها اذا كانت تتجاهل التقاليد القومية ولا تظهر شعورها نحو ماضى بلادها الحر ، فالمصرى العصرى بدون استثناء تقريبا يفضل المظهر الكاذب المموه وهو عادة مظهر فرنسى كاذب ويؤثره على تقاليده الثقافية ، ومصر بلد اسلامى متعلم وبها حركة وطنية ومع ذلك فان وطنيتها تستنكر كل مظهر للروح الاسلامى والمصرى يحاول اليوم بادراكه وشعوره أن ينسى طبيعة الاسلام فتراه يقطع نفسه وينفصل عن أصوله الادبية والثقافية فى ألحين الذى يستسلم فيه عن عجز ، وضعف الى العوامل العصرية الخالية من الحياة الحقيقية .

لقد رأى اللورد كرومر الخطر الكامن فى توسيع الشقة بين مصر الاسلامية ومصر السياسية ولهذا السبب تأتى خطة الشيخ محمد عبده تأييدا صادقا ولكن الرجال الذين يرون ما يرى الشيخ محمد عبده هم اليوم أقل عددا منهم منذ أربعين سنة ولا ريب أن مصر السياسية تفقد تراثها شيئا فشيئا ، ومتى فاز الوطن المصرى بالحكم الذاتى المطلق الذى يطلبه فانه لا يجد لديه شيئا من تقاليده الادبية والفنية والثقافية تستطيع أن تستخدم هذا الاستقلال السياسى لفائدتها وترويجها . أن الوطنية دون الشعور بالتقاليد أو الجنس لا تصلح لان تكون قاعدة تستطيع

الطبقه العاملة ان تستمد منهـا أى اثبات أو تشريع له قيمته وقد علقت مجلة الفتح على هذه الكلمة فقالت ان الزعماء السياسيين يتظاهرون بعدم التمسك بالاسلام تقربا الى الافرنج والافرنج يبتسمون لذلك فى سرهم ابتسامة الاستخفاف ، ولا يخفى على كاتب مقالة السبكتيتر أن سياسة الاستعمار جاهدت طويلا لافراغ سياستنا فى هذه القوالب بما لها من السلطان على مناهج التعليم والتربية وعلى حياة الصحافة التى تكون العقائد السياسية والادبية فى رءوس قرائها وبما للسياسة الاستعمارية من الاساليب فى ترقية من يؤيدونها من المتعلمين الى المناصب ذات التأثير فى حياة الشرق فسياسة الشرق وقادته هم تلاميذ هؤلاء العاملين من الغربيين فى الغالب وقلما يشذ عن ذلك شرقى يشتغل بالسياسة .

ثانيا : التاريخ العربى

طرحت حركة التغريب والغزو الثقافى مفهوم « القومية » الغربى لتدمير مفهوم التاريخ الاسلامى الجامع بين العروبة والاسلام .

ولقد كان مفهوم دعاة العروبة منذ أن سقطت الدولة العثمانية يحمل هذا الترابط الجامع بين الاسلام والعروبة ، غير أن المحاولات لم تلبث أن دفعت نظرية القومية العربية التى تقوم على أساس اللغة والتاريخ والتى عرفتها أوربا فى معارضة مفهوم الوحدة المسيحية الجامعة وعملا على هدم الترابط القائم فى ظل الكنيسة الغربية واقامة الصراع بين العناصر المختلفة ، لاتينية وسكسونية وجرمانية .

وقد اندلعت فى أوربا حروب متعددة وخلافات كثيرة وسالت دماء كثيرة وقد استهدف الذين نقلوا مفهوم القومية الغربية الى العالم الاسلامى خلق هذا الصراع بين المسلمين والعرب .

ولقد حاولت حركة التغريب والغزو الثقافى ومن تابعها من الاحزاب العربية عزل مفهوم العروبة عن اصالته والدعوة الى علمنتها بغية القضاء

على مفهوم الاصالة الذى يقرر أن العروبة ذات أرضية اسلامية أو على حد تعبير (ويلفرد كانتول سميت) الذى يقول أن تاريخ الشرق الادنى والحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض والبناء وما لم يكن المثل الاعلى اسلاميا على وجه من الوجوه فلن تثمر الجهود القائمة .

ولقد استغلت نظرية السلالات والعنصرية استغلالا شديدا فى تبرير الاستعمار الغربى للبلاد الاسلامية وذلك بدعوى أفضلية العنصر الابيض صانع الحضارة .

ومن هذه المحاولات ما قام به دعاة مفهوم القومية الغربية فى الغض من الدور الذى قام به الاسلام ومحاولة أعلاء التاريخ العربى قبل الاسلام وقد تكشف زيف هذه المفاهيم جميعا وأثبتت الوثائق والاسانيد أن الاسلام بالنسبة للعرب هو مصدر كيانهم ووجودهم فان الاسلام هو الذى صاغ العرب صياغة جديدة وأقام لهم الوحدة على أساس العقيدة والفكر والثقافة وليس على أساس الجنس والعرق وكان لهم بمثابة السور المنيع الذى حماهم من العوادى وحطم الطغاة وهو الذى دفعهم الى أفق المجال العالمى ، وهكذا نتبين أن موقف العرب من الاسلام يختلف عن مفهوم القوميات الاوربية من دينها وعقائدها فضلا عن أن الاسلام معارض لموجة العنصر واعلاء السلالات وهو الذى حمل الى البشرية دعوة الاخاء البشرى .

أن ساطع الحصرى وميشيل عفلق وانطون سعادة قد عرضوا ونقضوا أكثر من مائة نظرية فى القوميات والاقليميات ليس من بينها نظرية واحدة عربية واسلامية أصيلة ، وكلها نظريات وافدة من المانيا وفرنسا وايطاليا وبينها نظريات متعارضة ومتضادة ونظريات تعتمد على البيئة وأخرى على الثقافة المشتركة وثالثة على الارض ورابعة على اللغة والتاريخ وكلها تختلف مع طبيعة الفكر الاسلامى ومنطلقاته ومفاهيمه وقيمه .

وقد تبين أن العروبة الحقة لا تنفصل عن أرضية الاسلام وقيمه وان العروبة ليست مذهبا مستقلا بذاته ولن تكون معارضة او مضادة للاسلام وقيمه وأن مصطلح القومية والدين الغربى يختلف عن مصطلح العروبة والاسلام وأن بين هذه وتلك فوارق بعيدة المدى فليس الاسلام دينا كالاديان وانما هو عقيدة ونظام مجتمع وليست العروبة كالقومية فان هناك اختلافا بين حالة الصراع الشديد الذى عرفته أوربا بين الدين والقومية وحالة الالتقاء العميق بين العروبة والاسلام .

والواقع أن التاريخ الاسلامى فى مراحله المتصلة والمجيدة خلال أربعة عشر قرنا لم يفصل بين المسلمين والعرب ولا بين العرب المسلمين والعرب المسيحيين الا حين بدأ الاستعمار يستغل الشعور الدينى لتفرقة الامة الواحدة واحتواء بعض الاقليات لخدمة أهدافه فى ضرب الاسلام ، وأن الخلافات التى وقعت بين المسيحيين والمسلمين كانت بفعل الاستعمار وأن المذابح بين الدروز والسنة كانت من تأثير النفوذ الاجنبى ولقد كان للاستعمار الغربى أثره فى تغذية العصبيات الدينية ولم تحدث فى الدولة العثمانية تغذية للعصبيات أو تفرقة بين الاديان أو بين العرب والترك الا حين تولى الحكم فيها الاتحاديون حلفاء اليهود وعملاء المحافل الماسونية الذين شكلتهم الارساليات الاجنبية .

ولقد عمد التغريب والغزو الثقافى الى تحويل الحركات الوطنية الى عقائد قومية باعلاء العصبيات والعناصر وترسيخها فى مجال الحياة التربوية والسياسية مع تشكيكه العرب فى رسالة الاسلام ، والتخلص من العقائدية التى تقيم الترابط بين المسلمين .

وقد وصف الدوس هكسلى هذه الدعوات العنصرية والقومية والاقليمية بأنها الاصنام الجديدة التى رفعتها الحضارة الحديثة والتى جعلت من الوطنية أو القومية آلهة تعبد من دون الله .

ثالثا : التاريخ الاسلامى

مضت التيارات الثلاثة فى ظل النفوذ الاجنبى والتغريب تعمل لتحريف مفهوم وحدة التاريخ الاسلامى الجامع بين عنصرى الوطن والقومية معا وذلك لخلق صراع لا يحقق الوصول الى المفهوم الجامع وكتاب التاريخ الاسلامى لم يتمكنوا من وضع منهج جامع لانهم كانوا يعملون من داخل الدائرة المجزأة فكانت كتابات جرجى زيدان تستهدف اعلاء شان الامويين والغض من شان عصر النبى والخلفاء الراشدين ، اما كتابات محمد عبد الله عنان فقد كانت صورا لا تحملها وحدة ولا هدف ، لا تستهدف الدعوة الى وحدة التاريخ الاسلامى وان كانت تعارض مفهوم العروبة ولكنها تعلى مفهوم المصرية وكانت كتابات احمد زكى باشا تلاحق بعض القضايا المثيرة وقد قصرت كتابات عبد الحميد العبادى على سلامتها عند العصر الاول كذلك فان رفيق العظم توقف عند بعض البطولات الاسلامية الاولى وفى مقابل ذلك جرت محاولات طه حسين فى اثارة الشبهات حول ما اسماه الفتنة الكبرى حين تعرض للخلاف بين عثمان وعلى ومعاوية فجمع مختلف الخيوط التى عرض لها الاستشراق للدفاع عن وجهة نظر معينة قوامها انكار وجود عبد الله بن سبأ اليهودى أو تبرئته من الاتهام فى مؤامرة مقتل عثمان .

ولقد كان الهدف الرئيسى من مختلف كتابات الاستشراق ودعاة التغريب غاية واحدة هى « ايجاد الصراع والتناقض بين العروبة والاسلام » .

وكان برنارد لويس قد تخصص فى اثارة شبهة دعوة ممارسة العرب للعداء العرقى ضد الموالى والزنوج ، بينما نجد عشرات الباحثين والمؤرخين يؤكدون المعامله الكريمة التى عامل بها العرب الافارقة يقول توينبى : ان الحضارة العربية من الحضارات النادرة فى التاريخ التى لم تتخذ موقفا عرقيا من الافارقة بل عاملت السود على قدم المساواة مع العرب لانها اتخذت موقف الاستعلاء على العرق الابيض فى بيزنطة وروما

كذلك وجهت شبهات نحو مفهوم الوحدة الاسلامية دون أن تلتفت الى أن الوحدة التى دعا اليها الاسلام هى وحـدة ثقـافة فكرية وعقائدية لا فكرة عنصرية فقد عرف الاسلام وحدة الفكر وجعلها مقدمة على كل العنـاصر فالاسلام يقيم روابـط المجتمع على العقيدة والاخـاء بين المؤمنين بصرف النظر عن أجناسهم أو لغاتهم أو سابق تاريخهم .

وقد أكدت حقائق التاريخ أن الاسلام قطع ما قبله من عصور الجاهلية وأن ذلك التاريخ القديم قد انطوى تماما بعد أن عاشت اليونانية والرومانية والمسيحية أكثر من ألف سنة ، فلما جاء الاسـلام قطع هذا التراث وقضى على الفكر واللغة وأقام مفهوم التوحيد الخالص بديلا عنه فى منطقة واسعة تمتد من الشـام الى مصر الى المغرب كله ومن ثم أصبح البحـر المتوسط فاصـلا حقيقيا بين حضارتين ودينين وثقافتين .

كذلك فقد استطاعت قوى الاستعمار والتغريب أن توقع الصراع بـين العرب والاتراك العثمانيين على النحـو الذى فصل بينهما وكان ذلك لحساب الاستعمار والنفوذ الاجنبى الذى استولى على هذه المناطق العربية وكانت المحاولة التاريخية ترمى الى تزييف العلاقات بين العـرب والاتراك منـذ بدأت وتصويرها على أنها علاقة استعمار بينما لم تكن كذلك وانما كانت علاقة لقاء فى اطار الاسلام لمقاومة الغزو الغربى الذى كان يحضر لجولة ثانية بعد هزيمته فى الحروب الصليبية .

لقد كانت محـاولة الفصـل بين العـرب والترك من أكبر مخططات الاستعمار التى تمت عن طريق كتابة التاريخ على نحو من التزييف والتضليل، فى محـاولة لخلق تصور عربى منفصل عن الاسلام وقد عملت الارساليات على تغذية هذه السموم وتبناها دعاة الفينيقية والماسونية والاتحاديون فى سبيل تمزيق وحدة التاريخ الاسلامى والوجود الاسلامى الجامع الذى يربط بين العرب والاتراك . وقد جرت المؤامرات نحو هذا الهدف حتى استطاعت أن تقيم خندقا واسعا بين العنصرين المسلمين كانت له آثاره البعيدة المـدى خـلال أكثر من خمسين عاما ، غير أن هذه الشبهات لم تلبث أن ظهـر

فسادها كما تبين هدف المؤامرة من تمزيق أديم العالم الاسلامى لحساب الاستعمار والشيوعية ، وتبين ان الوطن العربى جزء من العالم الاسلامى تجمعه رابطة الفكر والثقافة والعقيدة وأن الدولة العثمانية حمت العالم الاسلامى أكثر من أربعمائة سنة من الغزو الاستعمارى الغربى .

(راجع كتابنا : الاسلام والغرب)

الفصل الثالث

العروبة والاسلام

فى مجال تكامل العروبة والاسلام يمكن ان تقدم الحقائق الآتية :

أولا : ليس بين العروبة والاسلام تناقض ولا تضاد بدليل ان كل انسان يستطيع أن يكون عربيا ومسلما فى وقت واحد وقد اجتمعا فى الرسول وصحبه فكانوا عربا وكانوا مسلمين وإن القرآن كتاب الاسلام وكتاب العربية فهو الدين لمن أراد الدين وهو البيان والبلاغة لمن أراد البيان والبلاغة .

ويقول الاستاذ على الطنطاوى : وما الذى يبقى من العربية ان لم يكن فيها محمد والقرآن ، هل يبقى الا المعلقات السبع وحرب البسوس وموقعة ذى قار ، أن هناك دائرة كبيرة ودائرة صغيرة ، الكبرى هى الاسلام والصغرى هى العربية ، فالعربية تنطوى فى الاسلام الا جانبا منها والعرب المسلمون لا يتناقضون مع أنفسهم حين يفرقون بين صفتين قائمتين والفكرتان من التداخل بحيث لا يظهر الخلاف بينهما ولا يستطيع الغلاة تجريد العربية من الاسلام .

ثانيا : العروبة جزء من الاسلام بل هى نتاج الاسلام فالاسلام هو الحركة التى جمعت العرب كلهم على ايمان واحد ولولا الاسلام لبقي العرب فى جزيرتهم قبائل متفرقة لاقدر لها فى تاريخ الحضارة الانسانية . وللاسلام على العرب فضل توحيدهم وفضل اطلاعهم فى معارج الحضارة وفى الحياة

الانسانية وان العرب توحدوا بالاسلام وان الاسلام جعل منهم قوة عالميـة حاملة لواء الحضارة (عمر فروخ) .

ثالثا : الاسـلام هو التراث الحضارى للعـرب مسلمين ومسيحيين والاسلام هو للذى وحد مفاهيم العرب وحدد مقاييسهم الاخلاقية فنقلهـا من وحدة الارض ووحدة الدم الى وحدة الفكر والعقيدة .

رابعا : كانت فكرة القومية عند امم الغرب مقترنة بالصراع واحتقـار الامم الاخرى ولكن العروبة تتكامل مع الدول الاسلامية وتلتقى معهـا فى الاخـاء البشرى والتعارف ، وقد اعترف المستشرقون بان الحركات القوميـة التى قامت فى انحـاء العالم الاسلامى لم ترم الى ما رمت اليـه اوربـا من ايجـاد قوميات مستقلة متنافسة ، هذا الى انه لـم ينشب ولا ينتظر ان ينشب قريبا بين الشعوب الاسلامية منافسة اقتصادية كهذه المنافسة العنيفة التى طالما اوقدت نار الكفاح والنزاع بين الدول الاوربية .

وقد اراد الله تبارك وتعالى للامم ان تسـير فى طريقها السـوى وان تتعارف بالمعنى الواسع الذى يقتضى حسن الصلة والاخاء والامتزاج .

خامسا : يجب معـرفة الفـرق بين مصطلح الدين بصفة عامة وبين مصطلح الاسلام فالدين بالمعنى الذى يستعمل به هو العلاقة بين الله والانسان ولكن الاسلام يجمع بين العلاقة بين الله والانسـان وبين الانسان والانسـان فالاسلام ليس دينا لاهوتيا فحسب ولكنه الى ذلك نظام مجتمع ومن هنا فان القول بابعاد الدين عن مفهوم القومية هو مفهوم غربى لان الغرب اقام الصراع بين الدين والقومية لان الدين لم يكن نظاما اجتماعيا كاملا عنده ولا كذلك العروبة فهى مرتبطة بالاسـلام لانها منبثقة منه .

سادسا : الاسـلام لا يفصـل العـروبة عن الاسـلام كمـا دعـا الى ذلك ساطع الحصرى ومدرسة التغريبين ولا يفصل الدين عن السياسة كمـا دعـا الى ذلك على عبد الرازق ودعاة الشعوبية .

سابعا : أكد الباحثون فضل الاسلام على الوجود العربى نفسه ، يقول الفريد كانتول سميث : والاسلام هو الذى خرج بالعرب من ديارهم الى العالم فالاسلام سبب عظمة (العرب الدنيوية) ، والعرب هم الذين نشروا الاسلام فى بقاع العالم ونحن نؤمن بأن العرب مادة الاسـلام حملوا رسالة الله الى العالمين ولكن ليس لهم من أجل ذلك من اثر يوحى بالاستعلاء على المسلمين .

كذلك فان الاسلام هو الذى حمى اللغة العربية : حتي قال أحـدهم ان الاسلام هو الدين الوحيد فى العالم الذى ملأ نفوس معتنقيه فخرا واعجابا وهم ينظرون الى لغتهم بوصفها اللغة التى اختارها الله لاظهار دينـه ، وهى اللغة التى يتعلمها كل من اراد أن يتخذ الاسـلام دينا له .

يقول الرسول ﷺ : ليسـت العربية بأحـدكم من اب ولا أم وانمـا العربيـة اللسـان فمن تكلم بالعربيـة فهو عـربى (رواه الحافظ ابن عساكر بسنده الى مالك عن الزهرى) .

ثامنا : غير الاسلام موقف الامم فاعلى رابطة الفكر والعقيدة وحـال دون الاستعلاء برابطة العنصر والقرابة والنسب ، ودعا الى الخروج من عصبية الجاهلية وابدلهـا بأخوة الاسـلام فلم يبق بعـد الاسلام نسـب ولم تصبح القرابة هى الرابطة .

فلا يفرق بين المسلمين اختلاف لون ولا تباين لسان ، وعندما يدخـل الانسان فى الاسلام يكون واحـدا من جماعة له ما لهـا وعليه ما عليهـا ، ولا يفضل الاسلام عربيا على أعجمى ولا ابيض على اسود الا بالتقـوى ، وادخل العجم فى العربية لغة وفى الاسلام دينا فنشـأ علماء فحول كانـوا مصابيح الهدى (البخارى ، الطبرى ، المرزوى ، التبريزى ، الجرجانى ، الاصفهانى ، القروينى ، الفيروزبادى ، وابو حنيفة ، سيبويه ، ابن سيرين ، الزمخشرى) وكلهم كتبـوا بالعربية ، ويقول الزمخشرى : الحمد لله الذى

جعلنى من علماء العربية وجعلنى على الغضب للعرب . وقد اشار علماء الاسلام الى أن الاسلام امتاز عن سائر الاديان بانه دين وقومية جامعة وانه سياسة وعقيدة : يقول الاستاذ محمد سليمان : (ولما كان الاسلام دينا وجنسية فقد رفع الحدود بين الامم اللاتى تدين به وكره أن يدعى الجاهلية وجعل أصحابها جميعا اخوانا تؤلف مجموعهم كتلة واحدة لا فضل فيها لعربى على عجمى الا بالتقوى ولما لم يكن به للمجموعات البشرية من رابطة تتعصب لها وتعتصم بضرورتها فانه وهو دين التوحيد ودعوته للاتحاد ، كان لابد للمسلمين من وحدة عامة وعصبية عامة ولسان عام وقد نبت الاسلام عربيا وبعث على لسان رسوله العربى ونزل قرآنه بلسان عربى مبين فصح لهذا أن يمتزج الفرع باصله وان يتحد الاسلام بالعربية وأن يكون لسان شعوبها قاطبة وقد نجحت هذه النظرية ايما نجاح وأخلص المؤمنون العمل بها فعمت العربية ذلك المنبسط الاسيوى الافريقى الى حدود جبال البرنية فى أوربا وذلك ما يعجب له علماء الاجتماع الآن .

لقد دعا الاسلام الى استعراب هذه الامم حين جعل العربية لسان العبادة ، بين العبد وربه ، وأوجب على كل مسلم تعلم شىء منها يقيم به صلاته وجعل فهم القرآن وهو غاية كل مسلم معلقا على درس العربية وفهمها وجعل حب النبى وقومه من أصول الاسلام كما اوجب الحج لتكون تلك القبلة وهذا الوادى احب الى المؤمن من داره وبلده .

وهكذا جاء الاسلام نسبا وجنسية فقد ربط الاسلام بين الجنس والوطن وجعل الفكرة هى الدائرة الاوسع واعلى من شان الفكرة والعقيدة عن الجنس (القومية) والوطن (الارض) ولذلك فان مفكرى الاسلام لم يكونوا يصدرون عن اقطارهم ولكنهم كانوا يصدرون عن فكرة عالمية الاسلام .

تاسعا : لقد كان هدف التغريب والغزو الثقافى احلال العروبة بديلا عن الاسلام واعطائها صورة العقيدة وتمزيق الوحدة العقائدية الفكرية

بالسلالات القومية والدعوات العنصرية القائمة على استغلال الدماء وما سبق الاسلام من تاريخ وأحداث وآثار وهى قوميات وهمية اندثرت وماتت وانقطعت عن الحياة بالاسلام ولم تعد بابل وآشور والفراعنة تستطيع أن تبعث فى النفس العربية والاسلامية شيئا ٠

عاشرا : الاسلام وليس العروبة : هو الذى حمى الوطن العربى من الصليبيين بعد أن تم تكوين أربع امارات صليبية فجاء صلاح الدين الكردى المسلم لينشل العروبة من وهدتها التى كان فى الامكان أن تستمر ، والمماليك هم الذين حموا الارض العربية من التتار الذين دخلوا بغداد وأزالوا الخلافة الاسلامية وجعلوها مدينة للموت والدمار ، لقد قاتل المماليك الذين هم من جنس التتار لا من جنس العرب باسم الاسلام اخوانهم فى الجنس وفى الجزائر بعد مائة وثلاثين عاما من القضاء على الكيان الجزائرى ممثلا فى اللغة العربية استطاع الاسلام أن يبعث الامة من جديد فقد رفع ابن باديس راية الاسلام من جديد فاضاءت شعلة العروبة ومن هنا فقد تبين أنه حيث يسقط الاسلام يسقط العرب وأنه حيث يسقط العرب لبعدهم عن الاسلام فان الاسلام هو الذى يبقى لهم أملا ومنقذا ٠

حادى عشر : يقول موروبيرجو فى كتابه (العالم العربى اليوم) أن العروبة تعنى الاسلام وأن الابتعاد بالعرب عن الاسلام معناه انفصال البناء عن أساسه وقد ثبت تاريخيا أن قوة العرب تعنى قوة الاسلام ٠

الفصل الرابع
مصر العربية الاسلامية

كانت حقيقة مصر العربية الاسلامية هدفا من هداف التغريب والغزو الثقافى فى محاولة جبارة لتزييف هذا المفهوم واثارة الشبهات حوله ، وخلق عدد من الدعوات : وفى مقدمتها المصرية الفرعونية والمصرية الخالصة ومصر العربية فى محاولة للحيلولة دون قيام مفهوم مصر العربية الاسلامية الاصيل

فالعمل على تجزئة التاريخ الى وطنى وقومى كان عملا أساسيا من أعمال الاستعمار والتغريب بل أن التاريخ الحديث : عربيا ومصريا يجب أن تعاد كتابته فى ضوء مفهوم وحدة التاريخ الاسلامى ، ذلك أن هذا التاريخ القائم كتب بطريقة مضللة ، حتى أن بعضا من أبطال هذا التاريخ والذين لا نزال نعدهم أبطالا تحوم حولهم كثير من الشبهات فى خدماتهم للاستعمار والصهيونية .

وقد رد كثير من الباحثين أسباب نكسة ١٩٦٧ الى فساد كتابة التاريخ الوطنى والقومى ، بل يقول البعض : أن السبب الحقيقى فى النكسة يرجع الي أن الجيلين الماضيين قد خططا لتشكيل حياة الانسان المصرى تشكيلا خاصا وصبغه صبغة معينة لا تخدم فى الواقع الا الغرض الذي تطمع فيه اليهودية العالمية والاستعمار والماركسية . أن أسئلة كثيرة حافلة بالشك تدور فى عقول كل من يحاول الدرس على أساس سليم . ويرد البعض اضطراب مفهوم التاريخ الحديث الى عدم وجود مدرسة أصيلة للتاريخ بدلا من الارتباط بركاب المدارس الاوربية وفرض منهج وافد على تفسير التاريخ المصرى العربى الاسلامى حتى أن بعض أساتذة التاريخ المعاصرين اعتبروا مجتمع القرامطة مجتمعا اشتراكيا ووصفوه بأنهم أول من سار فى اليسار من العرب العاربة والمستعربة ، يقول الدكتور سيد الناصرى : أن الذى يشجع على عملية التزوير التاريخى هو غياب الوعى القومى ، فمازلنا ندرس التاريخ على أنه قصص حالمة دون الاستفادة من دروسه الاخلاقية والسياسية على أساس منهج عصري يخدم واقعنا ومستقبلنا ويضع أمام الناس خلاصة التجارب التى تناسب مشكلات الساعة وتساهم فى عملية الخلق والابتكار وخاصة أن هناك اخطارا تحدق ببلادنا وحضارتنا .

ولا ريب أن مقطع الامر فى دراسة التاريخ الحديث والمعاصر ، هو أن يكون وعاء لفهم الاخطار التى تحيط بهذه الامة اليوم ومؤشرا لاتجاه الرياح وكاشفا لمخططات الاستعمار والصهيونية والماركسية فى التآمر على هذه المنطقة الواحدة : العربية الاسلامية وقد أشار كثير من الباحثين الى

الاخطار التى أحدقت بكتابة التاريخ القومى والوطنى لمصر ولكثير من البلاد العربية فى مولجهة تيارات ثلاثة خطـيرة :

١ ـ محاولات الاستعمار الغربى وتفسيراته ٠

٢ ـ محاولات الشيوعية وتفسيراتها ٠

٣ ـ محاولات الصهيونية وتفسيراتها ٠

ومن هنا نجد ان تاريخ مصر والبـلاد العربية يكتبـه اما أمريكيون أو بريطانيون أو يهود وماركسيون وأن ما يكتبه رجال الجامعة الامريكية انما يكتب من وجهة نظر غربيـة أو يهـودية وما يكتبـه أمثال الدكتـور محمد أنيس وغيره انما يكتب من وجهة نظر ماركسية وبذلك فان أجيالنا الجديدة تقرأ تاريخها الوطنى (الذى هو جزء من التاريخ الاسلامى) على غير حقيقته فقد صور لها الابطـال فى تاريخها تائهين وراء سحب من الشك والغموض بينما وضعت هالات التمجيد والاكبـار حـول الذين خانوا كفاحهـا ٠

ففى ظل الاستعمار البريطانى وصف زعماء مصر الموالون له بالبطولة بينما وصف الذين قاوموه بأنهم كانوا من الموالين للدولة العثمانية ٠

وكانت كتابات المؤرخين الاجانب ترمى الى رفع شان أسرة محمـد على وتبرئة اسماعيل وتفسير الاحداث التى كانت مقدمة للاحتـلال البريطانى تفسـيرا توصف فيه بانها قبول للحضارة الحديثة ٠

كذلك فان أسماء الجبرتى وجمال الدين الافغانى ومحمد عبده وعرابى ظلت وقتا طويلا تحـاك حولها الشبهات لانهـا قاومت أسرة محمد على وقاومت الاحتـلال البريطانى ٠

بل ان ما كتبه الجبرتى عن اسرة محمد على ظل وقتا طويلا مما يمنع اعادة نشره وكانت الحكومة المصرية فى عصر أسرة محمد على (وفى عصر اسماعيل بالذات) تشترط فى عقودها مع المطابع النص على عدم طبـع

الجـزء الثالث من كتاب عجائب الآثار للجبرتي وفى السنوات الاخيرة استغل الماركسيون رفاعة الطهطاوي وصوروه على أنه داعية للاقليمية المصرية كما استغلوا المؤرخ « المقريزى » وصوروا أبحاثه بأنهـا تفسـير ماركسى للتاريخ المصرى •

وجاءت كتابات الدكتور محمد حسـين هيكل وعبد الرحمن الرافعى وأمين سعيد عن التاريخ الوطنى ملونة باتجـاه خاص لكل منهم ، فالدكتور هيكل ربيب حـزب الاحـرار الدستوريين خصـوم الوفـد والرافعي تلميذ مصطفى كامل ومجمد فريد وخصـم الاحـزاب السياسية الوفد والاحـرار وغيرهم وأمين سعيد كان مواليا للاحتـلال البريطانى وله ولاء معـه فلم تعط أية كتابة من هذه الصورة الحقيقية للحركة الوطنية خـلال الفترة التى أرختها عندما عكس كل مؤرخ انتماءه السياسي وتبعيته •

وكذلك فان كتابات محمد صبرى كانـت تمثل المدرسـة الفرنسية فى التاريخ وكانت كتابات شفيق غبريال تمثل المدرسة البريطانيـة فى كتـابه التـاريخ •

أما مذكرات أحمد شفيق فكانت تمثل الولاء للاسرة المالكة وان تحررت فى بعض مراحلها من هذا الولاء • وان ظلت تمثل عقليـة أحمد شـفيق ربيب الدراسات الاجنبية وكذلك كانت مذكرات اسماعيل صدقى تمثـل الدفاع عن جيل من الموالين للاستعمار والرأسمالية الغربية •

وهكذا نجد أن جميع المـادة التى بين أيدينا ذات انتماء غربى ولمـا جـاءت بعد ذلك كتابات محمد أنيس وجماعة الماركسيين فانها كانت ذات انتماء لمذهب التفسير المـادى للتاريخ •

وكلا الطريقين لا يمثلان المفهوم الاصيل للتاريخ الوطنى كجزء من تاريخ الاسلام العام وعندما عقد مؤتمر لنـدن (ابريل ١٩٥٥) لمناقشـة

تاريخ مصر الحديث : كان المسيطرون على المؤتمر امريكيين وبريطانيين يجمعون بين مفاهيم الراسمالية الغربية واليهودية العالمية ٠

وكانت أسماء الصهيونيين بارزة (ناداف شعران) جبرائيل باتـر جاكوب لانداد ، فاتيكوتش ، برنارد نويس وهؤلاء جميعا لهم مواقـف صريحة ضد المصريين والعـرب ٠

وقد أشار الباحثون الى عشرات الكتب التى تصدر فى مختلف أقطار العالم : بل أن هناك مؤلفات صدرت اشترك فى كتابتها عـدد من أسـاتذة مختلف الجامعات : الجامعة العبرية بالقدس وجامعة لندن وجامعة أكسفورد ومدرسة الشئون الشرقية والافريقية فى لندن وجامعة بنسلفانيا الامريكيـة حول تاريخ مصر الحديث بعنوان التغييرات الاجتمـاعية والسياسية فى مصر والجديد فى هذا الكتاب هو محاولة لتصوير مصر فى الستينات بمصر أيـام المماليك فى ضوء تفسير مادى للتاريخ ٠

ونرى الذين يعملون فى حقل الدراسات التاريخية فى مصر والبـلاد العربية قد احتواهم أحد التيارين : التيار الراسـمالى والتيـار الماركسى وكلاهما خاضع للتفسيرات الصهيونية ومن هنا فانه كلما ارتفعت الاصوات باعادة كتابة تاريخ مصر الحديث نشعر بأن الامر لن يكون أكثر من الانتقال من التبعية الغربية الراسمالية الى التبعية الماركسـية الشيوعية فى تفسير التاريخ من خلال العلاقات الاقتصادية ٠

وان المدرسة التى اشتغلت بكتابة تاريخ مصر كانت محتواة فى اطار حزبيتها وفى مفاهيمها الضيقة ، ومعنى هذا ان كتـابة تاريخ مصر ستظل مقيدة بسلاسل فوق سلاسله الاولى دون أن يكون قادرا على تفسير تاريـخ مصر تفسيرا اسلاميا أصـيلا باعتبار أن مصر جـزء من الوطن العـربى والامـة الاسـلامية ٠

بل انه عندما يعلن احد الكتاب ان الصحافة هى مصدر خطير لكتابة

تاريخ مصر الحديث فاننا نجد أن الصحافة المصرية نفسها فى هذه المرحلة كانت محتواة للنفوذ الفرنسى أو الانجليزى وأن الصحف المصرية الخالصة كانت محتواة للحرية السياسية التى كانت قد قامت على أساس مفهوم مصر للمصريين فهى لم تكن فى يوم من الايام قائمة على فهم مصر فى اطارها العربى الاسلامى فهى اما وطنية خالصة أو منتمية الى العروبة ولكنها فى نفس الوقت لا تتحرك فى اطار المفهوم الاسلامى الجامع فان هؤلاء الذين نشاوا فى ظل المفهوم الحزبى والسياسى المصرى كانوا يبدأون تاريخ مصر من الحملة الفرنسية ويتحدثون عن عصر محمد على واسماعيل والثورة المصرية ١٩١٩ والاحزاب السياسية الخ ويتحدثون عن بطولات هذه الفترة : عمر مكرم وعرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول الخ وهذه الكتابات بلونيها الغربى (شفيق غربال) والماركسى (لويس عوض ـ محمد انيس الخ) لا تخرج عن دائرة الاقليمية والسخط على الدولة العثمانية والاعجاب بالغرب والتاقلم فى اطاراته • ولا يزيد التفسير الماركسى عن التفسير الغربى للتاريخ الا تلك المحاولات اليسيرة التى ترمى الى الحديث عن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ولكنهم جميعا يقفون موقفا واضحا من الخصومة للدائرة العربية وللدائرة الاسلامية وهو نفس الامتداد الذى عرفته المدارس السياسية التى بداها حزب الامة ثم حزب الوفد والاحرار والسعديين وغيرهم وهو القائم على التحرك من داخل دائرة الولاء للحضارة الغربية والفكر الغربى ومخاصمة الانجليز سياسيا ومتابعة الغرب فكريا وقبول تنظيماته الديمقراطية •

ومن الحق أن يقال ان التحليل الغربى للتاريخ مغرض وناقص وأن التحليل الماركسى للتاريخ ليس كافيا فضلا عن ماديته الخالصة وهناك عوامل أخرى غير العوامل الاقتصادية تؤثر فى حركة التاريخ وخاصة العوامل المعنوية •

وما اتحدث به عن مصر هو بمثابة الصورة المكررة فى مختلف أجزاء الوطن العربى ، فان الاستعمار الذى دفع مؤرخى مصر على اعتبار أن

بداية تاريخهم هو الحملة الفرنسية هو الذى أوهم الجزائريين ان بدء تاريخهم هو عام ١٨٣٠ وهو العام الذى احتلت فيه فرنسا الجزائر .

وقد انشأ الاحتلال فى مصر ، كما أنشأ فى كل مكان ، أجيالا تنتسب الى الاستعمار (الانجليز فى السودان والعراق) وللفرنسيين فى (تونس والجزائر ومراكش وسوريا ولبنان) كل ما تتكون منه شخصية هذه الاقطار الحديثة من أسباب الرفاهية والتقدم المادى وكما حجب على الجزائريين تاريخ الاسلام الحضارى فى الشرق وفى بغداد قرطبة ذلك التاريخ الذى أفادت منه أوربا كل الفائدة فقد حجب عن المشارقة معرفة تاريخ المغرب والاندلس وظلت كتب التاريخ وخاصة تاريخ الادب تتناول مصر والشام والعراق والجزيرة وحدها على أنها هى الوطن العربى .

ولقد حرص الاستعمار فى مختلف أجزاء العالم الاسلامى على حجب ماسوى التاريخ الاقليمى الذى لونه بلون الولاء للدولة المحتلة وربطه بتاريخ العرب ، يقول أحمد سيكوتورى : لقد تعلمنا نحن المثقفين الافريقيين فى مدارس الاستعمار تاريخ فرنسا وحروب الغال وحياة جان دارك ونابليون وقرأنا لامرتين ومسرح موليير ودرسنا التنظيم الادارى لفرنسا كما لو كانت بلادنا أوربا وليست أفريقيا . ولقد قدم الاستعمار لنا من العلم والثقافة القدر الذى يرى انه يخلق منا آلات ترتبط مصالحها بعجلة الاستعمار .

فتح مصر

يعد فتح مصر الاسلامى أضخم الاحداث قاطبة فى تاريخ هذا القطر بل أن بعض المؤرخين المنصفين يصفه بانه أعظم انقلاب اجتماعى عرفته مصر فى تاريخها القديم والحديث . يقول السيد محب الدين الخطيب : كل الذين كتبوا تاريخ الفتح الاسلامى لمصر يقفون مبهوتين أمام المعجزة التى تمت لعمرو بن العاص من الوجهة الحربية بل أن نتائج المعجزة الادبية والاجتماعية والقومية أعظم من ذلك بكثير لانها قد عجز عن مثلها أمم الارض واقربهم الفرنسيون فى الجزائر منذ ١١٥ عاما الى الآن مع توافر وسائل الطباعة وأدوات التأثير والضغط .

يقول : وليست معجزة الاسلام فى فتح مصر تنحصر فى عدد الجيش الفاتح ولا ما يحمله من عدة ولا بما كان لهذا الجيش من نصر عجيب وتوفيق لا مثيل له ولكن معجزة الاسلام الخالدة فى هذا الفتح هى فيما أحدثت من انقلاب اجتماعى حول لغة مصر فى أسواقها وبيوتها ومعاهد ثقافتها الى صف اللغة التى تتكلم بها اليوم ، فقد حول الاسلام نفوسهم وعقولهم وقلوبهم وايمانهم الى حالة عجزت عقول أدهى الامم عن أن توفق الى مثلها أو الى جزء منها فلم تفلح . هذا النجاح فى الانقلاب الاجتماعى لم يقتصر به العرب على مصر حتى يبحث له المتنطعون عن علل خيالية وأسباب وهمية ، بل سبق مثله فى الشام والعراق وتلاه مثله فى شمال أفريقيا والسودان ولو بقيت قيادة الاسلام فى أيدى أهله الاولين واستمرت طريقتهم على ما كانت عليه لوصل هذا الانقلاب بلغته وآدابه وعقائده الى اليابان والى أمريكا .

والواقع أن دخول مصر فى الاسلام ليس كما يصوره بعض خصوم التاريخ الاسلامى بانه فتح عربى على النحو الذى عرفته مصر بالفتح اليونانى والرومانى والفارسى فان مصر كانت عربية أساسا قبل دخولها فى الاسلام وكانت الموجات العربية المتوالدة قبل الاسلام بآلاف السنين قد وجدت فى هذه المنطقة وجودا عربيا أصيلا ، بل أن الابحاث العلمية قد كشفت عن أن الفراعنة عرب وأن لغتهم متداخلة فى اللغة العربية الى نسبة كبيرة من حروفها ومعانيها .

ولقد كان دخول مصر فى الاسلام عاملا حاسما فى القضاء على العبودية الفرعونية والرومانية والغاء نظام الطبقات الذى كان سائدا فى جميع حكومات الاسر الفرعونية ثم فى زمن الاسكندر المقدونى تلميذ أرسطو وخلفائه البطالمه والرومانيين الجائرين أى أنه كان للاسلام شرف القضاء على هذا النظام البغيض بيد عمرو بن العاص ، كذلك فقد أعلن الاسلام المساواة فى الحقوق والواجبات القانونية والاجتماعية بين أهل مصر ، وأعلنت الدولة الفاتحة عن تنازلها عن حقها القانونى فى الزام غير المسلمين

بالاحتكام الى شريعة الدولة وقضائها فى الامور المتصلة بالدين كالاحوال الشخصية .

والواقع أن الاقباط أصل مصر الاصليين كانوا يتطلعون الى التحرر من النفوذ الرومانى البغيض المتسلط بأسلوبه العبودى العنيف ولذلك فقد حقق لهم الفتح الاسلامى هذه الحرية وقضى على هذا النفوذ وكان المسيحيون واليهود ينتظرون من قادة الفتح وعامة جندهم الطعن فى الانبياء السابقين وفى المسيح وأمه فما لبثوا أن رأوهم أعظم حرمة لهذه الشخصيات الكريمة من أهل الديانتين وابلغ تنزيها لهم حتى عن بعض ما قيل عنهم فى التوراة نفسها وكان الكهنة وعظماء الكنيسة الارثوذكسية يحسبون أن ابطال الدين الجديد سيحولون بينهم وبين استمرار رئاستهم الدينية على جماهير قومهم فعجبوا حين رأوا رؤساء المسلمين يقرون كل شىء على ماكان عليه ويحمون معابدهم .

ووجدوا ان الرجال الجدد يكرهون الجدل والمراء ، وقد التزموا طريقة القرآن التى تقول لكل مسلم : ادفع بالتى هى احسن . وجادلهم بالتى هى احسن . وانقلب العدو صديقا . وكان الحكام الجدد يعرضون الاسلام على المصريين ويعرفونهم بمبادئه واهدافه بلسان الحال لا بلسان المقال . كان الاسلام الذى يعرضونه عليهم أخلاقا يعاملون بها الناس فى بساطة لا تصنع فيها ولا تكلف ولا رياء ، واذا أخطأ جندى من جنود الفتح وجد المصرى الذى يقع عليه الخطأ ابواب رؤساء ذلك الجندى مفتحة لكل صاحب ظلامة فأحب المصريون دين الاسلام لانه دين الاخلاق الكريمة ولحبهم للاسلام أحبوا لغة الاسلام فعزموا على أن ينتقلوا اليه باتخاذ لغته لبيوتهم واسواقهم ومجتمعاتهم فتقرب المصريون ليقرأوا القرآن بلغته التى انزله الله بها وليصلوا الصلاة الاسلامية بلغة الضاد والتى اختارها الله لوحيه وكتابه ولآخر اديانه . ومنذ ارتضى المصريون لانفسهم ان يكونوا عربا من أمة العرب اصبحوا امة اسلامية فى قلب وطن الاسلام وقد مضى عليهم بضعة عشر قرنا وهم ثابتون عليهما رغم ما نزل بهم من أحداث .

ويصور احد الباحثين (مصر بعد الفتح العربى) فيقول : كان جيش الفتح اثنى عشر الف مقاتل من القبائل العربية المختلفة ، وبدات هجرات عربية الى مصر أكثرها هجرة قبائل القيسية ثم اليمنية ونزلت بطون قيس بالخوف الشرقى حول بلبيس واستمرت رحلة القبائل العربية وهجرتهم متلاحقة أما الاقباط فكانوا أكثرية عند الفتح . قال المقريزى انهم كانوا على قسمين متباينين فى اجناسهم وعقائدهم ، احدهما أهل الدولة وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم وديانتهم اجمعهم ديانة الملكية وكان عددهم يزيد على ثلاثمائة الف رومى .

والقسم الآخر عامة أهل مصر ويقال لهم القبط وانسابهم مختلفة لا يكاد يعرف منهم الحبشى من النوبى من الاسرائيلى الاصل من غيره وكلهم يعاقبة (وبينهم وبين الملكية اهل الدولة من العداوة بما منع التزاوج بينهم ويوجب قتل بعضهم بعض) .

ودارت الحرب بين العرب والروم وقت الفتح . أما القبط فكانوا هونا للعرب وبعد الفتح كتب عمرو أمانا لبنيامين بطرك الاقباط فخرج من بيته فى الصحراء وعاد الى كرسى بطريركيته بعد أن غاب عنه ثلاثة عشر سنة واعتبر الاقباط أهل ذمة وفرض على كل من بلغ الحلم (ديناران) واستثنى النساء والصبية والشيوخ وظل الاقباط يدفعون هذه الضريبة نحو قرن من الزمان واعتنق عدد كبير من الاقباط الاسلام وكان من الطبيعى وهذه العوامل تعمل مجتمعة لادماج الشعبين احدهما فى الآخر أن تنتشر اللغة العربية بين الاقباط ليمكن التفاهم بين الحاكم والمحكوم وظل انتشار اللغة العربية بطيئا طوال القرن الاول للهجرة وقبل نهاية القرن ٨٧ هـ - ٧٠٥ م وجاء الامر بالدواوين فنسخت الى العربية وكانت من قبل تكتب بالقبطية واليونانية ، وتاريخ آخر ورقة كتبت باليونانية ١٠١ هـ واقدم ورقة بالعربية ٩٠ هـ وظل التحول يتم بالتدريج خلال القرون الثلاثة الاولى للهجرة حتى اذا كان القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) كانت غالبية الشعب المصرى يتكلمون العربية ولا يفهمون القبطية بدليل ان رجال

الكنيسة المصرية اضطروا فى هـذا القـرن أن يلقـوا مواعظهم فى الكنائس باللغـة العربيـة ٠

وفى القرن الثالث اسقط العرب من ديـوان الجنـد ومنعت أعطياتهم فانتشروا فى القرى المصرية واشتغلوا بالزراعة وتزوجوا من المصريات وفى هذا القرن امتزج الشعبان ٠ ولم يبدأ القرن الرابع حتى كانت مصر شعبا واحـدا جديدا هو خليط من الشعبين العربى والقبطى يدين معظمه بالدين الاسلامى ويتكلم سواده مسلمين وأقباطا باللغة العربية ٠

واندمج الاقباط فى العرب واعتنقوا الاسلام :

وبعد تدوين الدواوين أخذوا يدخلون فى الاسلام ويتعلمون العربيـة لرغبتهم فى الاحتفاظ بمكانتهم وأعمالهم وقد اعتنق بعض الاقباط الاسـلام فرارا من الضرائب التى كانت مفروضة عليهم ولما كثر دخـول الاقبـاط فى الاسلام نقص الخراج فلما ولى عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١) كتب عامله فى مصر أيوب بن شرحبيل اليه يشكو لكثرة دخول الناس فى الاسلام وما لذلك من أثر فى نقص قيمة الخراج ثم استاذنه فى فرض الجـزية على من أسلم فرد عليه عمر بن عبد العزيز ٠

« قبح الله رايك : ان الله انما بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيـا فضع الجزية عمن اسلم ولعمرى لعمر اشقى من أن يدخـل الناس كلهـم فى الاسلام على يدى » ٠

وقد كان دخول الاقباط فى الاسلام فى مصر دخولا طبيعيا يسـير مع التطور المنطقى للحـوادث والتاريخ فى مصر بعد الفتح العربى ولقـد كان لبسـاطة الاسلام ويسر تعاليمه أبعد الاثر فى جذب هؤلاء الاقباط اليه وقـد شهد بهذا الرأى شاهد من أهل الديانة المسيحية هو سير توماس ارنولد قال :

« والحق أن كثيرا من مسيحيى مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وهذه السرعة التى اعتنقوا بها النصرانية فى مستهل القرن الرابع الميلادي ؛ كما أن سرعة انتشار الاسلام فى الايام الاولى من الاحتلال العربى قد تكون راجعة الى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء أكثر من أن تكون راجعة الى الجهود الظاهرة التى قام بها الفاتحون لجذب الاهلية الى الاسلام وأن الاساس اللاهوتى لبقاء اليعقوبيين حزبا منفصلا والشعائر التى جاهدوا فى سبيل الاحتفاظ بها ودفعوا ثمنا غاليا فى هذا السبيل قد اجتمعت فى عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضا وابهاما من الناحية الميتافيزيقية ولا شك أن كثيرا من هؤلاء تحولوا الى عقيدة تتلخص فى وحدانية الله البسيطة الواضحة وهى دين محمد .

عروبة مصر

جرت محاولات التشكيك فى عروبة مصر والادعاء بأن لمصر شخصية فرعونية مسيحية وأن العصر الاسلامى عارض يسير لم يغير هذه الشخصية وأن مصر كانت مهد الحضارة التى قامت فجر التاريخ حول البحر المتوسط وأنها حملت الدعوة الموسوية والمسيحية ومدرسة الاسكندرية التى جددت المعتقدات اللاهوتية .

وترتبط هذه الدعوة بالدعوة الى حضارة البحر المتوسط التى كانت فيها امتدادا للحضارة اليونانية والامبراطورية اليونانية ثم ترمى هذه الدعوة الدولة العثمانية بأنها دولة استعمارية وأن مصر قد يفرض عليها نفوذ الاتراك ويطلق على هذا الاستعمار التركى .

ويدعو حملة لواء هذه الدعوة الى الارتباط بالغرب وحضارته مع الاحتفاظ بالقومية المصرية ذات الجذور الفرعونية .

ومن هؤلاء الكتاب لطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى ومريت بطرس غالى وغيرهم وكل هذه محاولات تحاول أن تشكك فى عروبة مصر وفى أن مصر جزء من الامة الاسلامية .

فاذا اريد معرفة صلة مصر بالعرب قبل أن مصر يمكن أن تكون (واصلا) بين البلاد العربية كما هى قادرة على ان تكون (فاصلا بينهما) .

والهدف من هذا تحقيق مطمح النفوذ الاستعمارى وابعاد مصر عن الجامعة العربية والاسلامية واغرائها بطموح وهمى زائف أن تكون أمة فرعونية ، مصر قائمة بذاتها حتى يتحقق هدف القوى الكبرى فى الفصل بين الوجود الاسلامى المتكامل بين افريقيا وآسيا وهو مشروع قديم حاولت الدول الاجنبية تحقيقه للحيلولة دون قيام وحدة عربية اسلامية تضم آسيا وافريقيا .

وقد اثيرت هذه القضية خلال العصر الحديث مرة بعد مرة ، وكانت تستهدف فى تجديدها تحقيق هدف استعمارى او صهيونى أو لدعاة القوميات الوافدة فالمسالة لا تدرس بدءا على وجه صحيح وانما تدرس بهدف مسبق يرمى الى اعلاء احد التيارات ويختلف فى هذا دعاة الفرعونية القبطية عن دعاة الماركسية عن دعاة البعث ، وقد تجاهل الجميع الواقع الحقيقى الذى وصلت اليه مكانة مصر من العالم الاسلامى والوطن العربى على نحو قضى تماما على كل العوامل السابقة لذلك سواء من ناحية مفاهيم الوثنية الفرعونية والمفاهيم الهلينية أو الفكر الرومانى بل ان اللغة العربية قد حلت محل اللغة التى كانت قائمة فى هذه البلاد وانه لم تعد للفرعونية اى آثار واضحة فى ذاكرة الشعب المصرى مما يدل على انه حدث انقطاع حضارى وأن مصر اعادت تشكيل شخصيتها فى اطار العروبة والاسلام ولم يعد هناك اى تناقض بين الاطراف الثلاثة التى تتحرك فيها مصر : وطنا وعروبة واسلاما وهذا الذى نقول به عن مصر ، نقول به عن كل أجزاء الوطن العربى .

ولقد كان لاستعلاء فكرة القومية العربية فى الستينات اثرها فى

مخططات التغريب والغزو الثقافى كواحدة من الوسائل المصطنعة لتمزيق مفهوم (مصر العربية الاسلامية) واعادة مصر الى مفهوم جزئى ولكن مفهوم القومية الذى طرح فى البلاد العربية كان مفهوما وافدا وكان منقولا من نظريات غربية تختلف اختلافا عميقا عن الواقع فى البلاد العربية وعلاقتها بالعالم الاسلامى وعن مفهوم الاسلام الجامع الذى يقوم على الوحدة الجامعة ويسمح بقيام القوميات فى اطارها كما تبين أن فكرة القومية قد حملت معها فكرة العنصرية وفكرة الدم والنسب والاستعلاء بها عن العنصر الآخر وهذا ما يرفضه المفهوم الاسلامى بل لا نعدو الحقيقة اذا قلنا أن الاسلام جاء لحرب هذه العنصرية (كلكم لآدم وآدم من تراب : لا فضل لعربى على عجمى ولا أبيض على أسود الا بالتقوى) ٠

فى الرد على هذه الدعاوى التى جددها مريت بطرس غالى (١٩٧٤) ٠

يقول ابراهيم مدكور : ليس فى بلادنا من يستطيع أن يقول أن أصله فرعونى مائة فى المائة ، أو شركسى أو عثمانى أو مملوكى ، ان مصر بالذات من البيئات الاجتماعية والجغرافية القادرة أكبر من غيرها على امتصاص عناصر مختلفة ومتعددة ، والاسلام لم يكن قائما ابدا على أساس قومى أو عنصرى ٠ أن كل تراث قديم لا يمكن اعادته من جديد ولكن يمكن النظر اليه فى ضوء الواقع فالفرعونية الامة ينظر اليها فى ضوء الاسلام والعروبة ، وان عوامل تكوين الامة هى : الزمن والموقع الجغرافى والثقافة والتاريخ ، والمصرية والعربية بنات عم واخوات ، نحن فى الحقيقة مصريون وعرب ونستطيع أن نلائم بين الطرفين ٠

ويحاول امثال باهور لبيب وزكى شنوده تصور وجود مصرى اليوم قائم على الاساس الفرعونى وأن الاقباط هم السلالة المباشرة لقدماء المصريين وأن تراثهم ما هو الا امتداد لتراث هؤلاء الاجداد وقد ورثوا منهم الملامح والطبائع والاخلاق ٠

ويرد فؤاد محمد شبل على هذه الدعوى يقول : ان الكاتب انزلق الى القول بأن الاقباط هم البقية من قدماء المصريين التى وقفت أمام نوائب الدهر وأنهم هم وحدهم الذين ورثوا عن قدماء المصريين التقاطيع والملامح وسائر الاوصاف الجسدية ، والكاتب هنا يروج لنظرية ضالة مضللة فانه يجرد ٩٢ ٪ من الشعب المصرى من أصالته الحضارية ويجعل هذه الصلة وقفا على المسيحيين المصريين دون أن يستند على أساس فهل المؤلف يضمن اتصال النسب بين قدماء المصريين والمسيحيين المصريين دون سواهم . ألم تحكم مصر بالفرس واليونان والرومان أجيالا طويلة قبل الفتح العربى . لقد وفد العرب باعداد زهيدة وكان السكان وقت الفتح يتراوحون بين ثمانية ملايين واثنى عشر مليونا فهل يعنى اعتناق المصريين الاسلام وصيرورته على مدى الايام عقيدة أكثريتهم الساحقة ، فهل يعنى هذا زوال أصالتهم المصرية ، ولم لا يعنى اعتناق المصريين المسيحية - وهى بالمثل عقيدة وفدت على مصر من خارجها - زوال صفتهم المصرية وفقا لمنطق المؤلف واذا كانت المصرية ثقافة فلقد تشرب الاقباط بالثقافة اليونانية ، وكما انهم يستوعبون الآن مثل المسلمين سواء بسواء الثقافة العربية واللغة العربية وهى اليوم لغة الكنيسة المرقسية وهل حقيقة أن المسيحيين المصريين يختلفون فى القد والسحنة والاخلاق والعادات عن اخوانهم المسلمين المصريين . لانه كما يدعى الكاتب قد تبين لعلماء الاجناس أن التشابه يكاد ان يكون تاما بين الموميات المصرية القديمة وبين أقباط اليوم وبذلك يمكن القول بأن اقباط مصر هم من ناحية الجنس سلالة مباشرة لقدماء المصريين فهل يقصد الكاتب القول بأن مصر أمتان : أمة أصلية هى الاقلية انحدرت من أصلاب قدماء المصريين مباشرة وأمة دخيلة هى الاغلبية ؟

(٣)

الانقطاع الحضارى

تؤكد جميع أبحاث التاريخ المنصفة أن هناك انقطاعا حضاريا قام فى مصر والبلاد العربية بعد ظهور الاسلام واكد توينبى أنه بحث عن

الحضارة الفرعونية فى كيان مصر الحديث ووجد أن هناك انقطاعا حضاريا واعلن أن الحضارة الفرعونية قد ماتت من قديم ،

وقال الدكتور صبحى وحيده : تغيرت مصر تغيرا عميقا شاملا بعد الفتح العربى عما كانت عليه من قبل فصار أبناؤها يفكرون بالعربية لا بالهيروغليفية أو الاغريقية ويشعرون شعورا اسلاميا لا فرعونيا ولا مسيحيا ويتنفسون فى جو آسيا المغولية بعد أن كانوا يتنفسون فى جو البحر الابيض المتوسط .

واعلن خطأ الذين يقولون بان المصريين لم يتغيروا قط وان الذى تغير وتمصر هو من هبط عليهم من الخارج ، وأن المصريين تغيروا ماديا ومعنويا واشار حسين فوزى فى كتابه سندباد مصرى « أن التحول الكبير فى حياة مصر بالفتح العربى قد فصلها فصلا تاما عن تاريخها السابق مع الفتح الاسلامى وأنه من الخطأ أن نحمل الاسلام واللغة العربية تبعة انفصال مصر عن تاريخها الفرعونى وانها فى الواقع قد نبذت تاريخها القديم عندما تحولت من الوثنية الى المسيحية فى القرون الاولى بعد الميلاد ويقول جمال حمدان : ان الفتح العربى لمصر كان نقطة حاسمة بين مرحلتين وأن هناك معارضة للقول بالاستمرارية المصرية منذ بدء التاريخ حتى الآن » .

وهذا كله يعنى انقطاعية مصر عن تاريخ استمر أكثر من الف سنة بين الوثنية الفرعونية واليونانية والرومانية المسيحية .

وان الاستمرارية التى عرفتها مصر هى استمرارية الحنيفية الابراهيمية الممتدة عبر أصول الديانتين المنزلتين على موسى وعيسى عليهما السلام ويمكن القول بالانقطاعية فى الفكر والثقافة والعقيدة ولا استمرارية فى الحضارة المادية ، وأن الاستمرارية المادية منفصلة عن الانقطاع فى مجال الحياة الثقافية والروحية وأن مصدر هذا التغيير هو التعريب والاسلام وأن القول بغير ذلك انما يعنى تجاهل أكثر من ثلاثة عشر قرنا جمعت بين مصر والعرب فى اطار الاسلام .

وتؤكد المصادر كلها على وجود الارضية العربية السابقة للاسلام فى مصر والعراق وسوريا فيقول الدكتور حمدان : ان عروبة مصر الفرعونية قبل الاسلام لا تختلف فى نوعها ودرجتها عن عروبة العراق الاشورى قبل الاسلام أو عروبة الشام الفينيقى قبل الاسلام وليس هناك فارق بين نوع العروبة شرق السويس وغربها واما القول بان مصر فرعونية أصلا عربية مصاهرة هو منطق جاهلى ، منطق ما قبل الاسلام ونوع من الردة التاريخية ينسب الابن الى جده دون أبيه أو قبل أن ينسبه الى أبيه ، ليس العرب هنا الاب الاجتماعى فقط وانما هم بنفس الدرجة : الاب البيولوجى .

ويقول الدكتور حمدان : ان الانقطاع بالمعنى الحضارى ، هذا الانقطاع يمثل أعظم حقيقة فى تاريخ مصر الثقافى والروحى ويمثل نقطة تحول حاسمة وخط تقسيم فى وجودنا اللامادى ، وهناك من يحاول أن يبالغ فى جانب الاستمرارية فى كياننا لا ليبرز أصالة ما ولكن ليقلل من جانب الانقطاع وبالتالى ليضخم البعد الفرعونى فى تاريخنا فيبعدنا عن عروبتنا ويطمس معالمها ويرى الباحثون : أن العروبة هى مضمون جنسى ومضمون ثقافى ايضا قامت على الرحلات والهجرات المتوالية التى عمت حتى أواخر المغرب قبل الاسلام وبينما انقطعت الفينيقية والفرعونية والبربرية فقد تحققت الاستمرارية العربية وان كل الغطاء البشرى الذى يعطى ما يعتبر الآن العالم العربى هو أساسا فرشة واحدة من جذر واحد وعلى الاقل فان الاختلاط والانصهار الدموى بين العرب الوافدين والسكان الاصليين حقيقة تاريخية بعيدة المدى .

(٤)
مصر الفرعونية

الدعوة الى الفرعونية كانت تقوم على أساس أن مصر ليست عربية ولا اسلامية وهى تحمل الدعوة الى احياء الاثار الفرعونية والقيم الفرعونية وبعث الادب المصرى القديم على أساس تمجيد مصر الفرعونية والفراعين العظام والآلهة الخالدين والتبرؤ من العرب والحضارة الاسلامية

والقول بان لمصر كيـانا انسانيا وحضاريا خاصا وأنها لا تمت الى بقيـة الاقطار العربية الا بصلات واهية وأهمها الدين واللغة وكان الاستعمار يغذى هذه الحركة ويشجعها ويمهد لها بالعـون الادبى وسواه ليقضى على مفهوم وحدة التاريخ الاسلامى الجامع وليعزل مصر عن الوطن العربى والعـالم الاسلامى ولكن سرعان ما تبين عجز هذه الدعـوة عن الاستمرار لانها لا تملك من التراث الفرعونى ، ما يمكنها من توطيد قاعدة للعمل ، وكان رد الفعل قويا فى بروز الاتجاه الاسلامى الصريح الذى يربط بين قيم الفكر الاسلامى وبيان اللغة العربية وكانت الدعوة الفرعونية غامضة لم يستطع دعاتهـا أن يقنعوا بها الناس ومازالت هذه الدعوة ضد التيار على النحو الذى كتب به سلامه موسى وتلميذيه نجيب محفوظ ولويس عوض . وقد دعا سلامه موسى الى تغيير الحروف العربية الى حروف لاتينية وتبنى هذه الدعوة عبد العزيز فهمى ولكنها باءت بالفشل .

كذلك فقد فشلت الدعـوة الى القـول بان مصر جـزء من الشخصية الاوربية على النحو الذى دعا اليه قاسم أمين وطه حسين .

وتبين أن مصر عربية اسلامية وان هذه المحاولات انما ترمى الى الحيلولة دون وصول مصر الى المفهوم الاصيل .

ونحن نعرف لمـاذا ركز التغريب والغزو الثقافى على الدعوة الى الفرعونية فى مصر حيث لم يكن الغرض هو اعـادة حضارة تحجرت بقدر ما كان اخراجا للمسلمين والعرب من قيمهم ومفاهيمهم ، ذلك أن هنـاك تقاربا واضحا وتداخلا صريحا بين الوثنية اليونانية والفرعونية والمسيحية فى عـديد من النصوص ، وليست كلمـة الفرعونية فى المفهوم التـاريخى الصحيح الا ذلك النوع من الحكومات الاستبدادية الجائرة والانظمة العبودية الظالمة التى عرفتها هذه المنطقة قبـل الاسـلام : سـواء أكانت فارسـية أو رومانية أو هندية أو فرعونية ، هذه العبودية التى قضى عليها الاسـلام فيما قطع من استمرارية التاريخ فى العالم الاسلامى ونتيجة لذلك فان هذه

الدعوات الفرعونية والفينيقية والبابلية والاشورية وغيرها لم تستطع الحياة وسرعان ما سقطت لأنها ارتبطت بالظلم البشرى وبالوثنية .

كذلك فقد تكشف زيف الدعوة الى الفرعونية التى تحاول أن تقول أن المصريين جميعا أقباط وان العرب غزاة وأن القومية المصرية تتطلب لغة مصرية منفصلة عن اللغة العربية وأدبا محليا ولقد ظل دعاة التغريب يغذون النظرية الفرعونية ويوجهونها اتجاها منحرفا للقضاء على الروابط العربية والاسلامية : السياسية والاجتماعية ثم تبين من بعد أن الفراعنة الذين قدموا الى مصر لم يكونوا الا موجة من موجات الجزيرة العربية كما تبين أن اللغة العربية أصل للمصرية القديمة الهيروغليفية .

ولم تكن الفرعونية مفهوما من مفاهيم التوحيد على النحو الذى يدعيه البعض ولكنها كانت تقوم على نظام الطبقات وسيطرة الاكليروس من الكهنة فى المعابد فضلا عن الخمر والخنزير وتوابيت الموتى والعلامات والرموز بل ان الفرعونية كانت تقوم على ثالوث ايزيس وأوزوريس وحورس أما توحيد اخناتون فلم يكن الا نوعا من الشرك وعبادة الشمس حيث تقول الاناشيد الوثنية (اشرافك جميل فى الافق يا اله الشمس الحية . أنت واحد ولكنك تشرق فى أشكالك كشمس مضيئة) .

وقد مات اخناتون من نهم الطعام . كان اخناتون معتقدا بالوهية الشمس فقد وحد الألهة فى اله واحد هو عبادة الشمس ولم تكن آداب الفرعونية الا آداب الذل والنفاق حيث يقول بتاح حتب (أحن ظهرك لمن هو أعلى منك) وهى أخلاق العبودية والذلة التى حرر الاسلام البشرية منها ، كذلك عرفت مصر الفرعونية قداسة الحيوانات وعبادة العجول والكباش والاوز والعجل أبيس وعرفت تاليه فرعون حيا وميتا . فقد فرض هورس نفسه الها لوادى النيل وفرض عبادة نفسه على جميع المصريين .

ولما جاءت المسيحية ولانها لا تشتمل على نظام اجتماعى فقد اضطرت أن تاخذ نظاما لها من الوثنية الفرعونية وطقوسها وتقاليدها التى كانت

فى الاصل مستوردة من اليونان ومن هنا بدت روح الوثنية تربط بين الفرعونية والمسيحية .

وبالجملة فقد كانت الفرعونية هى عبادة الفرد وعبادة الفرعون وعبادة الشمس . ولا ريب أن ما وقعت فيه الفرعونية كان خروجا على الحنيفية الابراهيمية التى عرفتها مصر ، ايمانا بالاله الواحد غير أن هذه العقيدة ما لبثت أن انحرفت الى التجسد فى الانسان والحيوان والجماد فقدسوا النيل واتخذوا من السماء والشمس والكواكب آلهة حين ألهوا قوى الطبيعة وقد اخذوا من الديانة الهندوكية التثليث : ففى طيبه آمون وجوت وسخت وفى منف فتاح وسخت وأموزيس وفى امنتوس : أوزريس وايزيس وحورس والى أسطورة الثالوث المقدس ترد كثير من المعتقدات المصرية القديمة .

الفصل الخامس
شبهات فى التاريخ الاسلامى الحديث

ردد الاستشراق والتبشير والغزو الثقافى عشرات من الشبهات والاخطاء فى مجال التاريخ الاسلامى والتاريخ الحديث (عربيا واقليميا) يراد بها تدمير مفهوم وحدة التاريخ الاسلامى والغض من قدرته وانتقاص بطولته وآثاره القوية التى كانت كالمشاعل المضيئة فى مسيرة المسلمين .

أولا : من هذه الدعاوى الباطلة : الدولة الثيوقراطية ، وهى محاولة وصف الحكومة الاسلامية بانها حكومة دينية شبيها بما حدث فى المجتمع الغربى ، ومن الحقائق الواضحة الاكيدة ان الاسلام لم يقم الدولة الثيوقراطية ابدا علىالمفهوم الذى عرفه البابوات فى حكوماتهم ، ذلك أن الدولة فى المفهوم الاسلامى تجعل جميع المواطنين متساوين أمام القانون فى الحقوق والواجبات ولكل الحق فى ارتقاء أعلى المناصب ماعدا منصب الرئيس ، وحرية العبادة فى الدولة الاسلامية مكفولة لجميع المواطنين ، والمبادىء الاجتماعية فى الدستور الاساسى توافق جميع الديانات وان أعطت

تشجيعا لنمو العقيدة الاسلامية دونما تمييز للمسلمين عن سـواهم بمنافع خاصـــة .

ومفهوم الدولة الثيوقراطية (أى الدولة الدينية) لا يقوم فى العـالم الاسلامى قط ، ذلك أن الاسـلام ليس دين عبـادة بمعنى اللاهـوت ولكنه أسلوب صالح للحيـاة الكريمة تسـوده الاصالة ويتفوق فيه الجوهر على المظهر ، والدولة الثيوقراطية التى تولى أمرها رجال الدين (على المعنى المتعارف عليه فى الغرب) لم توجد فى تاريخ الاسلام ولا توجد فى شريعته السـمحاء ، حيـث لا تقـر وجـود ما يسـمى رجـل الـدين ، فالعلمانية والثيوقراطية لا وجود لهما فى الاسـلام حيث يتسـاوى فى الدولة الاسـلامية المواطنون أمام القانون فى الحقوق والواجبات ، وحيث حرية العبـــادة مكفولة لجميع المواطنين على السواء ومن هنا فان ما يردده دعـاة التغريب من وصف الحكومة الاسلامية بالدولة الثيوقراطية ليس صحيحا على اطلاقه حيث لا توجـد فى الاسلام سـلطة للكهانة ولـم تكن يومـا أداة من أدوات الاستبداد على نمط الحكومات الثيوقراطية التى عرفت فى أوربا ، وليس فى التوحيد بين السلطتين الدينية والدنيوية فى الاسلام ما يؤدى الى شىء من التضارب . فليس الاسلام حقائق روحية خالصة وانما هى حقائق روحيـة ونفسية واجتماعية .

ثانيا : محـاولة اطلاق كلمة العصـور الوسطى على العصر الاسـلامى الزاهر ، حيث كانت أوربا تعيش فى ظلمات هذه الفترة ، والمعروف أن كلمة العصور الوسطى على اطلاقها تعنى الفترة ما بين القرن الخامس والقـرن الخامس عشر الميلادى ، وهى الفترة التى سقطت فيها الحضـارة الرومانية خـلال عشرة قرون كاملة الى أن بدأت حركة النهضة الاوربية (الرنيسانس) وتحـاول كتب الغرب ان تصف هذه الفترة بالعصـور المظلمة . وهذا المفهوم صحيح وصادق بالنسبة لاوربا ولكنه كاذب ومضلل بالنسبة للعالم كله وللفكر البشرى عامة ، ذلك انه خـلال هذه الفترة ظهر الاسلام فى القرن السادس الميلادى وأشرقت شمسه فعمت العالم كله وامتدت من حدود الصين شرقا

الى حدود فرنسا وقدمت للانسانية قيم التوحيد والعدل والاخاء كمقومات لحضارة انسانية كانت بعيدة المدى والاثر فى الحضارة البشرية وفى النهضة التى بزغت فى أوربا بعد ذلك . لذلك فان اطلاق القول بانها فترة ظلام دامس ، هو قول باطل ، وهى محاولة لتجاهل العصر الاسلامى الزاهر وذلك وفق اتجاه الفكر الغربى الذى يحاول أن يربط بين الحضارة الرومانية المنهارة وبين الحضارة الاوربية الجديدة كانما ليس فى العالم الا أوربا وحدها . ولذلك فان اطلاق كلمة العصور الوسطى على العالم كله وعلى عالم الاسلام انما هو اطلاق ظالم فالعصور الوسطى المظلمة انما كانت كذلك بالنسبة للغرب وحده ولكنها كانت مضيئة مشرقة بالنسبة للعالم الاسلامى (الهند وفارس والامة العربية والاندلس) .

وتعبير العصور الوسطى تعبير غربى ينطبق على أوربا وحدها ، فقد سقطت هذه القارة فى الظلمات فترة ما بين سقوط الحضارة الرومانية وعصر الرنيسانس (النهضة) أما فى العالم الاسلامى فان هذه الفترة بالذات كانت الفترة الذهبية بالنسبة للاسلام وحضارته .

فاذا أراد دعاة التغريب تعميم هذا المفهوم فانما يراد به انكار فضل الحضارة الاسلامية على العالم .

ثالثا : كذلك حاول التغريب والفكر الاستعمارى أن يصف مرحلة القرون الثلاثة السابقة للقرن العشرين بانها (عصر الانحطاط) وهو تعبير قاس ظالم ، وكان يمكن أن يطلق عليه عصر الضعف والتخلف ، ولقد تجرى الشبهات باتخاذ هذه المرحلة أسلوبا لمحاكمة الاسلام به ، أو اتخاذه سندا لرمى الاسلام وفكره بالقصور والتخلف وخاصة فيما يتعلق بظاهرة (الجبرية) التى سادت مفهوم الفكر وأثرت على مفاهيم الحياة والارادة الانسانية . ومن الحق أن يقال أن هذه المرحلة لها وجوه ضعفها ولها وجوه قوتها ، أما وجوه الضعف فهى تاثر الفكر الاسلامى بالفلسفات الهندية والفارسية والمجوسية ، التى حملت مفاهيم معقدة مضطربة كوحدة

الوجود والحلول والاتحاد وغـيرها من المذاهـب التى لا تتفق مع جوهر التوحيد . والمفروض أن يحاكم الاسلام وفكره وتاريخه الى أصـوله الاولى والى اتباع أعلامه الرواد ولا يحاكم الى انتاج فترة الضعف والجمـود التى توقف فيها الابداع والتجديد والاجتهاد وغلب طابع التقليد . فالفكر الاسلامى فى جـوهره الاصـيل مازال مضيئا ايجابيـا مؤثـرا معطيا للامم المختلفة والعصور المتعددة دفعات التقدم والبناء والحيوية .

أما وجوه القوة فهى تتمثل فى عملية « التجميع » التى قام بها المفكرون حيث ظهرت فى هذه الفترة الموسوعات الادبية والفنية والشرعية والاخلاقية التى جمعت الآثار المختلفة الموزعة ، وهى عملية رد فعـل لمـا حدث نتيجة الغزو الصليبى والتترى ، من حرق وتدمير آثار الفكر الاسـلامى فقد عمد العلماء والادباء الى عملية التجميع كوسيلة لمقاومة فناء الفكر الاسـلامى وهو عمل نافع ايجابى يدل على القوة لا على الضعف وان وجـه اليـه النقـد بانه لم يجر من وجهة التنسيق الفنى أو التحقيق العلمى ولـكن التقـدير المنصف لاخطار هذه الفترة وظروفها من شانه أن ينصف العاملين فى هذه المرحلة ويقدر لهم هذا الجهد على اطلاقه .

رابعا : حاولت الدعـوات الاقليمية أن تفرض لهـا وجـودا أصـيلا كالفينيقية فى الشام والفرعونية فى مصر ، وهى محاولة لاثارة التاريخ القديم السابق للاسلام فى سبيل القضاء على الواقع التاريخى الاسلامى الحى ، ولاثارة دعـوة الاقليمية والعنصرية على أساس من أصـول الامم الشرقية القديمة قبل أن يصهرها الاسـلام فى بوتقته ، وقد حملت الدعـوة الفينيقية الى لبنـان الدعايات الاستعمارية لعزل اللبنانيين عن العروبة وللقـول بأن اللبنانيين هم أحفاد الفينيقيين القدماء الذين كانوا سكان هذا الساحل قبل الاسـلام وجرت المحاولة على اعتبار أن الفينيقيين ليسوا عربا وأنهم أبنـاء الامارات الصليبية وحاول الاستعمار أن يدعوهم الى اقامة كيان خاص غير عربى . مرتبط بالغرب ، ولكن الحقائق التاريخية لـم تلبث أن تكشفت من أن الفينيقية هى واحدة من البطـون الفرعونية والآشورية والبربرية

العربيــة التى هاجرت من الجـزيرة واندمجـت فى الارض العربيــة شرقا وغــربا ٠

ولقد حاول النفوذ الاستعمارى أن يجند لهذه الفكرة جماعة الحـزب القومى السورى الاجتماعى بالدعــوة الى ما أسماه ســوريا الطبيعية والامة السورية وسوريا للسوريين والسوريون أمة تامة ذات حدود طبيعية ٠ وسوريا الكبرى وقــد ردد المستشرقون هــذه المعــانى محاولين اثارة الشبهات بأن اللبنانيين ليسوا عربا وانهم والسوريين فينيقيون من احفاد الصليبيين الذين قدموا الى سوريا ولبنـــان ٠

وقد تصحح هذا المفهوم من بعد اذ تبين ان الفينيقيين عــرب خلص قدموا من الجزيرة العربية ـ ولكن الدعــوة ما تزال تعمل فى مجـــالات سياسية واجتماعية وثقافية ـ كذلك استعلنت فى مصر دعوة الفرعونية بهدف القضــاء على الوجود العربى الاسلامى ، واستهدف دعاة الفرعونية ادخال مفاهيم الوثنية الفرعونية المرتبطــة بالوثنية اليونانية وغـيرها ٠ وقــد فشلت هذه الدعوة فى أن تجـد لهــا أرضية تنبعث منهــا حيث لــم تجـد تراثا فرعونيا له قيمة دينية أو تاريخيــة أو اجتماعية أو عمــلا مكتوبا ٠ وتبين أن حضــارة الفراعنة قد تحجرت فى الاهرامات والتماثيـل والمعــابد وقد تخطــاها الزمن بدعوة التوحيــد الاسلامية منذ أربعة عشر قرنا ٠

خامسا : ومن شبهات الاستشراق والغزو الثقافى محاولة التركيز على الحملة الفرنسية واعتبارها منطلقا للعصر الحديث ، وهى محاولة باطـلة زائفة بواقع التاريخ نفســه ٠ تحــاول أن توحى بأن العالم الاسلامى لــم ينهض الا بفضل الغرب ونفــوذه ، وأن العرب لم ينهضوا الا بعد أن غزاهم الغرب فى عقر دراهم والواقع أن العالم الاســلامى والبــلاد العربية قـد تيقظت قبل الحملة الفرنسية بأمد طويل ، وأن هذه اليقظة بدأت فى حوالى سنة ١٧٤٠ م ٠ على التحـديد بدعوة التوحيد وما كان لها من أصداء واسعة فى العالم الاســلامى ، وهذا الواقع يسبق وصــول الحملة الفرنسـية

باكثر من نصف قرن ويسبق وصـول الارساليات التبشيرية بمائة عام على الاقل ، ومن قبل وصـول الحملة الفرنسية كانت حركة العلماء فى الازهـر قد وضعت أول وثيقـة لحقوق الانسان مستمدة من مفهوم الاسلام حينمـا أخذت العهد المكتوب على الامراء المماليك بأن لا يظلموا الرعية ولا يفرضوا عليها أى ضرائب أو قيـود .

ومعنى هذا أن القول باعلاء شـأن الحملة الفرنسية ليس الا من دعاوى المستعمرين والمستشرقين التى غمرت الكتب المدرسية بفضل نفوذهم ، وتجمع المراجـع الصحيحة على أن الحملة الفرنسية لم تكن مصدر نهضة بقـدر ما كانت عامل تقويض للنهضة الاصيلة والامم لا تتجدد من خارجهـا وانما تتجـدد من مصادر فكرها ومن أعماق روحها .

وقد ولدت الحملة الفرنسية فى مصر ما ولدته المعـاهد التبشيرية فى سواحل بيروت والشام ،ولدت حذرا من المدنية التى مثلوها للناس متقاربه مع تقاليدهم وولد الحذر قلقا ، وامتد القلق والحذر بتاثير بعض التصرفات السيئة فاصبح تعصبا وكرها على حد قول الدكتـور شكرى فيصل : حيث من المستحيل عقلا أن نتصور أن الشرق العربى كان سيظل نائما لان لهـذا الشعب تاريخا فى الحضارة وقدما فى التمدن وجذورا عريقة ولقـد نهضـت الشعوب التى هى أقل عراقة منه كالصين والهند واليابان . وعنـده أنه لـولا الحملة الفرنسية لاستطاع الشرق العربى أن ينهض نهضة حقيقية . والشرق له تقبـل ذاتى للحضارة ليس مفروضا عليه من الخارج .

سادسا : كانت الخلافة الاسلامية هدفا من أخطر أهداف الاستعـمار والصهيونية فقد استطاع السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية فى أشـد مراحل الضعف ـ وهى ترمى من الدول الاوربيـة بالمؤامرات من أجل تمزيقها والقضاء على ما أطلق عليه « دولة الرجل المريض » ـ استطاع أن يحمل لـواء الوحـدة الاسلامية وجمع المسلمين من خارج الدولة العثمانية لاقامة حاجز ضخم فى وجـه الزحف الاستعمارى الغربى وقد نجحت دعوته نجاحا

قويا أكد وحدة المسلمين الفكرية والاجتماعية والسياسية وكادت أن تفسد مخطط الاستعمار المندفع الى السيطرة ، وتواجه الصهيونية العالمية الزاحفة للسيطرة على فلسطين . ومن هنا كانت تلك الحملة الضخمة التى ساقتها هذه القوى على السلطان عبد الحميد ورميه باتهامات متعددة أقلها الاستبداد . وقد جرى الباحثون وراء ذلك دون تبين لحقيقة ما صاغه النفوذ الاستعمارى من صور وهمية مستهدفا القضاء على السلطان عبد الحميد عن طريق الجمعيات السرية الماسونية التى سيطرت فى سالونيك على جمعية الاتحاد والترقى وساقتها الى أهدافها بعد اسقاط عبد الحميد من حيث حققت أهدافها فى تخليها عن طرابلس الغرب وسقوطها فى براثن ايطاليا . ومن حيث تسليم فلسطين لليهود والسماح لهم بالاقامة فيها . ومن حيث دخول الحرب العالمية الاولى فى صف المانيا وايقاع الخصومة بين العرب والترك وما جرى من اقتتال للعرب والترك المسلمين لحساب الدول الغربية التى سيطرت على الشام (سوريا ولبنان) وفلسطين ثم تسليم فلسطين للصهيونية العالمية ، ثم كانت الخطوة الثانية فى سبيل اسقاط الخلافة (علامة الدعوة الاسلامية وديانتها) وذلك عندما سيطر مصطفى كمال أتاتورك على تركيا وتابع بصورة أشد قوة وعنفا مخططات الاتحاديين والماسونية العالمية .

وكانت خطوته النهائية هى اسقاط الخلافة عام ١٩٢٤ بما فك عروة الوحدة بين المسلمين وأسلمهم للنفوذ الاستعمارى ثم وقوف بريطانيا فى وجه أى دعوة للخلافة ووقوف الغرب كله أمام أى دعوة للجامعة الاسلامية .

وقد دعا حد الماسون من علماء الازهر الى وضع كتاب مسخ فيه مفهوم الخلافة وأخرج نظام الحكم فى الاسلام كلية من مفهوم الاسلام وحاول أن يعلن زيفا كبيرا مفترى هو أن الاسلام دين عبادة جريا وراء مفاهيم الاستعمار والماسونية وأعداء الاسلام بانكار فهم الاسلام فى بناء المجتمع .

سابعا : وتتردد على ألسنة الكتاب كلمة الاحتلال التركى . وتوصف

البلاد العربية بانها وقعت تحت سيطرة الاستعمار التركى والاستعمار الغربى وايراد العبارات على هذا النحو يقصد به تصوير العلاقة التى كانت بين العرب والاتراك على أنها علاقة استعمار أو احتلال ، وهذا مناقض للتاريخ والواقع معا ، فالرابطة التى قامت منذ ١٥١٧ م حتى ١٩١٧ م بين العرب والترك داخل نطاق الدولة العثمانية لم تكن فى الحقيقة احتلالا ولا شبيهه وانما كانت محاولة من محاولات الوحدة والالتقاء بين أقطار العالم الاسلامى فى مواجهة الاخطار والتحديات . وقد جاءت هذه الوحدة على اثر ضعف قوى السلاجقة والمماليك من بعدهم وتعرض البلاد العربية وخاصة مصر والشام لاخطار الغزو الصليبى الغربى مجددة ، وتلك التحركات التى بدأها الاوربيون مرة أخرى لاستئناف الحروب الصليبية .

والمعروف أن العرب قد تطلعوا الى الوحدة الاسلامية العثمانية بعد أن ضعفت قوى المماليك فى مصر وأصبحوا هدفا لمحاولات صليبية جديدة ، وقد وجدوا فى العثمانيين اخوتهم فى العقيدة منتعشا جديدا للاسلام وقوة شابة بدوية مقاتلة ، رفعت راية الاسلام عالية خفاقة واعادت ذكرى الابطال فى سبيل اعزاز الاسلام ونشره ، كما رحب العرب فى مصر والشام بالوحدة الاسلامية العثمانية بعد أن نقموا على دولة المماليك لاهمالها شانهم فى المرحلة الاخيرة فحاربوا فى صفوف العثمانيين .

والواقع انه لم يكن فى هذه المرحلة خلاف جذرى بين العرب والترك فقد كان الطابع الاسلامى هو مظهر الوحدة الاساسية بين العناصر المختلفة والوحدات المنضمة تحت لواء الوحدة الاسلامية ، ومن الحق أن يقال أن العثمانيين قد قاموا فى المرحلة الاولى بتمثل مفهوم الاسلام فى نطاق الحكم وتحركوا فى اطاره ، ويشهد المؤرخون المنصفون بان العثمانيين قد اقتفوا اثر الخلفاء الاولين فى العدل والتسامح وتمثلوا أعمالهم واتخذوهم قدوة وعملوا على جمع القلوب عليهم بتقدير العلماء الاتقياء وانشاء الجوامع والمدارس .

ومن هنا فان القول بان الرابطة بين العرب والترك كانت استعمارا انما هو من النظريات المشبوهة والعبارات المدخولة التى يحاول الغزو الفكرى والتبشير والتغريب اذاعتها واقرارها فى الاذهان ٠

أما ما كان من الخلاف بين الترك والعرب بعد تنحى السلطان عبد الحميد وفى ظل حكم الاتحاديين دعاة الطورانية فذلك هو الخلاف الحقيقى الذى يموه به خصوم الاسلام والعرب ويصفونه بانه خلاف بين الترك والعرب وهو فى الحقيقة خلاف بين الاتحاديين أتباع الماسونية وأعوان الصهيونية وبين العرب الذين تصدوا للزعامة فى هذه الفترة ٠

ثامنا : وهناك خطأ شائع وذائع ، هو ان الدولة العثمانية هى التى اساءت الى العرب وعلقت زعماءهم على المشانق واوجدت الفرقة والخلاف وكانت سببا فيما ترتب على ذلك من سيطرة فرنسا وانجلترا على الشام باجزائه الأربعة (فلسطين والاردن وسوريا ولبنان) وكذلك العراق ٠ وذلك بعد الحرب العالمية الاولى ١٩١٨ وبعد أن اتفق العرب مع بريطانيا على اقامة دولة عربية نظير تاييدهم لها ٠

والحق أن الدولة العثمانية كلمة مبهمة عامة ٠ والحقيقة أن (حزب تركيا الفتاة) المسمى بجماعة الاتحاد والترقى والذى تولى السلطة من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١٨ هو الذى دمر العلاقات بين العرب والترك بدعوته الى الطورانية ومحاولته تتريك العرب والقضاء على لغتهم وتعليق زعمائهم على المشانق عام ١٩١٦ ٠ والاتحاديون جماعة سرية كانت تحاول النهضة بالدولة العثمانية عن طريق الوطنية والتخلص من الرابطة الاسلامية وقد وقعت فى براثن الماسونية فانحرفت الى العمل لحساب الصهيونية العالمية واستهدفت قطع تركيا عن العرب واسقاط السلطان عبد الحميد حامل لواء الدعوة الى الجامعة الاسلامية وأعدت العدة لتمزيق الدولة وتسليم الاجزاء العربية وغير العربية الى الدول الاوربية على النحو الذى قامت به فعلا ٠

اما السلطان عبد الحميد فقد كان يدعو الى توسيع جبهة المقاومة ضد النفوذ الاجنبى وذلك بربط مسلمى آسيا وافريقيا بالدولة العثمانية وكان موقفه من العرب مشرفا وكانت اجابته فى مواجهة تحديات الصهيونية لدخول فلسطين من اشرف ما قاله رؤساء الدول وزعماء الامم عندما رفض رفضا باتا اغراء هرتزل بالملايين من الذهب وقال : تقطع يدى ولا أفرط فى فلسطين ، ان فلسطين ليست ملكا لبلادى ولكنها ملك للعرب .

ولكن أمثال ساطع الحصرى وجورجى زيدان وغيرهم من الباحثين المتاثرين باغراض خاصة يطوون هذه الصفحة ويموهونها على النحو الذى لا تتكشف معه تلك الفوارق العميقة بين عهد السلطان عبد الحميد وعهد الاتحاديين وهم لا يميزون بين موقف السلطان عبد الحميد الذى دفع حياته وعرشه ثمنا فى سبيل فلسطين وبين موقف الاتحاديين الذين سلموا طرابلس للعدو وادخلوا الدولة العثمانية الحرب العالمية الاولى لتهزم وينتثر عقدها .

الباب الرابع

تفسير التاريخ الاسلامى

أولا : تفسير ماركسى غربى صهيونى

ثانيا : التفسير الغربى المسيحى

ثالثا : التفسير اليهودى

رابعا : التفسير الماركسى

خامسا : التفسير الاسلامى للتاريخ

سادسا : فى مواجهة التحديات

الفصل الاول

تفسير غربى ماركسى صهيونى

حاول الفكر الغربى عن طريق الاستشراق الغربى والماركسى والصهيونى اخضاع التاريخ الاسلامى لعدد من مناهج تفسير التاريخ الغربية التى تراوحت بين :

أولا : تفسير غربى مسيحى للتاريخ

ثانيا : تفسير غربى مثالى للتاريخ

ثالثا : تفسير غربى مادى التاريخ

رابعا : تفسير يهودى صهيونى للتاريخ

كذلك فقد حاولت مؤسسات التبشير والاستشراق أن تفرض وجهة دينية ووجهة قومية ووجهة عالمية للتاريخ الاسلامى ، وحاول « ويلز » أن يعرض لتاريخ الاسلام من وجهة نظر بشرية وحاول (ول ديورانت) أن يعرض له من منطلق ماسونى يستهدف القضاء على الاديان والقوميات وحاول (توينبى) تفسيره فى ظل مفهومه للحضارة المسيحية الغربية .

وجرت المحاولات بدراسة التاريخ الاسلامى على أنه تاريخ العرب (كما فعل فيليب حتى) أو تاريخ الدول الاسلامية و تاريخ الدولة العربية او تاريخ الفتوح والحروب .

والواقع أن تاريخ الاسلام هو تاريخ الامة الاسلامية كلها التى صنعها القرآن واقامها التوحيد وليس تاريخ الدولة السياسى ، أو تاريخ للعرب أو تاريخ اقليم معين او عصر معين ، مع عدم الخلط بين الاسلام كقرآن وسنة وبين تطبيق الاسلام او اجتهادات البشر فى تطبيق الاسلام ، ومع مراعاة أن السلوك السياسى لقادة المسلمين وأمرائهم وحكامهم هو شىء آخر غير أصول الاسلام ، وحياة المسلمين هى ممارسات لمبادىء الاسلام

وليست هى المبادىء نفسها ، وليس تاريخ الاسلام هو تاريخ العرب ولا يمكن ان يوصف بانه تاريخ عربى فان العرب جزء أساسى من تاريخ الاسلام ولكن الصورة لا تتكامل الا بدراسة المجتمع الاسلامى كله ، فارس وتركيا والاندلس وجزر الملايو وغيرها وأن صورة التاريخ الاسلامى الصحيح لا تكون صحيحة الا بتكامل هذه الاجزاء التى هى من دعائم الامة الاسلامية •

٢ ـ ان تفسير التاريخ الاسلامى عن طريق مناهج التفسير الغربى يعجز عن النظرة الصحيحة لحركات ووقائع التاريخ الاسلامى ، فقد قاس الكتاب الغربيون الوقائع الاسلامية على ظروف الامبراطورية الرومانية وغيرها مع اختلاف الظروف والمقاييس ، كذلك فقد كانت نظرة الغربيين الى تاريخ الاسلام ناقصة وقاصرة لانها صدرت عن ذلك الاعتبار الخاطىء بأن تاريخ الغرب هو تاريخ البشرية وأن ماعدا ذلك ليس تاريخا ولا يدخل فى المقاييس ولا فى الصورة العامة •

وأشد أنواع الخطأ فكرة « الحتمية التاريخية والجبرية الاجتماعية » التى يجرى تطبيقها على التاريخ الاوربى ، وأشد ما عجزت عنه تفسيرات الغربيين للاسلام عجزهم عن فهم ذلك الجانب المعنوى الروحى : الوحى والنبوة والرسالة السماوية وما يتصل بها من بناء القوة القادرة بايمانها على هزيمة القوة المادية التى هى أكبر منها عدة وعددا •

٣ ـ ان موقف دراسات المؤرخين الغربيين للتاريخ الاسلامى تحمل عاملين خطيرين :

١ ـ العجز عن فهم أبعاد المعنويات •

٢ ـ روح الهوى والتعصب والحقد •

ومن ذلك موقفهم من الحركات الهدامة التى حمل لواءها جماعة من الشعوبية والملاحدة والمجوسية والمزدكية والباطنية والقرامطة الذين تآمروا

بتنظيم حركات مرية لاقتلاع الدولة الاسلامية واسقاطها تحت اسمين خادعين هما « الموالى » و « أهل البيت » ولا ريب أن النظرة الصحيحة المنصفة تكشف عن أن هذه الحركات كانت ذات هدف واضح هو ضرب الدعوة الاسلامية والدولة الاسلامية ومحاولة فرض تعاليم المجوسية والوثنية والاسرائيليات ، وقد ظهرت هذه الحركة بعد ترجمة الفلسفات الهلينية واليونانية ، ولا ريب أن فى الجرى وراء هذه المحاولات من شانه ان ينكر الدور الخطير الذى قامت به الدولة الاسلامية والامة الاسلامية من داخلها فى مجال الحضارة والعلم والتقدم ، وهى محاولة لطعن التاريخ الاسلامى كجزء من طعن العقيدة الاسلامية • وان المؤامرة فى حقيقتها بدأت من المجاعة التى أحست أن نفوذها قد أزيل وسلطانها قد أبعد ، ولم تكن هذه الحركات صادقة أو يمكن أن توصف بانها معارضة مخلصة ولكنها كانت محاولات هدم وتدمير • ولقد أثبت الذين قاموا بهذه الحركات فشلهم وزيفهم لانهم حين سيطروا على الحكم لم يتمكنوا من تنفيذ المثل العليا التى خدعوا بها الناس ولم يستطيعوا أن يقدموا منهجا صالحا وانما كشفوا عن أحقادهم الشخصية وفشلهم الذريع ، وتبين أن الدعاة اللامعين كانت لهم صلات مريبة مع خصوم الدولة •

٤ ـ هناك مجموعة من الاخطاء تكشف عنها المعالجة الغربية لتاريخ الاسلام منها أن علماء الغرب فرضوا التقسيم الغربى للعصور التاريخية على تاريخ العالم وتعميم مقاييسهم فيها ، فالعصور الوسطى مثلا هى عصور الظلام فى رأيهم مادامت أوربا كانت فى الظلام متجاهلين الحضارة العربية الاسلامية التى كانت متالقة فى تلك العصور وتاريخ أفريقيا السوداء يبدأ عندهم حينما دخلها الرحالة الاوربيون • أما قبل ذلك فليس لها تاريخ ، وتمتد هذه النظرة الى الفكر العالمى فهو عندهم الفكر الغربى ، وحينما يؤلف أحدهم كتابا بعنوان (تكوين العقل الحديث) لا يتعرض حتى بسطر واحد للفكر العربى فى العصر الوسيط أو الفكر الهندى والصينى وفكر بقية الشعوب •

وقد تجسدت هذه النظرة فى نظريات ولدت فى الغرب فى أوائل القرن ١٩ وسيطرت فى أوائل القرن العشرين فقسمت هذه النظريات شعوب العالم الى فئات : دماء بعضها نقية زرقاء ودماء بعضها الآخـر ملوثة سـوداء والى اجناس عليا وأجناس دنيا ، وذهب الغربيـون الى أبعد من ذلك حين قالوا بأن أسباب تخلف الامم مصدره وجود خصائص أصيلة فى عقلية هذه الامم تمنع تقدمهـا ومن ذلك نظـرية « جب » عن الذرية فى التفكير وادعائه أنها احدى خصائص الفكر العربى والعقلية العربية ثم تلتقى هذه النظرة الباطلة مع نظرية اليهودية التى ترى فى اليهود شعب الله المختار .

وقد صدق المؤرخ توينبى حين اعلن أن التاريخ الغربى يفرض سلطانه على العالم ، يقول : اذا ما أردنا نحـن الاوربيين أن نسال أكثرية سكان الارض وهى ـ لا غربية ـ عن رايها فى الغرب فالجواب الذى سنسمعه هو أن الغرب كان المعتـدى الاثيم فى التاريخ الحديث كمـا أن شعوب آسـيا وافريقيا ستذكرنا بتغلغل المبشرين والتجـار والجنود الغربيين فى ديارهم وكيف استرقوهم وشحنوهم عبر الاطلنطى للاتجـار بهـم ليصبحوا خداما وعمالا لدى المستعمرين الأوربيين الجشعين الذين يبحثون عن الثروة .

٥ ـ شهد الكتاب الغربيون بروح الانصاف التى تجلـت فى كتـابات مؤرخى الاسلام ومفكريه للامم الاخرى وخاصـة لاديانها كما شهدوا بعـدم انصـاف المؤرخين الغربيين فى تناول الاسلام وفكره :

يقول هاملتون جب : ان المؤرخ الغربى لم يكن فى الاعم الاغلب منصفا للاسلام والمسلمين فقد استسلم بالرغم من دعـوى المنهج العلمى لعواطفه وأهوائه وكتب عن الاسلام والمسلمين من زاوية خلافه وتعصبه ولم يستطع احكام النظرة المنصفة وانما وضع أمامه صورة مشوهة تكونت من خـلال الخصومات السياسية والدينية تحـاول أن تصور الاسلام بصورة القوة التى زحفت على أرض الامبراطورية الرومانية فانتزعتها منها بعد ألف سـنة من

سيطرتها عليها وكان المؤرخون الغربيون يضعون دائما أمامهم خصومتين : خصومة الحروب الصليبية التى اقتحموا خلالها بلاد الاسلام وعادوا مهزومين بعد قرنين من الزمان وخصومة العثمانيين الذين عبروا الى أوربا فانتزعوا اجزاء كثيرة منها ووصلوا الى اسوار فيينا ولا ينسون دخول المسلمين الى الاندلس وهزيمتهم فى جولة بلاط الشهداء .

وهكذا يشهد رجال من الغرب بانحراف المؤرخين الغربيين فى مواقع اللقاء بين الاسلام والغرب : معركة بواتيه والحروب الصليبية والاستعمار الحديث وقد اعترف بعض المؤرخين الغربيين بأن انتصار كارل مارتل على المسلمين أخر تقدم المدنية فى الغرب ثمانية قرون وهو الذى أوقع أوربا فى ظلمات القرون الوسطى ، كذلك حاول المؤرخون الغربيون اتهام المسلمين بحرق مكتبة الاسكندرية حتى براهم « جيبون » وأثبت أن الذى حرقها هم الرومان بمراكبهم الحربية فى حصارهم لجيوش كيلوباترة بقيادة بوليوس قيصر .

عجز المؤرخون الغربيون عن تفسير سرعة انتشار الاسلام فمازال السؤال لماذا انتصرت الجيوش الاسلامية القليلة العدد على الجيوش الضخمة الفارسية والرومانية موضع دهشة المؤرخين الغربيين الذين يقيسون هذه الامور بالمقياس المادى ، يقول اربرى : لقد حاول المؤرخون المحدثون تعليل هذه الانتصارات الواسعة والفتوحات العظيمة بردها الى عوامل اقتصادية أو حربية أو سياسية ولكن تلك التفسيرات ظلت عاجزة عن التعليل الصحيح فكان لابد من الرجوع الى العامل المؤثر : الفعال وهو الدين الجديد . ان بلاغة القرآن المعجزة مع بساطة تعاليم الاسلام التى جازت فى هذا الكتاب هى المفتاح لحل أعظم (مد) فى تاريخ الاديان ذلك أن الاسلام جاء يدعو الى حياة منظمة جادة ، حياة جماعة ، فقد عاهدوا الله أن يخضعوا لارادته فى كل أمر وأن يجاهدوا فى حمل كافة البشر على أن يخضعوا لارادته فى كل أمر وأن يجاهدوا فى حمل كافة البشر على الاقرار بقدرته . ويقول م . روى : ان انتشار الاسلام أكبر خرقا للعادة :

أن امبراطورية اغسطس الرومية بعد ما وسعها بطلها (تراجان) نتيجة فتوح عظيمة فى سبعة قرون ولكنها لا تساوى المملكة الاسلامية التى أسست فى أقل من قرن • أن امبراطورية الاسكندر لم تكن فى اتساعها الا كسرا من كسور مملكة الخلفاء الواسعة ، ان الامبراطورية الفارسية قاومت الروم زهاء ألف سنة وكانها غلبت وسقطت أمام سيف الله فى أقل من عشر سنوات •

الفصل الثانى
التفسير الغربى المسيحى

يصدر التفسير الغربى المسيحى للتاريخ عن طبيعة تكوين الفكر الغربى المسيحى للتاريخ والحياة ، ومن هذا يجىء نقصه وقصوره فى ذاته وانحرافه فى تفسير التاريخ الاسلامى فالمسيحية تقدم التاريخ على شكل مأساة ، أول فصولها يتالف من سقوط آدم ومن استمرار الخطيئة فى البشر ، ونسبة هذا الانحراف والسقوط الى الاله ، ثم ادعائهم ظهور الاله فى التاريخ ومن خلال تاليه المسيح بدعوى غفران الخطيئة ، فالتصور المسيحى للتاريخ يقوم على أساس ما يسمى بالخلاص الروحى وحده ، وفى ضوء هذا المعنى خلطوا بين الالوهية والنبوة ، و بين الالوهية والبشرية •

وهذا المفهوم الذى يختلف عن مفهوم الاسلام القائم على التوحيد الخالص وعلى الفصل بين الالوهية والنبوة وعلى أنه لا توجد خطيئة تجعل من أى انسان مسئولا عن انسان آخر ولا يعاقب بذنبه أو جريرته فضلا عن أن الاسلام كشف عن أن آدم أخطأ وأن الله تبارك وتعالى الهمه أسلوب المغفرة فغفر له فليس لخطيئة آدم أى تبعة على واحد من البشر من بعده ، وان الانسان محاسب على عمله وحده وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، فهذا الاختلاف الواسع العميق بين مفهوم الاسلام للبشرية ومفهوم المسيحية للتاريخ لا يصلح للتطبيق على الاسلام وتاريخه ومجتمعه •

ومن اضطراب المفهوم الغربى المسيحى وللحياة والمجتمعات والحضارات

اختلفت تفسيرات التاريخ بين المثالية والمادية ، وجاءت نظرات المؤرخين متضاربة • نظرة هيجل سياسية ونظرة ماركس اقتصادية ونظرية يوينبى روحية ، ونظرة هيجل نظرة مناخ وقد ظهر فى افق الفكر الغربى تفسيرات متعددة فنظرة القديس أوغسطين الى التاريخ أنه تاريخ كنسى يقوم على نظرة الآباء المسيحيين الى العالم ، ويعد تفسير بلوتارك وكارليل تفسيرا للبطولة فى كافة صورها أما فيشر فقد كتب تاريخ أوربا بروح يتوتونية ونظرة امبراطورية كانت تسيطر على الفكر البريطانى فى زمنه •

واذا راجعنا تفسيرات القديس أوغسطين ومن بعده البابا جريجور السابع (بعده بسبعة قرون) نجدهم يحتقرون الدولة والسلطة أشد الاحتقار ويعلون عليها المملكة الاخرى : مملكة الله أو مدينته ، ثم تحول مفهوم التاريخ من بعد الى نظرة عقلية حاولت أن تصور التاريخ على أنه علم تجريبى ، وتعمل على اخضاع التاريخ لقوانين عامة •

وكان أبرز مفاهيم التفسير الغربى للتاريخ الاهتمام بالناحية الفردية وأهمالهم الدور الذى تقوم به الشعوب فى تطور الاحداث مع تعصبهم للبيئة المحلية وللطائفية وللحزبية واسرافهم فى العناية بالنواحى السياسية دون نواحى الحياة الاخرى وترتب على ذلك تسخير التاريخ لخدمة الاغراض السياسية •

وكان للاستعمار والتسلط على الامم أثره البعيد فى استغلال المؤرخين الغربيين مثل قول أحدهم (هانس روبرت رويمر) : أن القريحة الاوربية وحدها تمتلك الذهن التاريخى •

وقد علت صيحة الاجناس : واستعلى الغربيون بالجنس الابيض ونظروا الى علاقته بالحضارة القائمة فانكروا دور الاجناس وامتيازها فى صناعة الحضارات القديمة على مدى التاريخ •

٢ ـ ان فكرة الاتحاد بين الله والعالم التى فسر بها هيجل التاريخ

المسيحى فكرة غير صحيحة بالنسبة لمفهوم التوحيد الذى يقرر انفصال الخالق تبارك وتعالى عن العالم وعدم الحلول فيه ، كما لا يقر الاسلام فكرة الاله البشر أو فكرة حلول الله فى الانسان أو فى النبى على النحو الذى تقوم عليه فلسفة التاريخ المسيحى .

كذلك فان مفهوم الاسلام يختلف مع فكرة الارادة المخططة التى تفرضها النظرية المسيحية على التاريخ والواقع أن للانسان ارادة قادرة على العمل والحركة والتعبير وأن كانت حركتها محدودة ، داخل ارادة الله الكبرى ولكن مسئولية الانسان قاصرة على حدود ارادته .

يقول البان . ج . ويدجرى فى كتابه المذاهب الكبرى فى التاريخ : ان المسيحية تقدم التاريخ كأنه شكل مأساة ، أول فصولها تتألف من سقوط آدم ومن استمرار الخطيئة أما الفصل الثانى فهو ظهور الله (جل فى علاه) فى التاريخ من أغراض يسوع المسيح الانسانية وأن خلاص الانسان جاء من خلال صلب المسيح ويقول : العنصر الاساسى فى النظرة المسيحية هو الاقتناع فى ضرورة ظهور الله فى التاريخ فى شكل انسانى من أجل خلاص البشر بعد أن غدوا فاسدين بخطيئة آدم ، هذه العقيدة فى تجسيد الله يكون الفرق من حيث الاساس بصورة حاسمة بين المسيحية والنظريات التوحيدية الاخرى ويقول ان النظرة المسيحية ترتكز على أساس الاتحاد بالله وتتصل بهذا مفاهيم التجسيد والصلب والتثليث والفداء .

وهذه هى الاسس التى يقوم عليها تفسير التاريخ الغربى ولكنها لا تصلح لتفسير التاريخ الاسلامى الذى يقوم على مفهوم الاسلام الذى يختلف اختلافا عميقا عن هذه المفاهيم .

٣ - انتقل التفسير الغربى التاريخى من المفهوم المسيحى المثالى الى المفهوم المادى فظهرت محاولات تدعو الى تطبيق المفهوم العلمى المادى التجريبى على التاريخ ، وظهرت دعوات متعددة لتفسير التاريخ تفسيرا مناخيا جغرافيا ، ثم ظهرت محاولات تفسير التاريخ تفسيرا يقوم على

البطولة وفى الناحية الاخرى ظهرت الدعوة الى تفسير التاريخ تفسيرا اقتصاديا ، أو جنسيا ، وكانت كل محاولة من هذه المحاولات تقوم بنفسها مستقلة عن الأخرى وتقوم فى مجال التفسير المادى الخالص ودون وجود النظرة الجامعة التى ترى أن هذه العوامل كلها يمكن أن يكون مجتمعة تفسيرا للتاريخ وأن الدين والبطولة وعوامل المناخ والاقتصاد كلها عوامل وفروع يمكن أن تقوم مجتمعة فالتاريخ يتأثر بالدين وبالقومية ويتأثر بالاقتصاد ولكن لا يمكن لواحدة منها أن تكون هو المصدر الوحيد ولا يمكن أن تكون العوامل المادية هى وحدها المسيطرة فان المعنويات والاديان والعقائد والعواطف الانسانية لها أثرها العميق •

وأن الدعوة الى اخضاع التاريخ لقوانين عامة فى تفسير احداثه انما تتجاهل أن حركة التاريخ تقوم بالارادة الانسانية التى تسيطر عليها عوامل روحية ووجدانية مختلفة وانها فى الاستجابة للاحداث تختلف من موقف الى موقف •

وفى وقت ما كان الموقف كالآتى :

١ ـ تقدم البشرية يعزى الى العقل البشرى •

٢ ـ تقدم البشرية يعزى الى قادتها من أنبياء وفلاسفة •

٣ ـ تقدم البشرية يعزى الى العامل الجغرافى (الاجناس والشعوب) •

٤ ـ تقدم البشرية يعزى الى النظام الاقتصادى •

ويقول جون هرمان راندال : لقد استبدلت أوربا المثلى الاعلى على العالم المسيحى موحدا يعمل بارشاد من سلطة الكنيسة بمثل أعلى آخر قوامه دولة مستغلة مستقلة مطلقة السيادة • انتقل المجتمع الاوربى من مدنية الله الى المدنية الارضية من الكنيسة مدنيـة الله الى المجتمع العلمانى وهو المدنيـة الارضـية •

وقد كان مؤرخو العصور الوسطى الاوربيون لا يعترفون بدور البشر

فى سير حوادث التاريخ ، ويرون أن اللعبة الرهيبة تدور بين الاله والشيطان أو بين الخير والشر ثم تحـول هذا المفهوم الى مفهوم معارض تمـاما هو أن التاريخ هو عمل الانسان مائة فى المائة وكلا المفهومين غير صحيح ، وظهر التفسير الفردى للتاريخ الذى يمجد القادرين ويضخم من دورهم ، ثم جاءت المدرسة الواقعية فى التاريخ وهى تشرح الاحداث فى ضوء جبرية الظواهر الاجتماعية والمادية ثم جاء فرويد فقال أن التاريخ سلسلة أزمات فى نفوس افراد أدت الى الانقلابات الهائلة . ويدور المؤرخـون حول القـول بأن البيئة هى القوة المؤثرة فى حياة الناس وبين القول بأن الوراثة هى العامل الوحيد المؤثر والواقع أن الوراثة والبيئة عاملان من جملة عوامل .

وهناك الدعوة الى التفسير البيولوجى الذى يعتمد على أثر الزمن فى الكائنات الحية من حيث النمو والانحلال والتطور ، وهناك نظرية التحدى والاستجابة لارنولد توينبى ونظرية وحدة الصـور التاريخية رغم تباعـد العصور لشبنجلر ، والواقع أن هـذه المذاهـب جميعها جزئية مغـرقة فى الانشطارية وأن كل واحـد منها يعجز عجزا أكيدا عن تصـوير الانسـان وفهمه وفهم تاريخه وخاصة اذا تناولت دراسات من خلال المفهـوم المادى وتطبيق مفهوم العلوم الطبيعية على الانسان والتصرفات البشرية .

الفصـل الثالـث
التفســير اليهــودى

تعرض التاريخ الاسلامى للتفسير اليهـودى الصهيونى وهو تفسـير يحاول أن يسـتهدف الطعن فى الرابطـة القائمـة بين الحنيفية الابراهيمية والدعـوة الاسلامية المحمدية ومحاولة اثارة الشبهات حول هـذه العـلاقة الممتدة وقطع الترابط بينهما وذلك بالتشكيك فى ابراهيم وفى اسماعيل وفى قيامهما ببنـاء الكعبة وانكار الاصـل الحقيقى للموجات العربية التى تدافعت خـلال القرون المتوالية كالموجـة الفينيقية والاشورية والفرعونية والبربرية والحيلولة دون الربط القائم بين دعـوة التوحيد كما جـاء بها ابراهـيم

عليه السلام وكيف انحرفت على أيدى اليهودية ثم جاءت التفسيرات المسيحية التى أخرجتها عن أصلها وكيف أعادها الاسلام مرة أخرى الى أصولها الاصيلة . كذلك فان التفسير اليهودى يستهدف الادعاء بان وعد الله الى ابراهيم قاصر على ابنه اسحق جد اليهود وحده وأنه لا ينسحب على اسماعيل ابنه الاكبر وجد العرب والمسلمين وهى دعوى باطلة وزائفة . كذلك فان التفسيرات اليهودية للتاريخ هى التى أنكرت أثر الدعوة الابراهيمية الحنيفية والدور الذى قامت به فى بناء التجمع العربى فى مختلف أجزاء ما بين النهرين وفلسطين والشام ومصر وأفريقيا ووسدت به للاسلام ، وقد جاءت الاحافير والكشوف الاثرية لتصدق ما جاء به القرآن الكريم فى هذا المعنى وتزييف الدعوى الباطلة التى حاولت التفسيرات اليهودية للتاريخ أن تخدع بها الغربيين .

ولقد تبين أن صناعة اليهود هى تحريف الكلم عن مواضعه بدافع الحقد على العرب والمسلمين وعلى كل الامم التى يطلقون عليها « الجوييم » وأنهم هم الحريصون على التركيز على الشكل الدموى والوحشى والعنصرى والمستغل للشعوب الغالبة على الشعوب المغلوبة ، وقد كانت وظيفتهم وهدفهم هو القضاء على الطابع الانسانى الذى عرفته البشرية بالاديان السماوية ، وانكار الدور الذى قامت به الحنيفية الابراهيمية وما قام به العرب منذ ذلك الوقت الى مجىء الاسلام . ومن حقدهم نسبوا هذا كله الى جد سابق فاطلقوا على كل هذه القصة « اللغة السامية والديانة السامية والامم السامية » وهى عملية خداع واسعة المدى تستهدف انكار فضل الابراهيمية الحنيفية ودور العرب واللغة العربية ، وقد كان العرب أبرز القوى الحضارية فى العالم وهم الذين يسمونهم الكنعانيين وينكرون كل فضل لهم ، ومن هنا كانت حملتهم على العرب وتاليب الغرب عليهم وعلى المسلمين باسم القوة الخطرة التى عملت على طرد الرومان وعبرت الى أوربا ومحاولتهم المتصلة فى تزييف كل مقومات العرب وعلى راسها الدين كأسلوب مسموم للحيلولة دون وحدة العرب وبروزهم كقوة كبرى فى المنطقة ، وهم يجرون على خطة التزييف لتاريخ العالم كله على النحو

الذى يحاولون به أن يوجدوا لهم تاريخا وأثرا حضاريا . ودورهم فى السيطرة على مقارنات الاديان وعلم الانثربولوجيا يستهدف هذا التزييف .

كذلك فان التفسير اليهودى للتاريخ يعمل على اعلاء شان الحضارات القديمة والاديان الوثنية السابقة للمسيحية وفى مقدمتها الفلسفة اليونانية الوثنية التى يطلق عليها علم الاصنام .

٢ - حاول المتصدرون من الاستشراق اليهودى لدراسة الاسلام اثارة شبهات مختلفة حول العقيدة وحول العرب وحول الشريعة وحول علاقة المسلمين بالحركات الهدامة ، وكان ابرز العاملين فى هذا الميدان جولد زيهر وجارودى ورودنسون وبرنارد لويس واسرائيل ولفنسون .

أما جولد زيهر فحاول أن يوهم بأن اتصال النبى والمسلمين بالبيئات اليهودية فى المدينة كان له أثر فى القرآن . وردد هذا الدكتور طه حسين فى محاضراته بالجامعة المصرية ، كما عمل اسرائيل ولفنسون على نشر دعوى كاذبة باعطاء اليهود دور فى الحضارة والفكر الاسلامى فى هذه المرحلة .

وأما برنارد لويس فقد تخصص فى تشويه التاريخ الاسلامى وفق أحدث نظريات التمييز والدعاوى السياسية والحرب النفسية ، وله شبهات مثارة يرمى فيها الغرب والمسلمين بالعداء العربى ضد الزنوج ويصفهم بانهم عاملوا الافارقة السود معاملة سيئة وهو بذلك يعارض الحقيقة التى اعترف بها كل المؤرخين من حسن معاملة العرب للأفارقة وأهل الذمة وللأقليات جميعا .

ويقول أرنولد توينبى : « ان الحضارة الاسلامية من الحضارات النادرة فى التاريخ التى لم تتخذ موقفا عرقيا من الافارقة بل عاملت السود على قدم المساواة مع العرب لانها اتخذت موقف الاستعلاء على العرق الابيض فى بيزنطة وروما » .

ولقد عمد برنارد لويس فى كتاباته الى تشويه التاريخ الاسلامى فى فى هذه الناحية بهدف اثارة الشبهات بين العرب والافارقة وكسر التحالف التاريخى بينهم . ولعله من أجل هذا أهدته جامعة القدس درجة الدكتوراه تقديرا لهذا الدور الخطير .

أما رودنسون فانه ينكر المفهوم الاسلامى فى مجال الاقتصاد ويرمى الاسلام بانه اقرب الى النظم الراسمالية ؛ كذلك يخطىء جارودى عندما يصف حركات القرامطة بانها حركات اسلامية لاقامة العدل الاجتماعى .

الفصل الرابع
التفسير الماركسى

حاول دعاة الماركسية اتخاذ نظرية التفسير المادى للتاريخ وسيلة لتفسير تاريخ الاسلام وتعتمد النظرية الماركسية على اعتبار أن العامل الاقتصادى هو العامل الوحيد للحروب أو العامل الاكبر فى تفسير حركة التاريخ . وتقول النظرية أن العلة الاصلية للحروب والتغيرات وتطور الجماعات ترجع الى الحالة الاقتصادية التى تعيش فيها الامة ، وأن أساس التاريخ هو الاقتصاد وأن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام وأنه ليس هناك قيم ثابتة اسمها الدين أو الاخلاق أو التقاليد ، وقد أنكر التفسير المادى للتاريخ جانب المعنويات والقوى الذاتية وكل ما ليس ماديا فى مقدرات التاريخ والمجتمعات .

وقد تعرضت نظرية ماركس فى التفسير المادى للتاريخ الى انتقادات كثيرة كشفت عن فسادها وعجزها عن تفسير حركة التاريخ أو تطورات المجتمعات الانسانية . ومن ذلك :

أولا : التاريخ كما يصوره ماركس ليس هو تاريخ المجتمع الانسانى باكمله ، بل هو تاريخ المجتمع الاوربى وحتى فى تاريخ أوربا فانالصراعات الطبقية ليست هى الصراعات الوحيدة فى التاريخ وهناك صراعات من طراز

آخـر كان لها فى التاريخ أهمية أكثر ، منها مجتمعات للرعاة ومجتمعات الصيد والزراعة ، وهناك عوامل لم يلتفت اليهـا ماركس وهى : الـدين والتربية والعقيدة . كذلك لم يحفـل ماركس بقوة الشعور الوطنى والقومى والاختلافات والعداوات بين الامم .

ثانيا : يتصور ماركس أن حاجات الانسان قاصرة على الجوع والظمأ والثياب . بينما للانسان حاجات أخرى عقلية وروحية وهى فى العادة أقوى أثرا من حاجاته المادية . ان ماركس يتصور الحاجات الانسانية التى هى عنده أقوى البواعث فى حياة الانسان . ويتصورها فى حدود ضيقة فليس يكفى الانسان أن يرتوى ظمؤه ويشبع جوعه ويرتدى الثياب .

ثالثا : ان هذه أحداث جسام فى التاريخ البشرى لا يمكن عزوها الى الاسباب الاقتصادية منها فتوحات الاسكندر وفتح العرب لاسبانيا وحـرب المائة سنة بين فرنسـا وانجلترا ، وغزوات نابليون وذهاب جماعة المتطهرين وكلهـا لم تكن بينها دوافع مادية .

رابعا : أخطأ ماركس فى عجزه عن تقدير ارادة الانسـان الخاصة : وأنه ليس مجرد آلة فى يد العوامل الاقتصـادية ، فليس الانسان مسـلوب الارادة ، أو قاصر المسعى أو مغلوب على أمره أمام المؤثرات الخارجيـة أو السنن الطبيعية بل ان للانسـان نصيبا كبيرا فى القدرة على التفـريق بين الخير والشر والضار والنافع . وان للبشرية من الكفاية الفعلية ما يجعلها جديرة باحتمال تبعة أعمالهم وصنع تاريخها .

خامسا : عجز ماركس عن فهم دور الانسان النبيل والبطـل العظيم وانه لا يطلب المصلحة أو يتحرى المنفعة وانما يتعرض للايذاء فى سبيل الدفاع عن حرية بلاده أو يستهدف الشهادة فى سبيل التعلق بعقيدته وتاريخ البشرية حافل بهذه النماذج الكريمة على اختلاف العصور والبيئات .

سادسا : يقـول تريتون فى كتـابه (الاسلام عقيدته وعبـاداته) ان

التفسير المـادى يفشل فشلا ذريعا حين يرغب فى أن يعلل وحـدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم فلم يبق أمام المؤرخين الا أن ينظروا فى العـلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفـريدة فرأوا أنهـا تقع فى هذا الشىء الجـديد ألا وهو الاسلام ٠

سابعا : ليس العامل المادى هو العامل الوحيد أو الاكبر فى تحـريك التاريخ ٠ ليس التفاعل بين الانسان والطبيعة والمجتمع هو مصدر التاريخ انما هناك دور الوحى والنبـوة فى حياة الانسان ، ودور الانسـان فى بناء التـاريخ ٠

ليس هناك جبرية للمجتمع ولكن هناك ارادة الانسان ، ولـكن ارادة الانسان ليست حرة مطلقة وانما هى تتحرك فى دائرة ارادة الله ومسئوليتها فى حدود عملها ٠ ليست العوامل المادية وحدها هى التى تحرك التـاريخ ولكن هناك العوامل الروحية والعقيدة وعواطف الانسان ٠

ليس هناك مفهوم بطولة فردية صرفة ولا بطولة جماعية عامة وانمـا هناك توازن بين الفرد والمجتمع ٠

الفصـل الخامس

التفسـير الاسـلامى للتاريخ

يقف الفكر الاسلامى موقفا واضحا حاسما فى تفسير التاريخ : ويقيم منهجا واضحا متميزا أبرز مقوماته التكامل والنظرة الجامعة ، التى تفهم التاريخ من خلال العوامل المعنوية والمـادية على السواء وتقدر للانسان دوره وارادته وهى لا تجعل الاقتصاد وحده أو المنـاخ أو اى عامل من العوامل المادية أساسا لفهم التاريخ ، ويستمد التفسـير الاسـلامى للتاريخ مقوماته الحقيقية من القرآن الكريم منهجـا لبنـاء الحيـاة والكون والمجتمعات ،

ويقوم هذا الفهم أساسا على وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة والتكامل بين القيم ، والالتقاء بين الروح والجسد فى نظام الدين • والسماء والارض فى نظام الكون ، ويسلكها فى طريق واحد هو الطريق الى الله •

ومن هنا فان أى منهج لتفسير التاريخ : سواء المسيحى أو اليهودى أو المادى أو الماركسى لا يصلح للتطبيق على تاريخ الاسلام وأن المنهج الوحيد الذى يصلح لتفسير الاسلام هو المنهج الاسلامى وحده •

ذلك أن الاسلام قد جاء « ليفتح الطريق أمام الفكر لكى يفسر التاريخ على أساس طبيعة العلاقات السالبة والموجبة بين قوى الله المطلقة وبين الارادة الانسانية المحدودة التى تصنع التاريخ دونما تدخل أى قوة أرضية حتمية وباعتبار ارادة الانسان كسبب من أسباب الله فى الكون » •

فدور الانسان فى التاريخ دور واضح أصيل ، وحركته تجرى داخل ارادة الله المحيطة الشاملة : وقد أعطى الاسلام الفكر الانسانى صورة متكاملة عن الكون والحياة والانسان وعن مهمة الانسان فى هذا الكون ومسئوليته النابعة من ارادته القادرة على العمل والتعبير • والانسان هو سيد المخلوقات وهو مستخلف فى الارض ، وقد علمه الله ما لم يعلم وكشف له عن قوانين الامم وسنن الحضارات فى قيامها وسقوطها ودعاه الى النظر فيما حاق بالاولين والنظر فى آثارهم وهم يمرون عليها مصبحين وهم فى بئر معطلة وقصر مشيد وفى رحلة الشتاء والصيف ومن ذلك قوله « ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء » • وبذلك قدم القرآن للمسلمين تلك النظرة العميقة الصادقة فى آثار الامم القديمة التى أهلكها الله لانها خرجت عن سنن الله • ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا •

وقد أشار القرآن الى الامم التى آمنت وكيف سعدت وعاشت آمنة

(فلو لا كانت قرية آمنت فنفعهـا ايمانها الا قوم يونس لـما آمنوا كشـفنا عنهم عذاب الخزى فى الحيـاة الدنيا ومتعناهم الى حين) .

واشار القرآن الى هلاك الامم التى خرجت عن سنن الله :

(وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة) ،

(وكم من قرية أهلكها فجاءنا بأسنا بياتا أو هم قائلون) ،

(وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم) ،

(وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيـامة أو معذبوها عـذابا شـــديدا) .

(وما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها) .

(فكاين من قرية أهلكناها وهى ظالمة) ،

(وما أهلكنا من قرية الا ولها منذرون) ،

(وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم بـه كافـرون) ،

(أو لم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم واصحاب مدين والمؤتفكات) ،

وهـكذا وضع القـرآن قانون بنـاء الامم وموقعهـا من التاريخ ومن الحضارة واسباب سقوطها وهزيمتها ، وكما كشف القرآن عن دور الفرد فى حـركة التاريخ (ذلك بما كسبت أيديهم) .

كذلك كشف القرآن عن العمل الضخم الذى قام به الرسل والانبياء فى هداية البشرية ودعوتها الى الحق وتحريرها من الوثنية والعبـودية والاباحية وكيف عاشت البشرية وستظل تعيش فى صراع بين الحـق والباطل وبين الفكر الربانى الحـق وبين الفكر البشرى .

وكشف القرآن عن وحدة البشرية وكيف خلقت من نفس واحـدة ،

وأبان عن ان الفوارق بين الشعوب فوارق سطحية وليست عميقة الاثـر ، كمـا كشف القرآن من وحـدة الدين ووحدة النفس البشرية ٠

وأبان القرآن عن مسئولية الانسان فى صناعة الحياة وبنـاء المجتمع (افحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعـون) ٠

كذلك قدم الاسلام تفسير التاريخ وقدم التاريخ القديم نفسه ، فكان أول من أعطى البشرية فكرة دراسـة التاريخ به والاعتبار وكشف عن اهمية التاريخ فى حياة الامم ودعا الى استكناه العبرة منه والنظر فى آثار الاقدمين الباقية على وجه الارض لمعرفة السر الذى يكمن وراء قيام الامم وسقوطها وقد أطلق القرآن اسم (أيام الله) على مادة التاريخ ، وكشف القرآن عن أن للتاريخ نواميس ثابتة ونواميس متغيرة ونواميس غير منظـورة تسـير المجتمعات البشرية ٠

(وتلك الايام نداولها بين الناس) ،

(فهل ينظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبل) ،

وأن اقصر تعبير وأعمـق تصـوير لمهمـة التاريخ يتجلى فى دعـوة القرآن الناس الى النظر فى التاريخ القـديم من خـلال بقـايا المدنيـات والامم الفانية والتى يمر عليها الناس اليوم وقد وجدوا فيها آيـة باقيـة ليسالوا : لمـاذا سقطت هذه الامم وماذا كان من شانها عنـدما خالفت عن أمر ربهـا حتى انهارت حضارتها وذهب وجودها فما تجـد لها من باقية أو تسمع لهم ركـزا ٠

وان اعظم معطيات الاسلام البشرية هو اعطاؤها قانون الطبيعة وناموس المجتمعات والحضارات الذى يطلق عليه القرآن اسم (سنن الله) ٠

(قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض) ،

وقد جاء الاسلام دعوة الى أن يلتمس الناس منهج النبوة الاول ويهدى الى المجتمع الربانى القائم بالحق على أيدى رسل الله وأتباعهم ٠

(يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم) .

وقدرها القرآن فى تصويره لمنهج الحياة على الارض بين مفاهيم التاريخ والحضارة والاجتماع وجعلها كلها مستمدة من أمر الله منطلقة الى غايته التى أعد الانسان لها قائمة بالحق فى الحدود التى أقامها وفى الاطار السمح الذى دعا البشرية الى التحرك فيه دون الخروج منه الى « الفساد » الذى ظهر فى الارض بما كسب الناس ، وحذر من اتباع دعوة الفكر البشرى الوثنى المادى الاباحى الفاسد (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا) .

وجملة ما وصل اليه القرآن فى فهم سنن الحضارات والمجتمعات هو الكشف عن مصدر الخطر الحقيقى الذى تسقط به هذه الامم والحضارات والمجتمعات وهو تجاوز الناس سنن الله فى الارض وخروجهم عن الاصول الصحيحة والحدود التى أقامها بين الحق والباطل .

فالقرية التى تقف عند هذه الحدود والضوابط يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، والتى تخرج عن هذه الحدود والضوابط تكون قد كفرت بأنعم الله فيحق عليها الدمار .

وهكذا يكون الاسلام هو الذى قدم الى البشرية ما يسمى فلسفة التاريخ أو تفسير التاريخ حيث لم يقف عند عرض الحقائق بل قدم تحليل الوقائع وهو الملحظ الذى تنبه اليه المؤرخون المسلمون ووصل الى قمة فهمه (ابن خلدون) استمدادا من القرآن .

وهو المفهوم الذى عرفه الغرب من بعد ذلك ويشهد التاريخ بأنهم ما كانوا يعرفونه قبل أن ينقله اليهم ابن خلدون .

ومن هنا فان ابن خلدون مستمد من القرآن وقد أخذ منه مؤرخو الغرب وأن كانوا قد خلطوا مفاهيمهم بكتابات افلاطون وارسطو .

ان أخطر ما يقوم عليه التفسير الغربى للتاريخ (مسيحيا أو يهوديا أو ماركسيا) هو تجاهل حقيقة الانسان اما باعلائه الى حد التقديس أو انكاره واعتباره ترسا فى آلة ٠ وأكبر أخطاء هذه المفاهيم هو عدم التفريق بين الانسان وبين الاحياء الاخرى العليا منها والدنيا وفساد القول بتطبيق القوانين الطبيعية و التجريبية عليه انكارا لروحه ونفسه وتميزه عن المادة والحيوان ويتصل بهذا فساد القول بأن حوادث التاريخ يحكمها قانون ثابت وان حوادث التاريخ وأمور البشر تجرى دون تقدير ، وأنها لا يقيدها نظام ، أو تعتمد على المصادفة ، ذلك أن الحياة البشرية مسئولية الانسان وحسابه فى حدود ارادته وعمله وقدرته على التغيير ٠

وتنكر النظرة المادية ارادة الانسان وتتجاهل جوانبه الروحية والمعنوية والنظرة الاقتصادية تنكر العوامل الاخرى غير الاقتصادية ٠

فليس الانسان اله ولا نصف اله وليس الانسان بغير ارادة وليس الانسان خاضعا لحتمية تجيئه من المجتمع وانما للانسان ارادة وحرية اختيار ذات طابع محدود ، وحريته واختياره تتمثل فى قدرته على أن يختار سبلا ويترك أخرى ويتحمل المسئولية ، وقد ذلل الله له الكون وما فيه لمنفعته ولتحقيق استخلافه فليس الانسان فانيا فى المجتمع وليس له ارادة مطلقة غير محددة فالارادة الانسانية حرة فى حدود معينة وهذه الحدود المعينة هى وحدها موضع مسئوليته ٠

وهذا المفهوم الاسلامى يختلف مع مفهوم الفلسفة المثالية الغربية (هيجل) والفلسفة الماركسية ٠ واحداهما تراه جبرية والاخرى خاضعا لوسائل الانتاج ٠

ولا ريب أن انكار ارادة الانسان ، من شانها أن تجهز على فكرة المسئولية أمام الخير والشر والفضيلة والرذيلة ، ومن الحق أن السلوك الاخلاقى واجب أساسى فى الاسلام والزام متصل بحركة الحياة نفسها ٠

كذلك فان الاسلام لا يعتبر وجود الانسان فى الارض موضعا للتعذيب او سجنا للبشر بسبب خطيئة أصلية ، أو غير أصلية ، لأن المعصـية الاولى التى ارتكبها آدم أبو البشر لا تنسحب على أحد من أبنـائه وقد غفـرها الله لـه :

والاسلام فى مفهومه للانسان يختلف عن النظرية الفردية الغربيـة : هذه النظرية التى تجعل التاريخ من رسم أفراد معدودين ، وان كان الاسلام لا ينكر أثر الافراد كعامل من عوامل رسم التاريخ بمـا أودع فيهم من قوة سـواء فى السير على الطريق الصحيح أو الطريق الخاطىء فاثـر فرعـون وهو فرد لا ينكر فى اذلال بنى اسرائيل واثر ابراهيم لا ينكر فى انقـاذ أمته من عبـادة الاصنام ٠

كما لا يقر الاسلام النظرية الجبرية للمجتمع لانه ينكر أية نظرية تثبت جبرية الانسان وتعطل ارادته حيث أنه يؤكد مشيئة الانسان ومسئوليته عن أعماله ومع ذلك فانه لا ينكر أثر المجتمع فى سير التاريخ ٠

ولا يؤمن الاسلام بالنظرية الجغرافية أو الطبيعية المتطرفة التى تبالغ فى اعطاء الاثر للانهار والجبال والتضاريس وأنها هى التى تسير التاريخ أما من حيث انهـا احدى العوامل المؤثرة فذلك ما لا شك فيه ٠

وفى مجال الفرد فى التاريخ يجىء مقام رسـول الله ﷺ وهو ليس مجال بطولة فردية ولا عظمة ذاتية توضع فى مجـال المقـارنة مع البطـولات والزعامات ولكنها هى « النبـوة » التى لهـا مسـلكها وتاريخهـا ورسالتها المعتمدة على طول الزمن حتى ختمت بمحمد بن عبد الله ٠ وهو النبى الموحى اليه الذى لا ينطق عن الهوى وليس بعده أحد مقدس الذات أو له العصمة ولا يمكن ان يوصف بالعبقرية التى يوصف بها أبو بكر أو عمر ٠

والاسلام يقرر ارادة الفرد فى صنع التاريخ (الاختيار) وهى ارادة حرة من ناحية تصرف الانسان ولكنها تتحرك فى دائرة ارادة الله الكبرى

ومسئوليتها على قدر حركتها الذاتية ولكن لا يقال أن ارادة الانسان وحده هى التى تصنع الصورة الكاملة فان هناك العمل الخفى الذى هو من تقدير ارادة الله الكبرى ، وهو عامل ياتى بغتة ومن غير انتظار أو تقدير محسوب وان الارادة البشرية قد تنطلق الى عمل من الاعمال ولكنها لا تستطيع أن تضمن ما يصل اليه أو انها كما يقولون بمثابة صاروخ مقذوف فى الزمان يتجاوز دائما « تقديراتنا وحساباتنا » وقد تجىء الغاية مغايرة تماما للهدف الاول فالانطلاق أمر يقوم على ارادة الانسان ولكن المراحل التالية لذلك تقع فى دائرة القوة الكبرى التى توجه الاحداث .

يقرر اليان وايد غراى فى كتابه تفسيرات التاريخ :

ان وجهة نظر المسلمين للتاريخ نظرة بناءة كثر مما سبق فهم يرون أن البشرية اذا اعتنقت تعاليم الوحى (القرآن) فان ارادتها حينذاك تتطابق وارادة الله ولا يعود يوجد من يعصى أوامره ويعم الرخاء بين البشر .

ويحلل ولفرد كابتول سميث موقف الدعوات البشرية من التاريخ وموقف الاديان وموقف الاسلام فيقول : ان المسلم يحس احساسا جادا بالتاريخ انه يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الارض ، يؤمن بان الله قد وضع نظاما عمليا واقعيا يسير البشر فى الارض على مقتضاه وهم يحاولون دائما أن يصوغوا الارض فى اطاره ، ومن ثم فهو دائما يعيش كل عمل فردى أو اجتماعى وكل شعور فردى أو اجتماعى بمقدار قربه أو بعده عن ذلك النظام الذى وضعه الله والذى ينبغى تحقيقه فى واقع الارض لانه قابل للتحقيق ، والتاريخ فى نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائم لتحقيق ملكوت الله فى الارض ومن ثم فكل عمل وكل شعور فرديا كان أو اجتماعيا ذو أهمية بالغة لان الحاضر هو نتيجة الماضى ، والمستقبل متوقف على الحاضر ، أما الماركسى فيؤمن بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدى الى الخطوة التالية بطريقة حتمية ، ولكن لا يؤمن الا بهذا العالم

المحسوس بل لا يؤمن فى هذا العالم الا بالمذهب الماركسى وحده وكل شىء عداه باطل والماركسى يتبع عجلة التاريخ ولكن لا يوجهها ولا يقيسها باية مقاييس خارجة عنها ، وما من دين استطاع أن يوحى الى المتدين به شعورا بالعزة كالشعور الذى يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع ، وأن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية وأن الغربى لا يفهم الاسلام حق فهمه الا اذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهرا وباطنا .

ويقول ولفرد كانتول سميث فى المقارنة بين الاسلام والماركسية :

انه لامر عظيم أن نقيم حياة اجتماعية سليمة على وجه الارض ولا شك أن الاسلام هو أجدر واثبت تجربة تمت لتحقيق العدالة بين الناس ، وأنه ثمة فروقا عميقة بين الاسلام والماركسية ، أهمها أن الاسلام يرى لكل حادث دنيوى مغزيين ويقيسه بمعيارين : أحدهما وقتى والآخر أبدى أو قدرى ، والاسلام رغم اعترافه بمغزى التاريخ الحاسم الا أنه يرى أن هذا المغزى لا يذوب فى خضم التاريخ نفسه بل يوجد من القيم والانماط ما يعلو على مجريات التاريخ والحكم على هذه المجريات يمكن بل يجب أن يكون فى ضوء هذه القيم والمقصود بذلك هو القيم الروحية التى لا وزن لها فى الماركسية .

ويقول عبد المغنى سعيد : أن نظرية الاسلام فى تفسير التاريخ أعمق وأعرض من أى نظرية أخرى ، لانها تشمل الناحيتين المعنوية والمادية معا بينما ركزت الماركسية على الجانب المادى فقط .

ويقول الدكتور عماد الدين خليل : أن الاسلام ليس راسماليا ولا اشتراكيا ماركسيا وانما هو ينظر الى المال أولا على أنه ملك لله وأن الانسان مستخلف عليه وأن له أن يتصرف فيما يملك بروح الاستخلاف .

٥ ـ يقول الاستاذ علال الفاسى أن ميزة التفسير الاسلامى للتاريخ هى

الوعى بان للتاريخ نهاية وجوده يوم تقوم الساعة ويسال كل واحد عما عمله فى الدنيا وأن الجبرية التاريخية غير موجودة فى الاسلام لان الانسان ليس خارج التاريخ بل هو من عوامله الداخلية الفاعلة والمنفعلة وان عمليات التاريخ ليست دون غاية . وقد أدرك الرسول الوجود التاريخى ادراكا كليا ولكنه لم يكلف نفسه أن يكون المؤرخ أو المدون للتاريخ وانما وضع لنا الاطار الذى علينا ان نملأه بما نكتشفه من أحداث وما نضعه من عمليات ولم تذكر كلمة التاريخ فى القرآن ولا فى السنة وان قص علينا القرآن قصصاً للاولين لا لنعتبرها تاريخا باوقاتها وظروفها ولكن لنتيقظ بما فيهما من عبرة ويمكننا أن نبحث التفسيرات المختلفة للتاريخ او نكتشف غيرها بما نستطيعه من جهد وتاويل دون أن ندعى حتمية وعى خاص قد ينطبق على بعض الاحداث دون بعض فنقع فى آفة التعميم الذى يقع فيه كثير من الاجتماعيين والنفسيين .

وللتاريخ فى نظر المؤرخين مرحلتان لابد من الوقوف عندهما :

١ - مرحلة العمليات التاريخية التى سبقت بعثة الرسول وهذه لم تكن الا تمهيدا لابلاغ الانسان رشده عن طريق اكمال الدين بوجود محمد خاتم الرسل ولم يكن محمد بدعا من الرسل فقد سبقته نبوات ورسالات كما سبقه دعوات اصلاحية تشمل كل بقاع العالم . ولكنها لم توفق الى البقاء واصابها الانحراف الذى يستوجب أن تجدد وتصلح لتفتح آفاق التقدم الانسانى فكان لابد أن يبعث الرسول الخاتم الذى يضع الناس فى جو الرشد المبنى على العقل والروح والقلب والجسم .

وان كل ما سبق من عمليات التاريخ كان يهدف لغاية واحدة هى وجود الرسول نفسه ، وبذلك يصح الماضى كان ما قبل التاريخ أما التاريخ الصحيح فيبدأ بالمجتمع الاسلامى والبشرية كلها مخاطبة لتسير وفق ما يرشد الى ناموس الكون وما بنى عليه هذا المجتمع .

المرحلة الثانية : هى نهاية التاريخ الدنيوى والوصول الى عالم

يحاسب فيه المرء على ما قدمه من خير أو شر وبهذا الامتداد التاريخى الى ما بعد الموت يزول كل تناقض ممكن من غاية التاريخ ومن أسباب عملياته وفى هذا الاطار يبقى الانسان عاملا مختارا لان شغله أن يوفق بين نواميس الكون وتعاليم القرآن وهو الذى يصنع تاريخه وتاريخ البشرية ٠ والحقيقة الاسلامية فى أمر التاريخ هى : أن التاريخ نهاية وجوده يوم تقوم الساعة وأن خط مفاهيم الماركسية والمادية التاريخية وتناقضها ناشىء عن تجاهل الموت والتنكر للقيم ، ولكى نعمل على وعى بالتاريخ يجب أن لا نخرج عن التاريخ فترسل وجودنا التاريخى كان فى الاطار الذى حدده الاسلام مهما كان التفسير الذى يعطيه لعمليات التاريخ ، والاطار الاسلامى شمولى لانه موضوع للعالم كله ، لذلك ففى الوقت الذى نحافظ على كياننا داخله نكون قد وعينا تراث الانسانية (أى كل ما ليس من الاساطير) وما ليس من الاساطير هو المعروف الذى وعته كل العقول لانه من فطرة الانسان ٠

٦ ـ « مشكلة الخلق » كما يقول الدكتور عبد الحليم عويس هى « عقدة العقد » فى تفسير التاريخ فالمسلمون يسلمون بخالق خارج هذا الكون ذى صفات محددة لا يمكن أن يصل العقل الى تحديد كنهة ، لان العقل أقل من هذا الادراك ، أما المذاهب الوضعية والمادية والماركسية فهى تختلف فيما بينها فى أصل الخلق على أنها ترى عموما أن المادة تتمتع بمؤهلات الخلق والوجودية ترى ان الانسان مبدأ الكون ومنتهاه وتعيش فى دائرة الاستعباد للذات وأصحاب الدين الانسانى الذين يتزعمهم اليكس كاريل والامر الثانى هو المحرك لعملية التطور التاريخى بعد أن تنتهى عملية الخلق فالفلسفة اليونانية لها رأيها الذى يسلب الله سبحانه خصائص الحكم فى مسيرة العالم وكانما خلق الله العالم وتركه يتدحرج ككرة منزلقة ٠ وهناك الاختلاف فى العوامل المحركة لحركة التاريخ ويحتل العامل الاقتصادى المرتبة الاولى بل يكاد يكون الوحيد ٠ أما الاسلام فينطلق من ايمان بالله ومن ايمان بانه مهما قيل عن أسباب ظاهرة للتحول التاريخى

فان الله هو الفاعل الحقيقى ومن أخطر المخاطر محاولة تجريد النصوص التاريخية القرآنية من صدقها الواقعى فى موكب التاريخ بحجة أنها لمجرد غرس العبرة فى النفس البشرية على النحو الذى قال به طه حسين ومرجليوث وخلف الله بينما يطلبون من المؤرخ طرق الانطلاق من (الواقعة) وصولا الى العبرة التاريخية الحقيقية وهم يفترضون الصدق فى الجيولوجيا والآثار أكثر من افتراضهم الصدق فى كلام الله وهم يتجاهلون أن العبرة المستقاة من واقعة مزيفة مختلقة هى بذلك عبرة مزيفة مختلقة .

يقول الاستاذ عبد الحميد صديقى : ينفرد المنهج الاسلامى فى تفسير التاريخ أنه يتخلص من هذه الآفاق فهو فى المقام الاول يتوفر لديه (الرؤيا الشاملة لوقائع التاريخ) على نحو تركيبى كلى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) كذلك يضع المنهج الاسلامى الانسان فى مكانه الصحيح انطلاقا من جعله مستخلفا فى الارض ومن جعله فى أحسن تقويم ؛ فليس الانسان مجرد آلة تحاول أداء عملها فى ماكينة المجموع ، كما أنه ليس دمية تحركها روح العالم وليست هناك حتمية تاريخية تقود الانسان .

فأعمال الانسان المختارة هى السبب فى صنع التاريخ وهو المسئول عن حركته وليس مجرد ضحية لقوانين ساذجة محددة تنطلق به من مرحلة البدائية الى مرحلة الاقطاع الى البراجوازية الخ .

ان هذه الاحكام المطلقة الساذجة ليست الا أوهاما .

وللحياة فى التفسير الاسلامى معنى رفيع عال لا يتقوقع فى دائرة الاقتصاد أو الايديولوجيات وانما يسمو بغاية الانسان الى آماد عليا ففضلا عن تحقيق خلافة الله فى الارض وفضلا عن تعمير الكون فالانسان يعيش على هذه الارض فترة اختبار كبرى يبتلى فيها بشتى الوقائع والوقائع المضاده ليحتل مكانه الجدير به فى دائرة الخلود والاقتراب من الكمال المطلق ويجب على الانسان أن يثبت أنه على مستوى الامتحان أو أنه أهل للامانة الملقاة على عاتقه . وحركة التاريخ فى الاسلام تشبه أن تكون دورية

ولكنها ليست دورية صماء آلية تخضع لقوانين حتمية من صنع الانسان بل هى مرتبطة فى دوريتها بقوانين الله وسننه فى تفسير الحيـاة وبقوانين النمو والمـوت الحضارى . وبما أن هذه الدورية موجودة (وتلك الايام نداولها بين الناس) فى التاريخ فلا يمكن معها القول باطراد النمو الانسانى والاخلاقى فهذا القول نوع من الغرور بما نعتقده القدرة فليس من حقه اصدار أحكام عامة تمتد الى الانسان كله (انسان ما قبل هيردوت) وما بعـده وانسان هذا العصر التاريخى والعصور التى تليه ، وليس هناك شـك فى أن ثمـة صراعا بين قوتين كبيرتين تسيران معا مع تفاوت القـوة عبر التاريخ كله : قوة الخير وقوة الشر .

ولكن باستثناء الصراع العريض الطويل تسير الحياة فى داخلهـا على نوع من التعـاون أكثر من سيرها على الصراع . وقد يكون « الصراع » سمة مرحلة من مراحل الافول يفقد الانسـان فيها معناه العالمى لـكن ليس السمة العامة المسيطرة على حركة التاريخ ، والسالب لا يتصـارع مع الموجب وما يبدو من تخيلات المتشائمين من تناقضات فهى ليست أكثر من تكامليات وهى تتصل من تكاملها البسيط الى المركب .

١ ـ وضع الانسان فى مكانه الصحيح .

٢ ـ فهم المعنى الخالد لرسالته على هذه الارض .

٣ ـ عدم طغيان جانب من حياة الانسان على جانب آخر .

٤ ـ ودون فقدان الانسجام بين كل الجوانب .

٨ ـ هل يعيد التاريخ نفسـه :

يقول الباحثون أن التاريخ تسيطر عليه قوانين لا تقف عند حد الاثر الذى كان لها فى الماضى بل انه سيكون لها أثرها حتما فى كل ظـرف مشابه يطرأ فى المستقبل ، ففى حـركة كل القـوى التى ينسجها تاريخ البشرية عنصر واضح هو عنصر الاعـادة والتكرار : ولكنها ليست اعـادة الاحداث والوقائع ولكن اعادة التفسيرات .

وقد دعا القرآن المسلمين الى التماس عبرة الماضى : وليس التـاريخ كما يقـول القرآن قصصا تروى وانما هو تحـذير من المهـاوى الواقعـة فى طريق الافراد والامم و كما يصـوره أحـد العلمـاء يقـول : أن سجل التاريخ هو الفنار الذى ينبىء الملاحـين الجـدد الـذين يمخـرون عبـاب الحيـاة عن الصخور المهلكة التى قد تكون خافية تحت سطح بحـر الوجود الانسانى الذى لا يدرك غوره :

(أو لم يسـيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبـة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها) وذلك لان الناس فى كل عصر يواجهون نفس النوع من التعقيدات التى واجهها أسلافهم فان مواضع أخطر فى طريق الامة هى نفسها تقريبا سـواء كان العصر ماضيا أم حاضرا وكل أمة تصيبها السراء والضراء والارتفـاع والانخفاض وان الذين لا تطغيهم الافراح والذين لا يفقدهم السعادة اتزان عقولهم والذين لا يسمحون لانفسهم بأن ينهاروا تحت وطأة المصائب هم الذين يسمح لهم قانون الحيـاة بالبقاء والنمو أما الذين لا يستطيعون الصمود أمام الشهوات وفى وجـه ضربات القدر فاولئك هم الذين ينهارون بسرعة :

(ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) .

(ان مع العسر يسرا) ،

والامم تولد وتموت : (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليـل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) والنهـار هو السعادة والقـوة والليـل هو الأفـول والنهيـار .

والعالم ينمو وليس كتلة ميتة فى الفضـاء وهو قابل للتوسع والامتداد الى غير ما حـد ، والماضى يبقى والعمل فى الحاضر ، ونظـام الحوادث متغير وليس ثابتـا .

ويرد الباحثون نظرية هيجل فى حركة التاريخ ويرون أنه لا أسـاس

مطلقا للرأى القائل بأن التوفيق بين الفرضية ونقيضتها ينتج عنه نظام جديد له خواص كل منهما ، كما أن التاريخ لا يدعم هذا الرأى ، ففى كثير من الاحيان يولد النقيض من الفرضية فيحطمها تماما وحينئذ يتكون ضدهما رد فعل مغاير تماما .

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين) ،

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع) ،

وتبين هاتين الآيتين أن الله لا يعطى أية أمة السيطرة والقوة الدائمتين فكل جماعة من الناس تتسلط مدة من الزمن وبعد ما تمر هذه المدة تزول من الوجود وتقوم فوق جماجمها أمة أخرى ، وان السلوك هو الذى يجلب عليهم الدمار .

ويقر القرآن أن التغيير ياتى بسبب من الداخل لا من الخارج :

(ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ،

ومعنى هذا أن التغيير الناجح فى الفرد والجماعة لا تتحقق نتائجه الا بتغير النفس أساسا .

ولما كان من العسير على الافراد مهما أوتوا من العلم والخبرة أن يسبروا غور كل جانب من جوانب الحياة بفكر متزن ، فانهم لا يستطيعون أن يضعوا لانفسهم منهجا مرتبا محبوكا تنال فيه كل ناحية من نواحى الانسان العدل الكامل ولما كان ليس فى مقدرتهم النظر الى ما وراء فترات طويلة من الحياة فانهم يعجزون عن أن يرسموا لحياة الناس منهجا متوازنا يفي بمتطلبات كل نواحيها فالانسان لا ينظر الا الى بعض من حاجات البشر ويجهل الباقى ، وبهذا تصيب جوانب الانسان المهملة حيف كبير ، هذا الحيف يحطم الاستقرار فى الحياة وبهذا تخيب الانسانية فى مسعاها ، ولكى تجد الحد الوسط اللازم لتقدمها ، فهى تتارجح بين النهايتين

المتطرفتين (المعروف أن أوربا انتقلت من الرهبانية الى الاباحيـة) وبين هذين يوجـد الصراط المستقيم الذى أوضحه الله تعالى وهذا وحـده هـو الذى يقود الانسانية الى طريق الفلاح فى الدنيـا والآخـرة وكل السـبل الاخـرى تقود الانسانية الى الهلاك ٠

(عبد الحميد صديقى)

ولقد ظنوا أن الطريق الجدلى هو الطريق الطبيعى الذى تتقـدم به الانسانية ، ولكن الواقـع أن الصراع بين الفرضـية وتقبضها لا يؤدى فى الواقـع الى التقـدم ، وانما هـو فى الحقيقة ضربة القـدر القاصمة التى أصابت البشر جزاء أعمالهم السيئة ٠٠ لقد مرت قافلة البشر مرارا بالصراط المستقيم ولكنها لم تتخذه سبيلا ولقد مضى تاريخ الاسلام فى طريقه على صـورة واحدة فهو تاريخ الصراع بين قوتين فى العالم ، هى الشر والخير ، وهذا الصراع من شانه ان يؤدى الى تقـوية شخصية المسلمين لكى تستطيع أن تستخدم للصفة التى وهبها الله اياهم لكى يزيدوا فى سرعة نشاطهم الخلاق وفقـا لاوامر الاسلام فملة الاسـلام والامم غير الاسلامية قوتان متضادتان فى هذا العالم كانا دائما فى خصام ونزاع ٠

وعلى ملة الاسلام أن تعتبر نفسها مسئولة عما يحـدث من حولهـا وان تجاهد من أجـل احقاق الحق وازهاق الباطل فى كل حين ٠

ويقول الاستاذ صديقى : أن هناك صفات معينة اذا نمتهـا الامة فى ابنائها نالت السيطرة والسيادة ، وحـين تفقـد هـذه الصفات تتردى الى الحضيض وان الله تبارك وتعالى ينظر الى الامة التى أتيح لهـا أن تحـكم : أهى أمة قائمة بالحـق والعدل أو بالجور والظلم فاذا كانت طاقات الامـة موجهة الى الخير سمح لها بان تزداد قوة والى أقصى حـد ، فانهـا بذلك تعطى الفرصة لكى تعرض قيمتها الحقيقية ، وبذلك ينتفع العالم ، أما الامم التى ترتكس فى (السـبات) فان طاقاتها الخلاقة تبدو عقيمة وتلجـا الى الظلم والطغيان وتنفق موارد الارض على افنـاء البشر ٠

٩ ـ يقول اقبال ان المشكلة التى واجهها الاسلام كانت هى ما بين الدين والحضارة من صراع متبادل وما فى الوقت نفسه من تجاذب متبادل .

ولقد واجهت النظرية فى أول عهدها المعضلة نفسها فكان أعظم ما عنيت به أن تبحث عن مستقر للحياة الروحية قائم بنفسه : تلك الحياة التى رأى منشئها ببصيرته أنه يمكن السمو اليها لا عن طريق قوى عالم خارجى فى نفس الانسان وانما يتجلى عالم جديد فى داخل النفس ذاتها ، والاسلام يقر هذه النظرة تماما ويكملها بنظرة أخرى هى أن النور الذى يضىء هذا العالم الجديد المتجلى على هذا النحو ليس غريبا عن عالم المادة بل هو متغلغل فى أعماقه .

ومعنى هذا أن النظرة الاسلامية لا ترى فى التاريخ على انه نشاط من أنشطة المادة فحسب كما أنها لا ترى فيه نشاطا من أنشطة للروح فقط ، وانما هو نشاط يجمع فى مضامينه هذين العنصرين معا ، كما أن هذه النظرة المثالية الواقعية من شأنها ـ كما يقول الاستاذ محمد عطا الله معلقا على كلام اقبال ـ لا يغير فكرته عن العالم والتاريخ . ويقول : انالنظرة الاسلامية تؤمن بالتاريخ منذ بدء الخليقة الى يوم القيامة وحدة مستقلة ، وأن من شأن هذه النظرة أن تعمق الاحساس بالمستقبل . ولقد أشار روز متلى الى أن الحديث عن يوم القيامة فى القرآن قد جاء صريحا بحيث أصبحت أحداثه واضحة للناس وكأنها قد حدثت فى الماضى القريب رغم أنها لم تحدث بعد . والمسلم يفهم أن القرآن فى حديثه عن المستقبل ويوم القيامة انما يرسمنهاية العالم الذى يعيش فيه وهو فى هذا تتكامل فى رسم قصة بدء الخلق وقيام المجتمعات وتدهورها ودور رسالة الانبياء فى أصلاحها وتوجيهها الوجهة الربانية الصحيحة ، اذا ما التمست منهج الله وتحركت فى اطار حدوده وضوابطه التى رسمها للناس والمجتمعات ، والاسلام حين يقدم هذا المنهج للانسان لا يقسره على السير عليه ولكنه يترك ذلك لارادته الحرة ويعطيه حق الاختيار فى السير قدما أو التراجع .

ويضع الاسلام قاعدة بقاء الامم وسقوطها وتغيرها :

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

فيربط بين مصير الامة وارادتها ، وأن لكل أمة أجلا وأن فساد الامم وانحرافها يحدد نهايتها والحرية متروكة لكل أمة لتعمل فى دائرة الخير أو الشر .

١٠ - يصور الاستاذ عبد المغنى سعيد حركة التاريخ فى مفهوم الاسلام فيقول : « أن الاسلام فى نظرته الى التاريخ لا يهتم بالجزئيات والتفاصيل العابرة ولا يهتم بالبطولات الفردية أو تاريخ حياة الافراد وانما يركز على الكليات والاساليب والحركة الاجمالية لمجرى التاريخ ومغزى هذه الحركة ، اى انه كان الاسبق الى النظرة الجماعية والحركية للتاريخ عن المدارس التاريخية الحديثة التى ينبغى على المؤرخين القدامى اهتمامهم بالبطولات الفردية والجزئيات وتواريخ حياة الملوك والحكام . والقرآن الكريم فى تحليله لدعوات الرسل والانبياء لا يستطرد الى تفاصيل خاصة بحياتهم كافراد وانما يقف عند حد العبرة التى تبرز هذه الدعوات كحركات تقدمية استهدفت تحرير الانسان من السحر والشعوذة والخرافة ومن الاستغلال والتسلط الطبقى أيضا ، ان دعوات الرسل كما جاء فى القرآن الكريم لم تكن بالبسيطة أو السهلة فقد قوبلوا جميعا بالانكار والسخرية بل والاعتداء والحرب من القوى المضادة التى كانت ترى مصلحتها فى الاحتفاظ بالاوضاع القائمة مادامت هى المستفيدة ولا تراها فى التغيير أو التطور وتخشى أن يهدد مصالحها الخاصة ، ومن هنا فقد وقفت ضد دعوات الانبياء وما تستهدفه من عدالة وتطوير . وقد كانت تلك الدعوات وما يتبعها من صراع تنتهى نتيجة حتمية وهى أن تنتصر الدعوة وإما أن تفشل ليصب الله جام غضبه بكوارث الطبيعة على القوم الكافرين الظالمين وهذه النتيجة يسميها القرآن بالسنة أو القانون الحتمى فيقول « ولن نجد لسنة الله تبديلا ولن نجد لسنة الله تحويلا » هذه السنة التى لا تقبل التبديل أو التحويل هى قانون الهى تاريخى « سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا »

« وقد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

وهكذا جاء الاسلام بمقومات نظرية علمية لتفسير (مادى معنوى) للتاريخ .

١١ ـ يقرر الدكتور عماد الدين خليل بان التفسير الاسلامى يتميز على التفسير الغربى بشموله وتكامله وأنه يضع اهتماما بالغا وتقديرا كبيرا للقوى الغيبية التى تتدخل فى عالم الحضور بشكل مباشر وغير مباشر والحكمة الالهية البعيدة المدى التى توجه التاريخ وجهة دون أخرى ، ويقول : أن فهم التاريخ لا يتم الا باسهام الطاقات الروحية والحيوية للانسان فى عملية التقييم .

ويقول الدكتور عماد الدين : ان تطبيق المنهج المادى العلمانى الغربى فى دراسة تاريخنا احدث من الاخطاء والمهازل ما يجب علينا أن نوقفه عند حده وأن نبدأ من جديد بتقييم تاريخنا ودراسته وفق منهج يقدم من الادوات والامكانيات ما يساعد المؤرخ المسلم على دراسة هذا التاريخ .

ويقول عبد الحليم خفاجى : « القرآن يرشد الى المنهج الصحيح فى فهم التاريخ اى بالنظر اليه على أنه تاريخ الرسالات السماوية لا تاريخ الصراع الطبقى كما تصورة الماركسية ولا تاريخ الاجناس والملوك والرؤساء والبطولات كما تصوره النظرية الغربية ، كما يرشدنا الى أولوية دور الفرد المستمر فى دفع حركته الى الامام ، وباستعراض القصص القرآنى يظهر الاهتمام واضحا بالرسل فى المقام الاول باعتبار ان الرسول هو النموذج الانسانى الكامل الذى حقق السيادة على ظروفه وظروف قومه واستخدمها فى سبيل غايات اسمى وابقى .

وتأتى ظروف الزمان والمكان فى المقام التالى . ولهذه الظروف وزنها من خلال تفاعل الانسان معها ولكن ليس لها الاولوية .

ويقر التاريخ انه لم يكن قط هناك عامل من العوامل الانسانية اقوى أثراً واعظم من عامل الدين وكل ما عداه من الحركات المؤثرة فى حركات الامم فانما تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة من المشابهة فى التمكين من اصالة الشعور ومواطن السريرة ، هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ولا قوة الوطنية ولا قوة العرف ولا قوة الاخلاق ولا قوة الشرائع والقوانين اذ كانت هذه القوة انما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه او العلاقة بينه وبين مجتمعه أو العلاقة بينه وبين نوعه على تعدد الاوطان والاقوام أما الدين فمرجعه الى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره ومن انه يتسع لكل ما فى الوجود من ظاهر وباطن •

أما التفسير المادى فليس اكثر من التسجيل لفترات الانتكاس فى حياة الشعوب بما يستبقيه الانتكاس من صراعات على كل المستويات وكان موقف الماركسية من العامل الاقتصادى بالذات موقفا منحازا لا علميا •

الفصل السادس
تاريخ الاسلام فى مواجهة التحديات

فى مقدمة هذا البحث نقدم مجموعة من الملاحظات :

١ ـ ان المسلمين كانوا دائما ينتصرون ويمتلكون زمام القوة والمنعة والتمكين فى الارض عندما كانوا يطبقون المنهج الذاتى وينفذونه كمنهج حياة ونظام مجتمع وانهم كانوا يهزمون كلما تخلفوا عنه أو قصروا فى الاعتصام به •

٢ ـ أن المسلمين فى الاعم الاغلب خلال تاريخهم هذا كله لم يتخلفوا عن تطبيق التشريع الاسلامى فى مجتمعاتهم الا فى الفترة التى بدأت بالاحتلال الغربى الحديث لبلادهم ١٨٣٠ الجزائر و ١٨٨٢ مصر وتونس و ١٩١٨ باقى أجزاء البلاد العربية ماعدا الجزيرة العربية •

٣ ـ أن المجتمع الاسلامى فى حالة تطبيقه للمنهج الاسلامى ليس حكما

على هذا المنهج بل أن المنهج هو الحكم على المجتمع الاسلامى • وقد أثبت المنهج سلامته وعطاءه حين طبقه المسلمون تطبيقا صحيحا فى عصر الخلفاء الراشدين وفى عدد من العصور خلال حكم الدول المختلفة قد عبره بما يثار من شبهات حول عجز المنهج الاسلامى على تحقيق المجتمع الاصيل الذى يحقق بالفعل فى الاغلب الاعم والذى كان مصدر هذه النهضة الباذخة الحضارة الضخمة التى عمت العالم كله واقامت منار العلم والعدل أكثر من ألف سنة •

٤ ـ ان محاولة اعلاء شأن التاريخ السياسى القائم على أمور الحكم والولاء والخلاف بين الامراء والفرق هى محاولة باطلة يراد بها حجب حركة المجتمع الاسلامى النابضة بالحياة والقوة والقائمة على اساس مفهوم الايمان العميق بالله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وتطبيق الاسلام كمنهج حياة ونظام مجتمع ، هذا المجتمع الاسلامى المضطرم بالحيوية والعمل والتجارة والبناء والذى قدم للبشرية تلك الاضافات الضخمة فى مختلف مجالات المدنية والعلم • ولا ينقص من شأن هذا وجود جماعة معدودة من شعراء المجون أو الفرق الضالة أو أصحاب المؤامرات ضد الدولة الاسلامية من خصومها الباطنية والمجوسية وغيرها فان هذه ظاهرة دائما وقائمة فى تاريخ الامم كلها لا تنقص من قدر المجموع السليم المتحرك فى اتجاه التقدم والبناء •

٥ ـ ان الخلافات التى كانت بين الفرق الاسلامية سواء فى مجال السياسة والفقه أو غيرهما كانت خلافات فى الفروع دون أن تصل الى القيم الاساسية التى كانت تلتقى عندها كل الجهات (هذا باستثناء القوى المتآمرة الضالة) التى كانت معزولة تماما • وكان موقفها معروفا وكانت كل هذه الجهات معادية لها •

وهنا تكون التفرقة واضحة بين الفرق الاسلامية وبين الدعوات الهدامة •

هذه الخطوط العامة لم تكن واضحة فى ذهن الذين حاولوا فى العصور الاخيرة كتابة التاريخ الاسلامى أو تقييمه عن طريق المناهج الواحدة .

ولم تكن النية صادقة ولـم يكن المنهـج العلمى مجـردا من الهـوى والخصومة والهدف المسموم . يوحى بهذا ويؤكده اهتمام المستشرقين الى دراسة أمرين :

أولهما : الخلافات فى الاسلام .

ثانيهما : دراسة العامل الاجنبى فى الفكر الاسلامى .

ففى الاول يجـرى التنقيب عن تلك الخـلافات السياسية بين الامـراء والحكام والتوسع فيها وترك الجوانب البنـاءة القـوية : أى الاتـكاء على التاريخ السياسى الذى يدور فى دائـرة ضيقة محـدودة وتجـاهل التاريـخ الحضارى الذى يمثل المجتمع كله والاهتمام بشخصيات معينة أو خـلافات معينة ومحاولة اعـلاء هـذه الشخصيات أو تلك الخـلافات لتوسيع رقعـة الخـلاف بين المسلمين واحياء الخصومات القديمة التى انطوت وانتهـت بنهاية الاحـزاب السياسية التى قامت عليهـا .

وفى الاخرى : تجرى المحاولة للقول بان هناك تاثيرا يونانيا أو فارسيا فى الفكر الاسلامى فى مجال الفلسفة او الكلام أو الادب أو اللغـة أو الفقه بتصيد خيوط رفيعة واهية لا يستقيم أمرها فى محـاولة لاثبات (فضـل) للفكر اليونانى على الفكر الاسـلامى يمكن أن يوصف بانـه تبعية للفكـر الوافد مع أن الاسـلام حرر نفسه من آثار الفكر الوثنى للقـديم كله وكشف عن زيف هذا الاثر وأبان عن أصالته وقدرته على الحركة والتكامل بذاتيتـه الخاصـــة .

لم يكن تاريخ الاسلام مطلقا ، تاريخ صراع على الحـكم واستبداد سيامى أو فتوحات وحروب من أجل الاسلاب والطموح الشخصى ، أو تاريخ فرق متصارعة وانما تعددت المراحل بين القوة والضعف ، ولابد أن تكون

هناك سلبيات معدودة بين الايجابيات الضخمة ، والا فمن الذى بنى هــذا المجد الباذخ والحضــارة الضخمة التى عمــت العالم المعــروف كله اذ ذاك وتركت بصماتها فى كل مكان ، حتى على أوربا التى رفضت عقيدة الاسلام ولم تســتطع أن تحــول دون منهج الاســلام التجريبى ومنهجه فى المعــرفة والفكر حتى لا تجــد لغة غربية واحدة ليس فيها تلك الالوف المؤلفة من الفاظ المصطلحات العلمية وكلمات الحضارة ٠

٢ ـ يصور العلامة علال الفاسى التحديات التى واجهت تاريخ الاسلام بانهــا قد عملت فى مجالين :

أولا : خلق نخبة من الباحثين والرواد لدراسة اجتماعات وتاريــخ البلدان الاسلامية وغيرها فى كل بلد يراد استعماره وقد تحمل هؤلاء وزر التكيف بالطريقة التى تقنع الرأى العام فى البلد المستعمر بضرورة تقبــل التضحيات التى يتوقف عليهــا الاســتعمار ومقدماته وابــراز أن البلدان المستعمرة فى حالة من التقهقر المادى والمعنــوى تستوجب الرحمــة وتهيب بالبلاد الراقية لمساعدتها وجرها الى حظيرة المدنية والديانة المسيحية والى اثارة روح الطمع فى النفوس بما فى هذه الارض المــراد فتحها من خــيرات وأسواق وفى هذا الاتجــاه يقع تــحريف حقائق التاريخ وقلب أساسه ونتائجه وتكوين أدب لا يسع قارئه الا أن يقبل ما يجــده من معلومات وافــكار مادام غير مختص ٠

ثانيا : تكوين الجهاز الاستعمارى الداخلى : الذى يرمى الى تضــليل الفكر الاهلى عن طريق الدعاة والمرتزقة الذين يحــاولون بشتى الوســائل وبالاسلوب الذى يليق بحجاجهم أن يحقروا فى النفس كل ما هو اهلى من ماض أو حاضر ويرفعــوا من قيمــة كل ما هو المثــل الاعلى عند المستعمر فاللغة والدين وأسلوب الحياة وطريقة المعاملة ٠ وهكذا يتحقق تثبيت النفوذ الاستعمارى فى الارواح والنفوس والافكار لادامة الاستعباد الجسمانى والاستقلال الاقتصــادى ٠

وهكذا نجد أن الاستعمار والنفوذ الاجنبى الذى خلف الاستعمار سواء كان نفوذا أجنبيا غربيا أم ماركسيا أم صهيونيا فانه قد ركـز على التاريخ الاسلامى فى محاولة لافساد وجهته ولاحتوائه وللحيولة بين الامة الاسلامية وبين اتخاذه منطلقا لبناء حياة حرة كريمة .

وقد ركزت القوى الاستعمارية على مفاهيم بينما ركزت محـاولات الماركسية على مفاهيم أخرى وكان للصهيونية جوانب أولتها اهتمامها : وقام الاستشراق فى كل جانب بالترويج لدعاوى أتباعه .

٢ ـ ومن اهم المحاولات التى جرى احتضانها بين التيارات الثلاثة : مسألة الاتجـاه العنصرى الذى أريد به تشـويه حقيقة دور العرب الحضارى وقد قام بها المستشرقان فان فلوتن فى كتابه الدولة العربية وسقوطها وولهاوزن فى كتابه (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات) وقـد تأثر مؤرخـو الغـرب ومستشرقوه بفكرة (جونيـو) العنصرية التى أعلنهـا فى القرن التاسع عشر وحاولوا تطبيقها على التاريخ الاسلامى محاولين تصوير أحداثه على صورة نزاع حاد بين العرب الحاكمين والشـعوب المحكومة من فرس وترك وبربر وغيرهم وحاولوا أن يظهروا تاريخ القرن الاول الهجرى وكانه صراع دموى بين العرب وسكان البلاد المفتوحة وقد تأثر بهذا التفسـير الكثير من المؤرخين ومنهم مؤرخون عرب حاولوا تطبيقه على مظاهر كثيرة من التاريخ الاسلامى فصورت حركة الزنج وحـركة القرامطـة والحـركة البابكية على أنها انتفاضات قومية .

٣ ـ وهناك مستشرقون آخرون عمدوا الى تطبيق المذهب المـادى فى تفسيرهم للاحـداث وكان همهـم ان يجعلوا من أسلوب الانتـاج وصراع الطبقات فى تلك الفترة أساسا لظهور الحركات والمظاهر المختلفة فى الشرق العربى والاسلامى مهملين كافة العوامل المتشابكة والفاعلة الاخرى من سياسية وروحية ونفسية وقومية واقتصادية واجتماعية .

وكان أبرز العاملين فى هذه التفسيرات المستشرقون الماركسيون فنجد مثلا المستشرق ضياء الدين بونياتوف فى كتابه (اذربيجان فى القرون السابع - التاسع) الذى أصدره عام ١٩٦٥ حيث كانت اذربيجان ضمن نطاق الدولة العربية الاسلامية . وقد اتسم تفسيره للاحداث بطابع يستند الى المذهب المادى المعروف وسار مؤرخون عرب على نفس الطريق فكان كتاب الدكتور حسن قاسم العزيز عن البابكية وانتفاضة الشعب الاذربيجانى ضد الخلافة العباسية مثالا على ذلك . ولا عجب فالدكتور حسن قاسم هو تلميذ المستشرق بونياتوف ولمذهبه فى التفسير المادى .

٢ - هناك خطأ العجز عن التفرقة بين مبادىء الاسلام وتاريخ الاسلام فى النظر الى التاريخ الاسلامى ولا يوجد من يفكر انه كان لنفر ممن تسنموا قمة السلطة بعد عصر الخلافة الراشدة مواقف تبعدهم عن « منهج الاسلام » ولكن منهج المستشرقين يقف موقف « التمويه » فيخلط بين سلوك هؤلاء الحكام وبين مبادىء الشريعة وهناك من قال أن نظام الحكم فى الاسلام نظام استبدادى ونسوا أن للاسلام مبادئه الواضحة التى تقيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم لمصلحة المحكوم .

ومع أن توماس ارنولد فى كتابه (الدعوة الى الاسلام) كان منصفا الا أنه فى كتابه عن الخلافة يقع فى هذا الانحراف الشديد ويخطىء فى نسبة الاستبداد الى الاسلام حيث يقول :

« والخلافة التى عرفت هكذا كانت حكما استبداديا يضع قوة غير محدودة فى أيدى الحاكم ويطلب طاعة مطلقة من رعاياه . ثم يحاول أن يبرر لماذا كانت الخلافة الاسلامية استبدادية فينسب الى الملكية الفارسية التأثير فى الخلافة الاسلامية بعد أن قضى العرب على سلطان الدولة الفارسية فيقول : ربما كان طابع الخلافة الاسلامية الاستبدادى من تراث الملكية الفارسية كما حازت الجماعة الاسلامية ممتلكاتها لأن المجتمع العربى قبل الاسلام لم يعرف قط أى تشكيل من هذه النظم السياسية ولم يتجانس مع عقيدة القرآن فى تساوى جميع المؤمنين » .

ثم يحاول أن يستدل على ادعائه أن الخلافة (أى رئاسة الدولة) تنزع الى الاستبداد باحاديث رويت عن رسول الله تبين أن طاعة الامير من طاعة الرسول وتامر بالسمع والطاعة لرئيس الدولة وان ظلم ٠

ويركز على هذا المعنى مرجليوث وما كدونالد وبوبر وقد رد على هذه الشبهة الدكتور ضياء الدين الريس فقال : أن الانصاف يقتضى أن يقال ان للقرآن تعاليمه الواضحة التى توجب تساوى جميع الناس فى جميع الحقوق فاذا قامت رئاسة تتفق مع هذه التعاليم التى جاء بها القرآن فهى التى تنطبق عليها الصفة الاسلامية ولا يستطيع أى طاعن أن يطعنها حينئذ فى سموها وكفالتها لجميع الناس التساوى فى جميع الحقوق ، واذا لم تتفق هذه الرئاسة مع تعاليم القرآن فانه لا يصح القول بان هذه الخلافة خلافة اسلامية لانه اذا كانت قد صادمت تعاليم كتاب الله الذى هو دستور الدعوة الاسلامية فهل يصح أن ينسب الى الاسلام ما هو متصادم مع دستوره ٠

٣ - ويتمثل التحيز الشديد فى تفسير الاسلام فى كتابات أرنولد توينبى : فقد حاول توينبى أن يصور المجتمع الاسلامى وكانه امتداد للمجتمع السريانى وأرجعه الى عناصر الاشوريين والفينيقيين والاراميين والايرانيين وقال ان الاسلام هو الاستجابة الوحيدة الناجحة التى قام بها المجتمع السريانى ليزحزح عن صدره طغيان الهلينية عليه وتحديها الكابح له ٠

وهكذا عجز توينبى أن يفهم الاصول الجديدة التى قام عليها المجتمع الاسلامى متكونا من جديد على مفهوم التوحيد الخالص ، وان الاسلام قد صهر هذه العناصر جميعا وصاغها صياغة جديدة وانه اخرج أهل هذه المجتمعات من الوثنية الى التوحيد ومن العبودية البشرية الى الاخاء الانسانى ٠

ومن اخطاء توينبى قوله ان الهجرة هى من انحدار الاسلام واعتباره

البهائية والقاديانية حركتين اسلاميتين ومن ذلك دعوته الى تبعية الشرق الاسلامى لموكب الحضارة الغربية .

٤ ـ كذلك جاءت فكرتا القومية والعالمية بمثابة تحديان أو خطـران يراد بهما هدم الرابطة الاسلامية ، فمبدأ القومية يستهدف العنصرية ومبدأ العالمية يستهدف القضاء على الذاتية الاسلامية والدعوة الى كليتهما قد سادت فى خط واحـد من أجل معارضة مفهوم الاسلام الذى دعا الى وحـدة فكرية واجتماعية بين أهله تعلو على العنصر والقومية والدم ، ولقد جاءت دعـوة القومية بتعريفاتها تستهدف ايجاد الصراع بين العرب والفرس والترك وهم جميعا مسلمون ، ويستهدف اعـلاء شـأن التـاريخ الاقليمى وذلك باذاعة دعوات الفرعونية والفينيقية والبابلية والاشورية وكلهـا موجـات سـابقة للاسلام ، وانبعاث لعهود مضت وقضى الاسلام عليها حـين صهرها فى بوتقة الوحـدة الاسلامية .

كذلك فان مبدأ العالمية الذى طرح على المجتمع الاسلامى انما أريد به صهر المسلمين وهم فى مرحلة المقـاومة والمجاهدة والمواجهـة للنفـوذ الاجنبى فى القـوى العالميـة للقضـاء على ذاتيتـهم وشخصيتهم الخاصـة المتميـزة .

ولقد كانت محاولة تفسير التاريخ الاسـلامى تفسيرا قوميا من أخطر محاولات التغريب والغزو الثقافى وهى ترمى الى وضـع (الاسـلام) فى بطن (العروبة) أو (القومية) وهى نظرية مادية لا تثبت للواقع التاريخى ولا تصـدق فى الفهم المجرد . وكيف يمكن أن يوضع الاسلام وهـو المنهج الربانى المنزل من السماء والذى غـير وجـود البشرية فى اطـار العروبة أو القومية وهى مفهوم بشرى فضـلا عن أن العرب لم يكن لهم وجـود قومى حقيقى الا بالاسلام فالاسلام هو الذى بنى للامة العربيـة وجـودها وفكرها وكيانها وحركة مجتمعها فمن العجب أن يوضـع فى اطار العـروبة ويقول البعض أنه انجـاز عربى .

ويقول الدكتور يوسف القرضاوى : ان تفسير تاريخنا الاسلامى تفسيرا قوميا يقوم على عصبية عروبية تنبذ الصفة الاسلامية من اجل ارضاء نزعة عرقية . ومن ذلك أنهم يعتبرون قضية فلسطين قضية عربية فتنحصر فى اطار ضيق وقد أدى التشبث بالقومية الى اهمال الاخوة الاسلامية فى طرحها ضد الوثنية والصهيونية والصليبية وقد أكدت أحداث الباكستان والفلبين ذلك ومازالت تؤكده وقد تسرب هذا المفهوم من الفكر العلمانى الغربى ، ومن ذلك تسميتهم للحضارة الاسلامية بالحضارة العربية ووصف الفتوحات الاسلامية بانها فتوحات عربية ، وتسمية علماء المسلمين على اختلاف أجناسهم ونحلهم عربا وان كان من بينهم أبو حنيفة وابن سينا والرازى والبيرونى وهذا تحريف تضافرت على نسج وقائعه جهود أفراد غير عرب رضوا بالاسلام دينا وعقيدة لهم . والتفسير القومى فى حد ذاته مناقض للحقيقة التاريخية ومناقض لعموم الرسالة التى لا تعترف بالحركات الطبيعية وهى محاولة لتركيز الشرف على العامل القومى بينما العامل العقدى أعظم منه ولا ريب أن القرآن قد أحدث تغييرا ملحوظا فى الالفاظ العربية والاستعمالات والاداء ، والحضارة الاسلامية هى التى جعلت المسلمين قادة الدنيا وهى ليست حضارة العرب وحدهم . ولقد كون الاسلام رجاله عربا وعجما تكوينا نفسيا وعقليا فصدروا فى حركتهم التاريخية على هداه وسننه . ولم يكن الاسلام مناقضا للمقومات الجنسية لكل أمة من الامم وشخصيتها النابعة من التطورات المختلفة عبر القرون ، وبالعكس فقد عمل على الحفاظ على الكيان الخاص لكل أمة دون تعارض مع المفهوم الاسلامى الجامع .

وكذلك فان محاولة التفسير القومى تزيف المفاهيم حين تزعم أن النبى محمداً ﷺ ان هو الا بطل من أبطال العرب ، وان الاسلام مجرد تعبير عن مكان عبقريتهم واختراع من اختراعاتهم .

وقد تنبه باحثون غربيون كثيرون الى أولية الاسلام وعمق جذوره وفساد هذه المحاولة حين قال ويلفر كانتول سميث : ان تاريخ الشرق

الادنى الحديث يدل على ان القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض والبنـاء وما لم يكن المثل الاعلى اسلاميا على وجه من الوجـوه فلن تثمر الجهـود ٠

وهكذا نجد أن النزعة القومية نزعة غير أصيلة وليست صحيحة ، وانما جـرى فيها المسلمون سواء كانوا عربا أم فرسا أم تركا فى هذه السـنوات الاخيرة متابعة للتيارات الغربية فى كتابة التاريخ وقد بلغوا منها مبلغـا شـديدا عندما مزقوا التاريخ الاسلامى مرتين مرة بجعله عربيا ومرة أخرى بجعله اقليميا وقوميا ضيقا وكانت محاولة انتزاع تاريخ اقليم او قطـر من تاريخ الاسلام عملية شديدة التزييف والخطأ والفساد لانها تلتمس وسـائل مصطنعة وهى عاجزة عن انتزاع جزء من التاريخ من مجرى هذا التاريخ الاسـلامى العام الذى يحمل البواعث ويحمل المقدمات ويحمل الوسـائل ويحمـل التحـديات ويجىء ذلك التاريخ ناقصا وزائفـا لانـه غير مرتبط باصوله وخيوطه العامة الممتدة الى اكثر من أربعة عشر قرنا ٠

وقد كان من أخطر أساليب هذه الدعـوة حجب الاخلاق الاسـلامية الثابتة واحياء التقاليد الشعبية والعادات الوثنيـة المتـوارثة والاستعلاء بالفرعونيات والفينيقيات على ما بها من زيف والتغنى بها بينما لا يوجـد فى تاريخ العرب أو المصريين والشوام او المغاربة أعظم أثرا من الاسـلام الذى صنع حياتهم من جديد فضلا عن ان قضية الانقطاع الحضارى بين ما قبل الاسلام وما بعده هى حقيقة لا ريب فيها وقد تبين ان الهـدف من الدعـوة الى القومية حجب التاريخ الاسلامى كله والحيلولة دون أن يكون المضمون الاسلامى هو عماد الحاضر والمستقبل والادعاء بان هناك فكرا مصريا أو عربيا منفصـلا عن الاسـلام ٠

ولقد سقطت هذه الدعوات وانهارت فى السنوات الاخـيرة بعـد أن تبين هدفها من محاولة اخـراج التاريخ الاسـلامى عن طريقـه الاصـيل بالتفسيرات القومية أو الماركسية أو الغربية المادية وبعد ان تكشـف فسـاد

نقـل واقتباس الانظمة الغربيـة أو الماركسية فى افق المجتمع الاسـلامى وضرورة التماس منهج الاسلام الاصيل لمنطلق حقيقى لبناء النظام الجديد ٠

ولقد كان من هدف التغريب والغـزو الثقافى عن طريق الارساليات والتبشير والاستشراق اشاعة هذه المذاهب المتعددة قومية وماركسية ومادية ولاثارة الاضطرابات والبلبلة والحيلولة دون جمـع العرب والمسلمين على وحدة تدفعهم الى الطريق الصحيح ٠

وقد جـرت محـاولات التعريب والاستشراق الى استخدام التاريخ فى سـبيل الدعـوة الى الاقليميات والقوميـات الضـيقة أو الى الشـيوعية أو الشعوبية لاثارة الاحقاد والفتن بين أبناء الامة الاسلامية الواحدة واحياء الدعوات الباطنية والطائفية والطبقية والفرق الضـالة من جـديد لتمزيق وحـدة هذه الامة ولدفعها الى التناحر والصراع ٠

ولقد آن للعرب والمسلمين ان يتنبهوا الى الخطر الذى يأتيهم من محاولة تفسير تاريخهم عن طريق واحـد من هذه المناهج ، وانما الهـدف هو تمزيق الجبهة الواحدة ولقد كان هـذا من أخطر ما مارسته القـوى الاستعمارية وما تزال تعمل به لتعميق الفرق وبعثرة القوى بالدعـوة الى الاقليميات والقوميات ويفسر التاريخ تفسـيرا ماديا او ماركسـيا وسـتظل الصـورة على جمع الشمل والوحدة والتكامل الجامع ، عاجزة ومضطربة لم تكشف فساد هذا الاتجاه وتشجعه وتلتمس الاصالة ٠ ولقد كانت التجربة واضحة غاية الوضوح بعد ذلك الصراع الطويل ٠

أولا : لقد عجزت مناهج الشرق والغرب جميعا عن استيعاب النفس العربيـة الاسلامية ٠

ثانيا : أن المنهج الذى طرح عن القومية منهج غربى مجاف لمفهـوم الاسـلام لانه يفصـل العرب عن غيرهم ويفصل العرب عن الاسلام ويفصل المجتمع عن روح الدين والخلق ٠

عصارة البحث

أولا : التاريخ هو صورة تحقيق خلافة الانسان فى الارض وتعمير الكون والحياة فى هذه الارض بالنسبة للانسان فترة اختبار يمتحن فيها بشتى الوقائع المضادة ليحتل مكانه الجدير به فى تطبيق منهج الله ومقاومة القوى التى تريد افساد الارض وتدمير المجتمعات وعلى الانسان أن يثبت أنه على مستوى الامتحان وأنه أهل للامانة الملقاة على عاتقه ٠

ثانيا : غاية التاريخ الاسلامى الوصول الى قيام المجتمع الربانى فى الارض والتمكين له ، على أساس الاطار الانسانى والعدل والرحمة ، والتاريخ الاسلامى هو الثمرة الصحيحة للتاريخ الانسانى عن طريق بناء المجتمع الربانى وعصارة تجربة النبوة ٠ والتاريخ بالنسبة للحاضر : هو معرفة الظروف التى كونت هذا الواقع ولذلك فان علاج هذا الواقع لا يتحقق الا اذا تعرفنا على العقبات لمواجهتها والتمسنا المسار الاصيل ذلك أن فهم الماضى ضرورة لادراك الحاضر ، وأن تكوين الوعى التاريخى ضرورة لفهم مشاكلنا الحاضرة ٠

ثالثا : ليس هناك حتمية تاريخية تقود الانسان الى مصيرها فاعمال الانسان المختارة هى السبب فى صنع التاريخ وهو المسئول عن حركته وليس مجرد حتمية لقوانين ساذجة محدودة تنطلق به من مرحلة الى مرحلة ومن هنا فالتاريخ هو حركة الانسان فى الحياة ولقد تبين فساد رأى الماديين الذين ارادوا أن يدخلوا التاريخ فى نطاق العلاقة الطبيعية وزعموا أنهم يستطيعون التحكم فى مجراه على هذا الأساس ، وضع قواعد عامة تتحكم فى مجراه وتحدد اتجاهه ٠ ذلك لان كل جماعة من البشر تواجه الظروف الجغرافية والتاريخية والبشرية والمشاكل على نحو مختلف ٠

ومن ثم فانه لا يمكن التحكم فى سير التاريخ لان مادة التاريخ هى الانسان والانسان يتميز بخاصتى الذكاء والشخصية ولما كان الذكاء لا يمكن قياسه أو التحكم فيه ولما كانت الشخصية تختلف من انسان الى انسان

فان من شأن هذا أن يدحض فكرة اخضاع التاريخ للمناهج المادية والتجريبية .

رابعا : الصراع يجرى فى التاريخ بين قوتين : قوة الخير الربانية التى تمثل الجماعة التى صنعتها النبوات وقوة الشر التى تمثل الجماعة التى صنعها الفكر البشرى القائم على الوثنية والمادية والاباحية .

والصراع سمة مرحلة من مراحل الانهيار والأفول ومنها يفقد الانسان القدرة على الحركة نحو الاصالة والتقدم وهو ليس السمة العامة المسيطرة على حركة التاريخ كله ، أما الحياة والمجتمعات وحركة الكون كله فانها تسير على طريق التعاون والتكامل بين العناصر المتعارضة وليس عن طريق الصراع ، وان التقاء السالب مع الموجب هو تكامل لا تناقض .

خامسا : كل تفسير للتاريخ يكتفى بالتهويل على جانب واحد من النفس الانسانية فهو تفسير ناقص ، وان أصدق تفسير للتاريخ وهو الذى يدرك الجوانب الانسانية وينظر الى الحياة الانسانية من مختلف جوانبها .

كذلك فان تقسيم التاريخ الاسلامى على مفهوم التاريخ الغربى وعصوره تقسيم خاطىء ، وأبرز هذا الخطأ اعتبار العصور الوسطى هى عصور ظلام مع تجاهل ان العالم الاسلامى فى هذه العصور كان يحمل لواء الحضارة ، ومن الخطأ القول بان هناك حضارة واحدة هى الحضارة الغربية وانها امتداد للحضارة اليونانية الرومانية وكذلك خطأ تقسيم شعوب العالم الى فئات وأجناس واعلان نزعه العنصرية فى الجنس الابيض أو شعب الله المختار .

سادسا : خطأ فهم الاسلام على انه دين صلاة وصوم وحج ، او أن القرآن كتاب عبادة وتراتيل ، وخطأ دراسة حياة الرسول منقطعة الصلة عن تأثيرها فى التاريخ الاسلامى على مر العصور وخطأ التركيز على المتاعب التى تستهدف سوء القصد وسوء الفهم ، كذلك لا يمكن فهم

التاريخ الاسلامى فهما واقعيا نقيا دون معرفة عقيدة الاسلام وشريعته ولا يمكن فهم التاريخ الاسلامى الا بالتفرقة الواضحة بين منهج الاسلام وبين تاريخه .

سابعا : ليس تاريخ الاسلام تاريخ حروب ولا تاريخ مناورات سياسية ولم تكن حروب الاسلام بمعنى الغلب ولكن بمفهوم الجهاد فى سبيل الله وغايته السامية .

وحدة تاريخ الاسلام واضحة فهو متصل الحلقات يصب ماضيه فى حاضره ويمهد لمستقبله وتاريخ الاسلام لم يفقد خلال أربعة عشر قرنا عنصر الوحدة والاتصال يوما واحدا .

ثامنا : لقد تبين فساد التفسير المادى الذى يحاول أن ينفى عن الاسلام طبيعته الربانية ، وتشوهه فى نفوس أهله ، ولم يصدق القول بأن للفتوحات الاسلامية دوافع اقتصادية فقد حفل تاريخ الاسلام بالقادة الذين لا يذكرون أسماءهم ، والذين كانوا فى معاركهم أقل عددا وعدة وتنظيما وامكانيات وتدريبا والذين تركوا كل ما يملكون فى مكة لقريش والذين اقتسموا ما لديهم من اخوانهم المهاجرين والذين قدموا أنفسهم وارواحهم فى لظى المعارك والذين ردوا الجزية لاهل حمص عندما انسحبوا منها ، والذين عبروا نهر دجلة ابان زيادته ولم ينتظروا نقصانه .

وليس التاريخ الاسلامى موجة كاحدى الموجات الاخرى فى التاريخ وليس الاسلام دعوة أدت دورها أو استنفدت أغراضها وتلك النماذج الفاخرة قد صنعها الاسلام ولم تصنعها البيئة أو العرق .

لقد كان انتشار الاسلام هو اللغز الذى ادهش المؤرخين ، وعجز عن فهمه المستشرقون ، فقد جاء دون تفوق فى العدد أو العتاد وخفى وسره ، وسره هو الايمان بالله الذى بعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور ومن عبادة العباد الى عبادة الله ، وهو الايمان بأن الله قد ضمن لهم النصر ووعدهم الشهادة فوثقوا بنصر الله واندفعوا يحطمون القوانين المادية فادهشوا العالمين .

الباب الخامس

تصحيح اكبر خطا فى تاريخ الاسلام الحديث

الفصـل الاول
تصحيح اكبر خطأ فى تاريخ الاسلام الحديث

تكشفت فى السنوات الاخيرة حقائق كثيرة كانت خافية واذيعت أسرار كثيرة ظلت فى طى الكتمان اعواما واجيالا ٠ وقد كان لظهور هذه الحقائق والاسرار أثرها البعيد فى مجالات مختلفة وامور كثيرة ، وكان ابرز هذه الوثائق « بروتوكولات صهيون » وكانت قد أصبحت كالمسلمات مما استدعى اعادة النظر فيها ومراجعتها من جديد ٠ وكان من أبرز هذه الامور ما اعترض تاريخ الإسلام الحديث من مواقف ارتبطت بالدولة العثمانية والصهيونية العالمية ومحاولة استيلاء اليهود على فلسطين ، ففى خلال هذه الفترة من حياة الدولة العثمانية كانت المطامع المتضاربة بين الدول الغربية من ناحية والصهيونية العالمية من ناحية أخرى قد عملت على حجب كثير من الحقائق وتزييف جانب آخر منها فى محاولة عاتية لتمزيق الوحدة الاسلامية للنيل من الخلافة الاسلامية ولفتح الطريق للقوى الصهيونية الى فلسطين واقامة الحواجز الاقليمية العميقة بين أجزاء العالم الاسلامى وخاصة بين اقطار البلاد العربية وذلك حتى تمكن هذه القوى الجديدة من الوثوب والسيطرة باعتبارها شريكا للاستعمار الغربى وبديلا عنه من خلال مطمع عقائدى يرتبط بأرض الميعاد ، وبتاريخ قديم لليهود متصل بها ٠ ومن خلال هذه المحاولات الواسعة زيف تاريخ الاسلام الحديث ووضعت خطط وكلمات ومصطلحات أصبحت بمثابة المسلمات التى رددتها كتب المدارس ومدرجات الجامعات ومقالات الصحف على انها التصور الحقيقى للامور ٠ وكلها تقول : بالسلطان الاحمر والاستعمار التركى والاستبداد العثمانى والصراع بين الغرب والترك والقومية الطورانية ٠ ومن هنا نشأ تصور مازال مطروحا فى أغلب كتب التاريخ والادب العربى وخاصة فى المناهج المدرسية والجامعية قوامه :

١ ـ ان السلطان عبد الحميد كان رجلا مستبدا ظالما ، وانه كان يلقى خصومه بالعشرات فى الدردنيل وكانت له قوى ضخمة تشتغل بالجاسوسية وتصادر الحريات ٠

٢ - ان الدولة العثمانية كانت دولة مستعمرة سيطرت على البلاد العربية بالقوة وجنت اليها ثمراتها وتركت تلك البلاد فقيرة ضعيفة .

٣ - ان الاتحاديين فى الدولة العثمانية كانوا قوة تقدمية عصرية بينما كانت القوى الاخرى قوى رجعية متخلفة .

٤ - ان دعوة السلطان عبد الحميد الى الوحدة الاسلامية كانت قد تجاوزها الزمن وفات أوانها وان الدعوات القومية كانت هى أسلوب العصر .

منذ أن عقد مؤتمر بال فى سويسرا عام ١٨٩٧ بزعامة الصحفى اليهودى هرتزل وبعد صدور كتاب الدولة اليهودية بقلمه كان قد انفتح مجال جديد للعمل فى مواجهة العالم الاسلامى لشق الطريق الى فلسطين لاقامة وطن قومى لليهود بها من خلال مخطط القوى الاستعمارية التى كانت قد انطلقت منذ ١٧٩٩ الى مصر تحت اسم الحملة الفرنسية ثم الى الجزائر ١٨٣٠ ثم الى مصرمرة أخرى ١٨٨٢ والى تونس قبل ذلك بعام واحد ، وفى هذه المرحلة كان الصراع قويا بين الاستعماريين الفرنسى والانجليزى فى المنطقة التى تضم الدولة العثمانية التى كانت تمثل الوحدة العربية التركية - ولكى تكتمل الصورة فان هولندا كانت قد سبقت ذلك بوقت طويل بالاستيلاء على الملايو وجاوه وما يطلق عليه الآن أندونيسيا وكانت بريطانيا قد احتلت الهند وكانت أجزاء من الخليج قد سقطت فى أيدى اسبانيا والبرتغال ثم ورثتها بريطانيا وكان هذا كله جزءا من مخطط الاستعمار الغربى الحديث الذى تكامل فى نهاية الحرب العالمية الاولى بايقاع الصراع بين العرب والترك فى المناطق العربية (الحجاز والشام والعراق) وحلول فرنسا وانجلترا بدلا من الدولة العثمانية فى هذه المناطق بعد معركة ادارتها انجلترا بقيادة لورنس الذى وصف فى يوم من الايام بانه ملك العرب غير المتوج .

كان المخطط معدا لأن تعطى فلسطين فى هذا المسرح الذى مثلت عليه هذه الرواية كلها للصهيونية العالمية . وأن استيلاء بريطانيا على فلسطين عام ١٩٤٨ كان تمهيدا لأن تقع بما فيها بيت المقدس فى يدى اليهود .

ومراجعة الاحداث تنبىء بهذا التخطيط الواسع البعيد المدى الذى بدأ منذ وقت باكر يسبق لقاء هرتزل للسلطان عبد الحميد . وهو فى حقيقته صراع بين ارادتين . الارادة الاولى : هى ارادة السلطان عبد الحميد الذى تولى الملك فى سبيل الوحدة فى مواجهة الاستعمار تحت اسم الجامعة الاسلامية لتعمل مع جميع مسلمى العالم خارج نطاق الدولة العثمانية ولتوحيد كل القوى والمذاهب والاقطار .

ولا ريب كانت هذه الحركة مضادة لارادة أخرى كانت تستهدف تمزيق الدولة العثمانية نفسها وليس لتمكينها من ان تجمع اليها أقطار المسلمين الاخرى التى فى خارجها ولذلك كان لابد من ازاحته ، كذلك فان اليهودية العالمية والقوى الغربية كلها عملت فى سبيل السيطرة على البلاد الاسلامية وتقسيم الامبراطورية العثمانية بعد أن عمدت الى انهاكها سنوات عدة بالحروب والمؤامرات وحين باتت لقمة سائغة جاء السلطان عبد الحميد ليعقد الخناصر على مقاومة الاستعمار ولذلك كان لابد من ازاحته ، كذلك فان اليهودية العالمية كانت ترى أن الدولة العثمانية هى مدخلها الى فلسطين وكانت تعد العدة منذ وقت بعيد فى بؤرة خطيرة داخل تركيا هى سالونيك التى كانت تتجمع فيها (الدونمة) أولئك الذين دخلوا الاسلام تقية ، من يهود أسبانيا الذين هاجروا بعد خروج الحكم الاسلامي منها ، والذين كانوا قد انشأوا المحافل الماسونية لاعداد خطة الانقضاض على الدولة العثمانية . والذين استطاعوا احتواء جماعة الاتحاد والترقى والتغلغل فيها والسيطرة عليها ومن ثم استطاعوا بها اقصاء السلطان عبد الحميد واسقاط مشروعه والقيام على الدولة لتمزيقها والقضاء عليها ، ولا عجب ففى ظل حكم الاتحاديين بعد اسقاط عبد الحميد منذ عام ١٩٠٩ الى ١٩١٨ هزمت الدولة فى الحرب العالمية وسلمت طرابلس الغرب الى بريطانيا وفتحت الطريق أمام اليهود الى فلسطين .

هذه المرحلة الدقيقة الخطيرة من تاريخ الاسلام فى العصر الحديث مازالت تشوبها الشوائب وتحول قوى كثيرة دون الكشف عن حقيقتها ،

ومازالت الصورة التى رسمتها الصهيونية والاستعمار لها هى الصورة الرسمية القائمة فى كتب المدارس والجامعات بالرغم من الحقائق الكثيرة التى تكشفت والتى ازاحت الظلم عن وجه الرجل الكريم السلطان عبد الحميد وعن موقفه ٠

والحق أنه ليست هناك شخصية فى تاريخ الاسلام الحديث هوجمت بمثل ذلك العنف والتعسف الذى هوجم به السلطان عبد الحميد حتى كشفت الوثائق فى السنوات الاخيرة ، ليس عن براءته بل عن بطولته ومن عجب أن أبرز النصوص التى أحقت الحق ، جاءت فى مذكرات هرتزل التى نشرت باللغة العربية ٠

ولنعد الى حقيقة الصراع بين القوى الاسلامية بقيادة عبد الحميد وبين القوى الاستعمارية واليهودية لنعرف مدى ما حققه اسقاط عبد الحميد تمهيدا لالغاء الخلافة الاسلامية ٠

لكى نعرف حقيقة حركة الوحدة الاسلامية الجامعة التى قام بها عبد الحميد يجب أن نتصور بوضوح واقع الدولة العثمانية والعالم كله خلال النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، وقد بلغت الدولة العثمانية أشد مراحل الضعف وقد تجمعت الدول الغربية على وضع الخطط للقضاء عليها وتمزيقها واذلالها ٠ وقد كانت روسيا وبريطانيا والمانيا وفرنسا جميعا بالاضافة الى البابوية تشترك فى رسم هذه الخطط وفى انتزاع الاجزاء الاوروبية من الدولة واسترجاعها والاستعداد لتقسيم الاجزاء العربية فى الدولة وهى الشام والعراق والجزيرة العربية ٠

وكانت مخططات الصهيونية العالمية تركز تركيزا شديدا على الدولة العثمانية من أجل الوصول الى فلسطين وتحقيق حلمها فى اقامة هيكل سليمان ٠ فلما ولى السلطان عبد الحميد الحكم خليفة للمسلمين وسلطانا للدولة العثمانية واجه الموقف على نحو يختلف عما واجهه به سلاطين آل عثمان الذين سبقوه وكانت مواجهته جادة حاسمة ٠ كان احساسه

بالتبعة كبيرا وكان ذكاؤه وسعة فكره والمامه بالتيارات المختلفة بالغا ، ومن هنا فقد جرى مع الاحداث فى طريقها المرسوم شوطا ثم لم يلبث أن وضع خطته المحكمة التى رأى أنها الطريق الوحيد لمواجهة الغزو الاستعمارى الزاحف والذى كان قد تشكل داخل الدولة العثمانية فى مؤسستين خطيرتين . احداهما : المحافل الماسونية فى سالونيك وتركيا الفتاة التى سميت بعد (الاتحاد والترقى) والتى ضمت مجموعة من المثقفين ثقافة غربية ومن أصحاب الولاء الفكرى الغربى وخاصة الفرنسى ومن الذين أغروا عن طريق المستشرقين وكتاب الغرب بأنه لا سبيل أمام الدولة العثمانية لكى تصل الى التحرر والقوة الا بالتماس مناهج الغرب التماسا كاملا وطرح فكرها وأسلوبها ومنهجها الاسلامى القديم والتخلص منه الى غير رجعة ، غير أن هذه الجماعة لم تستطع أن تقف وحدها فالتمست العون من المحافل الماسونية ومن ثم احتوتها الحركة الصهيونية وسيطرت عليها ووجهتها الوجهة التى ارتضتها فى القضاء على الدولة العثمانية وكان السلطان عبد الحميد قد حدد هدفه فى مواجهة النفوذ الغربى على هذا النحو : أن الوسيلة الاساسية لمواجهة النفوذ الاستعمارى هى تجمع المسلمين فى كل مكان تحت جناح الخلافة الاسلامية الذى تحمل لواءه الدولة العثمانية الجامعة فى كيانها بين العرب والترك ، ومن هنا فقد كان على السلطان العثمانى الذى هو خليفة المسلمين أن ينادى المسلمين فى جميع أنحاء الارض أن يقفوا معه فى صف واحد فى مواجهة النفوذ الغربى ومن هنا كانت صيحته المعروفة المشهورة التى هزت الغرب كله : « يا مسلمى العالم اتحدوا » .

ومن هنا بدأ الخطر الذى واجهته الدول الاوروبية والاستعمار والبابوية والصهيونية العالمية فى عنف وأخذت فى التماس كل وسائل التآمر والغدر فى سبيل تحطيم الخطة والقضاء على القائم بها . ولكن السلطان عبد الحميد استطاع أن يصمد لذلك وقتا طويلا ذلك أنه كان قد بدأ هذه الحركة عام ١٨٧٩ على وجه التقريب فقد ظل يحمل هذا اللواء فى قوة

فى مواجهـة عواصف السياسة الاوروبية ثلاثين عاما كاملة دون أن يتزلزل أو يضعف .

لم يكن السلطان عبد الحميد يملك من القوة العسكرية ما يستطيع أن يواجـه به أوروبا والغرب المتجمع ضد الاسلام غير كلمة (لا اله الا الله) وما تحت لواء الخلافة من قوة عارمة خشيت باسها أوروبا وحسبت لها الف حساب ، فقد كان المسلمون الموالون للسلطان تحت النفوذ الغربى فى عديد من الاقطـار التى احتلتها بريطانيا وفرنسا وخاصة قارة الهند يمثلون قـوة روحية ذات أهمية خطيرة . ولقد مضى السلطان فى تنفيذ مخططه فى قـوة وسرعة ، بحيث شملت الدعوة كل الآفاق الاسلامية وذاعـت فى كل مكان وحملت معها عملا ايجابيا نافعـا قوامه المدارس والمنشآت فى كل صقع من البـلاد الاسلامية . وكان قد انشـأ مدرسة للدعاة الذين سرعان ما انبثـوا فى كل أطراف العالم الاسلامى الى الهند والصـين وجـزائر المحيط ومصر وأفريقيا وتركستان وأفغانستان وبلاد العرب وأطراف المملكة العثمانية ، كما عقد مع الامراء فى شتى هذه البقاع مراسـلات وعقودا وعمق روابط الود والاخاء الاسلامى فيما بينهم وبين دولة الخلافة حتى قيل أنه لـم يبـق مسلم واحـد لم يعرف طرفا عن هذه الدعوة . وقد جعل السـلطان عبد الحميد أمامه أمرين هامين :

الاول : أن يكون أهل بلاد العرب هم ساقة هذه الدعـوة وحمـلة لوائها ومن هنا فقد اتخـذ فى كل قطر عربى « مشـيرا » له فجمع حوله علماء وامراء من الجزائر والشـام ومكة ومنهم أبناء الامير عبد القـادر الجزائرى وغيره من أمراء المسلمين .

الثانى : هو انهاء الخلاف الذى أججه الاستعمار بين السـنة والشيعة أو بين الاتـراك والفرس . وقـد استخدم لـذلك علامة كبيرا هو السـيد جمال الدين الافغانى وأجرى صلحا مع شـاه فارس وصفى أمر الخلافات القديمة كلهـا .

ولم يتوقف عند هذه الحركة الفكرية وحدها انما جعلها ولجهة لعمله الكبير الذى بدأه فى بناء القوة الحربية والعسكرية وتقوية جيوشه وأساطيله فقد استخدم بعثة المانية ولم يلبث ان انشأ معاهد عسكرية دخلها عدد كبير من الشبان المتازين من شباب العرب من العراق وسوريا ومصر . وقد مضت الخطة الى غايتها المرجوة فاشتد عصب المسلمين بالترابط وتوحدت فكرتهم بالعمل الجامع ، وكان دعاة الفكرة الاسلامية ينشرون ثقافة جديدة قوامها مواجهة الاستعمار الغربى الزاحف والخطر الاوروبى القيصرى الصهيونى جميعا ، وتركزت الآمال حول السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين وترابطت الدول الاسلامية وأهلها حول عاصمة الخلافة على نحو بلغ غاية القوة (فكانوا يذكرون اسمه فى خطب الجمعة ويدينون له بالولاء والطاعة الروحية باسم خلافته على المسلمين كافة) وجلهم من رعايا دول اوروبا فى الهند وجزر الهند الشرقية وشمال أفريقيا ، وكان السلطان على حد تعبير محمد رفعت باشا فى كتابه التوجيه السياسى للفكرة العربية « يفاوض الدول ألكبرى ويساومها بل يهددها أحيانا ملوحا بسلاح الجهاد الدينى ، واستطاع السلطان أن يجمع تحت لواء الدعوة ابرز المسلمين فى مجال الفكر والسياسة وفى مقدمتهم : خير الدين التونسى وجمال الدين الافغانى وأبو الهدى الرفاعى الصيادى وأبناء الامير عبد القادر الجزائرى » .

وأقام من العرب فرقة خاصة ضمها الى الحرس السلطانى وولى كثيرا منهم مناصب رئيسية فى الدولة وفى مقدمتهم أحمد عزت العابد . وكان من أكبر أعمال السلطان فى هذا الصدد : انشاء سكة حديد الحجاز التى تربط بين دمشق والمدينة وكذلك فرعها الذى يربط بين الحجاز وبغداد وقد وجد هذا العمل تقديرا بالغا من المسلمين فى كل مكان وتبرعوا له باكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات الذهبية ، فكان من اخطر المشروعات التى عجلت بالقضاء على السلطان فقد كان منذرا للغرب بتغير اسلامى كبير . وقد استهدف فى الاغلب القضاء على دسائس الانجليز

ومؤامراتهم فى البحر الاحمر والجزيرة العربية وكان من أخطر مواقف الحركة الاسلامية الواحدة التى دعا اليها وحمل لواءها عبد الحميد : هو معارضة أهداف الحركة الصهيونية فى السيطرة على فلسطين ومواجهتها .

ومن هنا انطلقت الصحافة الاوروبية وتابعتها الصحافة العربية التى ظهرت فى مصر والتى قاد حركتها خريجو الارساليات التبشيرية ، من أمثال : سليم سركيس وفارس نمر ويعقوب صروف وفرج أنطون وغيرهم الذين حملوا لواء التشهير باللواء (مصطفى كامل) ومعارضته واشاعة الاتهامات المختلفة حول شخصيته وتصويره بتلك الصورة الرديئة لحساب الصهيونية العالمية التى انطلقت لاشاعة روح الكراهية والانتقاص للرجل بعد موقفه الحاسم الكريم من مطالبهم وكان أعظم ما تركز عليه هذه الحملة اثارة عوامل الفتنة بين قيادة الحركة الاسلامية وبين العناصر المختلفة فى الدول العثمانية وخارجها .

وكان أقوى من هاجم حركة السلطان عبد الحميد فى مصر اللورد كرومر الذى حمل على فكرة الجامعة الاسلامية حملة ضارية ودعا الدول الاوروبية فى تحريض سافر الى التجمع للوقوف فى وجه هذه الدعوة وكذلك هاجمها هانوتو الفرنسى واللورد غراى ووصفوها بانها بؤرة التعصب الدينى وانه ليس القصد منها الا تحدى قوات الدول الغربية المسيحية . وقد حملت جريدة المقطم فى مصر لواء معارضة هذه الدعوة .

ولقد شهد كثيرون باصالة هذه الحركة وقوتها واثرها ، يقول الدكتور توفيق برو : انها كانت كرد فعل للحركة الاستعمارية الاوروبية الطاغية وان قادتها كانوا من الدعاة المبرزين وقد أذكى نار هذا الشعور أئمة من افاضل العلماء امثال جمال الدين ومحمد عبده ومصطفى الغلايينى ورشيد رضا الذين قاموا باستغلال هذا الشعور فى سبيل سيطرة السلطان فى الداخل وتقرير مكانة الدولة فى الخارج .

وبعد فلقد كان السلطان عبد الحميد سياسيا قديرا وقرما من اقـرام السياسة الدولية ولولا ذلك ما استطاع أن يصمد فى وجـه هذه الرياح العاتية وكان قادرا على التعرف على مختلف التيارات والمؤامرات وكان يفهم أبعاد الخطر الداخلى الذى يؤججـه الاستعمار والصهيونية عن طريق حـزب تركيـا الفتاة وكيف تسـيطر عليهم الماسـونية العالميـة وتوجههم لصالحها كما كان يعرف نقاط الضعف فى الدول الغربية وأوجه الخـلاف بين بعضها البعض فيستغلها ويستفيد منها . ولست أستطيع أن أصـور هـذا المعنى بأعظم مما صوره به جمال الدين الافغانى : الذى التقى بالسـلطان ساعات ومرات وتدارس معه شئون العالم الاسلامى ومخاطر السياسة الاوروبيـة ومخططاتها . وذلك بعد أن قدم الى الأسـتانة قال : رأيتـه يعلم دقائق الامـور السياسية ومرامى الدول الغربية وهو معد لكل هـوة تطرأ على الملك مخرجا وسلما . وأعظم ما أدهشنى ما أعده من خفى الوسـائل وأمضى العوامل كى لا تنفق أوروبا على عمل خطير فى الممالك العثمانيـة ويريهـا عيـانا محسوسا ، ان تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن الا بخـراب يعـم الامم الاوروبية بأسرها . وقال : ان ما رأيته من يقظة السـلطان وشـدة حذره وأعداده العدة اللازمة لابطـال مكايد أوروبا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة قد دفعنى الى مد يدى له فبايعته بالخلافة والملك . أ . هـ .

ولقد أكد كثيرون من المؤرخـين والباحثين فى انصـاف أن السـلطان عبد الحميد كان آخر الحصون التى دافع بهـا الاسلام عن وجـوده العالمى وبعد انهياره تمت مؤامرات الغـرب وربيبته الصهيونية . ومن الحـق أن يقال ان الحـركة التى حمل لواءها السلطان عبد الحميد فى تجميع المسلمين تحت لواء الخلافة كانت اتجاها طبيعيا وأملا يملأ كل النفوس ، ولذلك فقد حققت نجاحا كبيرا ، أزعج الاستعمار والصهيونية ازعاجـا شـديدا مما استدعى العمل من جانبهم لاجهاضه والقضاء على حامل لواء الدعـوة أصـلا كوسيلة للقضاء عليها وتدميرها .

فى هذا الضـوء يتمثل العمل الذى قامت به الصهيونية من جانبين :

أولا : من جانب الدونمة داخل الدولة العثمانية وخاصة فى محاصرة السلطان والتآمر عليه .

ثانيا : من ناحية الصهيونية العالمية فى التفاهم مع السلطان عبد الحميد واليأس منه واصدار القرار الحاسم بالعمل على اسقاطه .

أولا : الدونمة : هى القوة اليهودية الكامنة داخل الدولة العثمانية التى اختارت مدينة سالونيك ودخلت الاسلام بعد تاريخ طويل معروف ، وهى التى انشأت المحافل الماسونية فى الدولة العثمانية لهذه الغاية واتصلت بجماعة الاتحاد والترقى (وحزب تركيا الفتاة) وأفسحت له فى محافلها الفرصة للعمل ، وتلاقت الرغبات على التخلص من الوجه الاسلامى لتركيا ومن السلطان عبد الحميد . وكان ذلك قد بدأ يأخذ طريقه بقوة منذ أعلن السلطان عبد الحميد دعوته الى المسلمين بالاتحاد . وكانت قوى كثيرة تشارك اليهودية العالمية فى هذا الاتجاه وقد كان السلطان عبد الحميد يعرف هذه القوى التى يواجهها فى الداخل ويعرف المؤامرة التى تدبر لفكرته وله وكان يعرف أبعاد المخطط كله : فئة المثقفين الغربيين الذين سيطرت عليهم أفكار الثورة الفرنسية ربيبة المحافل الماسونية من ناحية وحركة الارساليات الاجنبية فى لبنان وثمارها المنبثة فى مصر وسوريا والبلاد الاسلامية تحمل أحقادها على الاسلام والوحدة الاسلامية والمحافل الماسونية فى سالونيك . واذا كان السلطان قد عارض مدحت وحزب تركيا الفتاة فقد كان عالما بانهم واقعون تحت نفوذ الماسونية العالمية أداة الصهيونية العالمية فى ذلك الوقت ، وان موقفه دون تمكين اليهود من فلسطين قد حرض كل هذه القوى وأمدها باشارة الانقضاض . ان تصريحات كثيرة للسلطان عبد الحميد تكشف أنه كان عالما باهداف الصهيونية فى هذا الوقت المبكر ، ولذلك فقد كان وقوفه فى وجه الاتحاديين وتركيا الفتاة وعمله على تحطيم مخططاتهم ليس نابعا من كراهية لنهضة الدولة العثمانية فحسب ولكنه كان عمقا فى النظرة الى الاهداف البعيدة لتدمير هذه القوة التى كانت تحمى آمال المسلمين داخل الدولة وخارجها .

ولقد صدقت نظرة السلطان عبد الحميد على الاتحاديين بعد أن دخلوا التجربة فعلا وسيطروا على الحكم من ١٩٠٩ الى ١٩١٨ وما قاموا به من تسليم كامل للدولة وتبعية كاملة لمخططات الاستعمار والصهيونية مما كشف أصالة عبد الحميد وبعد نظره وجلال موقفه الحاسم فى وجه النفوذ الاستعماري نفسه بالدعوة الى الوحدة الاسلامية وفى نفس الوقت بمقاومة هذه التبعية التى كانت تحمل مظهرا براقا هو الاصلاح على طريقة الغرب بينما كانت تحمل فى أعماقها ايمانا بالفناء فى الغرب كله ، ولقد خدع المسلمون والعرب بالاتحاديين وأقاموا الافراح وسرعان ما اكتشفوا أنهم سلموا أنفسهم الى فك الاسد وأنيابه . ان مقدرة عبد الحميد على فهم ما يحيط به كانت أكبر مما يظن كثيرون ولكنه كان فى موقف لا يستطيع معه أن يكاشف المسلمين بالاخطار التى تحيط به .

لقد كان اليهود يرون فى السلطنة العثمانية شبحا مخيفا خطرا على مستقبلهم كما يقول الدكتور محمد على الزغبى فى كتابه الماسونية فى العراء وكانت الدونمة بكل مؤسساتها وتداخلاتها أداة التنفيذ فى الوقت المناسب .

ثانيا : بعد أن عقد مؤتمر بال ١٨٩٧ وكانت حركة الوحدة الاسلامية قد استحصدت ، كانت وجهة نظر اليهود هى اقتحام فلسطين ولذلك فقد تركزت الخطط حول الدولة العثمانية وحول السلطان عبد الحميد فى محاولة لاحتوائه ظنا منهم أنه فى ظرف من الضعف وفى حالة من الاستدانة تجعله يخضع للاغراء ، اغراء اليهود بالذهب وهم من قبل أصحاب العجل الذهبى ، وبدأت المحاولات منذ ذلك الوقت واتخذت وسائط كثيرة ووسائل متعددة منها وساطة الامبراطور غليوم ولقاء اليهود الثلاثة مزراحى قراصوا ـ جال ـ ليون) ولقاء هرتزل ومعه موشى ليوى حاخام اليهود فى الدولة العثمانية ولقاء السفير اليهودى غوش وهى سابقة على مقابلة اليهود الثلاثة ثم لقاء هرتزل للسلطان ولرجال قصره .

وقد عرض من خلال هذه المقابلات مشروع يرمى الى تقديم قرض للدولة العثمانية يبلغ خمسين مليونا من الجنيهات الذهبية وخمسة ملايين

حنيه لخزانة السلطان الخاصة . وبنـاء اسـطول كامل للدفاع عن أراضى الدولة العلية .

وذلك فى مقابل السماح لليهود بانشـاء مستعمرة صغيرة لهم قـرب القدس ينزل بها أبناء جلدتهم .

وحتى لا نطيل والتفاصيل كلها موجودة والمراجع ثابتة : ننوه بالرد النهـائى للسلطان عبد الحميد : بلغوا الدكتور هرتزل الا يبذل بعد اليـوم شيئا من المحاولة فى هذا الامر (التوطن بفلسطين) فانى لست مستعدا ان **اتخـلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب الى الغير فالبلاد ليست ملكى بل هى ملك شعبى روى ترابها بدمائه . فليحتفظ اليهـود بملايينهم من الذهب فان الدولة العلية لا يمكن أن تختبىء وراء حصون بنيت بأمـوال اعـداء الاسـلام .**

لست مستعدا لأن أتحمل فى التاريخ وصمة بيع بيت المقدس لليهـود وخيانة الامانة التى كلفنى المسلمون بحمايتها .

ان ديون الدولة ليست عارا لأن غيرها من الدول الاخـرى مـدين مثل فرنسـا .

ان بيت المقـدس قـد افتتحه المسلمون أول مـرة بخـلافة سـيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولسـت مستعدا ان اتحمل فى التاريخ وصمة بيعهـا لليهود وخيانة الامانة . وقد اورد هرتزل فى مذكراته التى طبعت بالالمانية فى تل ابيب عام ١٩٢٤ قصـة هذه المحـاولات وقال بعد فشـل المحاولة الاخيرة : ان السلطان عبد الحميد الشريف الفذ الذى اخفى عن المسلمين والعرب منذ عام ١٩٠٩ حتى سنوات قريبة عندما ترجمت مذكرات هرتزل وكان أول من اشـار الى هذا النص الاسـتاذ احمد الشـقيرى فى دروسـه فى معهد الدراسات العربية بالقاهرة منذ عشر سنوات وقد ظـل المسلمون والعرب خلال فترة لا تقل عن خمسين عاما يرمون الرجـل عن

قوس واحـدة (الاستعمار والصهيونية) والصحف العربية التى أصـدرها تلاميذ مدارس الارساليات وخاصـة فى مصر (المقطم ، الاهـرام ، الهلال ، المقتطف ، مجلة سركيس) وعشرات من الصحف كانت تصف عبد الحميد بالسلطان الاحمـر المستبد . وقد انتقلت هذه العبارات من الصحف الى كتب التاريخ وكتب تاريخ الادب العربى ، وما من كتـاب أرخ هذه الفترة الا احتوى على هذه العبارات التى أصبحت مسلمات بالاضافة الى تعبـير آخـر سنعود له من بعد وهو « الاستعمار التركى العثمانى » .

كانت هذه العبارات النارية التى وجهها السلطان عبد الحميد الى هرتزل عام ١٩٠٢ ايذانا بتلك الحملة العاتية على السلطان بعد أن تقـرر ازاحته وكانت هذه الحملات التى وجهت اليه تمهيدا واعدادا للرأى العام لهذا الغرض . ولقد جرت منذ ذلك الوقت محاولات لاغتياله واسقاطه حتى وقع ذلك عام ١٩٠٨ بالانقلاب الذى قام به الاتحـاديون بالاشـتراك مع الماسونية ممثلة فى الدونمـة .

ولا تزال عبارات عبد الحميد نبراسا مضيئا وتاجا لامعا وشرفا ما بعده شرف ، يتوج جبينه فى تاريخه المعاصر ، وعند ربه ، ويرد عنـه ومن حوله كل الاشاعات والشبهات والاضاليل . وقد تبين من بعد فى وثائق كثيرة وانكشف الستار عن مؤامرة قلب الدولة العثمانية وانزال عبد الحميد بالذات كخطوة أولى لتنفيذ هذه الجريمة البشـعة . والمؤامرة العالميـة لتحطـيم الوحدة الجذرية والرابطة العضوية القائمة بين العروبة والاسلام . ولقـد تحقق فعلا لليهود وللاستعمار باسقاط عبد الحميد كل ما كانوا يرجونه . ولم تلبث الهجرة الى فلسطين أن بدأت سافرة منذ ذلك الحـين وتحقق ذلك الامل الذى استعصى سنوات وسنوات ، وكان ذلك مقدمة لا شك فيها للقضاء على الخلافة الاسلامية .

ولقد كان ضروريا للباحث المتمهـل المنصف أن يقف دائمـا من تاريخ الدولة العثمانية فى العصر الاخير موقف العدل والصدق وأن يفرق بين عهدين : عهد السـلطان عبد الحميد الذى انتهى عـام ١٩٠٨ تقريبا وعهـد حـكم

الاتحاديين الذى بدأ منذ الوقت وظل مستمرا حتى سلم أمره الى الكماليين بعد الحرب العالمية الاولى . فهذه التفرقة واضحة وضرورية وخاصة بالنسبة لنا فى المشرق : ذلك أن سوريا ولبنان والعراق قبل ذلك تعيش فى هذا الاتجاه المعارض للخلافة والسلطان بينما كانت مصر التى سقطت عنها ولاية الدولة العثمانية وسيطر عليها الاستعمار البريطانى منذ ١٨٨٢ تؤيد الخلافة والسلطان . ولقد كان لموقف حكومة الاتحاد التركى من أهل سوريا ولبنان ومحاكمة رجالهم وتعليقهم على المشانق عام ١٩١٦ اثر نفسى بعيد فى نظرتهم الكلية الى الدولة العثمانية والحقيقة انها يجب أن تكون قاصرة على الاتحاديين وحدهم .

ومن هنا وجب التفريق بين مرحلة السلطان عبد الحميد التى انتهت عام ١٩٠٨ وهى فترة كان موقف الدولة العثمانية فيها بالنسبة للعرب والمسلمين موقفا كريما ، وكانت الحركة الاسلامية الواحدة من أعظم الأعمال ، أما الفترة التالية التى حكم فيها الذين أسقطوا السلطان فانها تمثل أسود صفحات الحكم التركى ولاء للصهيونية والاستعمار وضربا للوحدة الاسلامية واعلاء للحركة الطورانية ومحاولة لتتريك العرب فى سوريا وتعليق زعمائهم على المشانق ، هذه الفترة وحدها هى التى يقف فيها العرب فى سوريا موقف الخصومة للترك وهى ليست من حساب الدولة الاسلامية العثمانية فى الحقيقة .

كذلك نجد أنه من الضرورى أن نصحح عبارة « الاستعمار التركى » او العثمانى . والواقع أن كلمة استعمار كلمة مستحدثة مرتبطة الى حد كبير بدول مسيطرة بقوة الحديد والنار تأخذ ثروات الامم بابخس الاثمان لتجعلها موردا خاما لمصانعها ثم تعيد الى هذه الامم منتجاتها لتبيعها باعلى الاسعار ، وهذا النظام الاستعمارى لم يكن موجودا فى هذه الفترة ولم تكن الدولة العثمانية بهذا المعنى دولة مستعمرة ، كذلك فان الاجزاء العربية التى انضمت الى الدولة العثمانية لم تكن قد انضمت باحتلال وقسر ولكنها كانت برضاء ودعوة ، فقد وجد العرب أنفسهم بعد ضعف

المماليك فى حاجة الى الالتقاء تحت اسم الاسلام مع هذه الدولة الكبرى رغبة فى الوحدة ومحافظة على النفس . وبعد أن تعرضت سوريا ومصر لمحاولات غزو صليبى متجدد من الغرب ، والمعروف أن العرب فى مصر وسوريا قد رحبوا بالوحدة الاسلامية العثمانية ولم يعارضوها حيث وجدوا فى العثمانيين اخوانهم فى العقيدة والدين منتعشا جديدا للاسلام . وقد أكد المؤرخون والباحثون أن هذا الالتقاء بالعرب والترك فى ظل الدولة العثمانية قد حمى العالم الاسلامى أكثر من اربعمائة عام من الغزو الصليبى الذى لم يلبث ان جاء بعد ضعف الدولة العثمانية .

والواقع أن الدعوة الى الوحدة الاسلامية لم يتجاوزها الزمن ولقد تبين للمسلمين اليوم بعد سنوات طويلة من الدعوات الاقليمية والقومية أن الوحدة الاسلامية هى الاصل الاصيل والوجهة الصحيحة وكل الدلائل تؤكد الآن ان المسلمين سائرون الى طريق الوحدة الذى حطمته اليهودية والاستعمار باسقاط عبد الحميد والغاء الخلافة .



حاشية :

عندما عقد الملتقى الاسلامى الثامن فى ولاية بجاية من جمهورية الجزائر عام ١٩٧٤ وأثار كعادته فى كل عام عددا من القضايا والمعضلات التى تواجه الفكر الاسلامى فى العصر الحديث وقد اشترك فى الملتقى عدد كبير من الباحثين والعلماء من مختلف انحاء العالم الاسلامى كما شارك فيه ممثلون للمسلمين فى الهند واليابان كانت ابرز القضايا التى تناولها البحث :

- وضع الاقليات والجاليات عموما والاسلامية خصوصا فى كثير من بلدان القارات الخمس وواجب العلماء والمفكرين ورجال الاعلام نحوها .

وقد أشارت الدكتورة ليلى الصباغ من أساتذة التاريخ بجامعة دمشق الى الدولة العثمانية اشارة ظالمة حين قالت : انهــا أسلمت البلاد العربية لقمة سائغة للاستعمار الغربى . وقد تصدى لها عدد من الباحثين الجزائريين وعرضوا لوجهة نظرهم ازاء الدولة العثمانية والدور الكبير الذى قامت به

ازاء حمـاية المغرب كله من الغزو الاوربى وتوالت المطالبة بمعرفة دور المشرق وقد تصدى كاتب هذه السطور لذلك فقال :

رغبة فى تغطية قضية الدولة العثمانية بوجهة نظر المشرق والعـرب ومصر بالاضافة الى وجهة النظر المغربية الجزائرية فى هذه المسالة نقول : لقد تاثرنا فى مصر والمشرق فى كتبنا المدرسية وأبحاثنا التاريخية بوجهـة النظر الغربية تجـاه الدولة العثمانية ، وهى وجهة خاصة للغربيين ، نتيجة التوسع التركى عرفتها مناطق البلقان وغيرها فى القرن التاسع عشر ، وقد نقـل الاستعمار البريطانى فى مصر ، والفرنسى فى سوريا ، وجهة النظـر هذه الى كتب التاريخ التى تدرس فى مدارسنا وجامعاتنا ، كما تاثر بهـا بعض مؤرخينا متابعة للنظرة الغربية ، أو تحت تاثير الدعـوات الاقليمية كالفرعونية والفينيقية وغيرها أن هذه النظرة تعمقت من بعد وبلغت أقصى غاياتها فى تجاوز الحقيقة ، على اثر ظهور الصحافة العربية التى حـررها واخرجها اللبنانيون المـارون ، خريجو معاهد الارساليات ، واصحاب العداء الواضح للدولـة العثمانية .

وزاد هذه النظرة عنفا وتعصبا : تلك المحاولة الخطيرة التى طرحتها الصهيونية العالمية بعد عام ١٩٠٢ لتشـويه شخصية السـلطان عبد الحميد ورميه بالاتهامات كامثال السلطان الاحمر والمستبد العثمانى وغيره ، وكلها كانت محاولات أريد بهـا تهيئة الاذهان للقضـاء عليه وانتزاعه من مكانه ، وقد عاونت المقطم والاهرام والهلال والمقتطف وكلها كانت لبنانية الاصـل فى هذه الحملة وكان ذلك على أثر الموقف الحاسم الذى وقفه السـلطان عبد الحميد من المحاولات المتصلة التى جرت خلال الاعوام السابقة لعـام ١٩٠٢ والذى ارسل فيه السلطان خطابه التاريخى الى الصحفى اليهـودى ثيودور هرتزل صاحب كتاب الدولة اليهودية ومؤسس الصهيونية الحديثـة وقد جـاء فى هذا الخطاب بالنص :

قولوا للدكتور هرتزل لا يتصل بى مرة اخـرى ، ان بلادى تفضـل ان تظـل مدينة على ان تسـدد ديونها من ذهب اليهود ، ان فلسـطين هى بلاد العرب ولا استطيع ان افرط فى شبر منهـا .

وكان الدكتور هرتزل قد عرض على السلطان خمسين مليونا من الجنيهات الذهب الدولة ، وخمسة ملايين من الجنيهات الذهبية أيضا ، لخزانة السلطان الخاصة ، هذا الى مشاريع أخرى كثيرة لدعم الدولة العثمانية اقتصاديا .

وقد سجل هرتزل فى مذكراته كيف حاول اغراء ذلك الرجل الكريم أشد اغراء ثم كشفت وثائق التاريخ من بعد كيف جرت المحاولات لقتله ثم اسقاطه وقد اغرى أشد اغراء وهدد أشد تهديد ولكنه صمد صمودا مشرفا وظل موقفه هذا محجوبا عن الصحافة وعن المدارس والجامعات وكتب التاريخ سنوات طويلة حتى ترجمت مذكرات هرتزل فى السنوات الاخيرة ، وظل اسم السلطان عبد الحميد يذكر فى كتبنا المدرسية مشفوعا بابشع الاتهامات حتى أحق الله الحق وكشف ذلك الزيف الذى حاول به الاستعمار وحاولت الصهيونية ايقاع الفرقة والخلاف بين العرب فى مصر والشام وبين الدولة العثمانية .

وللحقيقة فاننا يجب أن نفرق بين عهدين فى تاريخ علاقتنا بالدولة العثمانية : فترة السلطان عبد الحميد التى تنتهى عام ١٩٠٨ باستيلاء الاتحاديين تلاميذ حزب الاتحاد والترقى وأتباع الماسونية وربائب الدونمة وبين الفترة التالية التى استمرت حتى عام ١٩١٨ وهى الفترة التى تمثل أسود صفحات العلاقة بين العرب والترك ، وهى ليست من حساب الحكم التركى الاسلامى ولكنها مرحلة متقدمة لخدمة الصهيونية العالمية ونصرها وتشكيل أول محاولة لضرب الوحدة الاسلامية العربية ، باعلاء الدعوة الطورانية ، ومحاولة تترك العرب فى سوريا وتعليقهم على المشانق ، هذه الفترة وحدها هى التى يقف منها العرب فى سوريا موقف الخصومة للترك وهى ليست من حساب الدولة الاسلامية العثمانية فى الحقيقة .

كذلك فان النظرة الى الدولة العثمانية عام ١٦١٩ عندما انضمت الاجزاء العربية فى العراق وسوريا ومصر اليها ، فانها فى التحليل التاريخى الدقيق ليست سوى التقاء بين عنصرين مسلمين . وقد وجدت من جانب العرب تقبلا صادقا فهى ليست فى حقيقتها الا محاولة طبيعية من محاولات

الالتقاء والتكامل بين اجزاء العالم الاسلامى فى مواجهة الاخطار وقد جاءت هذه الوحدة الاسلامية بين العرب والترك على أثر ضعف قوى المماليك وتعرض الاجزاء العربية وخاصة الشام ومصر لتجدد الغزو الصليبى . والمعروف ان العرب فى مصر وسوريا قد رحبوا بالوحدة الاسلامية العثمانية ولم يعارضوها ، حيث وجدوا فى العثمانيين اخوانهم فى العقيدة والدين منتعشا جديدا للاسلام وقوة شابة بدوية مقاتلة رفعت راية الاسلام خفاقة عالية . وقد أكد الباحثون أن هذا اللقاء بين العرب والاتراك قد حمى العالم الاسلامى أكثر من أربعمائة عام من الغزو الصليبى للمرة التالية .

ومن الحق أن يقال أن العثمانيين قد قاموا فى هذه المرحلة الاولى بالاخذ بمفاهيم الاسلام فى نطاق الحكم وتحركوا من خلال اطاره . ويشهد المؤرخون غير المتعصبين على الاسلام أو الناقمين على الدولة العثمانية بأن العثمانيين قد اقتفوا أثر الخلفاء الاولين فى العدل والتسامح وتمثلوا أعمالهم واتخذوهم قدوة وعملوا على جمع القلوب اليهم بتقدير العلماء وانشاء المساجد والمدارس ومن هنا جرت محاولات البحوث الاستعمارية على وصف العلاقة بين العرب والترك بانها نوع من الاستعمار وهى ليست كذلك فى الحقيقة وانما هذه هى النظريات المدخولة التى يحاول الغزو الفكرى والتبشير اذاعتها لاقرارها فى الاذهان .

ولقد مرت الدولة العثمانية ككل كائن حى بمرحلة القوة ثم بمرحلة الضعف ، ولكن السلطان عبد الحميد كان يعرف أساليب الاستعمار ويواجهها فى دهاء وبراعة وقد شهد جمال الدين الافغانى حين التقى به بأن عبد الحميد يدبر لأوروبا فى مواجهة كل محاولة ردا وفى مقابل كل مؤامرة أمرا .

لم يكن الخلاف اذن بين العرب والترك ولكنه كان بين العرب والاتحاديين دعاة الطورانية فلنفرق دائما بين هذه المراحل ولنعرف أنه قد

نشـأ فى مصر والبلاد العربية الآن تيار قوى لتصحيح هذه الاخطـاء على ضـوء ما كشـفته الوثائق من بروتوكولات صهيون أو ما نشر عن مؤامرات الماسونية على النحو الذى يعيد الحقـائق الى نصابها فى طريق وحدة الفكر الاسلامى كمقدمة للوحـدة الاسلامية التى هى أمل المسـلمين فى مشـارق الارض ومغاربها ٠



الفصـل الثـانى

السـلطان عبد الحميد صفحة ناصعة

ما نحسب ان شخصية فى التاريخ الاسلامى المعاصر لقيت من الغبن والظلم والاعنات ما لقيت شخصية السلطان عبد الحميد الثانى ، ولكن هذه السحابة ما لبثت أن انجابت بعد سنوات طوال ، وتكشفت حقيقة هـذا الرجل واستعلن موقفه الصامد ، وجهاده الباسل ومقاومته العنيدة للمؤامرة الضخمة التى حاولت أن تستغله وتخـدعه أو تغريه ، ولكنه رفض الوعـد والاغـراء ، وتحمل الوعيد والتآمر صابرا صامدا طـوال حياته وسـنوات طويلة بعد موته ٠

وقد ظل الغموض يحيط بموقف السلطان عبد الحميد أكثر من خمسين عاما ، ثم لم يلبث أن تكشف قليلا قليلا ، لقـد تولى السـلطان ١٨٧٦ ، وخلع ١٩٠٩ وتوفى ١٩١٨ ٠

وكانت حملات الصحف المارونية قد بدأت منـذ تبين صـلابة موقف الرجل ، وقد استمرت هذه الحملات حتى دخلت الى كتب الادب والتاريخ المقررة على المدارس فى أغلب البلاد العربية وظلت هذه الكتابات تلح على تصـوير السلطان عبد الحميد بصورة الطاغية المتسلط ، فترة تزيد على خمسين عاما ، ثم بدأ ينجلى موقف السلطان جزئيا بعد ترجمة بروتوكولات حكماء صهيون التى كشفت مخطط المؤامرة على الدولة العثمانية والخلافة ، ثم تكشفت بصورة أوسع بعد ترجمة مذكرات هرتزل الذى روى بافاضـة وتوسع قصة الوساطة بينه وبين السلطان وعروضـه ورد السلطان عليه ٠

رجل أريب :

ومن أهم ما يكشف عنه تاريخ السلطان عبد الحميد هو ذلك الفهم العميق للمؤامرة اليهودية الصهيونية الممتدة من الماسونية الى الدونمة الى جماعة الاتحاد والترقى بكل أبعادها وأهدافها ، هذه التى كانت خافية على ظاهر المواقف السياسية فى البلاد العربية الاسلامية فى ذلك الوقت ، وكانت غامضة على الرأى العام فى وقتها ، بينما كانت واضحة مفهومة لدى السلطان .

وكانت تصرفاته استجابة لهذه الخفايا التى كانت تدبر ، ولم تكن مكشوفة الا للقلة ، وكل ما نسب الى السلطان عبد الحميد أو الدستور أو الحريات ، انما كان ينطلق من فهمه لابعاد المؤامرة التى كان يدبرها الاتحاديون الاتراك مع اليهود الدونمة والقوى الخارجية ، لاسقاط الدولة العثمانية وعزل السلطان عبد الحميد ، وافساح المجال أمام تحقيق مؤامراتهم ، بعد أن تبين لهم رفضه الصريح للعروض اليهودية التى قدمها له هرتزل ولوعد آخر من اليهود ـ على ما فيها من اغراء ـ مادى لدولة مدينة فى ذلك الوقت ، وقد ظلت هذه الحقائق غامضة ، حتى تكشفت من بعد أسرار الماسونية ومخطط الصهيونية .

دهاء السلطان عوض عن ضعف الدولة :

ولعل ابرز ما تميز به السلطان عبد الحميد الذى حكم من (١٨٧٦ الى ١٩٠٩) هو تلك البراعة والذكاء الخارقين . حتى وصفه أعداؤه قبل أنصاره بأنه أعظم داهية فى عصره .

ويمكن القول أن هذا الرجل حين رأى الدولة العثمانية وقد فقدت التفوق فى القوة العسكرية التى يمكن بها أن تقهر اعداءها فقد فتح الله تبارك وتعالى له بابا من التعويض عن طريق ذلك الدهاء القوى ، فاستطاع خلال هذه الفترة الطويلة من حكمه والتى بدأت فيها تلك المؤامرة الخطيرة ، أن يواجه الامر بحكمة أزعجت خصومه وأعجزتهم .

والمعروف أنه فى عام ١٨٩٧ اجتمع مؤتمر بال وقرر اختيار فلسطين

لاقامة الوطن القومى اليهودى ، وتحدد أمر الاتصال بالسلطان والدولة العثمانية ، ومن ثم بدأت المعركة الخفية بين السلطان واليهود ، وخاصة بعد أن تبين لهم اصراره على عدم التسليم لهم بأى مطمع فى فلسطين .

وكان السلطان عبد الحميد قبل ذلك قد أمضى عزيمته فى الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، وتجميع المسلمين من خارج الدولة العثمانية تحت لواء الخلافة ، لمواجهة خطر النفوذ الاستعمارى الزاحف على العالم الاسلامى .

ولقد لقيت صيحته استجابة فى خارج الدولة العثمانية ـ بوصفه زعيما للعالم الاسلامى كله وليس للدولة العثمانية وحدها ـ والتف حوله العرب والمسلمون والفرس والترك ، لتعضيد الخلافة والذود عنها دون قيد أو شرط .

وكان من أخطر هذه الانجازات تصفية موقف الخلاف بين تركيا وفارس وبين السنة والشيعة ، ومن كلماته فى هذا الصدد : أن السم القديم يجب الا يسرى فى جسد آسيا القوى وعلى السنيين والشيعة أن يتحدوا لمقاومة أوربا فى محاولتها قهر العالم .



المؤرخون ورأيهم :

ويرى المؤرخون أن عبد الحميد لما تولى الخلافة سنة ١٨٧٦ ، وجد أن سلاح الدهاء السياسى هو السلاح الوحيد الذى يستطيع به أن يواجه مؤامرات الغرب (الاستعمار والصهيونية وروسيا القيصرية) التى كانت منذ سنوات طوال تحيك المؤامرات للقضاء على الدولة العثمانية ، بوصفها ممثلة للوحدة الاسلامية القائمة بين العرب والترك ، ومن ثم لخذ يوسع دائرة هذه الوحدة لتشمل مسلمى العالم كله ، ومن ذلك كانت صيحته « يا مسلمى العالم اتحدوا » ازاء الغزو الاستعمارى .

فقد أخذ يستصرخ الامم الاسلامية فى كل بقعة من بقاع العالم الاسلامى ،

للالتفاف حول دولة الخلافة لتكوين قيادة عامة للمسلمين جميعا ، سنة وشيعة ، عربا وفرسا وتركا ، وقد جمع السلطان حوله عددا كبيرا من زعماء العرب والبلاد الاسلامية ، وقد شعرت انجلترا وفرنسا وهما الدولتان اللتان كانتا تحكمان قهرا أكبر عدد من المسلمين ـ بحرج الموقف ازاء التفاف العالم الاسلامى حول الخليفة وحسبت لذلك الف حساب ، لا سيما حينما أيدته ألمانيا العدوة لهذه الدول ، وحين كسر الخلاف مع الشيعة ،وبدأ بعقد صلح معهم بعد استقدام جمال الدين الافغانى ، وحين بدأ يتخذ الاسلوب العصرى فى الوحدة باقامة سكة حديد الحجاز ، وقد جمع لها سبعة ملايين من الدنانير ، وكذلك سكة حديد بغداد .

وقد أشارت الدكتورة الماولتن فى كتابها عنه ، أنه كان لديه أربعون ألفا من الدعاة للوحدة الاسلامية ، ممن كانوا فى القسطنطينية من طلبة المعاهد الاسلامية ، وقد وجه دعوته الى روسيا وشمال أفريقيا والهند والصين ، الى المسلمين اينما وجدوا ومن أى جنس كانوا ، وقد حدث هذا فى الوقت الذى كانت الدول الاوربية تترقب بفارغ الصبر موت « دولة الرجل المريض » لتقسيم ميراثها وتوزيع ارثها فيما بينها .

رجل يرجح عظماء العصر :

وليس أدل على براعة السلطان عبد الحميد ، من عبارة السيد جمال الدين الافغانى الذى قال ، بعد ان التقى بالسلطان وتعرف الى مشروعه فى الجامعة الاسلامية واسلوبه فى العمل السياسى مع دول أوربا : « ان السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة » فلا عجب اذا رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب ، انه يعلم دقائق الامور السياسية ومرامى الدول الغربية ، وهو معد لكل هزة تطرأ على الملك مخرجا وسلما . وأعظم ما أدهشنى ما أعده من خفى المسائل وأمضى العوامل كى لا تتفق أوربا على أمر خطير فى الممالك العثمانية وكان يراها عيانا محسوسا : ان تجزئة السلطنة العثمانية

لا يمكن أن تقع الا بخراب الممالك الاوربية باسرها ، وكلما حاولت دول البلقان الخروج على الدول بحرب ، كان السلطان يسارع بدهائه العجيب لحل عقد ما ربطوه وتفريق ما جمعوه » .

وقد وصفت خطة السلطان بانها تمثل « سياسة التوازن الدولى » التى كان من شانها أن تبقى الدول الغربية متحاسدة متنابذة فى الامور التى تتعلق بتركيا ومستقبلها .



ليس الخلاص فى المدنية الغربية :

وقد أشارت الدكتورة الماولتن الى أن السلطان عبد الحميد كان أول من تجرأ - بعد مائتى عام من الهزيمة والتقهقر - على تحدى العالم الغربى ، ومن ذلك قوله : « يجب ألا ندع الغرب يبهرنا فان الخلاص ليس فى المدنية الاوربية وحدها » ، وقوله : « ان تركيا هى نافذة الاسلام التى سيشع منها النور الجديد » .

وقد وجدت دعوته اصداء واسعة وكان لتنقلات الدعاة ، والمبشرين المسلمين الى هذه المسافات البعيدة التى كان عليهم أن يقطعوها للوصول الى الجماعات الاسلامية المتفرقة ، كان لذلك أبعد الاثر فى النتائج الحاسمة السريعة فكان يتلقى الوف الرسائل والوثائق الرسمية من مختلف أنحاء العالم تتضمن تاييد الملايين للسلطان ايمانا بفكرته وتعلقا بحركة الجامعة الاسلامية .

واشار تقرير سفير بريطانيا لدى الباب العالى سنة ١٩٠٧ الى هذا الخطر بقوله : « يمكننا أن نقرر أن من أهم حوادث السنوات العشر الاخيرة على الاقل (١٨٩٧ - ١٩٠٧) خطة السلطان الباهرة ، التى استطاع أن يظهر بها أمام ٣٠٠ مليون مسلم فى ثوب الخليفة - الذى هو الرئيس الروحى فى الدين الاسلامى - وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الدينى

وغيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز ونتيجة لهذه السياسة فقد أصبح حائزا على خضوع رعاياه له خضوعا أعمى » .

عمـــلان جليـلان :

وأشار كثير من المؤرخين الى العملين الكبيرين - اللذين عجلا باسقاط السلطان عبد الحميد - وهما :

١ - انهاء الخلاف بين السلطان والشاه وتصافحهما ، هذا الخـلاف الذى كان منذ مدة طويلة ينخر فى عظام العالم الاسلامى .

٢ - قرار مد خط حديدى الى مكة المكرمة كجزء من خطة الجامعة الاسلامية لمساعدة آلاف المسلمين على أداء فريضة الحج ، وقـد نهض بالمشروع فى حماسة بالغة وحشد له كل ما استطاع من جهـد مادى وبشرى ، حتى أتم انجازه بسرعة خارقة وبدون أى عون من أوربا .

وقالت الدكتورة الماولتن : « لقد استطاع أن يقـود تركيـا بعيدا عن الكارثة بمناوراته السياسية البارعة ، موازنا بين مقاطعاته ودول أوربا ، مستحثا الهمم رافعا الآمال ، موجهـا انتباه العالم نحو أشياء جديدة ، كلما كان التوتر يهدد بأن يصبح حادا .

وكانت خطته لاستعادة قوة تركيا ومجـدها عن طريق توحيد العـالم الاسلامى تقترب من النجاح » .



العنصريات والقوميات :

ومن هذه النقطة ضرب السلطان عبد الحميد ، فقد كان يواجـه تيارا ضخمـا من المطـامع للدول الاوربيـة والصهيونيـة وروسـيا فى تمـزيق امبراطوريته ، وكان السـلاح هو تسليط سـلاح العنصرية الذى حمله رجال تركيا الفتاة والاتحاد والترقى بالدعوة الى الطورانية ، وآزرتهم الدونمـة التى كانت تمهد للوصـول الى فلسطين ، وواجه السلطان عبد الحميـد

هذا المخطط بقوة وبسالة ، وفى نفس الوقت الذى بدأ فيه هرتزل محاولاته لمقابلة السلطان ، كان السلطان قد أصدر أوامره بفصل « سنجق القدس » - مركزى وادارى - عن ولاية سوريا عام ١٨٨٧ واخضاعه لادارته المباشرة ، بمجرد أن تكشفت له المرامى البعيدة وراء المخططات الصهيونية .

وعندما شرع هرتزل يفكر فى مقابلة السلطان ملتمسا مختلف الوسائل والطرق ليسترعى انتباه الباب العالى ، كان عبد الحميد واعيا لكل المحاولات ، فقد سعى هرتزل لدى بسمارك حيث كانت ألمانيا حليفة لتركيا ، وسعى عند كثيرين من الشخصيات البارزة ، وكان هدفه أن يقتنع السلطان باعطائهم مساحة من الارض ، مقابل استعداد اليهود لدعم مالية الدولة العثمانية والتأثير على الرأى العام الاوربى ليقف الى جانب السلطان .

وتعددت المحاولات ، واستمع اليه السلطان حيث دار الحديث حول مشاكل الدولة العثمانية وتصفية الدين العام وعرض هرتزل خمسين مليونا من الجنيهات الذهبية للدولة ، وخمسة ملايين لخزينة السلطان الخاصة .

★ ★ ★

حسم وحزم :

ولكن السلطان كان متشبثا بموقفه المعارض للهجرة اليهودية ، ولما توالت العروض حسم الموقف فى حزم .

« انصح للدكتور هرتزل أن لا يسير أبدا فى هذا الامر ، لا اقدر أن أبيع ولو قدما واحدا من البلاد ، لانها ليست لى بل لشعبى ولقد حصل شعبى على هذه الامبراطورية باراقة الدماء وقد غذاها بعد بدمائه ، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لاحد باغتصابها منا .

ليحتفظ اليهود بملايينهم فاذا ما قسمت الامبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون قتال ... اننا لن نقدم الا جثثنا ، ولن اقبل بتشريح أجسادنا لأى غرض كان (يونيو ١٨٩٦) » :

ولما توالت النذر اصدر السلطان فى يونية ١٨٩٨ أمـرا بمنع اليهود الاجانب من دخول فلسطين دون تمييز بين جنسياتهم .



التهـديد والتـآمر :

ولمـا استياس هرتزل من السلطان بعد الاغراء بدأت مرحلة التهديد ، فلستخدم اليهود قدراتهم فى التآمر للقضاء على الدولة العثمانية ، مؤكدين مؤامراتهم على السلطان عبد الحميد بالذات ، لانه كان العقبة الكؤود فى طريقهم ، فرموه بكل منقصة واظهروه للامة فى أبشع صورة .

وانطلقت ابواقهم من الصحف المارونية الموجهة من الماسـونية والنفوذ الاجنبى تحمل عليه : المقطم وللاهرام والمقتطف والهلال ، وكتابات جرجى زيدان وسليم سركيس وفارس نمر ، تصفه بالسلطان الاحمر ، والف جرجى زيدان قصة الاستبداد العثمانى ورمى السلطان بعشرات من الاتهـامات الباطلة تمهيدا للقضاء عليه وجرت محاولة اغتياله ثم اسقاطه .



ملاعـب الاهـواء :

وقد نجح اليهود فى اخراج جمعية الاتحاد والترقى الى ملعب أهوائهم السياسية ، وقد كانت هذه الجمعية هى القناع الخارجى الذى تقنعت بـه جماعة الدونمة المتظاهرين بالاسلام من يهود اسبانيا ، الذين اتخذوا من مدينة سالونيك مقاما لهم بعد فرارهم من محاكم التفتيش الاسبانية ، وقد جـاءوا بالانقلاب العثمانى الذى بيتوا له منـذ نصف قـرن حتى تم على أيـدى مسلمين كانوا يهودا فى الاصل فاسلموا لاجل هذه الغاية .

وقد أسلم الانقلاب زمام تركيا لليهود الماسون الدونمة (طلعت وجاويد

وجمال ونيازى وكمال) الذين دفعوا تركيا بتوجيه (وايزمان) لخوض حرب لا ناقة لهم فيهـا ولا جمل يسلموها لليهود الذين يتكلمون التركية .

★ ★ ★

ويقول الدكتور الزغبى فى كتابه (الماسونية فى العراء) :

كان اليهود يرون السلطنة العثمانية ـ وهى شبح مخيف للخلافة الاسلامية ـ خطرا على مستقبلهم ، وقد زار هرتزل السلطان وعرض عليه عروضا مغرية فرفض ، فقرر المحفل الماسونى الكونى خلع السلطان عبد الحميد ، وكلف « فرسان تركيا الحكماء المستنيرين » بتنفيذ القرار فنفذوه عام ١٩٠٩ .

يقول السيد رشيد رضا : لقد كان السلطان عبد الحميد عدوا للجمعية الماسونية ، لاعتقاده أنها جمعية سرية وأن غرضها هو ازالة السلطة الدينية من حكومات الارض ، وقد تنفس الزمان للماسون بعد الانقلاب الذى كان لهم فيه أصابع معروفة ، فاسسوا شرقا ـ محفلا ـ عثمانيا استاذه الاعظم طلعت بك ناظر الداخلية ، واركانه جمعية الاتحاد والترقى وأنصارها من اليهود وغيرهم ، ولاجل هذا نرى طلعت بك لا يبالى بسخط الامة ولا برضاها ، فى ادارته التى استغاثت منها المملكة بولاياتها الستة كلها ، ما عدا ولاية سلانيك ، وسلانيك هى مقر السلطة الحقيقية فى المملكة (المنار م ١٤ ص ٨٠) .

الخطر المحيط :

يقول جواد رفعت فى كتابه « الخطر المحيط بالاسلام » :

« ان الشخص الوحيد فى تاريخ الترك جميعه ، الذى عرف حقيقة الصهيونية « والسباتائية » وقدر اضرارهما على الترك والاسلام وخطرهما المحدق تماما وكافح معهما مدة طويلة بصورة جدية لتحديد شرورهم ، هو السلطان العثمانى : الثالث والثلاثون (عبد الحميد الثانى) فقط ، وان

هذا السلطان التركى العظيم كافح هذه المنظمات الخطيرة مدة ثلاث وثلاثين سـنة بذكاء وعزم وبارادة مدهشة جدا كالابطال » .

ويتساءل الناس : لماذا يقف السلطان عبد الحميد ضد الدستور ويتحرز من هؤلاء الاحرار وأنه كان يعرف أنهم صناعة المحافل الماسونية ، وانهم كانوا فى مخطط الصهيونية العالمية التى قررت اسقاط عبد الحميد باى ثمن ، بالاتفاق مع الاستعمار العالمى الذى كان يطمع فى دحر فكرة الجامعة الاسلامية أكبر خطر واجه حركة الزحف الاستعمارى الحديث على يد عبد الحميد ، لقد قاوم ٣٣ عاما تجاه شبكتهم المبثوثة فى جميع أنحاء العالم ، ومنظماتهم التى أحدثوها وأسلوب دعايتهم وافتراءاتهم الكاذبة الشنيعة » .



التنفيـذ :

ويقول المؤرخون المنصفون : ان اليهود أخذوا توا فى تنفيذ المادة الخامسة من البروتوكولات : التى تنص على وجوب تلفيق الوقائع بحق الاشخاص المحترمين لدى الناس ، للحط من كرامتهم وكسر اعتبارهم ، ومن هنا بدأت حملة الكره ضد السلطان ، حيث لفقوا وقائع حياله وقضايا تحت اسم القتل والاحراق والاغراق ، ثم كانت مؤامرة اغتيال السلطان حيث انفجرت قنبلة على موكبه بعد صلاة الجمعة ، مقدمة لخطط ومؤامرات انتهت بعزله ، وسيطرة الاتحاديين الذين فتحوا الطريق لليهود الى فلسطين وسلموا طرابلس الغرب الى ايطاليا .

يقول الاستاذ طه الولي : كانت غاية اليهود ازاحة عبد الحميد عن عن طريقهم الموصل الى فلسطين ، ولذلك فقد تمكنوا من رشوة بعض رجال الدين ، وأغروهم بالخروج الى الشوارع والمناداة بتطبيق الشريعة المحمدية ، وهو ما سمى يومئذ بحركة الارتجاع قاصدين من وراء ذلك احراج السلطان بعد اعلان الدستور ودفع الاتحاديين الى الثورة عليه ، فيما بعد .

وقد اتت هذه الحركة الارتجاعية اكلها بالنصر لليهود فقام الجيش بحركته الحاسمة متقدما نحو يلدز ، طالبا ازلحة العرش من تحت سلطانه ، فتقدم ثلاثة فى ٧ مارس ١٩٠٩ من أعيـان الدولة : مسلم ماجـور ويهودى حقود ونصرانى موتور وقدموا اليه ورقة للتنـازل عن العرش .

وقبل السلطان حقنا للدماء وقد صرح بذلك فى رسـالته الى الشـيخ محمـد ابو الشامات قال :

« اننى لم أتخل عن الخـلافة الاسلامية لسبب ما سـوى اننى بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحـاد المعروفة باسم (جون ترك) قد أصروا واصروا على بأن اصادق على تأسيس وطن قومى لليهـود فى الاراضى المقدسة (فلسطين) ، ورغم اصرارهم فلم اقبـل بصـورة قطعية هـذا التكليف ، وكان جوابى القطعى : أنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا ، لـن اقبل تكليفكم ، وبعد جوابى القطعى اتفقوا على خلعى ، فحمدت المـولى أننى لم أقبل أن الطخ الدولة العثمانية والعالم الاسلامى بهذا العار الابدى ، الناشىء عن تكليفها باقامة دولة يهودية فى الاراضى المقدسة (فلسطين) » .

★ ★ ★

الصـورة الزائفـة :

هذه هى الصورة الصحيحة التى تجلت فى السنوات الاخيرة عن حقيقة السلطان ووجهته ، أما الصـورة التى رسمها سليمان البستانى فى كتـابه : « الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده » ، وكتابات جرجى زيدان وسـليم مركيس ، وهؤلاء الطغمة من أعداء الاسلام ، فانها زائفة ومضللة ، وقـد طلعت عليها شمس الحقيقة وانوار الوقائع الصحيحة الموثقة ، انها كتابات زائفة اريد بها تهوين شأن السلطان عبد الحميد تمهيدا لعـزله أو قتله ، وقد كانت فى سبيل خدمة النفـوذ الصهيونى أساسا .

أما المنصفون من كتاب الغرب فقد شهدوا للسـلطان عبد الحميد وفى مقدمتهم « لوثروب ستوارت » فى كتابه حاضر العالم الاسلامى ، كما تكشفت الحقائق حول الوقائع الزائفة التى نسبوها اليه ، وخاصـة بالنسبة لحياته

الخاصة ، وقد عرف عنه العزوف عن مظاهر الترف ، وقد اكتفى من ملبسه الرسمى بالمعطف العاطل من الزخرف وقد كان يقضى وقته كله فى دراسة التقارير المطولة التى ترد اليه من سائر جهات الامبراطورية الى ساعة متاخرة من الليل ، وقد تكشف كذب ادعاءات : الاغراق فى البسفور والخنق وكلها اتهامات أوردها اليهود ، وليس لها سند صحيح ، وقد كشف الاستاذ سعيد الافغانى هذا الامر فى حديث له نشره فى مجلة الوعى الاسلامى (شباط ١٩٦٩) بعد زيارة لتركيا .

قال : فلما أخذنا ذكر الالوف من الاحرار الذين لا يحصون الذين أغرقهم السلطان عبد الحميد فى مياه البوسفور ، أبدى رئيس الهيئة فى رقة ولطف طالبا تسمية عشرة فقط من هذه الالوف التى لا تحصى ، فلما أحرجنا قال : يا اخوتى لم يثبت غرق انسان واحد فى البوسفور وهى اشاعات استطارت وخدعت الكثيرين ومنهم حافظ ابراهيم الشاعر فى قصيدته : (مشبع الحوت من لحوم البرايا).



والصورة الحقيقية :

كذلك تبين كذب الادعاءات التى ادعاها كتاب اليهود ومؤلفوهم باتهامه فى شجاعته ، فان هذه الشجاعة الفائقة يدل عليها عديد من الوقائع والاحداث .

منها موقفه حيال محاولة اغتياله بعد انفجار القنبلة ، واستطار الناس فقد واجه السلطان الحادث فى شجاعة ادهشت رجال السلك السياسى الاجانب . وفى حفل الاستقبال فى قصر ضلما بغشه عام ١٩٠٤ حيث كان يستقبل ضيوفا من جميع انحاء العالم ، وقع زلزال شديد فتحطمت النوافذ واتسعت الارض وتهاوت الشرفات من السقوف ، وقفز الوزراء والباشوات من النوافذ وقد استولى الذعر على كل الموجودين ماعدا عبد الحميد الذى ظل واقفا منتصبا رابط الجاش وسط الغرفة المتارجحة .

وقد روت ذلك الدكتورة الماولتن صاحبة كتاب (عبد الحميد ظل الله على الارض) .

وهناك الاتهامات التى تتصل بالرقابة فقد قيل ان للسلطان الفا ومائتى جاسوس ، وانهم مبثوثون بين اهالى الاستانة ، وقد تبين أن هذه الصورة مبالغ فيها ، وقال جواد رفعت : ان السبب الذى جعل السلطان قد نظم ادارته على نحو معين ، ووسع دائرة استخباراته ، هو علمه من تقارير الصهيونية بالعمل على التخلص منه والقضاء عليه .

كذلك فقد ثبت بطلان دعوى تعصبه وقد اتخذ كبير أطبائه من المسيحيين ، وجعل وزير ماليته دولتلو أغوبيان المسيحى الارمنى ، وعهد بكثير من مهام سلطته الى غير المسلمين .



قصة باطلة :

وتتردد كثيرا قصة مذابح الارمن : ومسئولية السلطان عبد الحميد منها ، وقد تبين براءة عبد الحميد من مسئولية هذه المذابح ، وأن الغوغاء هم الذين تسببوا فيها ، والارمن هم الذين بدأوا باحتلال مبنى البنك العثمانى وقتل بعض موظفيه ، ردا على القمع الذى جوبهت به ثورتهم والتى ثبت أن الروس والانجليز دفعوهم اليها دفعا ، وليس بسبب سوء المعاملة كما قد يتوهم البعض ، وقد استغلوا روح التسامح لاحراج الدولة وكسب مزيد من الامتيازات ، شهد بهذا دجوفارا أحد كبار ساسة رومانيا ومؤرخيها .

يقول : ان من أعظم عوامل انحلال الدولة العثمانية هو مشربها فى اعطاء الحرية المذهبية والمدرسية التامتين لدعم المسيحية التى كانت خاضعة لها ، لان هذه الامم بواسطة هاتين الحريتين كانت تثبت دعايتها القومية وتتماسك وتنهض وتسير سيرا قاصدا فى طريق الانفصال عن السلطة العثمانية (حاضر العالم الاسلامى).



مـــوت الافغـانى :

كذلك فقد كذبت وقائع التاريخ الصحيحة ما أشـيع عن تهمـة دس السم للافغانى ، والصحيح أن جمـال الدين مات بالسرطان ، بعد أن مرض شـهورا طويلة ، ولو دسـوا له السم لمـات بسرعة .

وقد وصف جرجى زيدان فى الهلال (اذار ١٨٩٧) كيف توفى ، قال : كان قد أصيب بداء السرطان فى فكه السفلى منذ بضعة أشـهر ، فقاسى آلاما مبرحة واجريت له عمليات كثيرة حتى استؤصل الفك السـفلى كله أو أكثره ، فامتد الداء الى العنق واوغل فى الفم وعقـد اللسـان وضاعف الآلام ، فاشـتد المرض ولبث الناس ينتظرون وقوع الاجـل ، والحضرة السلطانية تواصـل الالتفات اليه ، بالانفاق من الجيب الهمايونى الخاص ، على أن ذلك لم يدفع مقدورا ولا محا مسطورا ... الخ .

ولكن ليس هذا العرض الذى يكشف وجه الحقيقة فى أمر هذا السلطان المسلم الذى شـوه تاريخـه طويلا ، لا يمنع من أن يكون لـه وقد ولـى الحـكم سنوات طويلة بعض الاخطاء وقد أشـير الى بعض هذا فى :

١ ـ تعاونه مع المانيـا مما جر عليه خصومة انجلترا وفرنسـا .

٢ ـ تردده فى أن يتخذ اللغة العربيـة لغـة الدولة العثمانية .

٣ ـ الاتجاه الى الطرق الصوفية وليس الى التيار الاسـلامى الاصيل .

٤ ـ اهمال التدريب العسكرى واهمال الاسطول .



حاشـــية :

وقد صدرت فى السنوات الاخيرة بحوث كثيرة تحمل طابع الاعتدال والانصاف واختفت تلك الروح الظالمة القاسـية التى لـم تكن قائمـة على الحقيقة التاريخية ، وكانت تصدر عن الاهواء والتعصب والحقد ، بل أن

بعض الكتاب الذين تورطوا فى كتاباتهم الاولى قد عادوا مرة أخرى الى الانصاف ٠

من هؤلاء الاستاذ محمد جميل بيهم ، وكذلك بعض أساتذة الجامعة الامريكية أمثال الدكتور زين زين ٠

كذلك فقد كان نشر مذكرات السلطان عبد الحميد عاملا هاما فى الكشف عن الجوانب التى كانت غامضة ٠

ومن أبرز هذه الدراسات تلك الاطروحة التى قدمها اللبنانى حسان حلاق الى جامعة بيروت العربية تحت عنوان (موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧ ـ ١٩٠٩) ٠

كذلك فقد كان للتعليقات التى قدمها أحمد الراشد على مذكرات السلطان التى ترجمها الاستاذ محمد حرب عبد الحميد ، بالاضافة الى مقالاته المتصلة عن الدولة العثمانية تصحيحا لمواقف غامضة ، كل هذا كان له أثره العميق فى اعادة النظر فى هذه الصفحة التى أحاطها ضباب كثير ٠

وقد تحدث الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى عن ضرورة فتح ملف الدولة العثمانية من جديد ، وجرت فى الملتقى الاسلامى الجزائرى سنوات ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ أبحاث واسعة فى هذا الصدد ، صححت كثيرا من الاخطاء والشبهات حول الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ، وصدرت لكاتب هذه المسطور دراسة واسعة ضمنها كتابه (تاريخ الاسلام : مقدمات العلوم والمناهج) ٠



الفصـل الثالث
الخـــلافة الاســـلامية

عندما أسقطت الخلافة الاسلامية عـام ١٩٢٤ ، كان مخططا خطيراً قوامه النفـوذ الاجنبى والصهيونية والشيوعية الذى كان قد بدأ فى اعـداد هذا العمل سرا منذ اكثر من مائة عـام ، من خـلال جماعة الدونمـة • (اليهود الذين هاجروا من الاندلس عام ١٤٩٢ واقاموا فى سالونيك ودخلوا فى الاسـلام تقية) التى عملت بالاشتراك مع جمـاعة الاتحـاد والترقى وتركيا الفتاة والمحافل الماسونية ، على تنفيذ هذا المخطط تحت شـعار « القضاء على دولة الرجل المريض » ، وخاصـة بعد أن حمـل (السلطان عبد الحميد) لواء الدعوة الى « الجامعة الاسـلامية » بمعنى أن ينضوى تحت لواء الخلافة الاسلامية جميع المسلمين فى العالم ـ وليس فقط العـرب والترك ـ •

ومن هنا كانت خطواته الى القضاء على الفرقة التى عمقها الاستعمار بين الترك والفرس ، وكانت الدعوة الى الجامعة الاسلامية فى ظل الخلافة العثمانية الاسلامية ، أمرا بالغ الخطورة ، جوبه فى الغرب من القوى الثلاث بمؤامرات ضخمة ، امتدت قرنا كاملا ، على النحو الذى صوره بهـا وزير ايطالى منصف : تحت عنوان « مائة مؤامرة على الدولة العثمانية » •

ومن هنا يتبين أن (الخلافة الاسلامية) لم تسقط بجـرة قلم عـام ١٩٢٤ عندما الغاها مصطفى كمال أتاتورك ، وانما يمكن أن يقال أن هذه كانت آخـر خطوة فى مؤامرة ضخمة وأسعة النطاق امتدت سـنوات طويلة وشاركت فيها قوى كثيرة ذات مصلحة فى تمزيق العالم الاسلامى ، مثـل انجلترا وفرنسـا ، ومنها ما كان يهـدف الى الوصـول الى فلسطين وقلب القدس كالصهيونية العالمية ، وليس أدل على ذلك من مساعدة الشيوعية الروسية فى تلك المعونة الضخمة التى قدمتها لحكام تركيا بعـد اسـقاط الخـلافة •

ولنعلم أن المحاولات التى جرت عام ١٩٠٨ لاسقاط السلطان عبد الحميد

كانت هى المقدمات الحقيقية لالغاء الخلافة ، فقد كانت فكرة عبد الحميد كما ذكرنا أن يمتد نفوذ الخلافة فيشمل عالم الاسلام كله ولا يتوقف عند حدود الدولة العثمانية ، وقد أخذ عبد الحميد بهذه الفكرة كخطة حاسمة لمواجهة محاولات الغرب ٠

قوة تواجه زحف الطامعين :

ومنذ تولى عبد الحميد ، ورأى انتقاض البلقان على الدولة ، ركز على دولة اسلامية جامعة تحمل لواء الوحدة الاسلامية ، وتضم مختلف المسلمين ، الذين هم خارج نطاقها السياسى اليها ، باعتبارها قوة تواجه الزحف الغربى الطامع الى تمزيق أديم عالم الاسلام والسيطرة عليه ٠ ولما نجحت الخطة وكادت تؤتى أكلها ، والتقى شيعة ايران مع سنة تركيا لاول مرة ، بعد أن حفر الاستعمار بينهما خندقا عميقا منذ ثلاثة قرون أو تزيد ، عجل الاستعمار والصهيونية بالقضاء على عبد الحميد خاصة ، لموقفه الحاسم فى الحيلولة دون وصول اليهود الى فلسطين ٠

والمعروف أنه لما ظهرت حركة الاتحاد والترقى داعية لتغريب تركيا ٠ احتضنتها المحافل الماسونية ، وحولتها من خطة اصلاح عثمانية داخل الدولة الاسلامية الكبرى الى خطة تغريبية عنصرية ، تحمل لواء (الطورانية) وتدعو الى تتريك العرب ودفعهم الى التماس مفهوم الماسونية فى الثورة الفرنسية والاستجابة له ٠

وبذلك كانوا جمعا غريبى الفكر ، وكانت مفاهيم القوميات والاقليميات والطورانية والعنصرية ، قد سيطرت على فكرهم واستهدفت الانفصال عن المفهوم الاسلامى والكيان الاسلامى ٠ وقد ظلت الفكرة فى حضانة الدونمة والماسونية منذ بدأت ، حتى استطاعت أن تصرع الوحدة الاسلامية الجامعة بانتزاع عبد الحميد من مكان القيادة ـ باعتباره صاحب مبدأ الوحدة الاسلامية ٠

ثم جاء الاتحاديون فاقاموا عهدا أسود فى تركيا منذ ١٩٠٨ حتى نهاية

الحرب العالمية الاولى ، ثم لبسوا ثوبا جديدا أسموه (الكمالية) وهو امتداد لهم أشد خطرا وأعمق أثرا ، جاء بعد أن كسبوا ما كسبوه من نصر باسم الاسلام ، ثم استداروا عليه استدارة كاملة بعد أن كان هو الورقة التى حققوا بها النصر ٠

وجه كالح صريح :

وقد وردت فى المواثيق التى كشف أمرها أخيرا موافقتهم على خلع الاسلام واللغة العربية والمحاكم الشرعية وملابس الاسلام وشريعته ثمنا لتخليصهم من الاحتلال البريطانى واليونانى ، وكان اعلان تركيا دولة علمانية كفيلا بأن يحقق لها رضاء الغرب وتسليمه وتحريره ٠

فقد انفصلت تركيا عن الامة الاسلامية واندمجت كليا فى الغرب العلمانى ، وسرعان ما حققت الامل الذى طالما طاف بأحلام الغرب ـ روسية وانجليزية وفرنسية ويهودية ـ وهو أن يقضى مسلم بيده على خلافة الاسلام ٠

ولكن أتاتورك لم يكن مسلما فى حقيقته وانما كان من الدونمة ـ التى تخفت تحت صورة الاسلام لتحقيق كل ما استطاعت أن تحققه فى تركيا ، وكان همه الاكبر « اسقاط الخلافة » وفى سنوات قليلة من ١٩١٨ ـ ١٩٢٤ تحولت تركيا ـ دولة الخلافة العثمانية وتاج العالم الاسلامى ـ الى دولة غربية علمانية تحكم بقانون نابليون ، وتزيح بكلتا يديها ذلك التراث العظيم ـ تراث الاسلام ـ وتقاوم رجاله ودعاته ومؤسساته ٠

وهكذا سقطت الخلافة بمؤامرة مشتركة بين اليهود الدونمة والاتحاديين الكماليين ، والقوى الاستعمارية الغربية وروسيا ٠



استبداد دموى :

وما اسقطت الخلافة باسلوب الاقناع والتغيير النفسى والفكرى ، ولكن باسلوب من العنف والقتل والاستبداد والظلم ، الذى قامت به (ثلة) أعدت لها وخططت لذلك فى مرحلتين طويلتين منذ ١٩٠٩ الى ١٩١٨ م باسم الاتحاديين ، ومن بعدها الى عام ١٩٢٤ باسم الكماليين ، وهما ـ فى الحقيقة ـ شىء واحد استطاع فى أول الامر أن يفتح الباب للصهيونية العالمية الى فلسطين ، بعد أن استعصى ذلك عليها طويلا ايام السلطان عبد الحميد ، وأسلمت طرابلس الغرب للايطاليين ، ودفعت الدولة العثمانية الى أن تكون وقودا فى الحرب العظمى دون داع ، حتى تنفصل عنها الشام والعراق وحتى تسلم فلسطين لليهود ٠

وحاولت الصحف الموالية للغرب تصوير المسالة بصورة كاذبة مضللة وأن تجعل ذلك الاتجاه عنوانا على التقدم ، حتى خشى شيخ الاسلام ـ الذى أخرجوه وأقام فى مصر آنذاك ـ من هذا التحول المحاط بهالة كاذبة من التكريم حين قال سماحة الشيخ مصطفى صبرى : اننى أخاف أن تسعد بلاد تركيا وترقى بهذه الادارة الحديثة اللادينية رقيا دنيويا ـ وان كان ذلك فى غاية البعد والاستحالة ـ فيفتتن بها المسلمون الذين قلما سلموا من أن يعجبوا بها وهى توغل فى سبيل الافلاس والاندراس ٠

وانما نقول للشيخ من وراء القبر : اطمئن فان تركيا لم تسعد وأن التجربة لم تحقق أى نجاح ، ولم تتقدم تركيا عن الدول الاخرى بل لعلها مازالت تقاسى من جرائرها وأن جيلا جديدا نشأ على الاسلام ويجاهد فى سبيله ٠

حملة ظالمة :

ان أكبر ما غذيت به حملة اسقاط الخلافة كانت تلك التصورات الباطلة التى نسبت الى السلطان عبد الحميد الظلم والاستبداد ، بينما كان كل ما يحاول عبد الحميد قمعه والحيلولة دونه هو سقوط الدولة العثمانية فى

براثن القوى الصهيونية والاستعمارية ، التى كانت تريد التهامها وتقسيمها ، وتسليم فلسطين لليهود . ومن أجل ذلك استحق الخلع واستحقت الخلافة الازالة ، بايدى من تسموا باسماء المسلمين ، وفى مقدمتهم مصطفى كمال الذى كان يدعى أنه مسلم ، ويدعو المسلمين الى الدعاء له بالنصر ، حتى اذا ما وجد فرصته ضرب ضربته وسط دهشة العالم الاسلامى كله وعجبه .

وفى الحقيقة ان الخلافة لم تكن مصدر انحطاط تركيا ولا العالم الاسلامى ، ولم يكن أسلوب تعديلها هو ازالتها أو فصل السلطة عن الخلافة كما فعلوا أولا ليخدعوا الناس يومئذ ، اذ كان ذلك مقدمة للقضاء النهائى عليها .

وقد كانت هناك مشروعات كثيرة للاصلاح لو خلصت النيات وحسن الاتجاه الى الابقاء على وحدة العالم الاسلامى وقيام خلافته .

واذا كانت هناك قياسات لما وصف به عبد الحميد من تسلط واستبداد فاين منه ما قام به الاتحاديون والكماليون .. الذين باعوا آخرتهم بدنياهم .. ؟؟؟ ، وهو ما لم يفعله الخلفاء قط ، وبينما وقف الاعزل عبد الحميد أمام قوى الصهيونية العالمية ، وهى تغريه بالملايين وهى تعرف مؤامراتها وتقودها ، وقد وقف صامدا لا يلين .

تمزيق الوحدة الاسلامية :

ولقد كان من وراء اسقاط الخلافة الاسلامية أهداف كثيرة ، كان أكبرها تمزيق هذا الشمل الذى جمعته الوحدة الاسلامية بين مسلمى العالم ، وتفريق هذا الجمع الذى ربطته الدولة العثمانية ليسهل توزيعه واحتواؤه ، وتقديم فلسطين والقدس لقمة سائغة للصهيونية التى كانت وراء الربا العالمي منذ عصور بعيدة ، عاملة على تقريب المسافات الى تحقيق الغاية ، من وراء الاستعمار الغربى .

ومن أهدافها محاولة حجب حقيقة الاسلام الجامعة بين الدين والدولة والقائمة على أساس إن الاسلام « دين ونظام مجتمع » واثارة الشبهة حوله بتصويره دينا لاهوتيا ـ على النحو الذى صوره به الكماليون فى تركيا وعلى عبد الرازق وجماعة اللادينيين فى البلاد العربية .

خيبة الامل فى تمزيق المسلمين :

واذا كان الهدف الاول قد تحقق لانه داخل فى نطاق مرحلة الضعف التى أرخت قبضة المسلمين عن حقوقهم وممتلكاتهم وسلطاتهم ، فان الهدف الثانى لم يتحقق بعد ، لان المسلمين سرعان ما تنادوا الى الوحدة فى محاولة لاحتواء الخطر ، وذلك بالرغم مما طرحه التغريبيون من مفهوم غير أصيل عن أن الاسلام دين عبادى ، وان الخلافة والحكم لم تكن من أسس الاسلام .

بل ان عددا كبيرا من المستشرقين الغربيين اعترف بان الاسلام ليس دينا فحسب بل هو نظام سياسى واجتماعى أيضا .

يقول فيتزجرالد فى كتابه قانون المحمديين (١) : على الرغم من انه قد ظهر فى العهد الاخير ، بعض أفراد من المسلمين ممن يصفون أنفسهم إنهم عصريون ، يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين ، فان صرح الفكر الاسلامى كله قد بنى على أساس ان الجانبين متلازمان ولا يمكن فصل أحدهما عن الاخر .

وشهد بذلك (تلينو) الذى قال ان محمدا ـ ﷺ ـ أسس فى وقت ما دينا ودولة . وكانت حدودهما متطابقة طوال حياته .

وذلك ما عبر عنه (شاخت) حين قال : على أن الاسلام يعنى أكثر من دين ، انه يمثل أبدا نظريات قانونية سياسية وجملة القول انه نظام كامل يشمل الدين والدولة معا .

وهو ما اشار اليه (جب) حين قال : لقد صار واضحا ان الاسلام

لم يكن مجرد عقائد دينية فردية ، وانما استوجب اقامة مجتمع مستقل له أسلوبه المعين فى الحكم ، وله قوانينه ونظمه الخاصة به .

هذا من ناحية (الفكرة) أما من ناحية التطبيق فان (الفرد كانتول سميث) فى كتابه عن « الاسلام فى العصر الحديث » كتب تحت عنوان « الاسلام والدنيوية التركية » ما يفهم منه أن سقوط الخلافة والغاء نظام الاسلام فى تركيا ، ليس الا عملا قامت به جماعة حاكمة ، ولكنه لا يمثل شعور الامة ، ولا يطابق سلوكها .

يقول : ان القول بان الاتراك بايثارهم الدنيوية قد تخلوا عن الاسلام لا يحظى بتاييد من الباحثين فى الشرق أو الغرب وانما هو مجرد احساس شائع بين الاوربيين والمسلمين فى الاقطار الاخرى والمسالة فى حقيقتها لا تعدو الهيئة الحاكمة .

كما يردد الببغاء :

ولذلك فانه من المؤسف أن يجرى بعض الكتاب العرب والمسلمين وراء مفاهيم غربية من خصوم الاسلام والدولة العثمانية ، ويرددون كلماتهم ويلوكون عباراتهم ويعادون منطق الاشياء الحقيقى ، فيخرجون بذلك عن دينهم وأصالتهم دون أن يقدروا النتائج التى تجىء من بعد ، والتى هى أكبر من تقديرهم وادراكهم ، فنجد مثلا الدكتور الخربوطلى الذى يقول فى كتابه عن « الخلافة الاسلامية » هذه العبارة المزيرة : « فافلت شمس الخلافة الاسلامية الى الابد » وكيف يمكن لباحث أو مؤرخ أن يتنبأ بان الخلافة قد أفلت شمسها الى الابد ، وهل يملك من الادلة على ذلك دليلا واحدا أو نصف دليل وهو قول لم يقله أكثر الغربيين تعصبا ضد الاسلام .

واليوم يرى هؤلاء انهم كانوا من قصر النظر ، بحيث جهلوا ان الحديث عن الخلافة الاسلامية لم يتوقف يوما واحدا منذ ذلك اليوم ، وقد

جرى فى مناهج الدعوات والحركات والجماعات الاسلامية فى العالم الاسلامى كله ، كغاية كبرى لابـد من ملاحقتها ، وجرت حركات التجمع لتذكر دوما بهذا الحق ، الذى لا تطويه الايام ولا تخفيه الاحـداث ، مهما تغلف الحديث عنه بالضباب .

وما زلنا نسمع صيحات الدعوة الى اعادة الخلافة عالية وقوية من مسئولين ومفكرين متعددين ولا يزال المؤتمر الاسلامى الذى يضم أكثر من أربعين دولة اسلامية يضع هذه الحقيقة أمامه .

الوحدة الوجدانية ثم وحـدة الفكر :

نعم ان المسلمين بعد اسقاط الخلافة عن طريق المؤامرة لم يستكينوا إلى الهزيمة التى فرضت عليهم ، ودبرت من وراء ارادتهم الحرة ، ولكنهم فكروا وقدروا ، وعملوا لمواجهة هذا الفراغ ، فاقاموا روابط كثيرة ومؤتمرات متعددة ، واذا كانت القوى الاستعمارية قد حالت دون تحقيق الوحـدة السياسية فانهم حققوا وحدة اجتماعية ووجدانية لا تزال تنمو قوية وقادرة على أن تحقق فى مطالع القرن الخامس عشر (وحدة الفكر) التى هى الاساس المكين بعودة الخلافة الاسلامية ولقد كانت الازمات دائما قادرة على تجميع المسلمين ووحدتهم ازاء الاحداث والاخطار .

ولم يكن عمل عبد الحميد فى سبيل هذا التجمع الا قمـة الايمـان بالخطر وبالمسئولية ازاء هـذا الخطر ، واذا كانت حركته الى الوحـدة الجامعة قد أجهضت فليس لانها فشلت ، بل لانهـا نجحت نجاحا مذهلا مما دفع القوى الاستعمارية والصهيونية الى القضاء عليها باسقاطه قبـل أن يتمكن من وضـع القواعد التى يمكن أن تسـير عليها موضـع التنفيذ ، ثم جرى العمل على الاجهاز على القاعدة نفسها . واذا كان العرب بعد سقوط الوحدة الاسلامية قد تجمعوا حول وحدتهم ، فانهم لم يكونوا فى ذلك عاملين على اعلاء شان العناصر والدماء ، ولكنهم كانـوا يرون فى الوحـدة العربية حلقة وخطوة الى عودة الوحدة الاسلامية الكبرى ، ولـم

يكونوا يفهمون من العروبة ما فهمه الغرب من القومية ، ذلك لان العروبة انما نشات فى أحضان الاسلام سمحة مؤمنة بالاخــاء الاسلامى الاكبر ، بعيدة عن العنصرية والتعصب والصراع ، وقائمــة على وحـدة قرانيـة بالشريعة والايمان ، ولكن القوى الغاصبة هى التى أفسدت مفهوم العروبة وقطعته عن صلته بالوحدة الاسلامية .



عزل العروبة عن الاســلام :

لقد ضربت القوى الغاصبة هذا الاتجــاه وعزلته عن جذوره ، كمـا ضربت من قبل الخيوط التى تجمعت فى يد السلطان عبد الحميد ، وهكذا فان اسقاط الخلافة لم يكن وفق سنة طبيعية أو قانون اجتماعى صحيح ، ولكنها كانت عملية اجهاض زيفت لها مبررات خادعة استطاعت ان تضلل البعض ، ولذلك فان الخلافة الشرعية ستظل فى فقه المسلمين وشريعة الاسلام وقلوب المؤمنين وعلى أقلام كتاب الاسلام عامــودا أساسيا . فهى جــزء لا يتجزأ من الاسلام ، ولعلها سقطت لتسـقط معها خلافــة عجــزت عن تطبيق الاسلام تطبيقا حقيقيا ، لتعود من بعد على مفهومها الاصيل وهو ما تتطلع اليه قلوب المسلمين وتهفو، وما تعده من آمال القرن الخامس عشر.



حقيقــة مؤكـدة :

والحقيقة التى يؤكدها الباحثون المنصفون : ان المسلمين لم يناموا على الضيم منذ أسقطت الخلافة الاسلامية وهم لا يستنيمون أو يفرطون أو يغيب عليهم مدى خطرها وجلال شانها والآثار البعيدة التى ترتبت على حجبها .

ومنذ ذلك الوقت والى اليوم فان الخلافة الاسلامية مبثوثة فى كل أعمال التضامن الاسلامى والرابطة الاسلامية والاخوة الاسلامية الجامعة .

وقد أحس المسلمون اليــوم بان محاولات التجمع الوطنى والقــومى لم تنجح لانهــا ليست هى الوجهة الحقة الصادرة من أعماق الفطرة ، وان

المنهج الصحيح هو اجتماع كلمة المسلمين وقيام ذلك الرباط القوى بينهم مرة أخرى ، بعد أن تراخى فى السنوات الماضية تحت تاثير الدعوات الاقليمية والقومية ، غير أن هذه السنوات قد شهدت عشرات المؤتمرات والابحاث والمشروعات والدعوات التى تفتح الطريق الى وحدة المسلمين وتحقيق الغاية الكبرى ٠

ومن هذا العرض التاريخى فاننا نصل الى حقيقتين :

الاولى : أن الخلافة هى بؤرة الجامعة الاسلامية وأن الجامعة الاسلامية يمكن أن تقوم أولا ثم تنبثق منها الخلافة ، وأن حركات التحرر والوحدة والتقارب التى تجرى اليوم فى عالم الاسلام يمكن أن تحقق ترابطا ثقافيا واجتماعيا قبل أن يصبح سياسيا وعسكريا ٠

الثانية : ان المسلمين بعد الغاء الخلافة لم يتفرقوا أيدى سبأ ، وأن الهدف الذى كان مطمع النفوذ الاستعمارى قد فشل تماما ٠ وان العالم الاسلامى قد تلاقى على مستويات كبيرة ومتعددة : اجتماعية وثقافية واقتصادية وأن الفكر الاسلامى مازال هو المصدر الاول للثقافات العربية والفارسية والتركية والهندية الاسلامية ٠

واذا كانت الخلافة قد سقطت بعمل سياسى استعمارى دفين أخفى أمره طويلا وبدقة ، وراء غلالات ، فان المسلمين قد بدت أمامهم الحقائق سافرة اليوم ، تنبهوا لما يراد بهم فسارعوا الى اتخاذ وسائل أخرى ، تمهد للوحدة فاندغمت رابطتهم فى مؤتمر الحج السنوى ، وفى الاتجاه الى الجامعات الاسلامية العلمية ، التى لا شك ستوحد الفكر والثقافة والتعليم ، وزاد من قوة هذه الروابط ظهور دولتين كبيرتين بعد الحرب العالمية الثانية هما الباكستان واندونيسيا وعشرات الدول ذات الاغلبية المسلمة فى جنوب شرق آسيا وافريقيا ، وبدأت لقاءات واسعة بين العناصر المختلفة من العرب والبربر والسنة والشيعة والاكراد ، وتوثقت الصلات وزادت عمقا وخفت حدة الخصومات والخلافات ، التى أججها الاستعمار

والنفوذ الغربى حرصا على استبقاء التمزق والخلاف ، كما كشفت الوقائع حقائق كثيرة كانت مطمورة عن الصهيونية والماركسية وعلاقتهما وفشلت دعوات الاقليمية والقومية جميعا كما فشلت النظم السياسية الواحدة سواء الليبرالية منها أم الاشتراكية ولم يعد أمام المسلمين فى مطالع القرن الخامس عشر بد من أن يقيموا مجتمعهم على أساس الشريعة الاسلامية ، وسوف تنقشع السحب التى تحجب الضوء ويجد المسلمون انفسهم مضطرين الى الالتقاء ازاء الخطر الزاحف وهذا هو المنطلق الحقيقى لعودة الخلافة الاسلامية خلال هذا القرن الجديد •



الفصل الرابع
كمال اتاتورك واسقاط الخلافة

حاولت اجهزة الدعاية الغربية والصهيونية اعطاء « مصطفى كمال » اتاتورك حجما اكبر بكثير من حجمه الطبيعى ، وذلك عن طريق عشرات المؤلفات التى طبعت ووزعت فى مختلف انحاء العالم ، بتضخيم حجم هذا هذا العمل التغريبى التخريبى الخطير ، الذى قام به •

ولقد حظيت اللغة العربية بعدد من هذه الكتب ، منها كتاب « كمال اتاتورك » الذى كتبه « محمد محمد توفيق » واعتمد على ٥٣ مرجعا انجليزيا وفرنسيا ، ومازال يعد فى نظر التغريبيين مرجعا اساسيا فى تقديم هذا النموذج الاول الذى هو بمثابة المثل البكر لتجربة التغريب فى العالم الأسلامى ، والتى فشل تطبيقها فى البلاد العربية وسقطت اخيرا فى ايران •

ولا يمكن فهم حقيقة كمال اتاتورك الا بالعودة الى السلطان عبد الحميد ومحاولة اسقاطه ، التى تمت عام ١٩٠٩ والتى تولى الاتحاديون بعدها زمام الحكم الى نهاية الحرب العالمية الاولى ١٩١٨ ، كمرحلة اعداد الدور الذى قام به كمال اتاتورك من بعد •

● **بداية مريبة :**

وما ان أسقط السلطان عبد الحميد حتى تحول الامر فى الدولة العثمانية الى شىء خطير ، فقد فتحت الابواب لكل الافكار والدعوات

المعارضة للوحدة الاسلامية والخلافة الاسلامية والاسلام نفسه ، واتيحت الفرصة لكل الغلاة وخصوم العرب والاسلام ، فى ان يذيعوا كل ما من شأنه ان يحقق لقوى الاستعمار الغربى واليهودى العالمية مطامعها واهدافها ، وخرجت جماعات خريجى الارساليات التبشيرية والمحافل الماسونية ، لتسيطر على الرأى العام عن طريق الصحافة ، وتولت الحكم وزارة فى الدولة العثمانية بها ثلاثة وزراء من اليهود .

ثم انفتح الطريق الى فلسطين واتيح لسماسرة بيع الاراضى العمل فى حرية كاملة ، ونشط اليهود والدونمة والماسون من ورائهم للعمل .

واسفرت عن نفسها :

وبدأت الحركة الطورانية تشق طريقها فى تمزيق وحدة العرب والاسلام واندفعت جمعية الاتحاد والترقى الى تتريك العناصر الداخلة ضمن الامبراطورية . وكان التركيز على تتريك العرب شديدا .

وكانت اولى خطوات الاتحاديين فى الحكم : بناء منهج سياسى فكرى للدولة العثمانية ، مستمد من النظرية الغربية العلمانية ، جريا وراء الخطة التى رسمتها الماسونية للثورة الفرنسية ، والغاء المفاهيم الاسلامية واحلال مفاهيم غربية خالصة بدلا منها ، وسارع الاتحاديون باصدار تصريحات تقول بعزل النظام السياسى القائم ، وقال احدهم : أنه لا محل للجامعة الاسلامية فى برنامج تركيا الفتية .

وقد جرت مهمة الاتحاديين فى هذه الفترة على اعداد الدولة العثمانية لحركة التغريب فى عديد من الجهات :

١ ـ استسلامهم لبريطانيا استسلاما كاملا .

٢ ـ تسليم طرابلس الغرب لايطاليا .

٣ ـ فتح الطريق أمام اليهود الى فلسطين .

٤ - وضع العقبات أمام وحدة العرب والترك بتعليق العـرب على المشـانق فى الشـام ٠

٥ - محاولة تتريك الاعراق البشرية الداخلة فى نطاق امبراطوريتهم وخاصـة العـرب ٠

٦ - اعلان فكرة الطورانية واعـلاء الجنس التركى على العـالم كله ٠

وهكذا فان كل ما حدث فى فترة السنوات العشر السابقة للحرب العالمية الاولى انما كان تمهيدا لمـا جاء بعد ذلك ٠ فى تركيـا أو مصر أو لبنـان ، وذلك فى ضوء التحول الخطير الناتج عن اسقاط الدولة العثمانية وتمزيقها ، وقد تحقق ذلك بالفعـل ، نتيجة لدخول الاتحاديين الحـرب العالمية فى صف الالمان ٠ فكانت هزيمة الالمان فى الحرب هزيمة لهـم مما أدى الى السيطرة على تركيا واذلالها ، وفرض نفـوذ فكرى سياسى غربى عليهـا ، حتى ينتهى هذا الوجـود الاسـلامى المرتبط بالخلافة والوحدة الاسلامية ، وحتى لا تكون تركيا مرة أخرى منطلقا للاسلام الى أوربـا ، أو مصـدرا للخطر ، أو جرثومة لتجمع اسلامى ٠

نعم كانت فترة السـنوات العشر للاتحـاديين مقدمة لمـا بعـد ذلك ، وتمهيدا للمخطط التغريبى العنيف ، الذى نفـذه مصطفى كمال أتاتورك بقوة القانون ٠



● مصطفى كمال والاهداف :

وقد كان مصطفى واحدا من الاتحاديين بين زملائه طلعت وجمـال وجاويد ، ولكنه لم يلمع تحـت الاضـواء فى هـذه الفترة فقـد اسـتبقاه التخطيط الدقيق ليحمل لواء المرحلة التالية ٠ وليصبح بعد الحـرب امتدادا لهـم ٠ ونقطة تجمع لهذه القوى ٠ لتشكل مرة أخرى على نحو آخـر ، بعد ان حققت أكبر اهدافها وهى :

١ - اسقاط الدولة العثمانية وتمزيق وحدة العرب والترك التى هى مظهر وحدة العروبة والاسلام . فقد كان أتاتورك واحدا من رجال جماعة سالونيك ومحافلها الماسونية ، ومن ابرز رجال الاتحاد والترقى ، مؤمنا بتلك المبادىء والمخططات التى نفذت فلم يكن حربا عليها وان أعلن اختلافه معها - فى ظاهر الامر - ولكنه كان يحقق مرحلة جديدة ، فيها أعادة النظر ازاء بعض الوسائل مع الاحتفاظ بالغاية الكبرى ، والوصول اليها بأساليب أشد احكاما .

ولم تكن معارضته لفكرة الدعوة الطورانية الا من هذا القبيل ، واذا كان الاتحاديون قد حطموا الدولة العثمانية ، وفرقوا رابطة العروبة والإسلام . فان أتاتورك قد حقق عملا واحدا فى التاريخ الاسلامى أشد قسوة وخطرا من كل عمل ، وهو « الغاء الخلافة الاسلامية » وتحويل تركيا من دولة إسلامية تحمل لواء الجامعة الإسلامية والخلافة وقيادة الامم الإسلامية ، الى دولة غربية خالصة تكتب من الشمال وتطبق القانون السويسرى المسيحى .



● بروتوكول لوزان :

وأبرز هذه الأعمال اقرار تلك الوثيقة الخطيرة : بروتوكول معاهدة لوزان المعقود بين الحلفاء والدولة التركية عام ١٩٢٣ المعروفة بشروط كرزون الاربعة وهى :

١ - قطع كل صلة بالاسلام .

٢ - الغاء الخلافة .

٣ - اخراج أنصار الخلافة والاسلام من البلاد .

٤ - اتخاذ دستور مدنى بدلا من دستور تركيا القديم المؤسس على الاسلام .

ويؤكد أرنست أ . ر أفرور . وصديقه آرنست باك . وبمراجعة كتاب

ارمستـرونج « الذئب الاغبر » : عن حيـاة مصطفى كمـال : انـه كان ماسونيا وان المحفل الايطالى الذى ساعد الاتحاديين عام ١٩٠٨ على نجاح حركتهم كان معاونا له فى نجاح حركته . ولعـله احس بعـد ان نجحت حركته انه لا حاجة الى الجمعيات الماسونية فى بلاده ، فالغاها بعـد ان تحققت كل اهدافها .

● من هو مصطفى كمـال ؟

ولا شك ان العنف الذى واجه به مصطفى كمال مؤسسات الاسلام ، وما قام به من دحـر لنفوذه فى تركيا ، يكشف بوضـوح عن انـه كان من اخلص رجال المحافل الماسونية ، بل يصـل الى ابعد من ذلك عندما يؤكد ما ردده كثير من الباحثين من : ان مصطفى كمال نفسـه من اصـل يهودى من الدونمة فى سالونيك ، وانه كان يتخفى بالمكر والخديعة فى معاركه حتى استطاع كسب قلوب المسلمين ، فارسلوا له من التبرعات والاموال الشىء الكثير حتى اذا تمكن من امتلاك ازمة الامور سحق انصـار الاسـلام سحقا .

والواضح من دراسة تاريخ حياة مصطفى كمـال امـور عدة :

اولا :

انه لم يكن هو قائد معركة التحـرير ضد القوات الاوروبية واليونانية وانما هو الذى سيطر على هذه القوات من بعد وسحب اسماء الابطال الذين بداوا هذه المعارك . وكان لهـم دور كبير فى تحقيق النصر وان الفضـل الاول كان للقائد قره بكير وغيره .

ثانيـا :

ان اوربا قد سلمت لمصطفى كمال بزعامة تركيا وانسحبت امامه ، بعد ان وقع على وثيقة رسمية دولية فى مؤتمر الصلح . قرر فيها ازالة الاسلام والخلافة واخراج زعماء المسلمين ، والحكم بالقوانين الغربية والغاء اللغة العربية بعد ان اطمانت الى ان تركيا ـ عنصر المخافة ـ قد انتهت .

ثالثـا :

ان هذه البطولة التى حيكت لها اثوابها ، ووضعت فى هذا الطـابع من الروعة والبهاء ، انما كانت خدعة النفـوذ الاستعمارى لتاكيد وجـوده وسلطانه ، ومنحه القوة على تدمير كل المؤسسات الاسلامية ، حتى لا يبقى منهـا شىء يخيف أوربا أو يزعج اليهودية العالمية ، التى كانت تطمع منذ وقت بعيد الى أحد أمرين :

القضاء على الدولة العثمانية واتخاذ الغاء الخلافة الاسلامية طريقـا للوصـول الى فلسطين .

● **وظهـر على حقيقته :**

ولقد دفع مصطفى كمال تركيـا دفعـا قويا الى العلمانية ، والغى القوانين الاسلامية واضطهد المسلمين والاسلام أبشـع اضطهاد ، وقتـل العشرات وعلق جثثهم على أعواد الشجر ، وأغلق المسـاجد ومنـع الاذان والصـلاة باللغة العربية . وأعاد مسجد أيا صوفيا كنيسة ومتحفا . واستبدل بالشريعة الاسلامية قانونا وضعيا ، واتـخذ الحروف اللاتينية بدلا من العربية فى كتابة الابجدية التركية (٢) والغى تدريس الاسلام فى المدارس والجامعات ودعـا الى قوميـة طورانية عرقيـة ملتحمة الاواصر بالوثنيين السـابقين للاسـلام .

ولقد كان منفذا أمينا للمخطط الذى رسمه الاستعمار واليهودية العالمية وهو ازالة الخلافة ، وفصل تركيا عن العالم الاسلامى والامة العربية ، وبذلك حقق مصطفى كمال - فى العالم الاسلامى وفى مواجهة العروبة - أخطـر حركة استغراب ، وفرضها على الامة التركية ، ولم يحققهـا تدريجيـا ، أو على نحو التقبل والتطور والمرونة ، فقد كان مدفوعا من القوى الاجنبية الى تنفيذ ذلك فى أقصى سرعة وأبعد مدى ، واقامة هذا النظام على أساس السلطة الحاكمة والقوانين والارهاب الدموى ، وذلك حتى لا توجـد ثغرة من بعده للتفتح على الاسلام من جـديد أو الترابط بين العرب والترك ،

ولقد جمع الاتحاديون الشمل المشتت بعد الحرب العالمية خلف مصطفى كمال فتسموا بالقوى الكمالية ولا فارق بين الدعوة الاتحادية والدعوة الكمالية فى أبرز مخططاتها وهو اعلاء العنصرية التركية وكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية وتنفيذ نظام سياسى واجتماعى غربى لا دينى منفصل عن الاسلام والشريعة والقيم والمعتقدات الاسلامية التى عرفتها الدولة العثمانية أكثر من أربعمائة عام وقبل قيام الدولة العثمانية كان الاتراك مسلمين منذ عهد العباسيين ٠



● آراء مؤرخى الغرب :

ولقد كان انتماء تركيا الى الغرب سبة فى تاريخها ٠ فلم تسلم من قلم مؤرخ أو فيلسوف ، فما استطاعت تركيا أن تعطى الحضارة الغربية شيئا ما ٠ بعد أن انتمت اليها كما أعطتها شعوبها ٠ الا انها كانت ولا تزال ذيلا لها ٠

وقد أشار أرنولد توينبى الى ذلك صراحة فى موسوعته وقال : ان تركيا حين تغربت لم تقدم شيئا الى الغرب أو جديدا الى الحضارة وعاشت عالة على القوانين والمنظمات الغربية ٠

وكما قال عبد الله التل : كان تخلى تركيا عن الاسلام ثمنا لتأييد دول الحلفاء لها فى حركتها التى قادها مصطفى كمال ٠ ولقد كان الوسيط الذى أشرف على اتفاق الحلفاء مع مصطفى كمال هو الحاخام « حاييم ناحوم » الذى كان رئيسا لليهود فى تركيا قبل انتقاله الى مصر ٠ وهو الوسيط القوى الذى أوفده مصطفى كمال الى دول الغرب فى مؤتمر لوزان فحقق لتركيا ما أراد الغرب ٠



دراسات جادة :

وقد ظهرت فى السنوات الاخيرة دراسات جادة تكشف حقيقة « كمال أتاتورك » منها كتاب الدكتور رضا نور . حيث كشف جرائم أتاتورك ومخازيه وخياناته فى أكثر من ألفين من الصفحات تحت عنوان « حياتى وذكرياتى » كما صدر كتاب « الرجل الصنم » لاحد الضباط المقربين من أتاتورك .

وقد هدمت هذه المؤلفات بناء الاكذوبة الاسطورية التى خدعت الاتراك والمسلمين فى بعض البلاد الى حين والقت الاضواء الحقيقية على حياة المغامر الخطير . بل لقد تحدثت فى جرأة شديدة عن مولده وظروف حياته الاولى .

بل ان هذه الظروف قد أوردتها كتب ناصرت أتاتورك وأهمها كتاب « الذئب الاغبر » الذى يقول بالنص :

كان بفطرته ثائرا لا يحترم رئيسا أو انسانا . أو وضعا من الاوضاع ولا يقدس شيئا على الاطلاق . وأنه كان يشرب ويلهو كل ليلة حتى مطلع الفجر فى المقاهى وأوكار الغرام . وقد مارس جميع الرذائل وجرب كل الموبقات . وانغمس فيها حتى أذنيه ثم دفع الثمن مرضا جنسيا وصحة منهارة .

ويقول أرمسترونج أيضا . أنه كان ولوعا بالاحاديث الخليعة والافراط فى الشراب والمغامرات الماجنة والليالى الحمراء فى رفقة النساء .



عنف وتسلط :

وهناك جوانب أخرى يعف القلم عن ذكرها أو ترديدها .

وعندما نستعرض حياة كمال أتاتورك منذ تولى السلطة حتى وفاته

١٩٣٨ · نجد صورة عاصفة من العنف والظلم والتسلط البالغ المدى فى سبيل تثبيت دعائم هذا النظام الوافد وآية ذلك الولاء المزدوج لبريطانيا وروسيا الشيوعية فى آن ·

وأبرز هذه المواقف صلته بالانجليز وما تحمله الوثائق مشيرة إلى عبارة : قيامه ببيع الوطن الى الانجليز · ومن ذلك موقفه أبان المرض · عندما استدعى السفير البريطانى فى تركيا وطلب اليه أن يتولى منصب رئيس جمهورية تركيا وفزعت بريطانيا لذلك ·

ولقد استطاع أن يحقق للصهيونية العالمية خطتها فى السيطرة بالغاء الخلافة والوجهة الاسلامية والحروف العربية والشريعة والمواريث والاوقاف والتعليم الدينى ·

* * *

● اسقاط الخلافة الاسلامية :

واذا كانت تركيا تحاول أن تعود اليوم الى طابعها الاسلامى الاصيل فان محاذير كثيرة تعمل لتصدها عن تحقيق هذه الغاية ولكن الله غالب على أمره (٣) ولكن التجربة كلها تثبت أن مجاوزة الفطرة ومحاربة الدين هى محاولة باطلة لا يمكن أن تستمر ولابد أن يحطمها الزمن لمجافاتها لسنن الامم والحضارات والتاريخ ·

واذا أردنا أن نتحدث عن كمال أتاتورك فى كلمة ، قلنا : ان تاريخه قد ارتبط بأخطر حدث فى تاريخ الاسلام · وهو الغاء الخلافة الاسلامية بعد أن ظلت قائمة أربعة عشر قرنا ، فقد كان الغاء الخلافة الاسلامية بعد تدمير الدولة العثمانية أكبر مركز تجمع للامة الاسلامية وهو آخر المراحل التى تطلع اليها الاستعمار واليهودية العالمية من أجل تمزيق وحدة الاسلام والعروبة · والقضاء على آخر صرح جامع للعرب والترك يحمل لواء الجامعة الاسلامية ويتنادى بالمسلمين فى كل بقاع الارض ·

لقد كان اسقاط الخلافة عام ١٩٢٤ من أخطر الاحداث فى العالم كله وسيظل من الاعمال الكبرى ضد الاسلام وسيحمل لاسم مصطفى كمال اكبر التبعات فى حكم التاريخ . فقد فتح البـاب واسعا لمام صراع الاقليميات والقوميات التى تتحرك فى فراغ دون أن ترتبط بدائرة أساسية هى دائرة الفكر الاسلامى أو الوحدة الاسلامية للجامعة فى مجال الجغرافيا أو فى مجال الفكـر .

غير أن الغاء الخلافة الاسلامية لم يحقق ما توقعه الاستعمار واليهودية العالمية من تمزق الاسلام أو اضطراب المسلمين والعـرب الذين أغرقـوا على التو فى أتون الاجناس والعصبيات والعنصرية ، بقصد عوامل الخـلاف ودعمها ، والحيلولة دون قيام وحدة فكرية أو اجتماعية بينهم ، لقد ركزت هذه الدعـوات التغريبيـة على الازدراء بالخـلافة العثمـانية والجامعـة الاسلامية . وعلى اثارة الصراع بين الاسلام والعروبة وبين القومية والوطنية وبين الاقليمية والقوميـة وبين العنـاصر المختلفة وبين الاديان والمذاهب ، وذلك كله لاذابة كل هدف سليم واضح تطرحه حركة اليقظة الاسلامية فى الطريق الصحيح الى معرفة الحقيقة . والى اتخاذ الاسلوب الاصيل لمواجهة الاخطار ونتيجة للضعف السياسى الذى كان يمر بالعالم الاسلامى .

فقد عجز قادة المسلمين عن اعادة بناء الخلافة الاسلامية مرة أخـرى بعد ان أسقطها مصطفى كمال ، وان ظلت عنصرا أساسيا فى مناهج الدعوات الاسلامية وخطة واضحة فى برنامج حركة اليقظة العربية الاسلامية . وما زال المسلمون يبحثون عن صيغة جديدة تحمل لـواء الوحدة ، بديلا من الخلافة أو مقدمة لها . ولقد كانت مكة وجامعتها فى أيام الحج . وكان الازهر ، من القوى التى ساندت حركة اليقظة الاسلامية بعد سقوط الخلافة ، وكان انتعاش السلفية الجديدة فى الجزيرة العربية واليقظة الاسـلامية فى مصر وباكستان وغـيرها ، من علامات التعويض السريع ثـم جاءت بعـد ذلك مؤتمرات التضامن الاسلامى ـ ومازالت تخطو خطوات بطيئة ولكنها ثابتة .

* * *

● **آثار الغــاء الخلافة :**

وقد صور الدكتور عبد الوهاب عزام الاثار التى ترتبت على الغــاء الخلافة فى العالم الاسلامى فقال : ان عمل الكماليين من بعد دل على أن الغاء الخلافة لم يكن نزوة عابرة · بل كان الحلقة الاولى فى سلسلة مصنوعة والخطوة الاولى من خطة موضوعة : خطة أملاها عليهم الروس والانجليز واوربــا ·

لقد كان الغاء الخلافة من هذه الخطوات المكفهرة لحل رباط حزمة من التعصب فى ريح عاصف بلغت من المسلمين أسوا مبلغ · وبلغت باعدائهم أبعد غاية · ولا ينكر هذا الا جاهل بطبائع الامم · واحسب أن الانجليز كان يهــون عليهم أن يبذلوا ملايين الجنيهات ليبلغوا الغاية التى بلغهم اياها الكماليون بغير بذل ولا كد ·

❋ ❋ ❋

امــر مقــرر ؟؟

وهناك من الدلائل ما يؤكد أن الغاء الخلافة الاسلامية كان أمرا مقررا منذ اليوم الاول للانقلاب العثمانى · والذى قام باسقاط السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ ، ولكنه نفــذ على مراحل واتــخذت اجراءاته واحــدة بعد أخرى ، حتى تم تنفيذه على يد مصطفى كمال عام ١٩٢٤ بعد أن أسـقط الخلافة الزمنية ، وأقام بدلا منهــا خــلافة منفصلة عن الســلطنة توطئة للاجهــاز عليهــا جمــلة ·

وسـيظل تاريخ مصطفى كمــال اتاتورك مرتبطــا باســقاط الخــلافة الاسلامية الى أن تعود باذن الله تبارك وتعالى خلال القرن الخامس عشر ·

---

(١) فى معركة الحفاظ على القسم الاوربى من تركيا وخــلال الحــرب مع اليونان ، كان يستغل العاطفة الاسلامية مما جعل المسلمين الدراويش ـ الفدائيين المسلمين يأمنون له ويساعدونه ، حتى اذا بلغ غايته قلب لهم ظهر المجن وانقلب على القوى الاسلامية ·

(٢) كتبت الابجدية التركية بالحروف العربية منذ القرن الثانى الهجرى وبعد أحد عشر قرنا أجبر كمال الاتراك على استعمال الحروف اللاتينية ·

(٣) من الواضح أن الانقلاب العسكرى الجديد فى الحــكم التركى ، موجه أصلا ضد العودة الاسلامية ·

الموسوعات الثلاث

* معلمة الاسلام (٥٠ حلقة)
* فى دائرة الضوء (٥٠ حلقة)
* على طريق الاصالة الاسلامية (٢٠ حلقة)

* * *

الاسلام فى مواجهة الايديولوجيات الغربية

* المجتمع الاسلامى المعاصر
* تاريخ الاسلام
* الاسلام والحضارة
* الاسلام فى وجه التغريب (الاستشراق والتبشير)
* الايديولوجيات والفلسفات المعاصرة
* الشعوبية فى الادب الحديث
* مقدمات المناهج التعليمية
* الاسلام والتكنولوجيا

أنور الجندى

الفصل الخامس
فساد دعوى (الجنس السامى واللغة السامية)
وهى اخطر سموم الاستشراق اليهودى
ابعاد خطة تزييف تاريخ العرب والمسلمين
لحساب الصهيونية والتلمودية

لا تزال خطة تزييف تاريخ العرب والمسلمين لحساب الصهيونية التلمودية من الاعمال الضخمة التى قام بها الاستشراق المسيحى واليهودى والتى لم تكتشف بعد أبعادها الواسعة . وفى كل يوم يضاف خيط جديد الى سابقه فتبدو الصورة اشد خطرا مما كان متصورا من قبل ، ولا ريب أن المثقفين المسلمين فى حاجة الى متابعة الكشف عن هذه الخيوط والابعاد حتى يعرفوا ما يراد بهم ، ومدى خطة الاحتواء ، ومدى زيف تلك الشبهات والسموم التى أصبحت كالمسلمات ، بينما هى من افتراءات الاسرائيليات الجديدة التى جددت الاسرائيليات القديمة .

ولكى يكون البحث عمليا وقائما على أصوله الاصيلة فانى أضع أمام الباحثين هذه المصادر لنبنى عليها الحقائق التى وصلنا اليها :

١ ـ تاريخ الجنس العربى للاستاذ محمد عزة دروزة .

٢ ـ الاسرائيليات والغزو الفكرى للدكتورة بنت الشاطىء .

٣ ـ محمد رسول الله والذين معه للاستاذ عبد الحميد جوده السحار .

٤ ـ مقدمة كتاب شمس الله تشرق على الغرب للدكتور فؤاد حسنين على .

ومنطلق البحث انه قبل ابراز فكرة الصهيونية فى العصر الحديث (لمخطط متجدد ومبتعث عن « التوراة » التى كتبها حكماء اليهود ابان السبى البابلى و « التلمود » الذى جاء بعد تدمير الرومان للقدس) . هذا المخطط هو بروتوكولات صهيون التى عرفت لاول مرة عام ١٨٩٧ وفى خلال اعداد هذا المخطط كانت هناك محاولات جبارة تعمل على وضع

مفهوم الصهيونية التلمودية فى داخل كتب التاريخ والموسوعات العالمية وادخالها فى مناهج المدارس والجامعات الغربية ومعاهد الارساليات فى العالم الاسلامى .

وقد تمت هذه المحاولة الخطيرة بواسطة مجموعة ضخمة من المفكرين الغربيين الذين احتوتهم الصهيونية : (شلوسر ، بروكلمان ، رينان ، دوركايم ، دوزى ... الخ) .

وذلك بالاضافة الى الاستشراق اليهودى الصهيونى : (مارجليوث ، جولدسيهر ، برنارد لويس ... الخ) .

وقد حاولت هذه الخطة تحقيق عدة أهداف :

اولا : ابتكار فكرة « السامية » التى نسبت اليها كل أمجاد التاريخ العربى القديمة وسلبه من أصحابه الحقيقيين وخاصة اسماعيل بن ابراهيم وأبنائه وأحفاده واضافت هذا كله الى مصدر غامض ليس له سند علمى ويستمد مصدره الاساسى من التوراة التى كتبها اليهود بأيديهم وليست التوراة الحقيقية المنزلة على موسى عليه السلام . وذلك بهدف اشراك اليهود مع العرب فى هذه الامجاد بينما لا يوجد لليهود أى اتصال بانشاء هذه الحضارة .

ويستتبع هذا الخطر : ايجاد صلة ما بين العربية والعبرية على النحو الذى حاوله الكتاب الذين كتبوا ما أسموه « تاريخ اللغات السامية » وقاموا بتدريسه فى الجامعات وهم : اسرائيل ولفنسون ، وشاخت ، ثم الدكتور مراد كامل .

ثانيا : محاولة التشكيك فى رحلة ابراهيم عليه السلام الى الحجاز واقامة ابنه اسماعيل وزوجته هاجر بمكة . وهذا يبدو واضحا من تجاهل التوراة لهذه الواقعة التاريخية ومحاولة اثارة الشبهات فيها ، وقد ردد الدكتور طه حسين هذا القول فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » .

ثالثا : محاولة اعتبار التوراة مرجعا للبحث العلمى مع ان شهادات كل علماء الغرب تؤكـد ان التوراة الموجودة الآن كتبها علماء اليهـود ٠ منهـا ما كتب أيام المملكة الاسرائيلية بنحو ثلاثة قرون ٠

رابعا : محاولة خلق تصور زائف بأثر اليهود فى الجـزيرة العربيـة وفى الادب العربى ٠

خامسا : محاولة ايجاد ترابط بين العـرب واليهود والقول بانهمـا أبنـاء عمومة وذلك كله يستهدف التمهيد للدعـوة الى اقامـة وطن قومى لليهـود فى فلسـطين ٠

سادسا : اعلاء شان اسحق على اسماعيل وهما أبناء ابراهيم عليـه السـلام ، وأكبرهما اسماعيل الذى هاجر به وأمه الى مكة والذى أقام معه القـواعد من البيت الحـرام ، والذى امتحن بذبحـه وجـاءه الفـداء من السـماء ٠

والهدف هو اخراج أبناء اسماعيل من حقوق الوعد الذى تلقاه ابراهيم من ربه وقصر الوعد على أبناء اسحق تحـت اسم أسـطورة « شـعب الله المختـار » ٠

***

هذه هى : أهم أطراف المؤامرة الخطيرة لتزييف تاريخ الاسلام والعرب قبل الاسلام لحساب الصهيونية التلمودية : وقد جرى تطعيم دوائر المعارف وكتب التاريخ ومناهج المدارس والجامعات بهذه المفاهيم واستكتاب عشرات الكتاب لبحـوث متعددة منوعة تدور حول هذه الشبهات لخلق أدلة مضـللة لتثبتهـا فى الاذهان ٠

وتكاد تكون فكرة « السامية » اخطر هذه الشبهات ٠

وهى عبارة عن مصطلح لم يرد مطلقا فى كتابات العرب والمسـلمين

على مدى التاريخ ، وقد استمد أساسا من نص من نصوص التوراة المكتوبة بايدى الاحبار ، وفى ظل تقسيم وهمى للاجناس البشرية مستمد من أسماء ابناء آدم أبى البشر : « سام وحام ويافث » .

وقد برز هذا المعنى فى ظل تقسيم مستحدث ظهر فى أوربا ابان استعلاء نزعة العنصرية الاوربية التى قسمت العالم الى ساميين وآريين لتضع العرب والمسلمين فى قائمة موازية للجنس الآرى صانع الحضارة الذى وصف بكل أوصاف العبقرية والعظمة والاستعلاء على البشر وخضوع الاجناس الاخرى اليـه .

وكان هـذا التنظـير الـذى البس ثـوب العلم انمـا يستهدف اعطاء الاسـتعمار « مبررا » علميـا لسـيطرته على الامـم الملونة غـير الآريـة الاوروبية .

غير أن المحاولة التى حاولت أن تضع عبارة « السامى » والسامية بديلا للابراهيمية الحنيفية وللعرب والعربية كانت محاولة ماكـرة خطيرة استهدفت حجب أمجاد التاريخ الصحيح نه مصدرا واضحا .

والغربيون يعرفون أن التوراة التى بين أيدى الناس اليوم هى توراة مكتوبة بايدى الاحبار وان صلتها بالتوراة الصحيحة مشكوك فيها ولذلك فان الاعتماد عليها فى اقامة نظرية تعطى كل هذا القـدر من التوسع والنمو والسيطرة فى دوائر الثقافة والعلم والجامعات هو أمر لا أساس له من منهج العلم الصحيح . ولقد كانت اليهودية الصهيونية من وراء هذه النظرية فى سبيل طمس التاريخ العربى السـابق للاسـلام وتزييفه بفرض دور وهمى لليهود فى الحضارة وفى الجزيرة العربية قبل الاسـلام واحياء اللغة العبرية واعطائها رصيدا زائفا من الصلة باللغة العربية هو أكبر بكثير من حجمها الطبيعـى .

وفكرة السامية تدور حول القول بان هنـاك أصـلا واحـدا مشتركا

للعرب واليهود ومحاولة اعطاء العربية اثرا ومكانة غير صحيحة فى حضارات الشرق القديم •

وقد كان « شلوسر » هو اول كاتب غربى استعمل مصطلح السامية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر واعتمد فى هذه التسمية على نص من التوراة • وقد كانت الصهيونية وراء هذه الفكرة ومن ثم فقد اتسع نطاق هذه المقولة واقام عليها الكتاب الموالون للصهيونية والاستعمار ما اطلق عليه اسم « علم الاجناس » ولغياب الفكر الاسلامى فى هذه المرحلة فقد اتسع نطاق الفكرة الاسرائيلية وسيطرت على مناهج الجامعات ودراسات الثقافة جميعا •

وفى كلية الآداب بالجامعة المصرية تقررت دراسات اللغات السامية وقام على هذه الدراسات مستشرقون يهود : فى مقدمتهم « يوسف شاخت واسرائيل ولفنسون » وقد أخذوا يخدعون شباب المسلمين والعرب بقولهم ان العربية ليست سوى عبرية مقلوبة ، وان العرب انما اخذوا اسمهم من « عربة » التى هى فى العبرية بمعنى الصحراء ، وكان الهدف هو خلق مفهوم زائف للصلة بين العرب واليهود من ناحية وباعطاء اليهود مكانا زائفا فى مجال الآداب والعلوم •

ومن ذلك القول بان اليهود هم الذين وضعوا شريعة حمورابى ابان نفيهم فى بابل وكل وثائق التاريخ تكذب ذلك وتثبت أن اليهود ابان المنفى كانوا يبحثون فى حضارات الامم عن خيوط يضمونها الى نسيجهم المهلهل ليتمكنوا من القول بان لهم فلسفة معينة ، وقد كانت فلسفتهم ومنهجهم الفكرى جماع الفلسفة البابلية القديمة والهلينية ، ومدرسة الافلاطونية المحدثة وبقايا المجوسية والغنوصية الشرقية وذلك بعد أن فقدوا أصلهم الاصيل وهو توراة موسى • كذلك فقد كان هدف هذه المحاولات هو القول بان اليهود والعرب أبناء عمومة تربطهم أواصر الرحم والقربى وتاريخ اليهود بعد الاسلام فى المدينة يكشف عن هذه الرحم والقربى فى مؤامراتهم

وجرائهم وغدرهم ، الذى امتد طوال تاريخهم . ولقد حاول دوزى ومرجليوث ادعاء هذه الصلات واختلاق مشابه بين قريش واليهود ، والقول بأن موطن اليهود هو بلاد اليمن اعتمادا على الفاظ ملتقطة من لغة سبأ البائدة تشبه ألفاظا عبرية .

ولقد اتسع نطاق هذه الكتابات فى الفكر العربى فى هذه الفترة المبكرة تمهيدا للفكرة الصهيونية وان كان بعض العلماء الغربيين لم تخدعهم هذه التلفيقات فكشف زيفها أمثال : جوستاف لوبون الذى قال : « لا جرم أن الشبه قليل بين العربى أيام حضارته واليهودى الذى عرف منذ قرون بالنفاق والبخل والجبن وان من الاهانة للعربى أن يقاس باليهودى ، ولا ننسى ان طرق الحياة الخاصة التى خضع اليهود لحكمها منذ قرون كثيرة هى التى انشأت فيهم عرفا ذليلا غير محترم ، وعندى أن كل أمة تكون عرضة لمثل ما أصاب اليهود ولا يعرف عمل لها غير التجارة والربا وتحتقر فى كل مكان تنتقل اليها تلك الغرائز المنحطة بالوراثة المتتابعة مدة عشرين قرنا وأكثر فتتأصل فيها وتصير الى ما صار اليه اليهود لا محالة » .

ولقد كانت مؤامرة « السامية » هذه موضع نظر الباحثين العرب والمسلمين منذ وقت طويل ، فلم تفتهم تلك الخطة الماكرة التى استهدفت اعتبارها منهجا من مناهج الدراسة الجامعية واعطاء شبهاتها صيغة المسلمات .

وقد جاء ذلك فى الوقت الذى حمل فيه الدكتور طه حسين لواء الدعوة الى تجديد دراسة الادب وفق المناهج الحديثة والبحث فى الشعر الجاهلى فقد كان الهدف من ذلك هو القول بأن اللغة العربية لم تكن لغة واحدة فى الجزيرة العربية وأن هناك لغة فى الجنوب ولغة فى الشمال وهى محاولة مضللة تستهدف التشكيك فى وحدة اللغة العربية ، قبل الاسلام واثارة الشبهات حول نموها واتجاهها الى اتخاذ مكانها الذى أهلها لتكون لغة القرآن ولسان الاسلام .

وبذلك استطاعت الصهيونية العالمية أن تدخل نظريتها الى قلب الفكر الاسلامى والادب العربى لتضرب به ذلك المفهوم الاصيل الذى عرفه المسلمون واستوعبته آثارهم وتراثهم ٠

كذلك فقد عاش الدكتور طه حسين حياته كلها يحاول اقناع المسلمين والعرب بأن لليهود فضلا على أدبهم وتاريخهم وتراثهم ، فهو يعرض لليهود واليهودية كلما عرض للغة العربية وأدبها ٠

ولقد عمل باكرا لتحقيق هذا الهدف حين اعلن بأن وجود ابراهيم واسماعيل لا تثبته المصادر العلمية والتاريخية وأنكر ان ورود اسمهما فى القرآن يعد سندا صحيحا ، ومن العجب أن تتخذ نظرية السامية هذا الاتساع والشهرة والاستمرار وهى تعتمد على نص من التوراة التى كتبها أحبار اليهود ويقرها طه حسين على ذلك ولكنه لا يقر القرآن على وجود ابراهيم واسماعيل مع أن القرآن هو النص الموثق الذى نزل من السماء والذى لم يصبه اى تحريف ٠

كذلك فقد تحدث الدكتور طه عما أسماه أثر اليهود فى الحياة العربية والادب العربى (ومحاضراته متعددة فى هذا الصدد وأهمها محاضرته التى سجلتها له مجلة الجامعة المصرية فى عددها الاول فى سنتها الثالثة ١٩٢٥) والتى خلص منها الى ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود :

أولا : أن اليهود أثروا فى الادب العربى أثرا كبيرا جنى على ظهوره ما كان بين العرب واليهود ٠

ثانيا : أن اليهود انتحلوا شعرا لاثبات سابقتهم فى الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب ٠

وفى مقدمة كتاب اسرائيل ولفنسون (الذى يشرف الآن على البعوث الإسرائيلية فى افريقيا) يقول الدكتور طه حسين :

« ليس من شك أن المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيرا قويا فى

الحيـاة العقلية والادبية للجاهليين من أهل الحجاز ، وليس من شـك فى أن الخصومة كانت عنيفة أشـد العنف بين الاسـلام ويهودية هؤلاء اليهود وفى أنها قد استحالت من المحاجة والمحاولة الى حرب بالسيف انتهـت باجلاء اليهود عن البلاد العربيـة » ويعلن الدكتور طه اغتباطه الى أن امرائيل ولفنسون : « قد وفق الى تحقيق أشـياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل » ولكن هل هذه هى الحقيقة ؟ ان الدكتور فؤاد حسنين على أكبر المتخصصين فى مصر فى اللغة العبرية وتاريخ اليهود يقول : ان هذا البحـث حلقـة من حلقـات كتب الدعاية الصهيونية التى كانت الشعبة الثقافيـة للمؤتمر الصهيونى باشراف « مارتن بوبر » تدعو الى نشرها ، وما نقـله امرائيل ولفنسـون فى رسـالته من آراء كان القصـد منه اطـلاع اليهـود الشرقيين وقراء العربية على ما جاء فى المصـادر الاجنبية . وأن هــذه الرسالة ـ التى مازالت فى أيدى المثقفين والباحثين ـ مشحونة بالاخطـاء ، وهى بعيدة عن المراجع العبرية التى أشير اليها ، وأن الدكتور طه حسين لا يعرف العبرية وقد أخـذ بالنتائج التى وصـل اليها الباحث دون التحقق منها ببعض الذين يجيدون هذا النوع من الدراسات . والامانة العلمية كانت تقتضى غير هذا . ذلك أن البحث العلمى يجب الا يصبغ القومية المتعصبة كما لا يتخـذ وسيلة من وسـائل الدعـاية السـياسية أو الكسب المـادى الرخيص » .

ولا ريب أن هذا مقتل من مقاتل طه حسـين الكثيرة التى غابت عن صديقنا الدكتور محمد رجب البيومى .

وعن قيمة تراث اليهود وصلته بالتراث الاسلامى يقول الدكتـور فؤاد حسنين : « فى مصر بزغ فجر الضمير ومنها أخذ اليهود ما أخذوا وفى بابل واشـور شريعة حمورابى وفيها الشىء الكثير من هذا التراث الذى نقـله واضعو سـفر التثنية .

ولما عاد اليهود من السبى نقلوا معهم عن العـرب البابليين الشىء الكثير مما نجده فى كتابهم المقدس وعند المعينيين السبئيين العمارة وهندسة

الرى والتجارة · وقصة ملكة سبا والدور الذى تلعبه فى تاريخ الاسرائيليين وحياتهم الاقتصادية لا يخفى على احد ·

ويشير الدكتور فؤاد حسنين الى آثار اليهودية والمسيحية والاسلام : وما استتبعه ذلك من تفتق العقل البشرى فانتج أدبا وشعرا ونثرا وقصصا وفلسفة وحكما وامثالا · وكان من نتائج هذه الثورات العربية العقلية والروحية ان رمت العروبة ببعض ابنائها شعوب العالم القديم من شرقيين وغربيين فحطموا مخلفاتهم العفنة البالية وأقاموا على انقاضها هذه الدول الفتية التى جاءت بالمعجزات ، فالعرب لا اليونان او اليهود هم الذين بعثوا العالم من حالة الجمود الى حياة أفضل ممكنة من التحكم فى مصائر الكون · فاطلق العربى الافكار من عقالها وحررها من جمود رجال المعبد اليهودى والكنيسة المسيحية فظهرت طائفة القرائين حيث أنكر هؤلاء التلموذ وتعاليمه كما انكمش سلطان الكنيسة وتوارت وراء البخور وقد مهد هذا التطور بدوره الى ظهور حركة الاصلاح الدينى وبعث النهضة العملية · وكما عاون العرب على الاضطلاع بهذه الرسالة تسامحهم ومبادئهم الانسانية التى ازالت الفوارق بين الشرق والغرب · كما انهم لم يمكنوا اللون من أن يكون عاملا من عوامل التفرقة والتميز العنصرى والحط من القيم الانسانية ولذلك نجح العربى فى تحقيق ما عجز عنه اليونانى والفلسفة اليونانية ·

ومذهب الانسانية لم يقو ولم ينتصر الا بفضل العرب ولم تعرفه أوربا الا فى العصور الوسطى ، وعلى يد العرب وبعد ان تتلمذت أوربا على العرب فى العصر الاسلامى ، ويصل الدكتور فؤاد حسنين الى القول بان الحانقين على العرب والاسلام والناسبين التراث العربى الى اليونان واليهود يضللون انفسهم وغيرهم والعكس هو الصحيح فالعرب هم أصحاب الفضل على اليونان واليهود · والتاريخ اليهودى يحدثنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجه الطغاة من حكامهم فى فلسطين او فزعا من اضطهاد اليونان والرومان ، فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية فوجدوا أهلا وسهلا ، فهذه القبائل اليهودية التى كانت

تنزل يثرب وخيبر ووادى القرى ، وفد افرادها على العرب بعد ان افقدتهم القرون التى مرت بهم منذ زوال دولتهم لغتهم المقدسة وتوقف تذوق اللغة العبرية وتجديدها حتى اصبح من المالوف لدى اليهودى ان يعبر عن افكاره وشعوره فى لغة ركيكة هي خليط من العبرية والكلدانية واليونانية ، فحالت ظروفه هذه دون خلق آداب عبرية ، فما كان اولئك اليهـود بمستطيعين قول الشعر او اجادة النثر فغير نزولهم بين العرب هذه الاوضـاع وبخاصة ان العربى معجب بلغته معنى بها نثرا وشعرا حريصـا على المحافظـة عليهـا فصيحة نقيـة ٠

اخذ اليهود عن جيرانهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير فلما رحل بنو قينقاع والنضير وقريظة ويهود خيبر ووادى القرى وغيرهم الى العراق والشام وفلسطين كانوا يتكلمون لغة عربيـة ويتادبون بادب عربى ويتطبعون بطباع عربية ، كلها شجاعة ووفاء وكرم وابـاء ، يقولون الشعر فى مختلف فنونه ويعبرون عن خواطرهم ، فى لغة هى لغة اهل الحجـاز ، نزل اولئك اليهود فى اوطانهم الجـديدة فاثروا فى ابنـاء ملتهم تاثيرا قويا ولم يمض نصف قرن من الزمان على تحـرير العـرب ليهود فلسـطين والعـراق وغيرهما حتى اصـبح فى استطاعتهم التعبـير بالعربيـة ٠

وقد حبب الى اليهود ظاهرة المحافظة على عربية القرآن الكـريم فاقتفوا اثر العرب فيها فحاولوا الحرص على نطق أسفار العهد القـديم نطقا صحيحا وتاثر اليهود بالعرب أيضا فاوجدوا ما يعرف فى الادب العربى بالشعر العبرى الحديث فهذا الفن صورة من الشعر العربى وزنا وقافيـة ولم يقف الاثر عند الشعر بل تعـداه الى النثر وكذلك الامثال العربيـة ولقد فتح العرب أمام اليهود دور العلم على مصاريعها ولم يفرقوا بينهـم وبين غيرهم ولذلك استطاع اليهود القيام بدور الرواة من الشعر اذ انسابوا فى بعض البلاد المسيحية وأخذوا الى جانب بعض العلماء العـرب يلقنون الاوربيين ما انتهت اليه معرفتهم ٠

ويحدثنا التاريخ اليهودى ان الاسلام احسن معاملة اليهود حتى أولئك الذين اضطر النبى والخلفاء الراشدون الى اجلائهم عن قلب الجزيرة العربية تامينا لرسالة الاسلام واتباعه اقطعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والامام على كرم الله وجهه الاراضى الواسعة بالقرب من الكوفة وعلى ضفاف الفرات مما دفع المؤرخ اليهودى « جريتز » الى الاشادة بعدالة العرب وانسانيتهم فى كتابه تاريخ اليهود فقال :

« ان تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى القرن السابق للنبوة المحمدية وابان حياة الرسول صفحة ناصعة فى التاريخ اليهودى » وقال : « لقد وزع عمر أراضى اليهود على المسلمين المحاربين وعوض اليهود المطرودين ـ وهذه هى العدالة ـ أخرى بالقرب من الكوفة على الفرات حوالى عام ٦٤٠ ، حقا رب ضارة نافعة ٠ ان سيادة الاسلام نهضت باليهودية من كبوتها » ٠

واذا تركنا الخلال العربية الاجتماعية جانبا : هذه الخلال التى بوأت العرب هذه المكانة الممتازة والتى جعلتهم أهلا ليكونوا رسل حضارة وثقافة للناس كافة ، وقابلنا بين الاسلامية وتعاليمه وبين اليهودية أدركنا الفرق الشاسع اجتماعيا وعقائديا بين الملتين ، لذلك سرعان ما وجدنا المرأة اليهودية مثلا تفضل الالتجاء الى المحاكم الشرعية الاسلامية للفصل فى قضايا الاحوال الشخصية ٠ وقد هدد هذا الوضع الجديد المجتمع اليهودى بالزوال فقرر علماء التلمود تغيير بعض احكامه مجاراة للشريعة الاسلامية ، لكن تغيير بعض الاحكام التلمودية لم يقف عند هذا بل زعزع العقيدة فى قدسيته وصحة ما جاء فيه وبخاصة تلك الاحكام التى لا تستند الى نص قوى فى الكتاب المقدس ٠

يقول الدكتور حسنين : هذه بعض حسنات العرب على اليهود ، فالعرب هم الذين أهدوهم العربية بعد أن كانوا يرطنون خليطا لا شرقيا ولا غربيا ٠ والعرب هم الذين هذبوا ذوقهم اللغوى ورفعوا مستواهم الادبى فمكنوهم

من خلق ملكة ادبية وثالثا وليس اخيرا احتذى اليهود حذو المسلمين مع القرآن الكريم فعنوا بدراسة كتابهم وشرعوا فى وضع نحو للغتهم صيانة من اللحن والضياع ، هذه الحقيقة العلمية اسوقها للدكتور طه وتلميذه الدكتور اسرائيل ولفنسون » .

ونقول : هذا هو سر الحقد الشديد الذى تبيته الصهيونية العالمية للعرب واللغة العربية فتعمل على محو ذلك التاريخ الطويل ورفع اسم العرب عنه ونسبته الي رمز مضلل هو « السامية » فينقل ذلك التاريخ الزاخر من مصدره الاصيل الى مصدر غامض يقوم على نص من التوراة التى كتبها احبار اليهود والتى لا ترقى الى مستوى الحقائق الثابتة التى قدمها القرآن الكريم الذى لم يصبه أى تحريف .

ان الهدف هو طمس الرابطة بين الاسلام الذى جاء به محمد بن عبد الله رسول الله فى القرن السادس الميلادى وبين دعوة ابراهيم التى بدأت منذ عام ١٧٥٠ قبل الميلاد ، ذلك أن اقامة ابراهيم ابنه إسماعيل فى قلب الجزيرة العربية فى مكة ، واسماعيل هو جد العرب وجد محمد ﷺ وبناء البيت الحرام الكعبة ، ودعوة الله سبحانه وتعالى الى النبى ﷺ الى اتباع ملة ابراهيم « وأوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا » كل هذا مما يريد اليهود والصهيونية طمسه وتزييفه ، وقد أثبتت الاحافير التى كشف عنها أخيرا أن ابراهيم عليه السلام كان يتكلم العربية وان لم تكن العربية التى نزل بها القرآن أو التى نتكلمها اليوم ، كما أثبتت الاحافير أن اللغة التى كانت مستعملة فى اليمن والعراق والشام والحجاز لغة واحدة وان إختلفت لهجاتها كما تختلف لهجات الامم العربية فى هذه الايام . وقد استشهد عبد الحميد السحار الذى أورد هذا فى كتابه (محمد رسول الله والذين معه) بالآية الكريمة : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس » .

وقد جاء فى كتاب العلامة « البرايت » : عن احافير فلسطين قوله :

« تقارب اللغات العربية القديمة عدا الأكادية فى الاجرومية والنطق بحيث تشترك كل لهجة وما جاورها ولا يلحظ الانتقال من لهجة الى لهجة الا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والجرمانية » .

والملاحظ أن التوراة لم تورد ذكر ذهاب ابراهيم عليه السلام الى الحجاز وسكتت هذه المصادر سكوتا متعمدا عن علاقة ابراهيم بالجزيرة العربية ومكة وبناء الكعبة ، بل وسكتت أيضا عن ذكر هود وصالح من أبناء العرب كأنما لم تكن عاد وثمود على مقربة من فلسطين . وقد حدد بطليموس فى أطلسه موقع ثمود وعاد وكشفت الحفريات عن مدائن صالح وعثر على بعض الخطوط الثمودية فى ثمود وفى الطائف . وقد كان اليهود ينفسون على العرب أن صار لهم بيت محرم منذ أيام ابراهيم بينما لم يصبح لهم هيكل فى بيت المقدس الا فى أيام سليمان بن داود فكان هذا السكوت المتعمد .

وقد عمد اليهود الى طمس حقيقة وعد الله تبارك وتعالى لابراهيم فجعلوه قاصرا على اسحق ولذلك تجاهلوا ابنه الاكبر اسماعيل وحاولوا إخراجه واخراج أبنائه من حقوق الوعد الذى تلقاه ابراهيم من ربه وابتكروا الاكذوبة التى تقول أن بنى اسرائيل وحدهم هم شعب الله المختار . يقول الاستاذ السحار : « حرم اليهود أبناء أسماعيل حقوق الوعد الذى تلقاه ابراهيم من ربه ، وارادوا أن يسلبوا اسماعيل كل فضل فزعموا أن الذبيح أسحق ، مع أن التقاليد تقضى بتقديم الابن الاكبر قربانا لله » .

ولا ريب أن انكار اسماعيل وأبنائه يحرف تاريخ العرب قبل الاسلام تحريفا شديدا فان أبناء اسماعيل الاثنى عشر قد انبثوا فى هذه المنطقة .

وقد أعلنت الواح الطين التى كتبت بالخط المسمارى والتى وجدت فى أطلال بابل ونينوى وبلاد ما بين النهرين أن بنى اسماعيل كانوا حقيقة واقعة وأن أبناءه الاثنى عشر صاروا قبائل قوية تناوىء بابل وآشور ومصر والاغريق والرومان .

والواقع أن تاريخ هذه المنطقة منذ عهد ابراهيم عليه السلام (١٧٥٠ قبل الميلاد) هو تاريخ العرب الذين كانت تطلقهم الجـزيرة العربيـة فى موجات مهاجرة إمتدت من حدود الفرات الى المغرب وشملت هذه المنطقة كلها وان فكرة السامية الزائفة لم تكن شيئا معروفا أو مقـررا ولا توجـد إى اشـارة اليها فى أى من الكتب أو الحفريات أو الاسـانيد المكتوبة على الاعمدة أو الآثار القديمة .

يقول العلامة محمد عزة دروزة : « لقد أصبح أمر انسـياح الموجات من جزيرة العرب الى الاقطار المجاورة لها منـذ اقدم الازمنـة وكون الكلد والاشـور فى العـراق والكنعـا والعمـور والارميـين والعبرانيـين فى جزيرة الفرات وبلاد الشام ومعظم سكان وادى النيل شماله وجنوبه ومعظم سـكان اثيوبيا والصـومال من هؤلاء المنساحين فى القرون التاريخية من الحقـائق التى لا تحتمل جـدلا ولا سيما أن جـزيرة العرب ظلت ترسـل بموجاتها الى هذه الاقطار بدون انقطاع قبل دور العروبة الصريحة ، اى قبل أن تغدو اللغة العربية الصريحة لغة العرب واسم العرب اسما لهم ، ثـم فى دور العروبة الصريحة قبل الاسلام ، ثم منـذ الاسلام الى اليوم مما سجلت أحداثه القديمة نقوش المصريين والاشوريين والكلدان وكتب اليونان والرومان القديمة وما قرره علماء الآثار والتاريخ » .

ومن خلال بحثه الواسـع نصل الى الحقائق الآتية :

أولا : ان جزيرة العرب أخذت تسمى باسم العروبة الصريحة فى كتب اليونان والرومان واسفار العهد القديم منذ (الفين وخمسمائة سنة) واسم العرب الصريح اخـذ يطلق على أهلها المستعربين فى داخلهـا وتخومهـا الشمالية جزئيا ثم كليا منذ الفين وخمسمائة سنة كذلك بل قبل ذلك مما تدل عليه النقوش والمدونات القديمة واللغة العربية التى تكلم بها سكان الجزيرة والنازحون منذ الفين وخمسمائة سنة كذلك هى اللغة العربية الصريحة بقطع النظر عن تعدد لهجاتها وبعدها قليلا أو كثيرا عن اللغة الفصحى ، على ما تدل عليه آثار وأسـماء واعلام ونقوش السبئيين والحجريين والنبطيين

والتدمريين واللحيايين والثموديين والصفويين العائدة الى الحقبة الممتدة من القرن الخامس قبل الميلاد الى القرن الخامس بعده وقد ساعدت عوامل متنوعة على سرعة تطورها بعد ذلك حتى بلغت ذروتها باللغة الفصحى قبل البعثة المحمدية بامد ما .

ثانيا : ان هناك نصوصا قاطعة بأن اللغة العربية هى اللسان الاول : وهى لسان آدم عليه السلام الا أنها حرفت ومسخت بتطاول الزمن عليها فظهرت منها السريانية ثم سائر اللغات : وفى المزهر (جـ ١ ٢٠) ان اللسان الاول الذى نزل به آدم من الجنة كان عربيا الى أن بعد العهد وطال فحرف وصار سريانيا وهو يشاكل اللسان العربى الا انه محرف .

وقد ثبتت القرابة بين العربية والسريانية ، فقال المسعودى فى كتابه التنبيه (ص ٦٨) : وانما تختلف لغات هذه الشعوب (أى شعوب الجزيرة العربية) عن السريانيين اختلافا يسيرا . وأكد المرحوم أحمد كمال باشا فى قاموسه الذى أعده للمقارنة بين اللغة الفرعونية واللغة العربية أن ثلاثة أرباعها تمت الى العربية بصلة .

ويقول الاستاذ دروزة أن علماء العربية أخذوا نظريتهم فى القرابة بين العربية والسريانية من أهل الكتاب فقد كانت السريانية هى لغة الثقافة والمثقفين ولغة يهود العراق وأكثر أهل الكتاب فى جزيرة العرب فى ذلك العهد .

ثالثا : مما وجد فى الحفريات ما كتب على قبر امرىء القيس (٣٢٨ بعد الميلاد) عبارة : (ملك العرب كلهم) مما يسوغ أن كلمة العرب كانت معروفة فى ذلك الوقت وتطلق على العرب الصرحاء ، وأن التسمية العربية كانت تطلق أولا على بعض أجزاء من الجزيرة وتخومها وقبائلها وملوكها قبل ذلك بعدة قرون .

وترجع كلمات (ارابا وعربانا ، وعرابا وعريبى) الى مدونات قديمة فى القرن التاسع قبل الميلاد المسيحى وأن أقدم أثر عربى هو أثر الملك الاشورى (٨٦٠ ـ ٨٢٥) قبل الميلاد .

وقد أضاف الى هذا الاستاذ عبد الحميد السحار : أن الحفريات أكدت : أن حضارة بابل عربية ، وحضارة العموريين عربية ، وحضارة الكنعانيين عربية وحضارة سيناء عربية وحضارة ثمود عربية ، وقد اكتشفت هذه الحضارات وعرف أنها حضارات عربية خالصة : ولكن بعض العلماء أرادوا أن ينسبوها الى جد أعلى حتى لا يلقوا أضواء على مجد أقوام نافسوا بنى اسرائيل منذ أيام خليل الرحمن ابراهيم فاطلق العالم سلوتيسر اسم (السامية) نسبة الى سام بن نوح وصادف ذلك هوى فى نفوس الآخرين فأخذوا يتحدثون عن الاقوام السامية والحضارات السامية ويتبعهم الكتاب العرب .

والمعروف أن سيدنا ابراهيم قد أقام القواعد من البيت وابنه اسماعيل عام ١٧٠٠ قبل الميلاد وتلك هى أولى خطوات هذه الامة الحقيقية ومن ثم فان أصلح اسم لها هو « العروبة الحنيفية » هذه الأمة التى امتدت حتى جاء محمد ﷺ فاكمل لها الدين .

ونصل من هذا كله الى عدة حقائق :

أولا : ان اليهود لم يكن لهم دور صريح او وضع صريح أو أثر صريح فى أى نهضة من نهضات هذا التاريخ الطويل ، وأنهم زيفوا تاريخهم وتاريخ العرب وعمدوا الى حجب اسماعيل حتى يقصروا الوعد على أبناء اسحق .

ثانيا : أن هذه الجزيرة العربية منذ بعثة ابراهيم عليه السلام ونشأة اسماعيل عليه السلام وبناء الكعبة وهى عربية واللغة العربية هى لغة الموجات المهاجرة المتصلة التى شملت كل البلاد العربية من بعد ، والتى كانت قبل الاسلام عربية وموحدة لانها كانت تعرف دين ابراهيم (الحنيفية) .

ثالثا : ان أحقاد الصهيونية العالمية هى التى حرضت المستشرقين وكتاب الغرب على تغيير هذا التاريخ وانكاره واصطناع اسم آخر أقدم منه ولا صلة له بهذا التاريخ فضلا عن أن مصدره ليس سليما ولا موفقا وهو التوراة التى كتبها الاحبار بأيديهم وليست من عند الله .

رابعا : استهدف اليهود أن يجمعوا بين العرب واليهود فى كيان تاريخى زائف كما استهدفوا أن يجمعوا بين العبرية والعربية فى ترابط وهمى غير صحيح محرفين بذلك حقائق التاريخ الاصيلة .

خامسا : ان كلمة (السامية) هى تعبير اصطنعه اليهود ليحصلوا من عمومه دورا لهم أكثر وضوحا من دور العرب أصحاب الشان الحقيقى ، وأن يجعلوا منه تكأة لمعارضة خصمهم باسم معاداة السامية .

سادسا : ان السامية احدى شبهات الاستشراق اليهودى والغزو الفكرى ، وتجديد دعاوى « الاسرائيليات القديمة » .

القاهرة ـ انور الجندى

الفصل السادس
البطولة فى تاريخ الاسلام

فى تاريخ الاسلام تتكشف البطولة فى ثلاثة أبعاد :

* بطولة الحرب والمقاومة ورد الغزاة .
* بطولة الفكر وتصحيح المفاهيم .
* بطولة بناة الدول فى مجال الحضارة .

وهى بهذا تكاد تسيطر على تاريخ الاسلام كله الذى يجرى فى هذه الابعاد الثلاثة ، والواقع أن الاسلام قد رسم أيديولوجية جديدة لها طابعها الخاص ، تتسم بالايمان بالله وقوامها الجهاد فى سبيل كلمته واقامة حياة الفرد والجماعة على أساس العمل المتقدم البناء فى مجال الانشاء والحضارة . ومن خلال هذا المفهوم تتمثل النظرة الى الحياة والمال والموت والجزاء .

ومن هنا برزت « البطولة » التى تمثلت فى شخصيات نموذجية أهدت حياتها لتحقيق رسالة الاسلام فى الدعوة اليه والدفاع عنه وتصحيح مفاهيمه ورد عادية خصومه عن قيمه وعن أرضه .. ومن هنا كان مفهوم « الجهاد » لا يتوقف على الحرب وحدها وانما يتسع نطاقه حتى يشمل مجال النشاط الانسانى كله مادام هدف الحياة الانسانية الاساسى هو تحقيق رسالة الاسلام ودعوته .

هذا هو التغيير الخطير الذى أدخله الاسلام على مفاهيم الامة التى بزغ فيها ضوؤه وهى أمة مهياة بالفطرة لتقبل رسالة عظمى كهذه الرسالة ولما كانت حركات التاريخ كلها تتمثل فى أمم وجماعات تكون بطبيعتها معدة اعدادا نفسيا وبيئيا ووراثيا لحمل رسالة معينة ، فانه من خلال هذه الجماعة تبرز بطولات الافراد التى تخطو بالعمل خطواته المتوالية .

كذلك فان الامة العربية بطبيعة تكوينهـا وبيئتها ووراثياتها ، وهى تعيش فى هذه الجـزيرة الضيقة المنعزلة عن حضارة الرومان وحضارة الفرس والتى بعدت عن عبور الغزاة وحركات الغزو ومعارك القتال وتيارات الحضارة والفكر والمذاهب والاديان ، انما كانت معدة بذلك اعدادا خاصـا لتلقى رسالة ضخمة انسانية عالمية تحمـل لواءها بكل هذه العوامل المكونة لنفسية جماعتها وأفرادها . وقد التقى مفهوم الاسـلام بطبائع العرب ، فتحقق بذلك تحول خطير فى قيم العرب وفق مقاصـد الاسـلام ، وقـد حـدث هـذا التحـول الخطـير فى دقـة ويسر .. واستطاعت اعـوام لا تزيـد على نيف وعشرين عاما هى حيـاة الرسـول محمد بن عبد الله منذ بعثته الى وفاته ، أن تحقق هذا التحـول .. فقد عرف العرب بالشهامة والكرم والقوة والعزم والمقاتلة والصبر والصمود والبذل . وتلك كلها صفات يرتضيها الاسـلام .. غير أنها قبل الاسـلام كانت موجهة فى سبيل الغاية الفردية . والاستطالة والثار والاستعلاء والظـلم . فكان أن حولهـا الاسـلام الى مفهوم انسانى رفيع ، وجعلها فى سبيل تحقيق هدف ومن أجل غايات عليا قوامهـا الانسانية والتوحيد والعدل والحق والحرية ، وأحاطها بسياج متين من الضوابط ، فعدل اتجاهها وبالتالى عدل اتجاه النفس الانسانية العربية وجعل عزيمتها الصارمة قوة لا حـد لها فى سبيل اذاعة كلمـة الله فى الآفاق وتحطيم كل قوة تحـول دون توسعها . دون أن تكون قوة عدوان أو تسلط أو ظلم . وانما تكون وفـق مفهـوم القـرآن « أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا .. » .

والمسلمون يقاتلون فى سبيل غاية عليـا هى تحقيق كلمـة الله ونشر الاسـلام والدفاع عنه . وهم لا يطمعون فى مغنم مادى بالدرجة الاولى . وهم فى أعمق أعماقهم قد خرجوا على مضمون واضح فى نفوسهم .. هـو النصر أو الشهادة .. وفى حال الشهادة يحس المسلم أنه أحرز أكبر نصر .. فهو قد قدم روحـه فى سبيل فكرة ملأت نفسه وفاضت بهـا روحه . ومن هنـا فهو يقاتل دون أن يخشى المـوت أو القتل لأنه وطـد نفسـه على أن

يموت . فلابد أن ينصر الكلمة التى آمن بها أولا . ومن هنا فان النتيجة أن ينتصر ولا يموت ، تحقيقا لقانون صادق : « اطلب الموت توهب لك الحياة » . وليس معنى هذا أنه لم يقتل من المسلمين أحد ، فقد قتل الكثيرون ولكنهم ماتوا شهداء .. مؤمنين بأنهم قد أدوا حق الله فى سبيل مبدأ آمنوا به وعقيدة ملأت نفوسهم .

وقد عاش هذا المعنى فى نفوس المسلمين طويلا وما زال حيا نابضا بالحياة ، فهم يتمثلون فى كل خطوة ، ذلك المعلم الاول والقائد الاول .. ما تزال صورته الواضحة الدقيقة المتمثلة فى كتب السنة ، وفى مختلف تصرفاته ، تواجههم وتملأ قلوبهم بالشوق الى المتابعة والتاسى . فقد كان ﷺ هو التطبيق العملى لفكرة الاسلام ومقاصده وأهدافه .

فكان تجسيدا كاملا لتعاليم الاسلام ، والأسوة الحسنة للمسلمين ، كان خلقه القرآن .. وقد وصفه الحق بقوله : « وانك لعلى خلق عظيم » .

وقد تمثلت البطولة بعد مرحلة النبوة فى مواجهة الردة التى أصبحت الجزيرة العربية عليها ذات يوم بعد اختيار النبى للرفيق الأعلى ، وفيما عدا ثقيف وقريش فقد ارتد سائر العرب .. وكان موقف الصديق ، دائما قويا فقد اصر ابو بكر الخليفة الأول على المقاومة ورفض الاستسلام .. وأنفذ أحد عشر جيشا فى يوم واحد .. واستطاع أن يستأصل الردة فى معارك متعددة اكبرها معركة اليمامة ..

وسرعان ما ابرزت هذه المعركة الأساسية فى ميزان بقاء الاسلام بطولات . فى مقدمتها بطولة البراء بن مالك . فقد زحف المسلمون حتى ألجئوا المرتدين الى حديقة أطلق عليها من بعد (حديقة الموت) وفيها مسيلمة مدعى النبوة . فقال البراء : يا معشر المسلمين القونى عليهم فى الحديقة . فقيل للبراء : لا تفعل .. قال : والله لتطرحنى عليهم فيها .. فحمل الى أن أشرف على الحديقة حتى فتحها للمسلمين .

وفى مواقف متعددة وغزوات مختلفة توالت على ثرى الشام وفارس والعراق ومصر برزت معالم البطـولة الاسلامية حية نابضة بالحياة . وقـد غيرت مقومات الاسـلام القيم والمفاهيم لدى المرأة ، كما غيرتهـا لـدى الرجل . فقد جاهدت المرأة فى الحرب وقاتلت .. فقدمت حليها وشعرها .. وفى معركة اليرموك قاتلت النسـاء فى جولة فخرجت جويرية بنت أبى سفيان ومعهـا زوجها فقاتلت قتالا شديدا .

وهكذا بدت بطولة الحـرب والمقاومة فى صـورة من أدق صورها . مستمدة قوتها من مفهوم الاسـلام نفسه . واذا كانت بطـولة الحرب قـد توقفت فى العام ١١٤ هـ بصورة عامة ، فانهـا ظلت حيـة تتمثل فى حركـة المقاومة التى لم تتوقف فى جبهـات الحدود الاسلامية البيزنطية والحـدود الأندلسـية الأوربية والاسبانية وفى حدود عالم الاسلام والمشرق .

فقد امتدت معارك المقاومة متقطعة على مراحـل وفترات ولكنهـا كانت وفق خطـة لم تتغير من جانب العـدو هى : الادالة من علم الاسـلام أو الحيلولة بينه وبين التوسع ... ثم برزت ثلاث معارك ضخمة .. هى الحروب الصليبية فى المشرق وحروب الفرنجـة فى الأندلس والمغرب والغزو الصليبى التترى . وفى خـلال هذه المعارك تجددت مفاهيم الاسـلام فى المقاومة بصمودها وسماحتها فى الوقت نفسه . وبرزت نماذج جـديدة من البطـولة الحربية ، وتشابهت صور نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى مع صـور خالد بن الوليد وسـعد بن أبى وقاص .. وتلمس المسـلمون على المدى الطويل أخـلاق الاسلام ومفاهيمه ، يحاولون أن يكونوا على مستوى الرعيل الأول حماية للذمار ومقاومة للعدو وعدلا وسماحة .

(٢)

بطـولة العـلم التجـريبى

لا مشاحة أن العلم كان ولا يزال من اخصب جوانب الفكر الاسـلامى ودعامة أساسية فى بناء الحضارة الاسلامية فقد حرض القرآن على اصطناع العقل ، ودعـا الى النظر فى الكون والبحث فى أعماق الارض ففتح البـاب واسـعا للمسلمين منذ اللحظة الأولى لنزوله الى النظرة العلمية العقليـة القائمة على التكامل بين العقل والقلب والوسطية بين الروح والمـادة وقـد كانت أزهر فترات التاريخ الاسلامى هى المرحلة التى توازن فيهـا الفكر الاسلامى : جامعا بين الدين والدنيا وبين ثقافة القلب وثقافة العقل ..

وفى مجال العلم برز ابطـال من الباحثين الدارسين لم يتوقف أمرهـم عند علوم الشريعة والعقيدة والاخلاق وانما امتـد الى مجال العلوم الطبيعية والرياضية فبلغوا فى مختلف مجـالاتها قدرا عاليـا ، وقد كانت قاعدتهم الأساسية : العلم هو علم الدنيا والآخرة معا وهو العـلم الجامع بين بنـاء الحضـارة وبناء النفس الانسانية جميعا .

هذه النظرة كانت قيمة أساسية فى مجال البحث العلمى الاسـلامى .. اما انحراف هذه النظرة فى مرحلة الضعف حين غلبت (الجبرية) وحين انصرف المسلمون عن العلوم الطبيعية والرياضية فذلك انحراف لا ينسـب الى الاسـلام وانما ينسب الى المسلمين .

وقد بدأ المسلمون ممارسة العلم فى البحث فى مختلف المجـالات قبل أن يتصلوا بالفلسفات اليونانية وغيرها فلما بدات ترجمة الآثار اليونانية أخذوا تلك المبادىء القليلة التى كانت عند اليونان فنظروا فيها وعرضوها على مفهوم التوحيد الخالص فرفضوا منها وقبلوا ثم نمـوا ما قبلوه واضافوا اليـه ثم أبدعوا علوما أخرى لم يسبقهم اليها أحـد .

ولا شك أن اتجـاه الفكر الاسلامى الى الانفتاح على الثقافات البشرية : فارسية ويونانية وهندية ، كان ايمانا بانسانية الفكر الاسـلامى ومرونتـه وحيويته وقدرته على استيعاب الثقافات البشرية وصهرها فى بوتقته ورفض ما لا يتفق مع مفاهيم الاسـلام ومقوماته . واذا كان ائمة المسـلمين يهدون الهـدايا الى حكام بيزنطة اغراء لهم بأرسـال الكتب القديمة ، بل وكانوا يجعلون هذه الكتب من الجزية المفروضة على الروم فان دلالة هذا التصرف واضحة فى فهم المسلمين للاسلام وجراتهم فى مجال العلم والعقل والبحث .

وقد نما الفكر الاسـلامى من خـلال العقائد والفقـه وكان تحقيق الحديث النبوى علامة ضخمة على قيام المنهج العلمى الموثق لقبول النصوص أو رفضها ، هذا المنهج الذى نما بعد ذلك فى مجـال الفقه والتاريخ ، ثم كانت التفريعات والتشقيقات التى قام بها المفكرون المسلمون ازاء القضـايا والأحداث والمواقف المتعددة لايجاد حلول منوعة لكل حـالة من حـالات المجتمع وعلاقات الناس فى مختلف البيئات والعصور .

كانت هذه الممارسة مقدمة للعمل فى مجال الفلك والكيمياء والرياضيات والطب الذى حقق مولد حدث ضخم هو (المنهج التجريبى الاسلامى) الذى رسـم المفكرون المسلمون والعرب منهاجه ووضعوا قواعده واقاموا عليـه أعمالا ضخمة وحققوا به تقدما بارعا .

هـذا المنهج التجريبى الاسـلامى هـو آخـر ما أهـدت الحضـارة الاسلامية لأوروبا فى القرن العاشر الهجرى والقرن السادس عشر الميـلادى عن طريق الأندلس بعد ان سجل أعلام العلم التجريبى خطـوات واسـعة تشهد بدور المسلمين فى اقامة هـذا المنهج وممارسته ، وفى مقـدمة هؤلاء الرازى وابن سيناء والخوارزمى والبتـانى والبيرونى وعمـر الخيـام ، وابن زهر وابن خاتمة وابن الهيثم وابن العوام وابن البيطـار وابن رشـد وابن الخطيب .

وقد سجل العلامة سارطون حقيقة الدور الذى قام به المسلمون فى مجال العلم التجريبى حين قال أن أعظم الابتكارات العربية فى الرياضـيات والفلك كانت شيئين : علم الحساب الجـديد وعلم المثلثات الجـديد ، وعنـده ان العرب جمعوا بين المصـدرين (اليونانى والهندى) وانهم لقحوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية . وقال : اذا لم يكن هذا الذى فعله العـرب ابتكارا فليس فى العلم ابتكار على الاطـلاق ، فالابتكار العلمى فى الحقيقة انما هو حياكة الخيوط المتفرقة فى نسيج واحـد .

والحق أن المسلمين لم ينقلوا المفهوم الرياضى الاغريقى بل وضعوا مفهوما جديدا ـ كما فعلوا فى الفلسفة والأخلاق والتصوف والأدب ، وكل الفنـون التى كان لها وجـود سابق على الاسلام . وكان مفهومهم قائمـا على الربط الوثيق بين مكتشفات العلم وبين مبادىء الاسلام .

وهـكذا كان موقف المسلمين من العـلم موقفا له طابعـه الاسـتقلالى الابداعى ، واذا كانوا قد أخـذوا من تراث الأقدمين فانهم لم يستسلموا له أو يتوهوا فيه ولم يدعـوه يصوغهم بل هم الذين صاغوه وفق اطـار واضح من قيمهم ومفاهيمهم ، ذلك أن القرآن قد دعاهم الى العلم وحثهم الاسلام على النظر فى الكون والبحـث فى الأرض فلما تسـلموا زمام العلم لـم يخضعهم ، وانما أخضعوه وحرروه من زيوف الوثنيـات والغموض وحالوا دون أن يكون وسـيلة للعدوان أو اباحته . فقد أعادوا صياغته فى ضـوء مفهوم الاسلام خلقا جديدا مختلفا كل الاختلاف ثم أقاموا عليه بنـاء ضخما وأضافوا اليه إضافات كبيرة .

وقد كانت أداة العمل فى مجال العلم عند المسلمين هى :

(النظر العقـلى + التجربة + الرحلة) وقـد بلغ المسلمون فى ذلك غاية الغايات فحققوا النصوص القديمة ورفضوا ما لا يقبله العقـل والتمسوا التجربة فى المعامل فقاموا بهـا على الحيوانات والحشرات ثـم

ذهبوا الى أطراف الأرض يبحثون عن الحقائق وقد رحل البخارى ستة عشر عاما ورحل الغزالى عشر سنوات ورحل ابن بطوطة ربع قرن كامل .

كما حفلت عواصم الحضارة الاسلامية بمعاهد العلم ومعامله ومراصد الفلك والمكتبات ، وكان فى بغداد وحدها فى عصر المقتدر بالله الخليفة العباسى ما قارب التسعمائة طبيب ممن جازوا الامتحان ليكونوا أطباء . وقد نظمت صناعة الطب فكان للأطباء رؤساء وكان عليهم رقباء لاتصال أعمالهم بمصالح الناس كافة ، ومن الأطباء من كان خاصا بالجند فهو يصحبهم فى أسفارهم ولهم رواتب ومنهم من يطببون العامة وهم غير المرتزقين ومنهم متخصصون ومنهم الطبيب على اجماله ومنهم الجراح والفاصد ومنهم الكحال أى طبيب العيون والأسنان ومنهم من يقتصر عمله على معالجة النساء ومنهم من يطب للمجانين . وكانت جامعة بغداد تعتمد سنويا مليونا ونصف مليون فرنك لشراء الكتب والمخطوطات .

ولم يقف شان العلماء التجريبيين المسلمين عند مجال الطب بل تعداه الى مختلف مجالات الفلك والجغرافية والكيمياء والفيزياء ، والنبات والزراعة والرياضة والتاريخ والرحلة والكشف .

وقد سبق الباحثون المسلمون علماء أوروبا فى (تقعيد) القواعد فابن حزم وضع أسس نظرية المعرفة التى قام بها (كانط) بعده بثمانية قرون .

وابن خلدون بسط فلسفة الاجتماع قبل منتسكيو وتادر بخمسة قرون . وبراهين الغزالى للدفاع عن الايمان سبقت نظرات القديس توماس الاكوينى بعشرة قرون .

وكان ابرز عوامل التقدم العلمى الاسلامى سماحة المسلمين فى تلقى علوم السابقين لهم وان خالفت أصول فكرهم كما كان العلماء المسلمون سمحاء مع اليهود والنصارى ، ذلك التسامح الذى لم يسمع بمثله فى العصور الوسطى ، وكانوا آية التسامح فى عرض علوم الملل والنحل ، وقد قدموا كل نتاج ابحاثهم العلمية فى الاندلس الى اوروبا بسماحة ، وكان العلماء المسلمون مطبوعين على الخلق والصدق وشمول النظرة بين العلوم العقلية والشرعية والرياضية . والحق أن الاسلام لم يعط الغرب أساس البحث العلمى التجريبى فحسب . ولكنه أعطاه مفهوم الحرية والاندفاع نحو العمل والبناء والانشاء والابتكار ؛ وهو ما قدمه ابن رشد للفلسفة الاوروبية من مفاهيم زلزلت القيم الجامدة القديمة ، حيث تغيرت نظرة انكار الدنيا والتشاؤم التى كانت غالبة على الفكر الاوربى وحلت محلها نظرة ايجابية مصدرها الاسلام ، فالاسلام وهو دعوة البحث عن الحق قد حرض الناس على السعى اليه عن طريق المعرفة والدفاع عنه وقدم فى هذا المجال قانونين اساسيين :

الاول : .. هو الشك قبل الايمان وقدم لذلك قصة ابراهيم الذى تطلع الى القمر ثم الشمس وغيرهما ثم دخل بعد الشك فى الايمان .

الثانى : .. جعل للمجتهد اجرا اذا اخطأ ، واجرين اذا اصاب ..

وقد اكد العلامة بريفولت دور المسلمين فى ابداع المذهب العلمى التجريبى فقال :

لا يستطيع (روجر بيكون) ولا سميه الذى جاء من بعده أن يدعيا انهما ابتكرا الطريقة التجريبية ، تلك الطريقة التى هى من صنع العرب وحدهم ولم يسبقهم اليها باحث او مفكر . وكل ما عمله (بيكون) انه كان تلميذا مخلصا للمسلمين تلقى افكارهم كما تلقى عنهم الطريقة التجريبية التى ابتكروها ونقلها الى اوروبا .

وقد أرسى العلماء المسلمون قاعدة بحثهم على هذه الأسس :

١ ـ تكريم العقل .

٢ ـ احترام الشخصية الانسانية .

٣ ـ العدل والمساواة .

٤ ـ الايمان بالعلم والحقيقة .

٥ ـ الاعتماد على التجربة .

٦ ـ الاعتقاد ببقاء الروح بعد البدن .

٧ ـ الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة .

٨ ـ القول باله واحد قديم خلق العالم من لا شيء .

(٣)

بطـولة العـلم والعلمـاء

للعلم والعلماء صفحة بطولة فى تاريخ الاسـلام ، ورائعة باهـرة ، ففى كل مجـال من مجـالات العلم نجـد أسماءهم اللامعـة واضافاتهم البنــاءة .

ففى التاريخ : الطبرى والمسـعودى وابن الأثير وابن خلدون .

وفى الادب : الجاحظ وابن قتيبة والخليل بن احمد .

وفى الفلسفة : الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد .

وفى التصوف : ابن عـربى وابن الفارض والشعرانى وعبد القـادر الجيـلانى .

وفى الكـلام : واصـل بن عطـاء والنظـام والأشـعرى والماتريـدى والباقلانى والجوينى .

وفى الحديث النبوى : ابن شهاب الزهـرى ، وابن جـريج المالكى وابن اسحق والترمذى .

وفى الفقه : مالك وأبو حنيفة والشـافعى وابن حنبل وأبو يوسف .

وفى العلم : الخوارزمى والبيرونى والبتانى وجابر بن حيـان والرازى وابن الهيثم وثابت بن قـرة .

وفى تصحيح المفاهيم : ابن حزم والغزالى وابن تيمية .

وابن سينا أعظم الأطباء والبيرونى أعظم الجغرافيين وابن الهيثم أعظم علماء البصريات وجابر بن حيان أعظم الكيميائيين وابن رشـد فقيه وفيلسـوف .

يقول ول ديورانت : ليس ما نعرفه من ثمار الفكر الاسلامى الا جزءا صغيرا مما بقى من تراث المسلمين وليس هذا الجزء الباقى الا قسما ضئيلا مما ثمرته قرائحهم وليس ما أثبتناه الا نقطة من تراثهم .

كان لهؤلاء العلماء رحلاتهم الطويلة من أجل البحث عن النص وتحقيق السند ، ذهب البخارى فى رحلته الطويلة بضعة وعشرين عاما فى تحقيق الحديث ، وجد سبعين الفا واقر منها اربعة آلاف فقط . وعرض لذلك كله فى ذوق رفيع وأدب وخلق فلم يهاجم احدا ، ولما عاد رفض أن يحدث الناس الا فى بيته أو فى المسجد .

وكانوا جميعا يوجهون العلم لله خالصا ولخدمة الأمة ، ولا يتطلعون الى مال أو جائزة سنية ، كان ابن الهيثم صاحب نظرية الضوء التى قام عليها علم أوروبا كله يعتمد فى كسب قوته على نسخ الكتب وكان يقول : يكفينى قوت يوم ، وقال كلمته المشهورة عندما وصلته هدية أحد الأمراء : اعلم انه لا اجر ولا رشوة ولا هدية فى اقامة الخير ونشر العلم . اما البيرونى فقد رد ثلاثة جمال تنوء بأحمالها من النقود وقال : « انما نخدم العلم للعلم » .

وفى مجال العلم عرفوا : « البرهان والحق » فقد دافع ابن حزم عن كروية الارض بالعقل والدين وسبق « كانت » فى نظرية المعرفة بسبعة قرون وقال : ان التقليد حرام ، ولا معجزة لنبى بعد وفاته . وكان مذهبه « لا يحل لاحد أن يأخذ بقول أحد من غير برهان » .

والفارابى فكر فى أمم متحدة منذ قرون ، ومدينته الفاضلة تضاءلت الى جانبها جمهورية أفلاطون ، فقد أقامها على العدل المطلق بين أبناء المدينة . اما أفلاطون فقد رفع الأمراء وجعل عامة الشعب عبيدا . والأمة عند الفارابى جسم واحد لا يستقيم أمره الا بالتضامن والتعاون .

وقد ظهرت آراء الفـارابى فيما بعـد فى نظرية العقـد الاجتماعى لجان جاك روسـو ، ومن آراء الفارابى : أن السعادة ممكنة على وجـه الأرض اذا تعـاون المجتمع على نيلهـا بالأعمـال الفاضـلة ، ويرى أن النجـاح فى الأعمال هو تمام ارتباط العلم بالعمل وان بلوغ الغاية يكون باصـلاح الانسان نفسه ثم اصلاح غيره . والعلماء العرب هم الذين أطلقوا الأسماء على النجوم ، هذه الأسماء التى لا تزال حتى اليوم تطلق عليها فى عصر غزو الكواكب ، فالشعرى اليمانية والعيوق والسماك والرامح والنسر وقلب العقرب ، مازالت تترجم الى اللغـات الأوربية بأسمائها العربية . وقد كشف علماء المسلمين عن المجموعات الفلكية : مجموعة العقرب والبروج الاثنـا عشر والدب الأكبر والنجم القطبى والفرقدان والحاوى .

« وابن رشد » دعا الى مشاركة المراة الرجـل فى خـدمة المجتمع والدولة ، وعنده أن النظر البرهانى لا يؤدى الى مخالفـة ما ورد بـه الشرع فان الحق لا يضـاد الحق بل يوافقـه ويشهد له . أما « الغـزالى » فقد سبق « كانت وهيوم » وغيرها من الفلاسفة العقليين فى مسالة قـدم العـالم والزمان والمكان بمئات السنين واهتدى فى ذلك الى آراء سبق بهـا فلاسفة القـرن الثامن عشر .

و « الطوسى أبو جعفر » : له فضل اقامة مرصـد مراغة العظيم ، وله مؤلفات رائعة فى علم التحول وانعكاسات الشعاعات قال سارذون : ان أقوال « الطوسى » مهدت للأعمال التى قام بهـا « كوبرنيكس » فيما بعـد وبحـوثه عن الكرة السماوية ونظام الكواكب . وكتابه « شكل القطاع » انه كتاب يفصل المثلثات ويجعلها علما مستقلا .

أما « الشـاطبى » فقد توصـل الى نظرية شبيهة بما يسـمى فى القوانين العصرية بـ « نظـرية التعسـف فى استعمال الحقوق » فاثبت بعد تحليل وتفصيل دقيقين أنه يجب منع الفعل الماذون فيه شرعا اذا قصد

منـه فاعله الاضرار بالغـير . وقال « ابن حزم » زعم قوم أن الفـلك والنجـوم تعقل وانها ترى وتسمع ، وهـذه دعوى باطلة وبلا برهـان وصحة الحكم أن النجـوم لا تعقل أصـلا وأن حركتها أبدا على رتبة واحدة ولا تتبدل عنها ، وهذه صفة الجماد الذى لا اختيـار له ، وليس للنجـوم تاثير فى اعمالنا ولا لهـا عقل تدبرنا به ، الا اذا كان المقصـود أنها تدبرنا طبيعيا كتدبير المـاء والهـواء ونحو أثرها فى المـد والجـزر ، وقال ان النجـوم لا تدل علي الحوادث المقبلة .

اما ابراهيم النظام فدعا الى الشـك فى سبيل اليقين وقال : ان الشك سبيل الانسـان الى كل يقين وان طالب العلم لا يكون كحاطب ليـل ، بل ينبغى أن يتخير مما فيهـا ولا يسمح أن يدخـل فى نفسـه الا الجـد المنتقى وعنـده أن الكتب لا تحيى الموتى ولا تحـول الأحمق عاقلا ولا البليد ذكيـا ولكن طبيعة الانسان اذا كان فيهـا أدنى قبـول فالكتب تشحذ وتفتق وترهف وتشـفى .

ويقول : الشاك أقرب اليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شـك ولم ينتقل أحـد من اعتقاد الى اعتقـاد غيره حتى يكون بينهما حـالة شـك .

والمعروف ان النظام وواصل بن عطاء وغيرهما كان لهما دور ضخم فى الدفاع عن الاسلام فى وجه مناهج الفلسفة اليونانية التى حمـل لواءها خصـوم الاسلام وقد استطاع بعمق منطقه وسـلامة جداله تصحيح الحقائق والعقائد فى نفوس المئات .

وقد عرف علماء المسلمين « التقنين » ممثلا فى اللغـة القانونيـة المحكمة التى كتبت بها مصنفاتهم الفقهية وفى التبويب الدقيق للمسائل مما نجـده فى أوضح صـورة فى المختصرات المكرسـة للفقه العملى مثل كتاب

الماوردى وكتاب ابى يعلى المعاصر له والحامل نفس العنوان . وقد نسقت أحكام هذه المختصرات على صورة تجعل من الميسور تصنيفها الى مواد قانونية على الشكل المتبع فى التقنين الحديث وكان ابن حجر العسقلانى واحدا من اعمدة المنهج العلمى ، يقول « البقاعى » عنه : لا يستطيع أحد أن يقسره فى شىء أصلا ، أو أن يقرب من ذلك فهو لا يقبل كلام أحد فى غيبة خصمه فهو آية فى حسن القضاء ومعرفة دسائس الناس فى كلامهم والاهتداء الى قطع الأمور . له فى المناظرة مسلك غريب قل أن يثبت له فى ذلك أحد . ويركز « الترمذى » منهجه الفكرى على الحق والعدل والصدق . يقول : انا وجدنا دين الله عز وجل مبنيا على ثلاثة أركان : على الحق والعدل والصدق ، فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول ، فاذا افتقد الحق من عمل خلفه الباطل واذا افتقد منه العدل خلفه الجور واذا افتقد منه الصدق خلفه الكذب . فهذه الثلاثة جند المعرفة وهذه الثلاثة التى هن اضدادهن جند الهوى .

والطرطوشى فى كتاب (سراج الملوك) يسبق فلاسفة السياسة وفن الحكم فى أوروبا وهو واحد من عدد من علماء الاسلام الذين عملوا فى هذا المجال : كالغزالى فى التبر المسبوك والشيرازى فى المنهج المسلوك فى سياسة الملوك وابن طباطبا فى (الفخرى) وابرز مفاهيم الطرطوشى انه لا يفرق بين السياسة والأخلاق بل يراهما شيئا واحدا متفقا ، وهذا المنهج الاسلامى يخالف منهج « ميكافللى » فى كتابه الأمير .

- أما « الكندى » الفيلسوف فقد درس الصلة بين الموسيقى وتحريك النفس وما يناسب احوالها وما يبعث السرور ، ودرس علاقة ذلك بالطب وامكنه التوصل الى امكان معالجة المرضى بالموسيقى ، وذلك بضرب الأنغام المناسبة للمريض .

وعرف المقدسى بانه أعظم جغرافى عرفته البشرية قاطبة على حد

تعبير المستشرق « اشبرنجر » فقد طاف العالم كله ماعدا الأندلس والسند وركب المخاطر فى بحر الهند والبحر الأحمر والبحر الأبيض يقول : ما بقيت خزانة ملك الا وقد لزمتها ولا مذاهب قوم الا وقد عرفتها ولا اهل زهد الا وقد خالطتهم ولم يبق شىء مما يلحق المسافرين الا وقد اخذت منه نصيبا غير الكدية « التسول » وركوب الكبية ، وقد تفقهت وتزهدت وتعبدت وفقهت وأدبت وخطبت على المنابر ودعوت فى المحافل وتكلمت فى المجالس وأكلت مع الصوفية الهرائس ، ومع الخافقائيين الثرائد ، ومع النواتى « الملاحين » العصائد ، وطردت فى الليالى من المساجد ، وسحت فى البرارى وتهت فى الصحارى ٠

أما « الطبرى » فقد صور منهجه فى كتابة التاريخ فى مقدمة كتابه « تاريخ الرسل والملوك » فقال : ليعلم الناظر فى كتابنا ان اعتمادى فى كل ما أحضرت ذكره منه مما شرطت أنى راسمه فيه ، انما هو على ما رويت من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه والآثار التى أنا مسندها الى رواتها دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس ٠ وابن كثير الذى تصدى للمرويات الاسرائيلية وفصل القول فيها وهو يرى أن القرآن قصد الى الاجمال فيجب الوقوف عندما قصد اليه والزمخشرى فى (الكشاف) يحرر فكره من الخضوع للأهواء ويعارض العلماء ذوى الأهواء الذين جمعوا عزائم الشرع ودونوها ثم رخصوا فيها للأمراء وهونوها وقال : « انما حفظوا وعقلوا وصفقوا وحلقوا ليجمعوا المال ويسيروا » ٠ والخليل بن أحمد واضع قواعد العروض ومناهجه ، وأبو الأسود الدؤلى واضع مناهج الفصحى وقواعد النحو والجاحظ واضع مناهج النقد الأدبى ، والشافعى واضع مناهج الاستنباط وأصول الفقه ٠

والأشعرى صاحب الحملة على الانحراف الى الفكر اليونانى وابن تيمية صاحب الحملة على الطرقيات المنحرفة والغزالى صاحب الحملة على مغالاة الفقهاء .

وابن دقيق العيد الذى قال : « النص » هو الامام . والرأى هو المأموم والمذاهب ترد اليه . ويقول : لا يصح ان يجعل الرأى الذى فيها للنص أصلا فيرد النص اليه بالتكليف والتحايل .

الباب السادس

مراجعــات عامــة فى تاريخ الاســلام

الفصل الاول : حقائق اساسية فى مفهوم الاسلام للتاريخ

الفصل الثانى : ترشــيد دراسات التاريخ الاسلامى

الفصل الثالث : تاريخ الاسلام والتفسير المــادى

الفصل الرابع : تاريخ الاسلام فى مواجهة التحديات

الفصل الخامس : اخطاء فى كتابة التاريخ الحديث

(١)

الفصل الاول
حقائق أساسية فى مفهوم الاسلام للتاريخ

لابد من تقديم مجموعة حقائق أساسية فى مفهوم الاسلام للتاريخ ، يختلف بها عن المفهوم الغربى :

أولا : يبدأ تاريخ المسلمين منذ بدء الخليفة وينتهى تاريخهم يوم يجمع الله الرسل وهو صراع بين دعوتين . دعوة الله ودعوة الطاغوت ، ونزاع بين معركتين : معركة المؤمنين ومعركة الكافرين ، واصطدام بين منهجين : منهج الاسلام ومنهج الوثنية ، وهو فى مجموعه حلقات متصلة بقيادة الأنبياء والرسل فى مواجهة الوثنية والمادية .

ثانيا : ليس تاريخ الاسلام ما يسمى تراكم التناقضات فى العلاقات الناشئة عن طبيعة وسائل الانتاج ، وليس هو مجرد أحداث توافرت لها أسباب معينة صدفة فافرزت نتائج عفوية تحكمت فيها ظروف الزمان والمكان .

ثالثا : وحدة الامة الاسلامية عبر التاريخ كله وحدة واضحة فى مسارها ودعوتها ، ومنه يتبين أن منهج الله تعالى واحد ، وان تعددت فصوله ومنهج الوثنية واحد وان تعددت صوره . وامتحان الله تبارك وتعالى للمسلمين وابتلاء المؤمنين واحد عبر التاريخ . ومنهج تربية المسلمين وتاهيلهم للجهاد واحد عبر التاريخ ووعد الله المؤمنين بالنصر واحد عبر التاريخ وسنة الله تبارك وتعالى واحدة عبر التاريخ .

« يريد الله أن يهديكم سنن الذين من قبلكم » .

« وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

رابعا : رسالة الانبياء واحدة من لدن آدم (عليه السلام) الى

محمد ﷺ فى مواجهة الوثنية والمادية والاباحية (ظهر الفساد فى البر والبحر) . (زين للناس حب الشهوات) .

خامسا : الدعوة الى الله هى العمل الدائم المستمر فى مواجهة المحاولة البشرية الدائمة التي تعمل على طمس معالم التوحيد واذاعة الوثنية وتنتهي المعركة دائما بانتصار أصحاب الحق ويزيل الله وجود الامم والحضارات التى خرجت عن طريق الله .

« عن رسائل الاصلاح »

سادسا : لا يعرف التاريخ البشرى فترة لم يكن الدين فيها مؤثرا ايجابيا فى حياة الانسان . وجميع الانظمة السياسية والاجتماعية التى قامت منذ بداية التاريخ قامت على معتقدات دينية وان الدين أسرع مؤثر فى الاخلاق لا يدانيه مؤثرا آخر .

وسر قوة الدين العظيمة ، هى كونه العامل الوحيد الذى تتوحد به منافع الأمة ومشاعرها وإقطارها ، ويقوم الدين مقام جميع العناصر التى يتكون منها روح الامة : ويرجع ذلك الى قوة تمكن المعتقد فى النفوس .

سابعا : يرد (أرنولد توينبى) قيام الحضارات العالمية الكبرى الى الاديان . ويرى أن وراء كل حضارة من الحضارات القائمة اليوم ديانة عالمية ، فالعقائد الدينية هى التى تسير مجرى التاريخ ، وإذا كان هناك مستقبل لحضارة ما ، فذلك فى حدود الدين ، وبسبب منه ، فالدين هو العامل فى انشاء الحضارات على مدى التاريخ ، الوازع الدينى هو الذى حمى الضعفاء من النساء والاطفال والعبيد ضد شرور الاقوياء ، ويقول : لن تحقق البشرية وحدتها المرتجاة من غير مشاركة الله فلو اسقطت المرشد العلوى من اعتبارها لاندفع الانسان الى الفتنة والتنافر ، وهو ما يجافى طبيعته القائمة على الألفة والمعاشرة ، والبناء الاجتماعى يزداد قوة

كلما ازداد الانسان قدرة على أن يرتفع بحياته الى تحقيق الاحتياجات المعنوية لطبيعته الاجتماعية فان ملكوت الله هو ميدان العمل الوحيد المسلم به اخلاقيا والدين هو الذى يهيىء للنفوس البشرية اكتساب زعامة ملكوت الله على الارض والانسان يساهم بقسط غاية فى الضآلة فى سير التاريخ الدنيوى وهو قسط يكفل له تادية دوره فى الارض ولكن على أنه مساعد ذو ارادة لاله يضفى سلطانه على جهود الانسان لتادية رسالته فيكون لها قيمة ومعنى ربانيان ٠

(محمود الشرقاوى)

(٢)

التفسير المادى للتاريخ الذى عرفه الغرب لا يصلح لتفسير تاريخنا الاسلامى بل ان التفسير المادى نفسه ما استطاع أن يقول الكلمة الاخيرة التى لا تترك مجالا لجديد يقال فى تفسير التاريخ ، بل ان الانسانية لم يتوقف سيرها عند ماركس ـ كما تقول دكتورة بنت الشاطىء ، بل تابعت سيرها وقد تقدم علم الانسان فادرك أن الجماعات والشعوب ليست افرادا فى قطيع يخضع لنمط واحد من السلوك وتضبطه قواعد صماء كالتى تضبط قطعان الدواب ٠ وشهد عصرنا أحداثا كبرى فى حياة الامم والشعوب أضافت الى موازين القوى قيما انسانية تدخل فى حساب الماديين ٠ ونقول عرضت العامل المادى على تاريخنا فلم يقبله الا من حيث اتصاله بالعامل الدينى الذى يلقانا حيثما رجعنا البصر فى الوجود التاريخى لامتنا ، مستقطبا سائر العوامل الاخرى مادية ومعنوية فى تفاعل مؤثر لا يغلبه أى عامل منها ٠

ما من كتاب طالعته فى الحضارات الاولى والتاريخ القديم لم يكشف عن سيطرة العامل الدينى وعمق نفاذه فى الشرق مهد الحضارات ، مهد الاديان والرسالات ، هذا يعنى ارتباط التاريخ الحضارى لشرقنا العريق بالعقائد الدينية ، معتقدات دينية وأساطير دينية سابقة على اليهودية والمسيحية والاسلام فيها عناصر شبيهة بما جاءت به الرسالات السماوية ٠

تعقبت مصر القديمة فى التوحيد والايمان بالبعث والحساب فى الحياة الآخرة ، ان القرآن فيما يقص علينا من مصائر الامم الغابرة يزودنا بوثائق تفسير دينى لتاريخها ، كما يوثق كل ما جاء فى قصص الانبياء وشرائعهم . فاذا كان مثل هذا التوثيق يعوزنا فى كتب مشكوك فى صحة متونها ، فحسبنا أن نرد الى القرآن ما يكتشفه الآثريون أو الباحثون من بقايا الرسالات الدينية فى معتقدات شعوب الشرق القديم . ان رسالات الدين لم تبدأ بالتوراة ثم الانجيل والقرآن ليقال أنها اقتبست من المعتقدات الدينية للشرق القديم . الدين أسبق من كل الحضارات المعروفة لنا والمجهولة .

فلقد كانت حضارات وديان النيل والرافدين والسند أقدم من الموسوية بآلاف السنين . ان هذه الحضارات نفسها لمسبوقة برسالات الانبياء المبعوثين فى أمم بادت كعاد وثمود وسبأ . والتاريخ الدينى موغل فى ماضى البشرية من عهد أبيها آدم ومن بعده نوح ، ووجود عناصر دينية مثل ما فى الكتب السماوية الباقية فى التراث الشعبى للامم الخالية كالفراعنة والبابليين والاشوريين شاهد على أن هذه البشرية لبثت على طول الزمن وقدم العهد بالرسل الاولين تحتفظ فى وعيها ببقايا من الرسالات الاولى مثلما احتفظ العرب فى الجاهلية ببقايا من دين الحنيفية ، على قدم العهد بابراهيم عليه السلام مختلطة بشوائب من طقوس وثنية آلت اليهم من قديم الحقب وكان من أصنامهم فى الجاهلية الاخيرة (ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرا) وهذه الأصنام الخمسة مما عبد قوم نوح قبل الطوفان فى الخبر الثابت عنهم بنص القرآن الكريم : (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا) (الآية) سورة نوح . وفى هذا رد على الذين يتشدقون بكلمات جاهلة حينما يقولون : وجاءت الاديان يقصدون اليهودية والمسيحية كانما لم يكن هنالك اديان منذ نوح .

٢ - وهناك خطأ نظره وحدة العرق والدم كشرط للانتماء وبطلان الوحدة بفقدان التجانس الجغرافى والدمج السياسى ، ونتصور قوميات

مصطنعة لدول محدثة قامت على أخلاط من قوميات شتى وأوطان متباعدة والسنة متعددة وسجايا متفاوتة وليس كامتنا العريقة شعوبا مستقلة لها كيانها الخاص وتربطها جميعا وحدة تاريخ وتراث وسجايا وانتماء على تباعد الديار واختلاف السلالات القديمة كتفاوت الطبيعة الجغرافية والمستويات الحضارية ، وهكذا عمل الاسلام فى صهر النفوس والعقول فى بوتقته فكون منها فكرا واحدا جامعا .

(٣)

ومن أخطر المحاذير التى تواجه دراسات التاريخ الاسلامى المعاصرة :

أولا : التوسع فى ايراد الصغائر الشخصية بينما تختصر الاعمال الكبرى العامة .

ثانيا : سيطرة الروح القومية على التاريخ الاسلامى : هذه الروح القومية تتناقض تناقضا واضحا مع الحقائق الاساسية لأن تاريخ الاسلام فى عصر الراشدين والأمويين والعباسيين كان تاريخا للمسلمين كلهم ولم يكن تاريخ العرب وحدهم وكان من صناع بطولة البربر والأتراك والفرس .

ثالثا : التحدث عن الرسول ﷺ كالتحدث عن اخناتون ونابليون .

رابعا : احلال كلمة العرب بدلا من كلمة الاسلام والأمة الاسلامية .

خامسا : محاولة اثارة دعوى باطلة بأن الرسول ﷺ انما بعث للعرب وحدهم وتجريد النبى عليه السلام من طبيعته حتى يبدو وكأنه ليس أكثر من داعية أو مصلح سياسى أو اجتماعى أو أن دعوة الاسلام لا تعدو أن تكون ثورة من الثورات .

سادسا : تجريد الدعوة الاسلامية من أساسها الفكرى ورسالتها الأساسية فى بناء العقيدة .

سابعا : اخفاء الروح الاسلامى التى لها أثرها التربوى فى النشء

المسلم وتجريد المعارك الاسلامية من نفحات النبى ومن تايید الله ويقيسونها بمقاييس مادية بحته .

ثامنا : فى الكتابة عن الهجرة أغفل المؤلفون جوانب رعاية الله وركزوا على عنصر الاختفاء وغفلة قريش وعدم رؤية أحد للنبى .

تاسعا : فى موقعة عين جالوت تجاهل المؤلفون نداء « وا اسلاماه » .

عاشرا : عند الحديث عن غزوة أحد لم يذكر المؤلفون عدد الجيش الاسلامى .

حادى عشر : فى الحديث عن معارضة قريش للاسلام ذكر ان السبب فى ذلك هو خوف قريش على مركزها التجارى ، وهذا تحليل ماركسى فان قريشاً قد عرضت على الرسول التنازل عن كل شىء له ولكنه رفض ، فقد كان الصراع صراع عقيدة ولم يكن الأمر اقتصاداً .

ثانى عشر : التركيز على المعارك : واهمال الجوانب الاخلاقية والحضارة الاسلامية فبدا تاريخ الاسلام وكأنه تاريخ غزوات وحروب .

ثالث عشر : حشد كثير من الخلافات وتكثيفها وبخاصة تلك الخلافات التى جرت بين على ومعاوية وقد نتج عن هذا سب بعض الصحابة دون تمحيص علمى ودون معرفة بالظروف كلها .

رابع عشر : تناول الحركات الانفصالية كحركة ابن طولون وابن طغج والاخشيد على انها حركات استقلالية ، والاولى تناول هذه الحركات على انها حركات انفصالية يقف وراءها أشخاص مغامرون .

خامس عشر : يقولون التوسع العربى وكان المفتوحات الاسلامية توسعات استعمارية مع أن هناك فروقا كثيرة بين هذه وتلك .

سادس عشر : يقولون ان عمر بن الخطاب ولى عمر بن العاص مصر مكافاة له . فهل هكذا كان يزن عمر الأمور ام ان عمرو بن العاص كان جديرا بحكم مصر .

(٤)

هناك ملاحظات اساسية على أخطاء الكتاب فى تاريخ الاسلام :

اولا : هناك فرق بين تاريخنا الاسلامى وبين تاريخ اى امة أخرى ، ان الخرافات اليسيرة التى رويت فى ثنايا تاريخنا رويت منفصلة عن تاريخنا نفسه ؛ اما التاريخ اليونانى أو التاريخ الهندى فلا يمكن تخليصهما من الخرافات ، وقد امتزجت بعقائد الأمتين وأدبهما وحضارتهما وحياتهما الاجتماعية • وبينما نرى الاسلام يجب ما قبله ، ويفصل بين العرب وبين جاهليتهم فصلا مبينا وفى حياتهم الدينية على الأخص اذ بنا لانزال نرى حاضر الأمة الهندية والأمة اليونانية مثلا ملونا بحالتيهما •

ثانيا : اننا نحن المسلمين نستطيع أن نؤرخ احداث بلادنا فى العصور الوسطى من غير ان نذكر ملوك الروم والفرنجة والانجليز ولكن الروم والفرنجة والأسبان والانجليز لا يستطيعون أن يكتبوا تاريخهم الوسيط اذا هم أهملوا ذكر عمر بن الخطاب ومعاوية ، والوليد ، وهارون الرشيد ، وعبد الرحمن الناصر وصلاح الدين ، ويوسف بن تاشفين أو مسلمة بن عبد الملك أو موسى بن نصير أو طارق بن زياد ، أو عبد الرحمن الغافقى •

ثالثا : من الظلم الحكم على العصر الأموى بتصرفات فردية ليزيد ابن معاوية وننسى الفتوحات العظيمة فى عهد معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وننسى عهد عمر بن عبد العزيز الذى تحقق فيه الاكتفاء الذاتى وننسى أنه فى العصر الأموى وصلت الدول الاسلامية الى أقصى حدودها فى آسيا وافريقيا وأوروبا والفتوحات لا تتم الا بقوة الايمان وتحقيق العدل وتحقيق الامان •

رابعا : كتابات التاريخ الاسلامى عن طريق الاستشراق تتسم بالحقد والعداء وتلمس السقطات والهفوات التى يبرزونها ويكبرونها عن عمد ،

ومن ذلك ما كتبه جرجى زيدان عن عذراء قريش وكتابه فتاة غسان وهو لم يكتب الا فى الفتن الاسلامية ليزيد النار اشتعالا ثم كتب المثالب وتلمسها ٠

خامسا : يعتبر المؤرخون الغربيون (سقوط الدول الرومانية) حدا فاصلا بين العصور القديمة والمتوسطة ، بينما هناك ما هو اعظم واجدر بان يكون حدا فاصلا لفترتى التاريخ البشرى : الا وهو (ظهور الاسلام) ٠

(٥)

يقف المؤرخون الغربيون موقفا مريبا ازاء معجزة انتشار الاسلام ويعللونها تعليلا ماديا وقد أجمع المؤرخون المنصفون على أن سرعة انتشار الاسلام أمر فريد عجيب على مدى التاريخ ذلك أن العرب لم يكونوا من الكثرة العددية ولا من قوة العدة والسلاح ولا من حذق الفنون العسكرية ولا من حضارة العلم والمدنية بالقدر الذى يوازى خصومهم ٠ ويرى المؤرخون ان سرعة انتشار الاسلام انما ترجع الى انه كان افضل نظام اجتماعى وسياسى تمخضت عنه العصور ، وأن سيادته ترجع الى انه وجد فى كل مكان أمما استولى عليها الخمول ، وفشا فيها النهب والعسف ، فلما جاءها الاسلام لم يجد الا حكومات مستعبدة مستأثرة مقطعة الروابط بينها وبين رعاياها ، وكان نظام راس المال فى الامبراطورية البيزنطية قائما على الاسترقاق وكانت الآداب والثقافة الاجتماعية آخذة فى الانحلال ٠ ومنهم من يرى أن العرب كانوا قبل الاسلام ذوى بصر بالحروب أكثر مما يظن الناس فأصبحت أمة محاربة من الدرجة الأولى ، ومنهم من ذهب الى أن قسوة الحياة المادية والاقتصادية دفعتهم الى التطلع الى ما فى البلاد التى فتحوها من عيش رغيد وموارد اقتصادية ثمينة وهذا هو التفسير المادى فى ضوء البواعث الاقتصادية وخاصة الشيوعية المادية ، ولو صدق هذا التفسير المادى

والتعليل الاقتصادى على الفتح العربى لاقتصر العرب على فتح البلاد الخصبة ، ولما ذهبت جيوشهم وقبائلهم الزاحفة الى البلاد الفقيرة الشحيحة النائية عن مواطنهم ، ولو لم يكن هدف زحفهم نشر الكلمة أو الرسالة التى حملهم الله تبارك وتعالى اياها الى الناس كافة ، بل لو كان هذا التفسير المادى له ظل من الصحة لأسرع الخلفاء الراشدون الأولون الموجهون لتلك الفتوح الى نقل مدة سلطاتهم وحكمهم من مكة والمدينة وصحراء الجزيرة العربية الى غيرها من البلاد المفتوحة .

(٦)

ثلاثة تزعموا هذه الدعوى : تفسير الفتح الاسلامى : بواعثه ونتائجه تفسيرا ماديا اقتصاديا هم المستشرق كارل بيكر ، البرنس كيتانى ، الأب اليسوعى لامنس : هؤلاء الثلاثة يسمون الفتح الاسلامى بالفتح العربى ويقولون أنه كان غزوا عدوانيا لكسب المغانم اكثر مما كان لنشر الدين الجديد وان الذى فتح الشام والعراق وفارس ومصر وبلاد افريقية لم يكن دين الاسلام بل دولة الاسلام وأن العربية هى التى انتصرت فى هذا الفتح لا الاسلام وجماع ما عندهم من الرأى فى بواعث الفتح بأن العرب لما توحدت كلمتهم وصاروا وحدة متآلفة فى الجزيرة العربية بعد أن انتهت حروب الردة ، اندفعوا بالغزو خارج الجزيرة الى الدول القائمة على حدودها حتى يجلبوا ما شاءوا من المغانم والأسلاب ويحققوا لأنفسهم مناعم الحياة التى كانوا يسمعون عنها فى بلاد الهلال الخصيب ومصر والشاطىء الافريقى . وما كان العمل لدولة الاسلام الا تحقيق هذه الرغبة وتنظيم هذا الغزو والاشراف على مسيرته وتوزيع ما جاء به من الاسلاب والمغانم . ووراء هذا الكلام نزعة مغرضة غطت موقع الحق ؛ يزعمون أن العرب صاروا وحدة بعد حروب الردة وأنهم بهذه الوحدة شعروا بهذه القومية فخرجوا للفتح ونسى هؤلاء ان الاسلام هو الذى جمع

فى الاصل كلمة العرب وحقق لهم تلك المعجزة التاريخية فجعلهم وحدة ونفى عنهم العصبية وازال ما فيهم من بواعث الفرقة . فالاسلام هو السر الاول والاكبر فى تلك المعجزة التى حققها المسلمون فى الفتح والنصر . والعقيدة الاسلامية هى التفسير لتلك القوة الخارقة التى دفعتهم وأعانتهم على تحرير الامم من عبادة الاصنام وعبادة الحكام ومن ثم كان الوجود الاسلامى فى تلك الامم حقيقة انسانية تحمل الناس جميعا على الحب والانصاف والعدل وانهم لفى ذلك سواء لا فرق بين عربى وعجمى او اسود أو أصفر .

(محمد فهمى عبد اللطيف)

ولا ريب أن هناك خلافا عميقا بين الفتوح الاسلامية وبين فتوح الاسكندر المقدونى وهانيبال القرطاجنى ودارا الفارسى . انما فتح هؤلاء القادة ما فتحوا من الاقطار ليتسلطوا على شعوبها وليحكموها حكم استعمار واستبداد ولينهبوا ما فى تلك الاقطار من خيرات وأرزاق وكانت شريعتهم تقسيم الناس الى سادة وعبيد فهم السادة وأبناء تلك الشعوب هم العبيد ، اما وجهة الاسلام فكانت وجهة انسانية ، فالناس سواء فى حق الحياة ولا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى ، ولتحقيق هذه المبادىء السامية كانت الفتوحات الاسلامية . وكان ما حققته من انتصارات باهرة رائعة وكان هذا هو السبب فى بقاء الاسلام عقيدة لتلك الشعوب على امتداد أربعة عشر قرنا من الزمان ، ولكن أصحاب الفلسفة المادية مازالوا يمارون فى هذه الحقيقة ، ويصفون الفتوحات الاسلامية بانها كانت فتوحات دفعت اليها الحاجة الى الطعام والمال .

ومن العجيب أن هذه الدعوى تجوز على بعض المؤرخين المعاصرين فيرددونها من غير وعى لموقع هذه الحقيقة الاسلامية . أن تفسير الفتح الاسلامى تفسيرا اقتصاديا كما يقولون وربط دوافعه واهدافه بالحرص على الأسلاب والرغبة فى المغانم هو فى منطق الحق والانصاف تفسير مغرض

تنقصه كل الشواهد والدلائل التاريخية ، كما تنقصه كل البواعث والظواهر التى تجلت فى وقائع هذا الفتح وسلوك قادته وجنوده ، على أن هذا الفهم الخاطىء كان الهاجس الاول الذى ساور جبابرة الفرس والروم حين هز الفتح الاسلامى عروشهم ، ورأوا حماسة أولئك الفاتحين المتاججة وجرأتهم على العظمة الفارسية والبيزنطية وهى عظمة لا تطاول ولا يمكن لمخلوق أن ينال منها ، فحسبوا أن الجوع القاهر هو الذى دفع بأولئك الفاتحين من قلب الجزيرة لينالوا غنما أو يرجعوا بسلب ، وان وضع القوت فى أفواههم مما يكفى لاستسلامهم وردهم الى صحرائهم ٠

(محمد فهمى عبد اللطيف)

(٦)

ولقد كان من أخطر محاولات الاستشراق الشيوعى دعواه بأن حركات الانتقاض على الدولة الاسلامية هى حركات تحرر والاشادة بحركة القرامطة حتى ليفاخر شاعر عراقى متمرد بانه قرمطى ويحاول بعض الكتاب العرب الاشادة بحركة القرامطة التى قامت ضد نظام الدولة العباسية واعتدت على الكعبة فيتحدث عنها كدعوة تقدمية تمثل اليسار الاسلامى (والف أحدهم أطروحة حول احدى هذه الجماعات) وهو مخطط خبيث لاحياء الخلافات والصراعات التاريخية داخل الوطن العربى والامة الاسلامية ٠

ان التفسير المادى للتاريخ الذى طرحته الكتابات الماركسية فى السنوات الاخيرة لم يقم على فهم صحيح للاسلام وانما قام على أساس خصومة حاقدة ، وقد ظهرت فى الفترة الاخيرة من القرن الرابع عشر أبحاث فى التاريخ تقوم على المادية التاريخية ٠

والمادية التاريخية تقوم كما يقول دكتور فاروق عمر فوزى على تأثر مؤرخى أوربا ومستشرقيها بفكرة جوبينو العنصرية فى القرن ١٩ وقد أكدوا فى كتاباتهم هذا الاتجاه العنصرى فى دراسة التاريخ الاسلامى وصوروا أحداثه فى صورة نزاع حاد بين العرب الحاكمين والشعوب

المحكومة من فرس وترك وبربر كلن لم يكن فى هـذا الشرق الاسـلامى الا تطاحن على السلطة والسيادة والامتيازات وليس هنا مجال التفصيل فى طبيعة هذا الاتجاه العنصرى الذى شوه حقيقة دور العرب الحضارى •
ومن امثلة ذلك ما ذكره فلوتن وولهاوزن اللذين أظهرا تاريخ القـرن الاول الهجرى وكانه صراع دموى بين العرب (بوصفهم الحكام) وبين سـكان البلاد المفتوحة • وقد تاثر بهـذا التفسير الكثير من المؤرخين ومنهم عـرب طبقـوه على مظاهر كثيرة من التاريخ الاسـلامى من جملتهـا الحـركة البابكية نفسها ، فصوروها فى صورة انتفاضة قومية ايرانية •

والواقع ان هذا التفسير جرد الحركة البابكية من سـياقها التاريخى الشامل وحصرها فى جانب واحـد بالغ فى اظهـاره وأكـد عليـه متناسيا الجوانب الاخـرى •

ومن هنا نستطيع ان نؤكـد فساد هذا للاتجاه الذى سار فيه مؤرخون عرب على طريق المذهب المادى فى التفسير التاريخى مقلدين المستشرقين الروس ، وأخطر اعمالهم محاولة اعادة كتابة التاريخ الاسـلامى بمفاهيم شعوبية وماركسية مشتركة وأخطر هذه الابحـاث :

- من الحركات الفكرية فى الاسلام : بندلى جوزى •
- السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات : فان فلوين •
- الدولة العربية وسقوطها : ولهاوزن •

ويرد الدكتور فاروق عمـر فوزى هـذه الخطـة الى المزاعـم التى استحدثها المستشرقون : ماسنيون وكايتانى وبرنارد لويس وكراوس والتى قدمها الماركسيون اليهود بندلى جـوزى ولوتسلى وايفانوف • وقد اشـار الدكتور حسن قاسم العـزيز الى خطر هـذه الظاهرة التى تقـوم على (المادية التاريخية) فى تفسير التاريخ الاسلامى ، والتى تدعى ان هـذه الفرق الضالة المتآمرة على الاسلام كالقرامطة والزنج وغيرهم وكانهـا تمثل

نضـال الشعوب المظلومة بدعـوى أن العرب مارسوا الارستقراطية فى الحكم والتسلط والتعصب وأنه قـد استخدمت الامكانيات المـادية فى شراء ذمم واقلام الكتاب المثقفين الأعاجم ليكتبوا فى مثالب العرب ويشككوا فى تراثهم الحضارى ودورهم فى التاريخ ٠

والحقيقة أن الرابطة التى ربطت بين الحكام العرب والمحكومين من الشعوب التى دخلت الاسلام كانت فوق القبلية وكانت تقـوم على العقيدة وبعد القضـاء على حركة المرتدين تطابق مفهـوم الاسلام والعروبة ، لقد كان تعـدد الأصنام والآلهة قبـل الاسلام يعنى تعدد الهـويات ولـكن التوحيد وحد الهوية ، فكانت الفتوحات فى العراق والشام حـروب تحرير لأراض عربية مغتصبة من قبل الساسانيين والبيزنطيين ، فقـد اندفع أهل اليمن فى الجيش العربى لتحرير الشـام لأنهـا أرض أسلافهم (الطبرى) أى أنهـا أرض القبائل اليمانية التى استقرت فى الشـام منـذ زمن بعيد ، وكان الاسلام منعطفا مهما فى تبلور الوحـدة ذلك أنـه نادى بضرب كل دعاوى العصبية والقبلية وثبت معنى أوسـع للعروبة أساسه اللغة والثقافة ، وليست العربية بأحدهم من اب ولا أم ، وانما هى اللسان ٠ فمن تكلم العربية فهو عربى (الطبرى) وكان لابد أن يمـر بعض الوقت لكى يندمج الموالى فى التركيب الاجتماعى الجـديد ودخل كثيرون فى الاسلام بعـد اتسـاع الرقعـة ٠

والواقع أن العرب هم الذين نظموا الداخلين فى الاسلام وشجعوهم على التفاعل والاندماج ، وقـد غالى المستشرقون ومن اتبـع رايهم من المؤرخين فى أن الاضطهاد الذى مارسه بعض الخلفاء ازاء سـكان البـلاد المفتوحة قد شمل العـرب والمـوالى ٠ واذا كان بعض أصحاب هذا الراى يوردون الأمثلة على سوء حالة الموالى واحتقار بعض العـرب لهـم فهى أمثلة شـاذة وتدل على حالات استثنائية ثم أن هنـاك عديدا من الأمثلة تدل على التعاون والامتزاج والاشتراك فى السلطة ٠

(راجع الطبرى جـ ٩) و (الكامل للمبرد جـ ٣ ص ٤١)

« اتخذ البعض من سياسة التعريب وسيلة للطعن على الأمويين لأن هدفهم كما يزعمون من هذه السياسة قصر الوظائف على العرب وهـذا خطأ وسـوء فهم لسياسة التعريب التى تعنى جعل اللغـة العربية لغة الدواوين والادارة والسكة وكل من يجـد فى نفسه الكفاءة والاتقـان للعربية يستطيع أن يتبوأ هذه الوظائف • ووقائع التاريخ تثبت أن أغلب موظفى الدواوين والماليـة كانوا من الموالى الذين يتقنون العربية ، هـذا اضـافة الى أن هشام بن عبد الملك امر كتابه بترجمة بعض كتب اليونان والفرس للاستفادة منهـا فى عملية تنظيم الدولة مما يدل على تفتح العرب وموقفهم المـرن تجـاه نظم وثقافات الأعاجـم •

(ابن النديم ــ الفهرست ص ١١٧)

(٧)

تواترت فى الفترة الاخيرة من القرن الرابع عشر مؤامرة انبعـاث الكتابات عن الزنج والقرامطة والبابكية بدعـوى انهـا حركات تحـررية أو حركات عدل اجتماعى • قامت بذلك الدوائر الصهيونية لافساد التاريخ الاسلامى وعاونتها دوائر الاستشراق الروسى وقد ألف عن (البابكية) من أدعى أن حركة بابك الخرمى هى انتفاضة الشعب الاذربيجانى ضـد الخـلافة العباسية بينما هى ليست كذلك بل هى حـركة هـدم لمـا بنـاه الاسـلام وتفتيت للصرح الذى أقامه الفكر الاسـلامى • يقول المؤرخ العباسى صاحب (العيون والحدائق فى أخبار الحقائق) :

لم يكن فى الاسلام حادث أضر بالاسـلام والمسلمين من ظهور بابك الخرمى تلك المقالة التى تفرع منهـا القرامطة والباطنية •

فلما جاء هـذا المؤلف الماركسى وكتب عن الحـركة البابكية استباح لنفسه التهجم على جميع مؤرخى الاسـلام بدون استثناء ولـم ينـج من

حقيقته الا مؤرخو السريان والأرمن والفرس وللمستشرقين الأوربيين والسوفيت .

ومع ذلك فقد وجهت الى صدره حراب كثيرة أردته قتيلا وكشفت عن زيفه وغروره وانهزمت نحلته الشعوبية .

(٨)

أشار كريمر وفان فلوتن الى أن الفتح الاسلامى تحول الى تسلط عربى ضد الشعوب الأعجمية ، فان الفتح الاسلامى ما كاد يستقر ويمد جذوره الى المناطق الشاسعة التى بلغها حتى استحال الى عمل سياسى انشق بسببه المجتمع الاسلامى الى طبقتين : طبقة السادة والولاة وقسم كبير من الرعية العربية ثم طبقة الموالى وهو ذلك الخليط من الشعوب الأعجمية المغلوبة فأما العرب فانما خلقوا ليسودوا أما غيرهم فانما خلقوا لمسح الطرق وخرز الحقاف كما زعموا بأن المولى كان محتقرا فى المجتمع فلا يخاطبه العربى بالكنية ولا يتبوأ أى منصب فى الدولة .

هذه الصورة لا أصل لها .

أن اسناد أى طبيعة أو باعث الى أمة من الامم لا يصدق الا بالاعتماد على بينات من الأحداث أو الوثائق المتعلقة بتلك الأمة عامة أو بالغالبية العظمى منها فلا جرم أن تصد الأحداث الشاذة والنادرة ولا تفسر الا ضمن دائرتها الشاذة أو النادرة وحدها .

ان هناك تناقضا بين هذا التفسير الوافد وبين الأحداث التاريخية التى يفرض أن تكون غطاء له .

أولا : لم يثبت ان كلمة الموالى فى هذا العهد كانت خاصة بالأعاجم دون العرب ، بل كانت تطلق على كثير من العرب كما تطلق على الأعاجم بناء على أسباب لا شأن لها بالعجم والعروبة .

ثانيا : لم نجد فى شىء من الوقائع التاريخيـة العائدة الى عصر الخلافة الراشدة أو العصر الأموى ما يدل على أن العرب عموما أو غالبيتهم العظمى أو أى فئة كبيرة منهم كانت تحتقر العنصر الأعجمى أو تسعى لابعاد الأعاجم من الوظائف النبيلة التى يجب الا يتبوأها الا العرب ، بل الذى رأيناه فى هذا الصدد يقرر العكس تماما . عطاء ابن أبى رباح مولى تولى افتاء مكة وكان الخليفة الأموى يتادى فى موسم الحج (لا يفتى الناس الا عطاء) وكان طاوس بن كيسان وهو فارسى لا يبالى أن يوبخ الخلفاء فى مجال التذكر والارشاد ، وكان واصل بن عطاء المعتزلى مولى ، وكان صدرا فى اللغة والأدب والعلم لم ينكر فضله انسان . وهناك مئات الموالى كلهم كانوا يتمتعون بين العرب بالجاه والمكانة فى العصر الأموى ولم يثبت أن العرب نافقوا قائلين ان الموالى انما خلقوا لغرز الحقاف وكسح الطرق .

ومن الحقائق التى لا تقبل الريب أنهم جميعا كانوا يقفون من هذا التلازم والتقدير المتبادل تحت مظلة من الوصية النبوية القائلة : « كلكم لآدم وآدم من تراب » . أما القضية الكبرى التى أثارها فان فلوتن فى كتابه (السيادة العربية) عن جواز للصالحين من الأعاجم أن ينكحوا نساء العرب فى الجنة فهذه جملة مردها الى قصة أوردها المبرد فى الكامل مضعفا ثبوتها عن رجل من اعراب البادية وقد جاء جوابها من صاحب القصة نفسها دليلا على نقيض التحليل المزعوم .

١ - ساغ أن تفسير الأعرابى الواحد من جفاة البادية بالناس كلهم .

٢ - بتر الخبر عن مصدره وقطعه عن تتمته ليأخذ مظهر البحث الفقهى .

- كل ذلك من أجل أن يتيسر القول بأن الفتح الاسلامى سرعان ما تحول الى سياسة عنصرية استهدفت بسط السيادة العربية على سائر

الشعوب الأخرى ولبعث الفوارق العنصرية التى حطمها الوازع الاسلامى فى صدور المسلمين ٠

(محمد سعيد رمضان البوطى)

(٩)

أشار الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى الى ظاهرة خطيرة فى تحويل مجرى التاريخ الاسلامى المعاصر تلك هى أن وضع المتحمسين للحضارة الغربية وقيمها على قمة السلطة فى بلدان عربية كان من شأنه أن يغذى الاتجاهات الاقليمية معززة بالأساطير المحلية ٠ وهكذا أطلت برأسها الأساطير الفينقية والبابلية والفرعونية والاشورية التى اختلطت دون انسجام بالبطولات القبلية فى الجاهلية والاسلام ٠ بل وجرى توجيه التاريخ لتنسجم وقائعه مع هذه الأساطير والبطولات وجاءت بعض أجزائه مفتعلة تلمس بين سطورها الوانا من الخلط والتناقض ، وكان الشوام الذين روجوا للفينيقيين وأنكروا أى صلة لهم بالعرب بعد الحرب العالمية الأولى ٠ وبدأت تبرز الاتجاهات القومية التى أوجدها المبشرون الغربيون فى الشام وقد استغل التيار القومى لمحاربة الدولة العثمانية من جانب بريطانيا وقد تبنت بريطانيا مشروع الجامعة العربية رغبة منها فى تكتيل العرب تحت اشرافها لامتصاص تيارات السخط ضد الاستعمار ، كما جرت محاولات لكتابة تاريخ عربى عام ومترابط لم يرسم له حتى الآن حدود واضحة نتيجة للرواسب الاقليمية واختلاط تاريخ العرب بتاريخ الحضارات البائدة التى تعاقبت على الأراضى التى فتحوها وبالتاريخ الاسلامى بوجه عام وهناك اتجاه الى التوسع فى مفهوم العروبة بحيث يشمل المنجزات الاسلامية العامة ، واعتبار معطيات الاسلام للغرب هى فضل للعرب على أوربا واعتبار البعض انتصارات صلاح الدين والمماليك والأتابكة على الصليبيين انتصارا للقومية لا للاسلام ، وقول بعض المستشرقين أن تاريخ العرب والاسلام مشدود الى الماضى دون الحاضر والمستقبل على حد سواء ٠

(نقلت بتصرف)

ويرى الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أن التاريخ قد اتخذ مطية لخدمة نزعات سياسية ، وتبين اتجاهات ضرورية وأن هناك محاولات لتشكيل التاريخ الاسلامى وفق أهوائها لتحقيق أغراض سياسية حزبية واقليمية وشعوبية ومذهبية تعسفية ، من اعداد أدعياء التاريخ وضعاف الضمائر داخل الجامعات وخارجها ممن أطلقوا على أنفسهم أسماء براقة .

ويتصل بهذا ما قام به كثيرون من تفسير التاريخ الاسلامى تفسيرا قوميا واقليميا وعربيا ، ولقد حدثت تداخلات كثيرة يجب اليقظة لها والتنبه لآثارها ومن ذلك أولئك الغرباء عن تاريخ هذه الأمة الذين حاولوا أن يحدثوا أثارا وهمية وتحولات كاذبة ومن هؤلاء (ايلى قدورى) اليهودى الذى ألحق بالتاريخ القومى الغربى تشويها خطيرا حين حاول أن يقنع قراءه بتعاطف الصهيونية مع الحركة الوطنية المصرية ولقاء مصطفى كامل بالصهيونى هرتزل ومحاولة الأدعاء بأن الصهيونية كانت حامية للحركة الوطنية المصرية .

كذلك فقد أجمع الباحثون على أن التاريخ الذى يكتبه المؤرخون الأجانب يتسم بعدة عوامل :

١ ـ حجب التفسير القومى .

٢ ـ خفاء المنظور الوطنى .

٣ ـ بروز المحتوى التدميرى الذى يستهدف شخصيتنا القومية ويفقدنا الثقة بأنفسنا وهو يركز على السلبيات .

الفصل الثانى
ترشيد دراسات التاريخ الاسلامى
(١)

كان التاريخ الاسلامى هدفا بارزا من أهداف الغزو الثقافى والتغريب ، وكان للاستشراق دور خطير فى تحريفه وافساد مفاهيمه وفرض تفسيرات غريبة عليه ، منها التفسير المادى والجنسى والأممى والمسيحى والرومانى والاجتماعى وكلها مناهج استحدثها التاريخ الغربى لتفسير وقائعه ، مرحلة

يعد مرحلة ، وعصرا بعد عصر ، وهى فى مجموعها لا تصلح لتفسير التاريخ الاسلامى لأنها قاصرة ومحدودة وقائمة فى حدود النظرة المادية الانشطارية التى تعتمد على الحس والظاهر ولا تستطيع التغلغل الى أعماق النفس الانسانية أو تعرف مدى علاقة الايمان بالله وبيع النفس لله والشهادة فى سبيله والتضحية بالروح من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا وهو ما يتميز به التاريخ الاسلامى وتذخر به وقائعه وهو ما يبدو أمام النظرة المادية وكأنه مستحيل من المستحيلات ، هذا اذا صدقت النظرة وكانت علميه ، أما فيما عدا ذلك فنحن نعرف أن كتابات المستشرقين الغربيين للتاريخ الاسلامى تقوم أساسا على المصالح الاستعمارية وتخضع لنظرة الكنيسة المسيحية التى ترى فى الاسلام عدوا لها وخصما ومن ثم فهى تفسر تاريخه على النحو الذى يضعه أمام الناظرين اليه ، أو أمام أهله على نحو منتقص ، فى محاولة لاثارة الشبهات حوله ، أو للغض من شأنه ، وتزييفه والتشكيك فيه .

ولقد تعددت التحديات والأخطار التى تواجه تفسير التاريخ الاسلامى من المستشرقين واتباعهم أو اعادة كتابته من التغريبيين والعلمانيين والماركسيين (هيكل ، طه حسين ، العقاد ، عبد الرحمن الشرقاوى) .

أولا : تقوم محاولات المستشرقين على عوامل كثيرة : منها بتر النصوص واختيار بعض الوقائع والأحداث وتغيير الأحداث والأعمال حسب الغرض والهوى .

ثانيا : اعلاء شأن الحركات السرية الباطنية والقرمطية ووصفها كذبا وزورا بأنها حركات اصلاحية تحريرية ومن ذلك موقفهم من البهائية والقاديانية .

ثالثا : الاشارة الى جميع الحركات المتصلة بالفكر اليونانى والوثنى (علم الأصنام) على أنها حركات أصيلة كالاعتزال والتصوف الفلسفى .

رابعا : محاولة اخضاع التاريخ الاسلامى لتفسيرات التاريخ الغربى مع اختلاف الغايات والأهداف والعصور ، وأثر العقائد والثقافات .

ونحن حين ننظر الى مؤرخى الغرب نجد ان محاولاتهم مرتبطة بأهداف مسبقة ودول قائمة ، فهيجل حاول أن يتخذ من التاريخ وسيلة لخدمة (بروسيا) المتوثبة ، أما ماركس فرأى أن يتخذ من التاريخ وسيلة لاحداث ثورة لصالح الطبقة العاملة ، أما أرنولد توينبى فقد أراد أن يدافع عن الحضارة الغربية بوصفها حضارة مسيحية كانت البطولة فيها بطولة رهبانية فى ميدان العلم ، كذلك فهناك النظرة القائمة على الاستعلاء بالجنس الأبيض وبان التاريخ الغربى هو منطلق التاريخ ونهايته .

خامسا : هناك التفسير الماركسى للتاريخ .

وهو تفسير افتراض لا يصل الى الدرجة العلمية الا اذا استطاع الدليل العلمى أن يبرهن وينفى امكان اى تفسير آخر للظاهرة الموضوعة للبحث على حد تعبير (محمد الصالح عزيز) الذى يقول : ان اصرار ماركس واتباعه فى تفسيرهم للتاريخ بان أساليب الانتاج وعلاقات الانتاج كانت دائما السبب الذى يشكل البنيان القومى الاجتماعى بما فيه من فن وفكر ودين ، هذا التفسير تمحضه أحدث النظريات اليوم التى تقول بالعوامل المتعددة التى تتناول التأثير فيما بينها ، كل عامل يكون سببا ونتيجة فى الوقت نفسه وأقوى البراهين على ذلك نشأة الاسلام الذى لم يكن قط من افراز النظام الطبقى فى قريش ولم يات نتيجة انقلاب فى نظام الانتاج وعلاقات الانتاج فى قريش ، وانما جاء كظاهرة فوقية مستقلة عن البيئة ، فالماركسية لم تأخذ التاريخ كله كنموذج لتستنبط منه قانون حركة ، وانما أخذت بضع مراحل وقفزات هى التى وجد فيها ماركس مصداق كلامه وأغفل الباقى ، وكثير مما وصلنا من التاريخ كذب واختلاق ومبالغات .

ولقد كانت تنبؤات ماركس التاريخية خاطئة :

أولا : حين تنبأ بان الثورة الشيوعية لن تخرج من مجتمع متخلف

وانما من مجتمع صناعى رأسمالى مثل انجلترا أو المانيـا فكذبت نبوءته وخرجـت الشـيوعية من مجتمع زراعـى متخلف مثل روسـيا القيصرية والصـين ٠

ثانيا : تنبأ باتســاع الشقة بين البرجوازية والبروليتـاريا فى الـدول الرأسمالية الى أن يتفاقم الوضع الى ثورة تقلب النظـام الرأسـمالى كله ولكن ما حدث فى المجتمعات الرأسمالية كان العكس ٠

سادسا : اضفاء صفة العلمية على البحث التاريخى شأنه شأن العلوم التجريبية ٠ وهنا يبرز الاختلاف بين الدراسات الانسانية والدراسات العلمية ذلك أن العلوم هى مجموعة من الظواهر يحـاول العالم استكشاف أسبابها والعوامل الأساسية فيها ، فالعالم الفزيائى فى ظـواهر الطبيعة يدرسـها فى مختبره الخـاص ، أما البـاحـث التاريخى فـلا يسـتطيع لأن هـواه داخـل فى المسالة ، فالفرق كبير جدا ـ كما يقـول (محمد الصالح عزيز) بين العالم الفيزيائى الذى يستطيع أن يجرى تجاربه المختلفة على المـادة التى يعالجها ويستفيد منها ما يشـاء ويضم اليهـا ما يشـاء وبين البـاحـث التاريخى الذى لا يملك الا ان يأخـذ الظواهر والاحـداث كما هى ٠

فالبحث التاريخى يختلف عادة عن البحـوث العلمية الطبيعية من ناحية المـادة التى يقـوم عليها أساسا الاستنتاج ومن ناحية الدليل ٠

سابعا : محاولة فرض التيار القومى على التاريخ الاسـلامى لاعـلاء مفهوم العروبة وفصلها عن المفهوم الجامع الاسلامى الذى يشمل تحت رايته كل من يقـول : (لا الـه الا الله) وبذلك ينحصر العـرب فى محيط ضـيق هـو محيط العنصر والـدم والاقليم وينفصـلون عن جمـاعة المسـلمين الواسعة وهذا هو ما كان يسعى اليه قسطنطين زريق (نحن والتاريخ) وساطع الحصرى (العروبة أولا) فاذا سـيطر التفسير المـادى للتاريخ تحت اسم العلم على هذا المفهوم كانت الخسـارة مضاعفة اذ أن معنى ذلك هو خلق مفهـوم تاريخى عربى قومى منفصل عن التاريخ الاسلامى

ومفرغ من قيمه الأساسية : التوحيد والعدل والاخاء الانسانى · وفرض مفاهيم وافدة كالاشتراكية والحرية والعلمانية · وبذلك يفسد تاريخنا ويتمزق وتضيع قوته القادرة على ابتعاث المسلمين مرة أخرى لبناء حضارتهم المتجددة ، أن دعاة التاريخ العلمانى والقومى يهدفون أى يفسدوا مهمة التاريخ وان يفرغوه من كل مقوماته ومعطياته التى كانت العامل القوى فى اعادة بناء الامم ، فهم يعلمون أن التاريخ يبنى الأمم ويشكل روح الحصانة والمقاومة فيها ازاء سيطرة النفوذ الأجنبى وخاصة التاريخ الاسلامى بمعطياته المكاشفة من البسالة والتضحية والنبل والوفاء فهم يثيرون شبهة (التاريخ العبء) ليتهموا تجديد التاريخ الاسلامى واعادة بعثه على وجهه الصحيح بانه سيكون عبئا على المعاصرين يشدهم اليه ويكون عاملا بين عوامل هربهم من الواقع ، والحقيقة أن المسلمين يعلمون أن التاريخ لا يتكرر وان عطاء التاريخ من أجل اضاءة الطريق للبناء الجديد والاسترشاد به لا لتكراره ونحن نؤمن بأن تاريخنا الاسلامى جزء من التاريخ الانسانى يشهد فى نفس الوقت أن عطاء الاسلام البشرية له ذاتيته الخاصة ·

(٢)

لقد تبين من خلال الدراسات التى قام بها رواد اليقظة الاسلامية فساد الاعتماد على مناهج الغرب فى دراسة التاريخ · وعلت الصيحة بالعودة الى المنابع والتماس مفهوم الاسلام الأصيل ·

وتبين بما لا يدع مجالا للشك أن « التفسير الاسلامى للتاريخ » منهج جامع يشمل الناحيتين المادية والمعنوية معا بينما تلتزم التغيرات الوافدة جانبا من الجوانب وتعتمد على الفكرة المادية وحدها سواء فى تفسير الأيدلوجيات الغربية أو الماركسية ·

ولقد كشف المنهج الاسلامى فى تفسير التاريخ عن علامات واضحة :

أولا : أن الأمم التى تخرج عن منهج الله لابد أن تدمر ، وأن هنــاك قانونا قائما من سنن الله فى زوال الأمم والدول وانقراضها اذا خرجـت عن الوجهة الصحيحة لبناء المجتمع الربانى القائم على :

(المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى) •

(واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليهـا القــول فدمرناها تدميراً) •

(الاسراء ـ ١٦)

ثانيا : يقيم الاسـلام مفهومه على النظرة الجامعة بين الروح والمادة والعقــل والقلب والدنيــا والآخــرة والسياسة والاجتماع ، والعلم والدين ، فــلا يدرس التاريخ مجــزءاً ولا يوجــه الاهتمــام الى الاقتصــاد وحــده أو السياسة وحدها ، وليس هنلك تركيز على الفرد فكأنه أساس ومحور حركة التاريخ كلها ، أو تركيز على المجتمع الــذى ينسحق فيه الفــرد ويــذوب •

ثالثا : لا يقر الاسـلام الطريقة المسيحية فى تفسـير التاريخ والتى تقــول بوجــود مملكتين : مملكة الله ومقرها السماء ومملكة الشيطان ومقرها العالم السفلى أو الأرض - وهى ـ فى نظرهم ـ دولة معادية للخالق ، وفى حرب مستمرة مع أنصــار الله وأن دولة ابليس على سطح الأرض قائمة ولازالت تحــاول بســط نفــوذها على ممالك الكرة الأرضية • وقد جاء المسيح لانقــاذ البشرية واعــادة مملكة الله على هذه الأرض وتخليص البشر من اثــم الخطيئة •

هذه النظرية لا يقرها الاســلام فهو أولا لا يقر أن هنــاك خطيئة أصلية هى (خطيئة آدم) مسئول عليهــا البشر ، فالأمــر فى خطيئة آدم أن الله تبارك وتعالى غفرها له (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) وليس على أى انســان مسئولية خطأ انســان آخــر ســواء كان أبــاه أو ولــده •

وليست الأرض مملكة الشيطان ولكنها مملكة للانسان المستخلصة بالحق ، والذى عليه أن يمضى فيها على حكم الله .

رابعا : يجب أن يكون دائما فى تقديرنا أن التاريخ الاسلامى وقع ضحية مؤامرات كبرى استهدفت الافتراء على أصول الاسلام والباس للباطل ثوب الحق والطعن فى رجال الاسلام وقادته ولاضعاف عقائد المسلمين لاثبات أن الاسلام كان قولا وعملا وأن المسلمين لم يثبتوا على حينهم الا فترات قليلة من تاريخهم الأول ثم ضلوا السبيل وركبوا موجة الأهواء كغيرهم من أصحاب الملل والنحل .

(سالم البهنساوى)

خامسا : امتدت المؤمرات الى تغيير بعض أحداث التاريخ الاسلامى ليلائم الفلسفة الأوربية ثم امتدت المؤمرات الى تطويع مفاهيم القرآن والسنة لتساير المذهب الماركسى فى تفسيره المادى للتاريخ ، وكان الرواد الأوائل فى ذلك بعض صبيان الراسمالية الغربية ثم اتباع الماركسية من الأعراب وبعض من تحولوا من الفكر العلمانى الى الاسلام بكتابات اسهمت فى بعض الأخطاء نقلا عن مناهج بعض المؤرخين الذين دونوا التاريخ الاسلامى أو كتبوا عنه .

(سالم البهنساوى)

سادسا : تبين خطأ الماركسية فى النظرة الى الدين وأن دراسة ماركس وانجلز للأديان وتطورها كانت سطحية وغير شاملة ، ومن هنا نظر الى الدين كمعوق للتغيير الاجتماعى وغاب عنها أن الأنبياء لم يكونوا سحرة ولا تجار شعوذة ، بل كانوا محررين روحيين واجتماعيين وكان نضالهم يستهدف اقامة مجتمع لا طبقى تسوده المودة والعدالة ويتاصل فى النفوس على قاعدة من القيم الروحية والخلقية - قال ولفرد كانتول سميث :

ان النظام الاسلامى هو أجدى وارسخ تجربة تمت لتحقيق العدالة

بين الناس ، ان هناك فارقا واضحا بين الاسلام والماركسية الا وهو أن الاسلام يرى لكل حدث دنيوى جانبين ، ويقيسه بمعيارين أحدهما وقتى أو دنيوى والآخر أبدى أو أخروى .

والاسلام يقول : لا ، لصراع الطبقات والحتمية التاريخية .

سابعا : قصور النظرة التاريخية الغربية عن استيعاب جانب (الغيبيات)

ومنها خشية بعض العلمانيين من كتاب التاريخ الاسلامى وتاريخ الاسلام من ذكر معجزات الرسول . كما فعل العقاد وهيكل .

ثامنا : خطورة الاعتماد على المصادر الأدبية وخاصة كتب الأدب فى دراسة التاريخ الاسلامى (الأغانى وشعر أبى نواس وبشار وكتب الفكاهات والمجون والروايات الملفقة حول هارون الرشيد وغيره) . ومحاولة تصوير الصحابه كمحترفى السياسة على النحو الذى عمد اليه طه حسين أو تصوير الهجرة على أنها خروج فى سبيل البحث عن الطعام وكل ما أحياه المستشرقون من كتابات الوضاعين والرواة والأخبار الباطلة واعتمد عليه الغربيون فى تقديم صورة زائفة عن التاريخ الاسلامى .

الفصل الثالث
تاريخ الاسلام والتفسير المادى

ان المحاولة التى جرت منذ وقت بعيد فى سبيل تفسير الاسلام - حركته ودعوته - تفسيرا ماديا صرفا لا ريب تعجز أشد العجز عن أن تقول الكلمة الفاصلة ، لأنها تعجز عن ان تستوفى الأبعاد المختلفة والجوانب المتعددة حين تضع بينها وبين الحقيقة حجابا ، هذه الحقيقة الممثلة فى العوامل النفسية والمعنوية والروحية والفكرية وهى عوامل أشد اهمية ، وابعد عمقا من الجانب المادى الواحد الذى هو احد جوانب التفسير لا محالة ، ولكنه ليس واحدها وليس أكبر اهمية .

ان التفسير المادى او الاقتصادى للتاريخ الاسلامى انما يحاول أن يواجه البحر باناء من ماء ، أو الجنة الفيحاء بفسيلة من حطب ٠

لقد حاولت كتابات كثيرة فى السنوات الاخيرة ان تتمثل الاسلام وكأنه ثورة الفقراء ضد الاغنياء فحسب ، والحق أن الاسلام ليس ثورة موقوتة ، ولكنه حركة شاملة من حيث الزمن ، ومن حيث المضامين لتغيير أشياء كثيرة ٠ تغيير المجتمع ، وتغيير النفس ، وتغيير الاخلاق ، وتغيير الاقتصاد ٠

ومن هنا فان الاسلام ليس هو التفسير الاقتصادى ، وليس محمد صلى الله عليه وسلم هو المصلح الاجتماعى ، أو رسول الحرية ، وليس يكفى حين يذكر أن نورد شطر الآية الكريمة (قل انما أنا بشر) فهذا تزييف ، فان الآية تقول (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد) ٠

لقد جاءت كتابات التفسير الاقتصادى ، ثم المادى متباينة حذرة فى (هامش السيرة وفى الفتنة الكبرى) ثم اتسعت بعد ذلك فى (محمد رسول الحرية) ونمت شبهاتها حتى لقد حرص الكثيرون على ان يربطوا بين هذه الآثار على ما بينها من زمن واختلاف فى المصادر والموارد فى ادعاء كاذب بأن مثل هذه الكتابات حاولت أن تعتمد على الوقائع لا على الخوارق ، وقد ظن أصحابها ان المعجزات يمكن ان تسلك فيما يوصف فى الغرب بأنه أساطير ، ولا ريب ان لرسول الله معجزات غير القرآن ، ولكنه ﷺ لم يجد الطريق سهلا الى رسالته ، ولم يجد العرب مستعدين للنهضة ، فنهض بهم ـ كما يردد بعضهم ـ ومن هنا ، فانه فى نظرهم لم يكن فى حاجة الى معجزات أو خوارق ٠

ولا ريب أن هذا الادعاء باطل ، وأن وقائع حياة رسول الله بعد بعثته الى هجرته خلال ثلاثة عشر عاما تكشف فى وضوح المعاناة والظلم

والاضطهاد فى عشرات الصور والمواقف مما يدهش معه أى باحث كيف تواجه قريش والعرب دعـوة التوحيد وتقاومها .

ومن هنا تعجب من قول أحدهم حين قال : (ومحمد بهـذا ليس فى حاجة الى خارقة تعينه على اقناع الناس بما يقـول لانه بما يقول انمـا يستجيب لآمال الناس وأحلامهم) ولقـد تردد هـذا القـول قديما فى (النثر الفنى) وفى بعض كتابات (الشعر الجاهلى) وغيره وهـو من زيف المستشرقين الذين يهدفون به الى التقليل من عظمة الرسالة الاسلامية . موقف جديد بالنسبة للقيم الكبرى . الحرب ، والعلم ، والكرم ، فهى ليست موجهة . ولقد واجـه العلامة فريد وجـدى مثل هذه الشبهة حين قال : « ان قريشـا وهى أرقى القبائل لغة وفهما ومكانة لم تقبـل دعوة النبى الا رجالا ونساء لا يزيد عـددهم على بضع عشرات . ولو كانـت قريش أقرب العرب الى الحضارة ، لقابلت دعوة محمد بصدر رحب ، واحلتها المكان اللائق بها ، ونهضت تحـت قيادته لجمع كلمـة القبائل وابطـال دينهـم » .

ان أتباع النبى الأولين اضطهدوا اضطهادا شـديدا حتى هاجـروا الى بلاد الحبشة ، وان الجاهليين كانوا يهزؤون بالدعوة للدين ، وبالداعى اليـه ، وان النبى لبث على هذا الحال من الاضطهاد ثلاث عشرة سنة ، ولـما أنست قريش من النبى الهجرة قررت قتله ، وارصـدت له ، ولـما علم أهل مكة بافلاته اقتفوا أثره . كل هذا ينطق بلسـان فصيح أن قريشـا وهى مظنة النجـابة والفهم من العرب فى ذلك العهد لم تكن (قد استعدت للملك بعـد تطورات عديدة) فان المجتمع الذى يقاتل الداعى للتجـديد والنهوض بهذا النفـور ، ويصبر عليه ثلاثا وعشرين سنة لا يزداد بعـدها الا عنادا وتشـددا لا يمكن أن يوصف بانه مجتمع كان مستعدا للنهوض ، وأنه سرعان ما نهض مع النبى ، كذلك فان قريشـا لم ترفض الاسلام ، لانـه يقضى على نفوذها الاقتصادى وحده ، ولكنها كانت تعلم انه قضاء على كيانها الفكرى والاجتماعى والدينى جميعـا .

ومن هنا كان خطأ القائلين بالتفسير الاقتصادى ، ذلك إن الاديان السماوية انما تغير المجتمع كلية ، ومن الاساس ، وهى حين تقصد أول ما تقصد ، فانما تبنى النفس الانسانية ، وتشكلها تشكيلا جديدا فيه صمود وصبر وقدرة على مواجهة الاضطهاد واحتمال البلاء وتهيئها لعمل كبير توهب فيه الارواح والنفس ، ويجل عن المعانى المادية .

ومن هنا كانت دهشة المستشرقين وغيرهم لعظمة الفتح الاسلامى الذى صنعه هؤلاء الذين بناهم محمد فى خلال ثلاثة عشر عاما فى مكة ، وغير بهم الدنيا كلها ، وليس جزيرة العرب وحدها ، لقد نظروا الى هذا الفتح الذى تم فى خلال بضعة وسبعين سنة على أنه معجزة لم تفسر نعم كانت قريش تعرف أن معارضة محمد لهم لن تفقدهم نفوذهم الاقتصادى ، ولكنها ستلغى كيانهم الغاء كاملا بكل فكره وماضيه ومواقفه الاجتماعية والأدبية . انه تغيير جذرى ليس الاقتصاد الا جانبا منه . تغيير فى نظام الموءودة وزواج الأخت ، وفى العلاقة بين الأهل ، وفى القضاء (ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) كان القوى اذا أذنب ، تركوه ، واذا أذنب الضعيف ، أقاموا عليه الحد . الله هو المشرع ، تجريد الفرد من سلطانه ، ومن الخضوع لمقاييس الهوى ، مقاييس جديدة ربانية لكل الأمور ، لا للظهور أو الاستعلاء أو الجاه ، ولكنها موجهة لله وحده شعار لا اله الا الله يغير المجتمع كله ، ويغير النفس الانسانية على مختلف المستويات الدينية والاجتماعية والفكرية والنفسية والأخلاقية . ليست حركة طبقة ضد طبقة ، ولا ثورة الفقراء على الأغنياء والفقراء ، وخرج الأغنياء عن مالهم ، وخرج الأنبياء عن آبائهم ، وأنكروا ترفهم وفجورهم .

ويبدو ذلك واضحا فى لقاء المشركين للنبى : ان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كنت تريد مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون

اكثرنا مالا .وتكون اجابة الرسول هى منطلق تفسير الاسلام « والله يا عم : لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الامـر حتى يظهره الله أو أهلك دونه : ما تركته » .

ولم يكن موقف الرسول موقف المزايدة ، أو المواءمة ، أو الالتقاء فى منتصف الطريق ، بل كان حاسما ، وكان رفضه لقيم المجتمـع القديم صريحا ، أما ما اقره الاسـلام من قيم الجاهلية ، فكان من اصفاها ، وتلك هى بقايا دين ابراهيم مما لا يتعارض مع التوحيد .

وكان من ابرز ما فى الاسـلام بناء الرجـال على الصـمود والصبر والجلد ، وعزلهم عن مجتمع الجاهلية بمختلف الوان فجـوره ، فيجرى الاسـلام تغييرهم من اعلى الراس الى أخمص القـدم (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) .

كانت دعوة الاسلام مفاصلة بين الله وبين الأهل والولد ومتاع الحياة كله ، ولذلك فان عدد الداخلين فيهـا كان قليـلا ، وكانت المحن تتوالى لتصفية هذا القليل ودعم صـلابة عوده . كان الاسـلام يستهدف بناء انسان فى سبيل فكره ليس له فى الدنيـا نهمة ولا مطمع الا أن يقـدم روحـه خالصـة لله .

ومن هنـا تعجـز مقاييس التفسـير المـادى للتاريخ ، أو التفسـير الاقتصـادى للتاريخ أن تحيط بذلك كله ، وأن تعرف الفـرق بين هذه القيم المعنوية التى لا تقاس بالمقاييس المحسـوسة . واذا كانـت هـذه القيم المعنـوية لا تقاس ، لأنها ليست مادية محسوسة ، فانها تستطيع أن تكشف عن نفسها بآثارها التى انتجتها والتى يقف أمامها أصحاب المنهج المـادى واجمين عاجزين هو الدليل عليهـا . « ليس من المنهـج العلمى الحق أن ينكر وجـود القيم المعنوية أو الروحية أو النفسية لمجـرد أنه لا يمكن أن يلمسها أو يراها ، كما تلمس أو ترى الأشـياء المادية . فان الأثـر الذى تحدثه ينهض دليلا محسوسا على وجوده » .

إن المقاييس المادية والاقتصادية لتعجز أن تفسر كيف يبكى العائدون من الغزوات ، لأنهم لم يستشهدوا ولا الذين لقوا آباءهم فى صفوف الكفار فقتلوهم ، ولا الذين هاجروا وتركوا أموالهم وأولادهم . واستأنفوا حياتهم فى المدينة بدينار اقترضوه ، ولا يستطيعون أن يفسروا كيف تنكسف الشمس يوم موت ابراهيم بن النبى ، ثم يقف النبى ، فيعلن « أن الشمس لا تنكسف لموت أحد » ، أو أن يقف النبى فى حجة الوداع ، فيقول : « أنه يلغى كل الربا ويضعه ، وأول ربا يضعه تحت قدميه هو ربا عمه العباس بن عبد المطلب » أو أن يقول : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطع محمد يدها » أو أن توضع الحجارة المحماة على صدر بلال ، فلا يزيده ذلك الا أن يقول : أحد أحد . كل هذا يعجز عن تفسيره المذهب المادى ، والمذهب الاقتصادى .

لقد كانت دعوة الاسلام شاملة تعجز عنها تفسيرات مذاهب الماديين ويصدق فى هذا نموذجان من القول : اما أحدهما ، فقول فيليب حتى : (لم يسجل التاريخ أن رجلا واحدا سوى النبى محمد كان صاحب رسالة ، وبانى أمة ، ومؤسس دولة ، هذه الثلاثة التى قام بها محمد كانت فى نشأتها وحدة متلاحمة لا يمكن أن تنفصم الواحدة منها عن الأخرى ، وكانت الى حد ما متوافقة يشد بعضها أزر بعض ، وكان الدين من بينها على مدى التاريخ القوة الموحدة ، وكان أبقاها زمنا حتى اذا رحت تعد الناس فى العالم اليوم ، وجدت أن السابع أو الثامن منهم يدعو نفسه مسلما » .

أما النص الثانى ، فهو قول الاستاذ تريتون فى كتابه « الاسلام عقيدة وعبادة » : « اذا صح فى العقول أن التفسير المادى يمكن أن يكون صالحا فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى ، وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فان هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعا حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم ، واتساع

رقعتهم ، وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين الا أن ينظروا فى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، فيرى أنها تقع فى هذا الشىء الجديد : الا وهو الاسلام » .

ويقول الفريد كانتول سميث فى موقف الأمم المختلفة من تفسير ما يفعله الاسلام بمعتنقيه : ان المسلم يعيش وهو مشغول بعالم الروح ، ومن ثم ، فكل شىء فى عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن . أما المسيحى ، فيعيش بشخصية مزدوجة ، أو فى عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط ، فالمثل الأعلى عنده غير قابل للتطبيق ، والواقع البشرى المطبق فى الأرض منقطع عن المثل الأعلى .

اما الماركسى ، فهو قوى الايمان بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدى الى الخطوة التالية ، فهو لا يؤمن الا بهذا العالم المحسوس ، بل لا يؤمن الا بالمذهب الماركسى ، وكل ماعداه باطل ، والماركسى يتتبع عجلة التاريخ ، ولكنه لا يوجهها .

أما المسلم ، فانه يحس بالتاريخ احساسا جادا ، انه يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاما واقعيا عمليا يسير فى الأرض على مقتضاه ، ويحاول دائما أن يصوغ واقع الأرض فى أطاره ، ومن ثم ، فهو يعيش كل عمل فردى أو جماعى ، وكل شعور فردى أو جماعى بمقدار قربه أو بعده من واقع الأرض ، لأنه قابل للتحقيق » .

حياة الرسول والتفسير المادى

هناك محاولة مستمرة منذ اربعين عاما تحاول أن تفسر حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتاريخ الاسلام تفسيرا اقتصاديا أو ماديا ، وهي ترمي من ذلك الى أن تجعل من حياة الرسول بطولة عربية ، أو بطولة اقليمية أو بطولة امة ، أو عبقرية فكر ، أو دعوة الى الحرية .

بدات هذه المحاولات بكتابات عن حياة الرسول مجردة من المعجزات ، محاولة ان تفسر جوانب الوحى وما يتصل بخرق نواميس الكون وقوانينه تفسيرا مجازيا أو مناميا ، أو غير ذلك ، ثم اتسع نطاق هذه المحاولات فوصفت حياة الرسول بانها بطولة أو زعامة . ولا ريب ان الهدف من نفى النبوة هو مقدمة لنفى الألوهيـة ، وأن الهدف من نفى النبوة هو انكار الوحى ، وبالتالى انكار رسالة السماء جملة . ومن هنا جاءت المحاولات المتعددة لتوصيف البطولة الانسانية ، ووضع مقوماتها على نحو مختلف كل الاختلافات عن النبوة التى يختار الله تبارك وتعالى من يشاء لها من عباده ، ويعده فى الأصلاب والأرحام جيلا من بعد جيل .

١ - فاذا تقرر فى نظر الناس قوانين معينة للبطولة الفردية البشرية ، أمكن الطعن فى النبوة ، لأن هذه القوانين لا تتفق مع تقديرات الله التى تعلو على القوانين ، وتأخذ طابع المعجزات .

فالبطل فى النظرية المادية لابد أن يصدر عن أسرة موسرة ، وعن ثقافة عالية ، وعن أبوة حكيمة مربية . أما بيئات الفقراء والأيتام والأميين ، فهى لا تصلح لاخراج البطل ، بينما تنقض النبوة هذه النظرية المادية نقضا كاملا ، وتكشف عن كذبها وتضليلها ، وتكشف عن قدرة الله فى اغناء النبي بعد فقر ، وتعليمه وهدايته بعد أمية ، وايوائه بعد

يتم ، وفى هذا معنى المعجزة الالهية التى تنكرها نظرية البطولة الغربية الوافـدة ٠

٢ ـ والاسلام يقرر المعجزة ، وهى الامـر الخـارق الذى يحصـل على يد نبى مرسـل ادلالا بصـدق نبوته ٠ وليس فى المعجـزات منافاة للعـلم المـادى ، وانما هناك قصـور من أجهزة العقـل والادراك عن معرفة الاسباب التى انعقدت لها المعجزة فضـلا عن ايمان المسلم بأن الله تبارك وتعالى هو صانع السنن والنواميس والقوانين ٠ وهـو وحده القادر على خرقها على النحـو الذى كشفت عنه الكثير من المواقف مع الانبيـاء كالولادة لهم بعد سن الكبر للرجـل ، واليأس للزوجـة ، والولادة من غير أب ، كما حدث للسيد المسيح عيسى بن مريم ،وكتجـريد النـار من خاصـية الاحراق كما حدث لسيدنا ابراهيم ، أو السـكين من خاصـية الذبح كما حدث لسيدنا اسماعيل ، وهـكذا ٠ وتعـرف المعجزة فى علم المصطلحات الاسلامية بانها حقيقة تخالف القـواعد العامة ، وتعـارض المجرى العـادى للحـوادث ، وسببها فـوق ادراك البشر ، وهى حقيقة تتحـدى كل من يرتاب فيهـا ٠

وفى مقدمة المعجزات معجـزة القرآن ، فهى معجزة قائمة ابـد الدهر تمتـاز عن معجزات الرسل والانبيـاء بانهـا باقيـة ، ومعجـزة القـرآن انمـا تمثل فى مطابقته الدائمـة لحقائق الماضى والحاضر والمستقبل ، وصـدق تحدياته للبشر فى عجزهم عن معارضته حتى يـرث الله الارض ومن عليها ، وفى الآيات التى اثبتهـا وما تزال قائمة تعجـز الملوك والدول والامـم عن مواجهتها ٠

٣ ـ ومن ناحيـة أخـرى ، فـان النبـوة ضرورة اسـاسية لبنيـة البشرية ، وبناء الانسـان الفكرى والاجتماعى ، فهى التى تجسم عشرات القضـايا المصيرية التي تبقى بلا جـواب عندما تقـوم الريبـة والشـك فى حقيقة الوحى ٠ ان الوحى هو الذى يضـع النقاط على الحروف فى تلك

الشبهات التى تثير عوامل القلق والتمزق والصراع النفسى الذى يواجـه الآن مجمـوعة الامم التى ألحدت ، وفصلت ما بينهـا وبين نور الله .

٤ - ان عجز العقل عن فهم الغيبيات وما يتصل بها يكشف عن ضرورة الوحى والنبوة ، فالعقل غير كاف وحده ، وغير قادر وحده ، « والوحى يعاضد العقل . ويؤكـد حكمه ، ويجعله موثوقا فيما يصـل العقـل الى معرفته ، فيكونا دليلين على مدلول واحد فالوحى يرشد العقل ويهديه فيما لا يستقل بمعرفته مثل المعاد ، ويكشف عن وجـوه الاشياء التى لا يـدرك العقـل حسنها وقبحهـا » .

وقد التقى الوحى والعقل فى القرآن لاول مرة فى الفكر الانسانى ، والاسلام واهله يؤمنون بأن المعرفة الانسانية ليسـت قاصرة على معطيـات الحس ، وعلى حد تعبير الشيخ محمد عبده وقد نقلنـاه عنه « قد يعرض الدين شيئا يتجـاوز حـدود الفهم ، ولكن لا يعرض شيئا يتجـاوز حـدود الادراك مطلقـا » .

٥ - ولقد امتدت النظرية المـادية الوافدة فى البطولة والوحى الى القول بأن القرآن انطبـاع فى نفس محمـد صلى الله عليـه وسـلم ، وهو ليس كـذلك أبدا ، فهناك فارق واضح وعميق بين كلام النبى محمـد ، ونظم القرآن الكريم يعرفه أهل البيـان واللغة ، ويعرفون أبعـاده ومداه .

وليس صحيحا أن القرآن فيض من العقل الباطن فى محـاولة دعـوى الاشـادة بعبقرية محمد والمعيته وصفاء نفسه ، ولا ريب ان لمحمـد كل صفات السمو النفسى ، ولكن وصفه بالنبى نسبة الى الوحى الالهى هـو أكبر معطيـاته .

ومثل هذا القول انما يرمى الى محاولة خادعة لقطع الصـلة بين المسلمين والقرآن ، فانـه ان كان كلام محمـد ، كان من عمـل البشر ، وبذلك يفقد معناه الاسمى وجـلاله الاعظم ؛ ويفقد « ثباته » الذى يعطيه

تلك القـدرة الضخمة على ان يكون الاساس الذى يرتبط به كل فكر ، والقاعدة التى يمتد عليهـا كل بناء ، والاطار الذى تجرى فيه كل حركة . وهناك أدلة كثيرة تدحض هذه الدعـوى وأبسطها « ان محمداً كان أميـاً لا يقـرأ ولا يكتب ، فمن الذى أطلعه على ان ما فى القرآن مصدق لمـا فى التوراة » . « وكان علمه بشؤون قومه لا يزيد على علم غيره » فمـن الذى أطلعه على تاريخ الامم وقصص الاولين . (وما كنت تتلو من قبله من كتـاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون) .

٦ ـ ولقد جلى الباحثون المسلمون ظاهرة الوحى ، وأكـدوا « أنها ليسـت ظاهرة نفسية داخلية تنبعث من كيـانه صلى الله عليه وسلم . وانما هى حقيقة خارجة عن ذاته استقبلها من خارج كيانه كما ينطق بذلك حديث بدء الوحى ومشاهد أخرى » (١) .

« وانما رأى محترفو الغزو الفكرى فى (ظاهرة الوحى) : المنبـع الأول للحقائق الدينية والكليات الاعتقادية ، ورأوا أنهم ان تأتى لهم ، تكدير صفاء هـذا المعين الأول ، امكنهم تكدير صفاء كل ما يتفرع عنه ، واقتحـام أسباب الدس والتشويش عليه » .

من اجل هذا زعم بعضهم أن الوحى فى حياته صلى الله عليه وسلم انما كان نوعا من الالهام الخفى . وزعم آخـرون أن ذلك كان اشراقا روحيا معينا . واصرت جماعة أخرى على انه كان يصاب بالصرع . والعجيب الرائع حقا فى حياته صلى الله عليه وسلم إن امـر الوحى لـه قام على أسس وحقائق تصفع هذه الاوهـام صفعات تلقيهـا فى متاهات التحمق والجنـون .

٧ ـ ولقد تواجه الفلسفات الغربية حقيقة النبـوة وظاهرة الوحى وتصفها بانها وصاية على الانسـان الذى بلغ رشـده وأصبح فى غير حاجة

---

(١) راجع كتاب فقه السيرة الجزء الاول محمد سعيد رمضان البوطى .

الى وصاية ما . وذلك قول من الزيف المسرف فى احسان الظن بالبشرية فهل استطاعت البشرية حقا بعد هذا الزمن الطويل الذى قطعته (١) ان تكون راشدة . والواقع الذى تثبته وقائع التاريخ واحداث الزمن ان البشرية مازالت عاجزة عن حماية نفسها من المطامع والأهواء . والحروب والمذابح والمظالم ، بل لعلها قد بلغت بفضل تقدم العلم قدرا اكبر ، فهى التى تمضى فى تهديد الأمم الضعيفة بقوى الذرة والتكنولوجيا ، ولم يستطع تقدمها العلمى أن يرد اليها شيئا من الايمان أو العدل أو السماحة او الارتفاع فوق الاهواء ، ولذلك فهى لازالت فى حاجة الى رعاية رسالات السماء ، وفى اشد الحاجة الى الوحى والنبوة . لقد تقدم الانسان فى مضمار السبق العلمى ، ولكنه عجز عن فهم نفسه ، وحماية كيانه من المطامع ، وما تزال اهواؤه تحول بينه وبين توجيه هذه المعطيات لخير الانسان .

ومن الحق أن يقال : ان الانسان لم يزل بعد عاجزا عن ان يكون امينا على نفسه او جنسه ، ولن يستطيع ذلك الا اذا آمن بالوحى والنبوة .

٨ - فى ضوء هذا كله ننظر الى تلك المحاولات التى جرت فى تزييف سيرة الرسول .

أولا : باضافة الأساطير القديمة فى (هامش السيرة) .

ثانيا : انكار ان الاسراء كان بالروح والجسد فى (حياة محمد) .

ثالثا : انكار النبوة والوحى فى (محمد رسول الحرية) .

رابعا : وصف النبى بالعبقرية دون الرسالة فى (عبقرية محمد) .

ولا ريب أن ابلغ اخطاء وصف النبوة بالعبقرية انما هو فى تعميم هذه الصفة على شخصيات أخرى لم تنفرد بالنبوة مما تجعلها تبدو

---

(١) بتصرف عن بحث للاستاذ محمد المجذوب .

كأنما هى محاولة الى فرض مفهوم البشرية على الرسول الذى تفرد بالعصمة والوحى ، وامتاز بها عن سائر صحابته .

ولا ريب أن العبقرية وقعت تحت سلطان الفكر الغربى الذى تشكل الكاتب فى أحضانه . ثم نفذ منه الى دراسة الاسلام دون أن يقدر مدى الفارق الدقيق والعميق بين ذاتية الاسلام فى مفاهيمه ومناهجه ، والعوامل التى شكلت أهله ، ولم يلتفت أيضا الى تمييز النبوة الوافر . فالنبى فى عبقرية محمد انسان له مواهب وملكات منفصلة تماما عن وحى السماء ، وحين تجرى مقارنته بنابليون أو غيره لا يلتفت تماما الى اختلاف النوع وانعدام الصلة حتى ليبدو اغفال الوحى اغفالا كاملا فى دراسته ، ولم يرد اعجاب المسلمين بالرسول وحبهم له دون حدود الى الاسلام نفسه . وانما رده الى شخصية الرسول .

يقول غازى التوبة فى دراسته عن العبقريات : « فلو اقتصر دخول المسلمين على اعجابهم بشخص الرسول وحبهم له وافتتانهم به لانتهت الدعوة الاسلامية بوفاة الرسول عليه الصلاة والسلام أو بعد وفاته ريثما يزول سحر الافتتان ، ولكن الدعوة الاسلامية استمرت قرونا طويلة وما ذلك الا لملاءمة الاسلام للفطرة البشرية التى انجذبت اليه فى زمن الرسول ، ثم استمر الانجذاب فى الأزمان التالية » .

٩ ـ وغاية القول أن اعتماد كتابنا العرب والمسلمين فى النظرة الى النبوة والبطولة فى ضوء تفاسير غربية ، انما يحجب عنهم شيئا كثيرا من الحق . ذلك أن الغربيين عن طريق مفاهيم عقائدهم وفكرهم لا يفرقون بين الألوهية والنبوة بينما نحن نفرق بينهما تماما . كذلك فهم يرون أن الكتب المقدسة كتبها الرسل ، ونحن نؤمن بأن الكتاب المنزل هو وحى من الله ، وليس من عمل النبى .

كذلك فهم يعيشون فى اطار مفهوم الوثنية اليونانية القائمة على

عبادة البطولة ، ورفع الفرد الى مصاف الآلهة وانصاف الآلهة ، بينما يقصر المسلمون العظمة كلها والعبودية كلها لله سبحانه وتعالى . كذلك فهم يجسدون البطولة في تماثيل ، بينما لا يؤمن الاسلام بتجسيد البطولة ، ويركز مفهوم تقديرها في توجيه العمل البطولي نفسه خالصا لله .

وقد رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قيل من ان الشمس كسفت لموت ابنه . واتخذ عمر من الهجرة مبدأ للتاريخ الاسلامي . ولم يجعله شبيها بالأديان الأخرى حين اتخذوا مولد انبيائهم .

١٠ - ان اخطر ما استدرج اليه الكتاب المسلمون والعرب من التبعية للمناهج الغربية في تقدير البطولة او تفسيرها ذلك الاتجاه نحو الوراثة والطبائع الفردية . بينما يقوم منهج تفسير البطولة الإسلامي في ظل الأثر الخطير الذى تحدثه التربية والعقيدة في توجيه الانسان وتحويله من حال الى حال . ومن هنا يبدو خطأ الاعتماد على راى لومبروزو ومدرسته في تكوين البطل ، او العبقرى ، ومن التعسف البالغ رد عظمة ابى بكر وعمر الى ملكاتهم دون تقدير اثر الاسلام في تغيير النفوس ، واعادة تشكيلها مرة اخرى .

لا ريب ان العقيدة الاسلامية هي التي حولت هذه الشخصيات ، واعادت صياغتها من جديد في ضوء التوحيد ، واخرجتها من شخصيتها القديمة ، وان اية مقارنة بين حياة عمر قبل الاسلام وبعده تكشف عن ذلك بوضوح ، كذلك يبدو هذا في نماذج اقل بطولة : يظهر ذلك في تحول الخنساء مثلا . ومن الحق ان يقال : ان هذا الزيف في فرض منهج او مذهب في تفسير النبوة على انها بطولة او عبقرية ، او دعوة الى حرية ، انما هو من اعمال الأيدلوجية التلمودية التى تهدف الى تدمير قيم الوحى ورسالات السماء .

الفصل الرابع
تاريخ الاسلام فى مواجهة التحديات

فى مجال دراسة تاريخ الاسلام فان هناك محاذير كثيرة يقع فيها المحللون والباحثون • واخطر هذه المحاذير هى محاكمة تاريخ الاسلام من خلال مناهج وضعت لتفسير تاريخ امم اخرى لها ثقافتها وعقيدتها وتحدياتها ، بينما لا يمكن فهم تاريخ الاسلام الا بتفسيره وفق منهج أصيل مستمد من عقيدته •

وتتمثل فلسفة للتاريخ الاسلامى على هذا النحو :

مبدأ تاريخ الاسلام « جماعة » لها منهج تستمده من الاسلام : هذه الجماعة كونت المجتمع الاسلامى وتبنت الحضارة الاسلامية وفق مقومات فكرة اساسية قوامها • « دعوة انسانية للعالمين » : الى الحرية والعدل والحق والمساواة •

وفى طريق هذه الحركة الى غايتها فانها تواجه امرين :

اولا : معارضات قوية مضادة تحول بينها وبين طريقها •

ثانيا : هذا المجرى يصيبه بين الحين والحين ركام يعوقه ويسد مجراه •

والاسلام يبدو فى خلال تاريخه فى صورة « كائن حى » له جناحان : فكر وحضارة • متجددا لخلايا يمر بمراحل القوة والضعف خلال حركته الدائبة • وابرز ظواهره : ظاهرة التجدد والتغيير وتصحيح المفاهيم من خلال اطاره الجامع ، يتصل ذلك فى كلا جناحيه : جناح الفكر الذى يتجدد بظهور أعلام الفكر وقادة الرأى • وجناح الحضارة يتجدد بظهور بناة الدول وصناع الاحداث •

نعم : لم يجمد الاسلام امام حركة التاريخ خلال العصور او تطور الحضارات والمدنيات ولم يتوقف عن مدها بتفسيره فى ايمان وقدرة على السير بخطوة التاريخ نفسها بل ربما سبقها خطوات •

(١) تحرير الانسان

والاسلام فى التاريخ : حركة أوسع من الامة العربية او الدول الاسلامية او الحضارة الاسلامية واعمق من الحدود التى تربطه بالسياسة أو تقصره على الحضارة والثقافة ، أو تقيف به عند قيام الدول وسقوطها ، او الفتوحات والحروب ، وانما تتمثل فيه كل هذه القطاعات وتتشابك .

فالاسلام فى الحق هو حركة التاريخ نحو الحرية : تحرير الانسان من بوتقة الظلم واقرار حقوق الافراد والجماعات وتحريرها من الاستعباد ، وبذلك فهو انطلاقة انسانية ، بعيدة المدى ، فى كل الامم والشعوب التى اتصلت به ، سواء من دانت له او اساغت له فكره دون ان تاخذ عقيدته .

ولقد كان لبزوغه فى محيط الأمة العربية معنى واضح الدلالة هو « اصطفاء » هذه الأمة لحمل رسالته ، ومن ثم بعث الرسول من اهلها ونزل القرآن بلغتها ، ومن ثم فلا سبيل لفصل تاريخ العرب عن تاريخ الاسلام منذ فجر الاسلام الى اليوم ، فمنذ بزغ الاسلام ارتبط تاريخ العرب به اوثق رباط ، لقد ظهر فى الأمة العربية اولا ثم فى حياة الرسول حيث دانت الجزيرة العربية له ، فكانت اشبه بالبحيرة العومية التى استمدت منها روافده وفروعه ، كما انبعثت منها الموجات المتوالية المختلفة التى تحركت شرقا وغربا وشمالا ، وجعلته الأمة العربية الى العالم اجمع . وكانت اللغة العربية الفصحى أداة فكره وثقافته ، وحضارته . فالفكر الذى كونته الأمة العربية من خلال جوهر الاسلام ، كان حصيلة مشتركة للمسلمين والعرب جميعا بحيث لا يمكن أن يوصف بانه فكر عربى . وكذلك الحضارة فهى فكر عربى اللغة اسلامى الجوهر وهى حضارة اسلامية شارك فيها الجميع ، وانصهرت فيها مختلف الثقافات الانسانية : هندية وفارسية ومصرية ويونانية ، تبلورت جميعها فى اطار الاسلام وفق مفهومه ومضمونه . وقد شارك فى هذه المرحلة العرب وغير العرب فى مجالات الحضارة والفكر والحكم .

(٢) قـادة الفكـر

وقد رسم الاسلام مفهوم الوحـدة بين معتنقيه والمرتبطـين به على أساس الفكر وليس على أساس الجنس ، ومع دائرة الاخـاء الانسـانى واسقط العصبية والتفرقة العنصرية وجعل أساس التبريز والتفـوق والتفاضل مستمدا من العمل لا من العرق ولا من الشخصية ولا من الوراثة .

ولقد اتسم تاريخ الاسلام بسمات جعلت له طابعه الخاص ومفهومه المتميـز .

ذلك : انه لمـا كان الاسـلام هو دين وفكر وحضارة ومجتمع ، فان التاريخ السياسى فى تاريخ الاسلام هو اقل هـذه الجوانب أهمية حيث تبـدو الجـوانب الضخمة الحافلة بالامجـاد فى تاريـخ الاسـلام الفكرى والعلمى والعقلى وفى مجـال الدراسـات العقلية والفقهية والاجتماعية .

وتتمثل ابـرز جوانـب التـاريخ الاسـلامى فى القـادة والأعـلام والمفكرين الذين بنـوا القاعـدة العريضـة للفكر الاسـلامى مسـتمدة من القرآن : أولئك المصلحون المجـددون ، حمـلة لـواء اليقظـة وتصحيح المفاهيم الذين حفـل بهم تاريخ الاسـلام خلال مـختلف مراحـله وادواره ، وفى هذا المجـال نجـد طبقات الأطباء وأخبار الحكماء والنحـاة والرواة ، والأدباء وطبقات الفقهاء والمؤرخين والاجتماعيين وتاريخ اعيـان كل عصر ، فليس تاريخ الاسـلام اذن تاريخا سياسيا فحسب ، وليس التاريخ السياسى الا جناحا من اجنحته بل ربمـا كان اقلهـا خصوبة وعمقـا واثـرا فى حـركة التاريخ ونمـوه .

(٣) من هو المسـلم

ومن هنا تسقط تلك الشبهة التى يرددها البعض من اقتصـار تاريخ الاسـلام على حياة الخلفاء والملوك ، بـل يتناول مختلف مظاهر حيـاة المجتمع والحضارة .

ويمثل تاريخ الاسلام : حركة تطـور شامل متصل ، وحركة اجتماعية يدفعهـا مفهوم وعقيدة فى مختلف ميادين الحياة . ولا تستوفى دراسة تاريخ الاسـلام الا اذا قامت فى ظل مفهوم جامع شامل ، كما ان اتصالنا بالغـرب اليوم يجب ان يقوم على مفهوم مرحـلة هى رد فعـل لمفهـوم مرحـلة سبقتها ، بحسبان أن هذه الحضارة العصرية الغربية ليست منفصلة عن عالم الاسـلام ، وانما اقامت قواعدها على المنهج التجريبى الاسلامى وعلى بناء صاغه العرب أو المسلمون . فنحن حين نتصل بهـا اليـوم لا نكون غـرباء عن جـذورها ، فهى ملك البشرية كلهـا التى صاغتهـا وشاركت فى تكوين جوانبها المختلفة : فقد قدم الفكر الاسلامى لهذه الحضارة علومه وجامعاته وبنى قاعدتها العريضة فى الأندلس .

فى ضوء هذا المفهوم نستطيع أن نقـول ان لتاريخ الاسـلام « طابعا متميزا » ولذلك فان تفسيره لا يمكن أن يخضع الا لمنهج جامـع ، ليس ماديا خالصـا وليس روحيا خالصا وليس اقتصاديا ، او جنسيا .

فالمسلم كما فهمـه الباحث الغـربى الأستاذ ولفـرد كانتول « يحس بالتاريخ احساسا جادا انه يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الأرض ويؤمن بان الله قد وضـع نظاما عمليا واقعيا يسـير البشر فى الأرض فى اطـاره . ومن ثم فهودائما يعيش كل عمل فردى أو جماعى ، وكل شـعور فردى أو جماعى ، بمقدار قربه أو بعده من واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق » .

(٤) المحـاولات القاصرة

هذه العبارة للكاتب الغربى تقرب من الحقيقة وتكشف عن الفـارق العميق بين فهم المسـلم للتاريخ وبين فهـم الطوائف الأخـرى ، ويتابع (اليان وايد غراى) : هذا المعنى حين يقـول أن وجهة نظر المسلمين للتاريخ هى نظرة بناءة ، فهم يرون أن البشرية اذا اعتنقت تعاليم الوحى (القرآن) فان ارادتها حينئذ تتطابق وارادة الله ، وقـد قدموا افضـل فيلسوف للتاريخ ممثلا بالفيلسوف ابن خلدون وكان هذا الفيلسوف قـد

خلال مرجعات تأثير المحيط والدوافع النفسية التى تعمل عملها فى الحياة الانسانية وتسبب نشوء الحضارات وانقراضها . ونشاهد بوجه عام تيارين يتنازعان السيطرة على أفكار فلاسفة التاريخ المسلمين : المفهوم الحركى والمفهوم القدرى . وكلاهما تظهر بوضوح فى تقلبات القوى الاجتماعية . وعلى العكس من ذلك كان الفلاسفة الهنود قد قطعوا كل صلتهم بما هو وقتى وفسوزى وقدموا تعاليم انهزامية وانعزالية ، والتاريخ بالنسبة لليهودية والهنود ليس الا وهما . ويؤكد الأستاذ تريتون فى كتابه « الاسلام : عقيدته وعبادته » : ان التفسير المادى لا يصلح لفهم تاريخ الاسلام يقول : « اذا صح فى العقول ان التفسير المادى يمكن ان يكون صالحا فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها فان هذا التفسير المادي يفشل فشلا ذريعا حين يرغب فى ان يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات اقدامهم فلم يبق امام المؤرخين الا ان ينظروا فى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة فرأوا أنها تقع فى هذا الشىء الجديد : الا وهو الاسلام » .

وهذا ما نريد أن نصل اليه : فى أن اية محاولة لتفسير تاريخ الاسلام بغير منهج التفسير الاسلامى للتاريخ هى محاولة باطلة . وأن جميع مذاهب التفسير التاريخى : المادية والاقتصادية والجغرافية والمناخية ، لا تستطيع ان تستوعب مفهوم التاريخ الاسلامى . ولكل أمة وعقيدة مقاييسها التى تشكل قانون تفسيرها .

ولذلك فان كل المحاولات التى تجرى الآن لتفسير تاريخ الاسلام من خلال النظريات الغربية هى محاولات قاصرة ، ذلك ان الاسلام الذى يقوم منهجه على تكامل الروح والمادة ، والحياة والموت ، والدنيا والآخرة ، والنفس والجسد والثوابت والمتغيرات والكلى والجزئى ، لا يمكن ان يفسر الكلى بمنهج جزئى سواء أكان ماديا أم روحيا خالصا ، ولذلك فان

هذه المحاولات كلها التى ترمى لأن تضع الاسلام فى صف الديمقراطية مرة ، وفى وصف الاشتراكية مرة أخرى ، وكلها قاصرة . فالاسلام له ذاتيته الخاصة وتكوينه الجامع المتفرد الذى قد يلتقى مع جانب من هذا أو ذاك ولكنه لن يكون الا هو وحده الذى تعجز المناهج المادية ونظريات التفسير الجزئية عن استيعابه وفهمه .

(٥) حملات التغريب

كذلك واجه التاريخ الاسلامى حملة ضخمة من حملات التغريب والغزو الثقافى تستهدف اثارة الشبهات والشكوك حوله ، بقصد وضعه موضع الازدراء والانتقاص فى نظر اهله وحتى يفقد اهميته من حيث انه قوة انبعاث ويقظة ، وقد حرص التغريب على اختلاق تاريخ اسلامى منفر عسى أن ينتزع من المسلمين ثقتهم فى ماضيهم الاسلامى وفى انفسهم كمسلمين ويسلخهم من تراثهم الفكرى وتاريخهم الاسلامى فيصبحون بلا ماض ، فتضعف معنوياتهم وتسهل السيطرة عليهم عسكريا واقتصاديا وقد جرت المحاولات لاحلال مناهج الغرب فى تفسير التاريخ بديلا للدراسات الاسلامية وفرضت كتب الغرب فى المدارس والجامعات وجعلت مناهج الغرب فى دراسة التاريخ هى الجواز الى تخريج المؤرخين العرب والى وضعهم موضع الصدارة .

وقد حفلت هذه الدراسات بالتطاول على أعلام الاسلام وقادته ونوابغه والتشهير بهم فى كل عصر عن طريق تزييف طائفة من الاخبار المشكوك فيها والقصص اعتمادا على مصادر غير أصيلة أو مطعون فى صحتها لالتماس هذه الشبهات .

وهناك محاولة أخرى فى حاجة الى الكشف عنها ودحضها : تلك هو

محاولة القول بان تاريخ الاسلام هو الاسلام نفسه ، والواقع ان التاريخ الاسلامى ليس بالضرورة ممثلا للاسلام ، وانه لابد من التفرقة الواسعة بين مبادىء الاسلام الربانية الثابتة المثلة فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة وبين التجربة التى قام بها الحكم الاسلامى والتي قد تلتقى مع مبادىء الاسلام فى بعض المراحل وقد تختلف عنه حين يذهب قادة المسلمون بعيدا عن منهج الاسلام .

ولا ريب أن هناك نفرا ممن تولوا زمام الحكم فى الدولة الاسلامية بعد الخلافة الراشدة بعدوا عن « منهج الاسلام » فمن غير الحق ان يصور ملوك هؤلاء الحكام على انه هو الاسلام نفسه ، واهم ما فى ذلك الفهم الخاطىء من محاذير هو محاولة نسبة الاستبداد الى الاسلام ، ومحاولة الاستشراق تبرير الاستبداد بالاسلام نفسه حيث يقول بعضهم وهو كاذب : ان نظام الحكم فى الاسلام نظام استبدادي ونسي هؤلاء ان للاسلام مبادئه الواضحة التى تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم لمصلحة المحكوم نفسه .

(٦)
حقائق التاريخ

كذلك فان التفسير التاريخى الغربى (المادى المصدر) يعجز عن استيعاب حقائق التاريخ الاسلامى التى تعلو على التصور المادى ، فسرعة انتشار الاسلام على هذا النحو المذهل وتمكنه خلال فترة تقل عن قرن من ان يبسط جناحيه من حدود الصين الى حدود فرنسا ، هذا فى تقدير التفسير الغربى مشكوك فيه لأن الفكر الغربى لا يؤمن بأثر الايمان العميق القادر عن طريق الارادة الانسانية على التغيير الواسع ، كذلك يعجز التفسير الغربى عن فهم واستيعاب قاعدة إسلامية إساسية هى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » ذلك ان التقدير المادى يرى ان الكثرة العددية هى الغالبة ابدا بينما يجعل الاسلام من الايمان قوة جديدة مضاعفة الى قوة العدد والعدة ، وقد اكدت الفتوح الاسلامية

هذه الظاهرة بما لا يدع مجالا للشك ، وقد ثبت فى مختلف الغزوات والمعارك التى خاضها المسلمون أن عددهم فيها كان أقل من عدد خصومهم بمراحل ، وان عدد عدوهم كان مضاعفا أكثر من مرة بل مرات ، فالنصر هنا يرجع إلى عنصر الايمان الذى لا يعتد به فى الحساب عند التفسير الغربى للتاريخ ٠

وهناك ظاهرة من التعصب ترجع الى الاختلاف بين الاديان وتفسيراتها للحياة ، ومن اختلاف وجهات النظر ومن الصراع القائم بين الشرق والغرب ومن وجهة نظر الاستعمار التى ترى أن الغرب هو الجنس الابيض معدن البشرية وأن بلاد الاسلام هى العناصر الملونة التى يرى انها أقل فى الدرجة والقدرة والكفاية ٠ ومن خلال نظرة الاستعلاء العنصرى والتعصب الغربى تجرى تفسيرات خاطئة فى مقدمتها الادعاء بأن انتشار الاسلام انما جاء بالسيف ، وهى دعوى مبطلة ، والحق أن الاسلام لم يرفع السيف الا دفاعا عن كيانه حين يتعرض وجوده للخطر ، وذلك فى مقاومة محاولات المتامرين عليه ٠

وهكذا نجد ان الاسلام فى عقيدته وحركته لـه ذاتيته الخاصة التى تعجز عن استيعابها النظريات الجزئية ٠

ومن هنا فلابد أن يكون للتاريخ الاسلامى تفسيره الاصيل ٠

الفصل الخامس

(١)

اخطاء فى كتابة التاريخ الحديث

تعرض التاريخ الحديث لموجات من التحليل والتفسير اختلفت باختلاف المدارس التاريخية الغربية التى حاولت أن تصدر احكاما من وجهة نظرها ٠ أولا ، الغرب : وخاصة فيما يتعلق بتاريخ الاسلام وعلاقات المسلمين بالغرب ، صدرت هذه الاحكام تحت تاثير طابع الاستعلاء الغربى فى النظر الى الاشياء وتفسيرها ، ومن حيث النظرة المستمدة من غرب حاكم مسيطر

ومستعمر على عالم الاسلام الذى وقع تحت تاثير النفوذ الغربى منذ شقطت الدولة الاسلامية فى الهند تحت النفوذ البريطانى وسقطت منطقة ارخبيل الملايو تحت النفوذ الهولندى . بل يرجع الى أبعد من ذلك ، عندما تدافعت قوات أسبانيا والبرتغال لضرب المغرب العربى والزحف على غرب أفريقيا فى بدء مرحلة يمكن أن يطلق عليها جولة الاستعمار الغربى الحديث التى وصفها الغرب بانها تتمة للحروب الصليبية التى سبقتها باكثر من ثمانمائة عام ، ولقد كان من شان هذا الصراع بين عالم الغرب وعالم الاسلام أن شكل من خلال حركة الاستشراق مفهوما خاطئا وتفسيرات متعصبة لحركات الاسلام الحديث ومراحل تاريخه ، فقد صدرت هذه المفاهيم وهذه التفسيرات من وجهة نظر الغرب القائمة على التعصب والخلاف والخصومة ، فهى ليست خالصة لوجه الحق ، وانما يغلب عليها الهوى والحقد ، هذا فضلا عن أن مقاييس التفسير التاريخى الغربى ، هى مقاييس مستمدة من التاريخ الغربى نفسه ، ولذلك فهى ليست صالحة لتفسير التاريخ الاسلامى الذى يستمد قوانين تفسيره من اصوله ومقوماته ، ولا ريب أن هناك خلافا عميقا بين اصول التاريخ الغربى ومقوماته التى تقررت عليها مقاييس تفسيره : ترجع هذه الاصول الى العقيدة والثقافة والتاريخ القديم ، ولا ريب ان التاريخ الغربى يتصل اتصالا عميقا بمفاهيم الوثنية اليونانية والعبودية الرومانية والتفسيرات المسيحية ، وهذه كلها تشكل نظرة خاصة الى الاوضاع والاحداث والمواقف ، ومن هنا فهى تختلف اختلافا عميقا عن اصول التاريخ الاسلامى التى تقوم على أساس عقيدة التوحيد والنبوة والبعث ومسئولية الانسان والتزامه ومفاهيم الاخاء الانسانى والعدل والرحمة . وفى اطار المنهج الذى قدمه القرآن الكريم والذى يختلف بل ويتعارض مع تفسيرات العقيدة والقيم التى تقررت فى الفكر البشرى المختلط ، وخاصة فيما يتعلق باضطراب مفاهيم العقائد اليهودية والمسيحية ، وهى التى تشكل الاساس الاول للثقافة والفكر الغربى . ويتجلى هذا الاختلاف فى تفسير التاريخ الاسلامى

حيث يقوم الاستشراق بتطبيق مقاييس غربية مختلفة كل الاختلاف عن مبادىء وقيم الاسلام التى تتشكل من خلال مفهوم جامع بين الروح والمادة والقلب والعقل ، والدنيا والآخرة ، بينما تقوم مفاهيم الغرب على التفسيرات المادية الخالصة التى لا تستطيع أن تستوعب التوحيد والوحى والنبوة وآثار الجوانب الروحية والمعنوية فى قيام الدول فى أماكن قصيرة وانتصار الجيوش بالعدد الاقل وانتشار الاسلام ذاتيا ، كل هذا يستدعى من الباحثين اعادة النظر فى هذه التفسيرات .

١ ـ لتكون الحقيقة اكثر جلاء ووضوحا .

يجب التفرقة بين حكم العثمانيين للعرب وبين حكم الاتحاديين والتفرقة بين حكم المماليك فى مراحله الاولى وبينه فى مراحله الاخيرة .

٢ ـ القول بان الاتراك سبب تأخر العرب قول مردود .

لقد كان الحكم العثمانى فى البلاد العربية مختلفا عن الحكم الاستعمارى ذلك لأن الترك انفسهم كانوا متاخرين فى العلوم والفنون .

٣ ـ خطأ القول بأن الاتراك هم الذين سيطروا على البلاد العربية واحتلوها فقد كان دخول العرب فى الدولة العثمانية فى النصف الأول من القرن ١٦ بمثابة التقاء الجزء بالكل والتئام الاجزاء الضعيفة مع الجزء الاقوى لصد خطر الافناء الصليبى الذى صاحب مطالع عصر الاستعمار واكتشاف رأس الرجاء الصالح .

ولا ريب أن ارتباط العرب بالترك كان عاملا هاما ، فى تأخير سقوط البلاد العربية فى قبضة الاستعمار الغربى اربعة قرون ، وكان مصدر صمود الجبهة فى مواجهة ضربات أوربا .

٤ ـ فساد مفهوم الاصلاح المنقول من اصلاح المسيحية باعتبارها قامت على تفسيرات بشرية جعلتها غير قادرة على مواجهة تغييرات الأزمنة والبيئات .

اما الاسلام فانه لا يقر الاصلاح بمفهوم تعديل مقررات الشريعة الاسلامية الثابتة ، وكلمة التجديد أقرب الى مفهوم الاصلاح « ان الله يبعث لهذه الأمة على راس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » والتجديد هنا هو العودة الى المنابع . ومصطلحات الاصلاح والتطور والتجديد بمفهوم ممالأة الاستعمار الغربى فى تغريب الاسلام أو تمسيحه هى مصطلحات باطلة .

كذلك لا ينطبق على الاسلام مفهوم التطور لأن التطور مرتبط بالمناهج البشرية القاصرة التى سرعان ما يتجاوزها الزمن فتحاول اصلاح نفسها بالتطور . أما المنهج الاسلامى الربانى فانه قادر على العطاء فى مختلف العصور والبيئات وهو منهج مرن واسع الجنبات قادر على العطاء والاستجابة مع تغير الأوضاع .

٥ - فساد محاولة القضاء على فريضة الجهاد على النحو الذى تقدمه القاديانية والبهائية بهدف ايقاف الكفاح ضد المستعمر والغاصب وهى محاولة لتغريب الاسلام وتمسيحه واعطائه طابع الغاندية والتولستوية الذى لا يمثل مفهوم الاسلام .

وتعد محاولة على عبد الرازق ، والقاديانى ، وأحمد خان ، والبهاء محاولات باطلة تستهدف تغيير مفهوم الاسلام الأصيل .

وقد حاول على عبد الرازق الادعاء بأن الخلافة ما كانت الا ملكا او سلطانا وأما النبوة فليست حكما ولا ملكا . وقال أن الملك الذى شيده النبى ﷺ عمل دنيوى لا علاقة له بالرسالة وأما زعامة الرسول فليست الا زعامة دينية وهذا فهم باطل للاسلام الجامع بين الدين وبين نظام المجتمع .

وقد جرت محاولات النفوذ الاجنبى لضرب حركات التحرر الاسلامية والقضاء عليها .

١ - القضاء على ثورة المسلمين فى الهند .

٢ - القضاء على ثورة الامير شامل فى القوقاز .

٣ - تحطيم القـوة المصرية فى نفارين .

٤ - تحطيم القوة الوهابية الصاعدة فى الجزيرة .

كما جرت محاولة تمـزيق وحـدة العـالم الاسـلامى الى قوميـات واقليميات ، بدات هذه المحـاولة قبل الغـاء الخـلافة فانقسم المسـلمون الى نحـو سبعين جنسية وفرقة كل منها معزولة عن الاخـرى ومحبوسـة وراء فواصـل مادية وأدبية لا حصر لهـا .

(٢)

قضى الاستعمار على الزعامات الاصيلة التى كانت مفاهيمها تربط بين الوطنية والاسـلام بمفهومه العام وكانوا يرون كفاح الاستعمار جزءا من النضـال فى سبيل الله وصنع مدرسة اخرى من تلاميذ الاستعمار هم الذين قاموا بحركاتهم فى دائرة الاستعمار وفكره ومنهجه الداعى الى قبول الأمور الواقعة ثم المطالبة والذين كانوا مبهورين بالحضارة الغربية ، ومعجبون بأوليـاء الاستعمار متعاونون معهم .

وقد كانت معركة الجزائر تختلف عن ذلك فقد قامت على اسـاس مفهـوم الجهاد فى الاسلام ، ولولا انهم أكدوا ذلك لمـا استشهد منهم مليون شهيد ، فالشعب الجزائرى لم يدع لخوض المعركة التحـريرية الا باسم الاسـلام ولولا ذلك لمـا استطاع ان يحمل فى هذا العصر لـواء المقـاومة للاستعمار المدجج باحدث الاسلحة ، ولكن التجربة لم تكتمل فقد خشيت أوربا مغبة هذا الاتجـاه ، ولذلك فقد أجهض قبل ان يقيم الجزائريون دولة اسـلامية .

ان تجربة الجزائر أعادت القيم الاسـلامية الى الظهور مرة اخـرى بعـد صلاح الدين وبعد أن غابت عن مسرح الحياة الانسانية سنوات طويلة

ولا يمكن ان يتحقق تحرير القدس الا بمثل هذا الاسلوب الذى تحول كل القوى دون تحقيقه ٠

وقد كان الاستعمار والنفوذ الأجنبى حريصا على اجهاض الاتجاه الاسلامى فى الجهاد حتى لا يؤدى الى مواجهة عقائدية مع النفوذ الأجنبى ، وقد خدع مصطفى كمال الاتراك العالم الاسلامى حين حمل القرآن ودعا الى حرب اليونان ثم كانت جولته فى مواجهة اسقاط الاسلام والغاء الخلافة ٠

(٣)

انطلقت فكرة الدولة الباكستانية من مفهوم الاسلام ولكن الدولة الباكستانية لم تقم عليه ، فقد حالت حوائل كثيرة دون تحقيق هذه الغاية ، بل ان المدرسة التى كان راسها محمد على جناح لم تكن الا مدرسة غربية شبيهة بالمدارس التى كونها النفوذ الاجنبى فى البلاد العربية ، فقد كان من المؤمنين بالليبرالية الغربية ٠

قال الأستاذ المودودى : أنه بالرغم من ان هذه الحركة (حركة جناح) تثار باسم الاسلام ولكنها ليست حركة اسلامية وطرح نظرية العمل الاسلامى الصحيح وهو أن ينتشر الاسلام أولا حتى اذا ما انتصر الدين الاسلامى فى أعماق الجماهير فان هؤلاء المسلمين سيقيمون الاسلام فى الهند كجزء من عقيدتهم ٠ وقال غلام اعظم (أمير الجماعة الاسلامية فى باكستان الشرقية) بما أن هذه الحركة لم تتبلور كحركة اسلامية فان غالبية قادتها منذ قيام الباكستان تنكروا لمفهوم الاسلام ، لقد قامت باكستان على تصور اسلامى ولكنها بعد تاسيسها لم تتخذ هذا التصور وبالتالى لم يترسخ فى أعماق الجيل الجديد ولذلك حينما بحث هذا الجيل عن قومية وجدت الاقليمية طريقها الى تفكيره ٠

(٤)

طرحت عناصر مختلفة فى افق كل بلد عربى او اسلامى :

١ - عنصر قديم متصل بالتاريخ السابق للاسلام ، ففى مصر الفرعونية وفى الشام الفينيقية وفى العراق الاشورية ، وفى المغرب البربرية ، وفى الهند الاسلامية : الهندوكية القديمة . وفى ايران تاريخ كورش والمجوسية القديمة وفى تركيا الطورانية وتاريخ الذئب الاغبر وكلها محاولات للعودة الى القديم البالى الذى حطمه الاسلام .

٢ - عنصر قومى واقليمى متصارع ، كالمصرية ، او السورية والعراقية تحاول ان تلتقط من التاريخ صفحات ومراحل وشخصيات فى محاولة لتقسيم اعلام الفكر الاسلامى الى عرب وفرس وترك ، والى مصريين وسوريين وعراقيين .

٣ - عنصر غربى اوربى (فرنسى ، بريطانى او امريكى) ، وعنصر ليبرالى او ماركسى . ووراء كل عنصر من هذه العناصر مفاهيمه ، فالبلاد التى خضعت لفرنسا ابان الاحتلال مازال ولاؤها الثقافى للفكر الفرنسى (لاتينى) والبلاد التى خضعت لانجلترا مازال ولاؤها (سكسونى) وقد قامت الصراعات بين اللاتينية والسكسونية ، وبين الولاء للغة الانجليزية والفرنسية ، وبين الولاء الغربى نفسه فرنسى ، وانجليزى ، وامريكى من خلال الثقافة والترجمات .

ثم جاء الصراع الآخر بين الايدلوجيات : الراسمالية الغربية والماركسية السوفيتية ، وما يتصل باتباع هاتين الايديولوجيتين .

والهدف هو الحيلولة دون قيام وحدة اسلامية اصيلة مستمدة من القرآن واللغة العربية والاسلام . والغاية هى الصراع بين المدارس والمناهج .

(٥)

لمـا كان الغربيـون يرون فى ابطال النضال الوطنى خصوما لهم لانهم قاوموهم ومزقوهم فانهم يحـاولون أن يسموهم باشـياء زائفة . فالرئيس حميدو القائد الجزائرى المشهور الذى أخضـع دول أوربا بالبأس للجزائر وسلطانها حتى كان الأوربيـون يؤدون للجـزائر مغرما سـنويا وكانوا لا يدخلون هذا البحر المتوسط دون أن يعطوا الجزية ، هذا القائد البطل يصفه المؤرخـون الفرنسيون بانه قاطع طريق ويلنه هو وأصحابه الأبطال قرصان متوحشـــون .

(٦)

ان ظهور سعد زغلول (مصر) ومصطفى كمال (تركيـا) ورضا شـاه (ايـران) فى مرحلة واحـدة بعد الحرب العالمية الأولى كان يستهدف القضاء على صيغة العالم الاسلامى الاسلامية وارسـاء مفاهيم الاقليمية والقوميات الوافدة ، والوطنية الضيقة ، والقضاء على الوحدة الاسلامية والخـلافة ، بل ان بعض المؤرخين يردون هذه المحاولة الى محمد على الذى فتح البـاب لأول مرة لمام الحكومة العلمانية التى حطمت نظام الحكم الاسـلامى وقد سجل السيد رشيد رضا هذه الظاهرة فقال أن لمحمـد على ثلاثة أعمال كبيرة كان كل منها موضع خـلاف :

أولا : تاسيس حكومة مدنية فى مصر (اى علمانية) كانت مقـدمة لاحتـلال الأجانب لـه .

ثانيا : قتاله الدولة العثمانية بما أظهر به للعالم كله ولدول أوربـا خاصـة ضعفها وعجزها وجراهن على التدخل فى امور سياستها .

ثالثا : مقاتلة الوهابية والقضاء على ما نهضوا به من الاصلاح الدينى فى جزيرة العرب فى مهد الاسلام وأحد معاقله .

وان محمد على هو أول من تجرأ فى العالم الاسلامى على استبدال

القوانين الاوربية بالشريعة الاسلامية ، ولا ينسون قتاله لخليفة المسلمين مما يعد حرابة ، ولا ينســون أن (توفيق) هو الذى تآمر على ثورة عرابى واستدعى الانجليز لاحتـلال مصر واحتمى بجيشـهم بعـد ان عاهـد جمال الدين على تطبيق حكم الشورى بمصر ثم نفـاه وزعم انه رئيس عصابة من المفسدين .

ويعد هذا فى تقدير الباحثين هو التمهيد لمـا قام به سعد زغلول فى مصر وكمال أتاتورك فى تركيـا ورضـا شـاه وابنـه محمد فى ايران فى محاولة تغريب مصر وتركيا وايران .

(٧)

ظهرت دعاوى باطلة تحـاول ان تصور العالم الاسلامى وكأنه قبل الاحتـلال الغربى كان فى سبات عميق ، وانه تجمد فى القرون الوسـطى وأن أوضاعه السياسية والاجتماعية كانت فاسدة وانه لم ينهض الا حين نهض بـه النفـوذ الأجنبى وأن الحمـلة الفرنسية على مصر هى بـدء يقظـة الارساليات الأجنبية وهى التى حققت له الصحوة .

كذلك شوه الاستعمار حركات اليقظة التى قامت قبل قدومه وادعى أنهـا لم تحقق شيئا بينما كانت البـلاد العربية والاسلامية قبل الاحتـلال على درجة عالية من الوعى السياسى والاجتماعى وكانت بها نظم سياسـية جيدة ، مثل ما كان فى مصر وكانت الحيـاة الحضـارية والثقافة فى أوج التقـدم فى مختلف مناطق أفريقيـا التى احتلهـا الاستعمار البريطانى والفرنسى وحاول تشويه ثقافتها وحضارتها وأطبق عليهـا بنفـوذه وثقافته ليزيل الوجـود الاسلامى العربى بها .

ولا شك أن الأزهر كان حافلا بحركات اليقظة قبل الحملة الفرنسية وكانت الجزيرة العربية (فى نجد ومنطقة الخليج) فى أوضــاع ثقافيـة واجتماعية طيبة بدعـوة الامام محمد بن الوهاب . وقد جـاء احتـلال

الجزائر بعد فترة من انجازات ضخمة كان لها شأنها لولا الاحتلال الفرنسى الذى اعاد البلاد الى العبودية الفكرية والسياسية ثم جاء التدخل الأجنبى بعد أن أوشكت هذه الحركات على النجاح فاجهضتها وادخلتها فى الصراع مع بعضها البعض بقصد ضرب بعضها ببعض والقضاء عليها .

ولا ريب أن الحركات الوطنية والفكرية فى مصر وتونس عبر القرن التاسع عشر قد الزمت الفئات الحاكمة على الشورى والعدل وتمكنت من الحصول على مزيد من حرية العمل والفكر ، ووضع أسس دستورية وتشريعية كانت كفيلة بالمساهمة الشعبية فى الحكم ، بل أن هذه الحركات الاصلاحية قبل الاحتلال الأجنبى كانت تستمد مفاهيمها من الأصول الاسلامية فى تحديد وجهتها ، غير أن النفوذ الأجنبى قد حطم هذه المحاولات كلها ، ووضع البلاد الاسلامية فى دور التبعية الكاملة لنفوذه وقوانينه تحت أسماء الانتداب والوصاية بادعاء أن أهالى هذه البلاد لم يكونوا على أى قدر من الوعى السياسى ، وكان فى ذلك كاذبا ومضللا ذلك لأنه كان يطمع فى القضاء على تلك الروح الاسلامية الأصيلة فى الاصلاح ، وكان يهدف الى القضاء على هذه المدرسة الاسلامية فى السياسة والحكم والاجتماع ، وبناء مدرسة من أوليائه التابعين الخاضعين المزيفين ، الذين يوالون سيطرته ويقبلونها ويعجبون بها ويلتمسون بقاءها ليستمر بقاؤهم ، من هؤلاء سعد زغلول فى مصر وعدد كبير من الحكام الذين انشئوا فى مدارس الارساليات وعملوا على تثبيت دعائم الاستعمار ، ثم تحولت التنظيمات السياسية والاجتماعية والتربوية فاقتبست الأنظمة الغربية والقوانين الوضعية فأفسد ذلك المجتمع الاسلامى افسادا تاما . حيث انتشرت عوامل الفساد الاجتماعى نتيجة حجب الشريعة الاسلامية بحدودها فى الربا وفى العلاقات الاجتماعية وغيرها وفتح باب الاستدانة والرشوة والفساد الخلقى لتمكين الغاصب من عصر هذه الشعوب والحصول على ثمرات نتاجها .

وهنا حجبت القوى الغالبة أهل الأصالة والحق عن مواقع القيادة وسمحت للقلة الموالية للغرب أن تسيطر . وظهر من يدعو الى تبنى فكرة ارتباط العالم الاسلامى بالحضارة الأوسطية والغرب ، وتبنى الولاء الغربى وانكار الأصول الاسلامية والعربية فى العلاقات والثقافة والعقائد والاعراق وظهرت تلك الدعوات الاقليمية ، والقوميات الوافدة ، والوطنية ولخذت البلاد الاسلامية تطبق على فكرها ومجتمعها مقاييس الاستعمار ومعاييره فى مفهوم التقدم والتخلف ، وفى التنظيمات الاجتماعية والسياسية .

وكانت هذه المحاولات كلها ترمى الى تمزيق وحدة الفكر الاسلامى والجامعة الاسلامية التى تقوم على الاسلام والقرآن والتوحيد .

(٨)

حاول كتاب الغرب تفسير التاريخ الاسلامى تفسيرا ماديا واقتصاديا وغفلوا عن جانب المعنويات والقوة الروحية والايمان الذى كان عاملا أساسيا فى النصر الذى حققه المسلمون بالاعداد القليلة على القوى الكبيرة وباندفاع هذه القوى التى لم تكن تملك من التكنيك العسكرى أو العدة والعدد ما يوازى عشر معشار ما يملكه عددهم ، ثم انتصارهم عليها ، واذا نظرنا نظرة عامة قلنا أن عدد المسلمين فى المعارك الاسلامية لا يزيد عن مائة الف مقاتل فتحوا فى ثمانين عاما ثلاثة أرباع المعمورة . وهذا هو المد الذى لم يشهد له التاريخ مثيلا من قبل ، وهذه الظاهرة هى التى ازعجت أصحاب مقاييس التفسير المادى للتاريخ عن معرفة السر فى هذه المعجزة .

ولقد جاءت محاولات تفسير هذه الظاهرة تحمل طابع الجهل بالجوانب الروحية والمعنوية وأثرها البعيد فى التغيير ، أو طابع الحقد الدفين فى هذا النفوذ الاسلامى فى مواجهة الارض التى كانت خاضعة للرومان .

ان دعوى القول بان العرب خرجوا من جزيرتهم تحت ضغط الفاقة والحاجة لا يمكن ان تكون اجابة صحيحة لهذه الروح من الايمان والاستشهاد وعدم المبالاة بالغنائم ، ان الوقوف عند هذا التفسير بالعامل الاقتصادى وحده لا يمكن ان يوصل الى الحقيقة : ولقد اجاب المجاهدون المسلمون انفسهم عن هذا التساؤل حين قال رستم للمغيرة بن شعبة : قد علمت انه لم يحملكم على ما انتم فيه الا ضيق المعاش وشدة الجهد ونحن نعطيكم ما تشبعون به .

قال المغيرة : ان الله بعث الينا نبيه ﷺ فسعدنا باجابته واتباعه وامرنا بجهاد من خالف ديننا حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ونحن ندعوك الى عبادة الله وحده والايمان بنبيه فان فعلت والا فالسيف بيننا وبينكم .

وقال ربعى بن عامر : اتيناكم بامر ربنا نجاهد فى سبيله وننفذ امره وننجز موعوده وندعوكم الى الاسلام وحكمه فان اجبتمونا تركناكم ورجعنا وخلفنا معكم كتاب الله وان ابيتم لم يحل لنا الا ان نعاطيكم القتال او تفتدوا بالجزية فان فعلتم والا فالله قد اورثنا ارضكم وابناءكم واموالكم فاقبلوا فوالله لاسلامكم احب الينا من غنائمكم ولقتالكم بعد احب من صلحكم » .

ومن المؤسف ان تصور غزوات الاسلام التى كانت مثلا عاليا فى الرحمة والخلق بانها اعمال السلب والنهب .

واذا كان العامل الاقتصادى هو واحد من جملة عوامل فى تفسير التاريخ فان ذلك يكون قريبا من الواقع ، غير ان وقائع التاريخ كلها تشهد بان منازعات الامم وحروبها ترجع فى اغلبها الى الدين والاعتقاد وان محاولة قصر عوامل التاريخ على الاقتصاد لا تنطبق على التاريخ الاسلامى بل لا تنطبق ايضا على التاريخ الاوربى .

فهرس

رقم الايداع ٣٢٤٣ لسنة ١٩٨٩

الترقيم الدولى ٢ ـ ٦٧ ـ ١٦٠٠ ـ ٩٧٧

مطـابع سـجل العـرب